

المقدمة للملازمة ابن خلدون

من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب
والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السطان
الأكبر وهو تاريخ وحيد عصره
الملازمة عبد الرحمن

ابن خلدون المغربي

رحمه الله

آمين

طبع

﴿ على نفقة مدير ادارة مطبعة الشرفية حضرة ﴾

﴿ المحترم السيد حسين شرف ﴾

صحيفة	صحيفة
٢٩٩	المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة
٣٠١	فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها
٣٠٣	فصل ومن مذاهب اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم الخ
٣٠٥	فصل ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتا كده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم الخ
٣٠٦	فصل وبلغنا ان ام الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام
٣٠٦	فصل وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم الخ
٣١١	فصل في الجباية وسب قتلها وكثرتها
٣١٢	فصل في ضرب المكوس او اخر الدولة
٣١٣	فصل في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية
٣١٦	فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة
٣١٧	فصل ولما يتوقعه اهل الدولة من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم يتزعون الى الفرار عن الرتب والتخاص من رتبة السلطان الخ
٣١٩	فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
٣١٩	فصل في ان الظلم مؤذن بحراب العمران
٣٢٢	فصل ومن اشد الظلمات واعظمها في فساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق
٣٢٣	فصل واعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على اموال الناس بشراء ما بين أيديهم بالبخس الاثمان
٣٢٤	فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وانه يعظم عند الهرم
٣٢٥	فصل في انقسام الدولة الواحدة

صفحة	صفحة
في الب لدان والامصار وساثر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق	بدولتين ٣٢٧ فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع
٣٨٣ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك	٣٢٨ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة
٣٨٥ فصل في أن الملك يدعوا الى نزول الامصار	٣٢٨ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع
٣٨٦ فصل في أن المدن العظيمة والهيا كل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير	٣٣٣ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بانطاوله لا بالمتاجزة
٣٨٧ فصل في أن الهيا كل العظيمة جدا لاستقل بنائها الدولة الواحدة	٣٣٦ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة النوتان والمجاعات
٣٨٨ فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة	٣٣٨ فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره
٣٩١ فصل ومسايراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين امة من الامم الخ	٣٤٧ فصل في أمر العاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك
٣٩١ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم	٣٦٨ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر
	٣٨٣ الفصل الرابع من الكتاب الاول

صحيفة	صحيفة
في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها	٤٠٠ فصل في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة
٤١٢ فصل في حاجات التمويل من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة	٤٠١ فصل في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول
٤١٢ فصل في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها	٤٠٢ فصل في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
٤١٦ فصل في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده	٤٠٢ فصل في مبادئ الخراب في الامصار
٤١٩ فصل في ان الامصار التي تكون كراسي للامك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها	٤٠٣ فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهاها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة
٤٢٢ فصل في وجود العصية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض	٤٠٦ فصل في اسعار المدن
٤٢٤ فصل في لغات اهل الامصار	٤٠٨ فصل في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
٤٢٥ الفصل الخامس من الكتاب الاول في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل	٤٠٩ فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقير مثل الامصار
٤٢٦ فصل في حقيقتة الرزق والكسب	٤١١ فصل في تأمل الممار والضباع

صحيفة	صحيفة
واصنافها	وشرحهما وان الكسب هو قيمة
٤٤١ فصل في أى أصناف الناس يحترف	الاعمال البشرية
بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب	٤٢٧ فصل في وجوه المعاش واصنافه
حرفها	ومذاهبه
٤٤٢ فصل في أن خلق التجارة نازلة	٤٢٩ فصل في أن الخدمة ايسر من
عن خاق الاشراف والملوك	المعاش الطبيعي
٤٤٣ فصل في نقل التاجر للمع	٤٣٠ فصل في أن ابتغاء الاموال من
٤٤٤ فصل في الاحتكار	الدفن والكنوز ليس بمعاش
٤٤٥ فصل في أن رخص الاسعار مضر	طبيعي
بالمحترفين بالرخص	٤٣٥ فصل في ان الجاه مفيد للعمال
٤٤٦ فصل في أن خاق التجار نازلة عن	٤٣٦ فصل في ان السعادة والكسب
خلق الرؤساء وبعيدة من المرواة	انما يحصل غالبا لاهل الخضوع
٤٤٧ فصل في أن الصنائع لا بد لها من	والتماق وان هذا الخاق من
المعلم	اسباب السعادة
٤٤٨ فصل في أن الصنائع انما تكمل	٤٤٠ فصل في ان القاعين بعمور الدين
لكمال العمران الحضري وكثرته	من النصاء والفتيا والتدريس
٤٤٩ فصل في أن رسوخ الصنائع في	والامامة والخطابة والاذان ونحو
الامصار انما هو برسوخ الحضارة	ذلك لا معظم ثروتهم في الغالب
وطول أمدها	٤٤١ فصل في ان الفلاحة من معاش
٤٥٠ فصل في أن الصنائع انما تستجد	المستغنين واهل العافية من
وتكثر اذا كثر طالبا	البدو
	٤٤١ فصل في معنى التجارة ومذاهبها

صحيفه	صحيفه
صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب	٤٥١ فصل في أن الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع
٤٧٩ الفصل السادس من الكتاب الاول في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولو احق	٤٥١ فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع
٤٧٩ فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشرى	٤٥٢ فصل في ان من حصات له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكه اخرى
٤٨٠ فصل في ان التعليم للعلم من جهة الصنائع	٤٥٣ فصل في الاشارة الى امهات الصنائع
٤٨٤ فصل في ان المعلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة	٤٥٣ فصل في صناعة الملاحه
٤٨٥ فصل في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد	٤٥٤ فصل في صناعة البناء
٤٨٧ علوم القرآن من التفسير والقرآت	٤٥٨ فصل في صناعة النجارة
٤٩١ علوم الحديث	٤٥٩ فصل في صناعة الحياكة والخياطة
٤٩٧ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض	٤٦٠ فصل في صناعة التوليد
٥٠٣ علم الفرائض	٤٦٣ فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية
٥٠٥ اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات	٤٦٦ فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الاساسية
	٤٧٠ فصل في صناعة الوراقه
	٤٧٢ فصل في صناعة الغناء
	٤٧٨ فصل في أن الصنائع تنكسب

صحيفة	صحيفة
طب ينسونه في غالب الامر على	٥١١ علم الكلام
تجربة قاصرة على بعض الاشخاص	٥٢١ علم التصوف
الح	٥٣٠ تعبير الرويا
٥٥١ الفلاحة	٥٣٣ العلوم العقلية وامنائها
٥٥١ علم الالهيات	٥٣٧ العلوم العددية
٥٥٣ علوم السحر والطلسمات	٥٣٨ ومن فروع علم العدد صناعة
٥٦١ فصل ومن قبيل هذه التأثيرات	الحساب
الفسانية الاصابة بالعين	٥٣٩ ومن فروعه الجبر والمقابلة
٥٦١ علم اسرار الحروف	٥٤٠ ومن فروعه ايضا المعاملات
٥٦٥ ومن فروع علم السيمياء عندهم	٥٤٠ ومن فروعه ايضا الفرائض
استخراج الاجوبة من الاسئلة	٥٤١ العلوم الهندسية
٥٦٨ الكلام على استخراج نسبة	٥٤٢ ومن فروع هذا الفن الهندسة
الاوزان وكمياتها ومقادير المقابل	المخصوصة بالاشكال الكرية
منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة	والمخروطات
الى موضع المعلق من امتزاج طبائع	٥٤٣ ومن فروع الهندسة المساحة
وعلم طب او صناعة الكيمياء	٥٤٣ المناظر من فروع الهندسة
٥٦٨ الطب الروحاني	٥٤٣ علم الهيئة
٥٦٨ مطابخ الشعاعات في واليد الملوك	٥٤٥ ومن فروعه علم الازياج
وبينهم	٥٤٥ علم المنطق
٥٦٩ الانفس مال الروحاني والانقياد	٥٤٩ الطبيعيات
الرباني	٥٤٩ علم الطب
٥٧٠ اعمال انوار الكواكب	٥٥٠ فصل وللبادية من عهد العمران

صحيفة	صحيفة
مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطلعة والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة	٥٧١
فصل في ان كثرة التأليف في العلوم عاتمة عن عن التحصيل	٦٢٢
فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم	١٢٤
فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته	٦٩٤
فصل واعلم ايها المتعلم النخ فصل في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل	٦٢٦ ٦٢٨
فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه	٦٦٩
فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم	٦٣٢
فصل في ان الرحلة في طلب العلوم واقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم	٦٣٤
فصل في ان العلماء من بين البشر اعد عن السياسة ومذاهبها	٦٣٥
فصل في ان حمة العلم في الاسلام اكثرهم المعجم	٦١٥
كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زيارجة العالم بحول الله منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها	٥٧٣
فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية	٥٨٤
فصل في الاستدلال على مافي الضماير الخفية بالقوانين الحرفية	٥٨٩
علم الكيمياء	٥٩٢
فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها	٦٠٣
فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها	٦٠٩
فصل في انكار ثمرة الكيمياء	٦١٥

صحيفة	صحيفة
الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم	٦٣٨ فصل في علوم اللسان العربي
ومن كان منهم أبعد عن اللسان	٦٣٨ علم النحو
العربي كان حصولها له أصعب	٦٤١ علم اللغة
وأعسر	٦٤٤ علم البيان
٦٦٢ فصل في انقسام الكلام الى فني	٦٤٧ علم الادب
النظم والنثر	٦٤٨ فصل في ان اللغة ملكة صناعية
٦٦٤ فصل في أنه لا تنفق الاجادة في فني	٦٤٩ فصل في أن لغة العرب لهذا العهد
المنظوم والمنثور معا الا للاقل	لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير
٦٦٤ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه	٦٥٢ فصل في ان لغة الحضرة والامصار
٦٧٣ فصل في أن صناعة النظم والنثر انما	قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر
هي في الالفاظ لافي المعاني	٦٥٣ فصل في تعاليم اللسان المضرى
٦٧٤ فصل في أن حصول هذه الملكة	٦٥٤ فصل في ان ملكة هذا اللسان
أكثره الحمص وجودتها بجودة	غير صناعة العربية ومستغنية عنها
الحفوظ	في التعاليم
٦٧٧ فصل في ترفع أهل المراتب عن	٦٥٦ فصل في تفسير الذوق في مصطاح
انتحال الشعر	أهل البيان وتحقيق معناه وبيان
٦٧٨ فصل في أشعار العرب وأهل	انه لا يحصل غالبا لامستعربين من
الامصار لهذا العهد (وفيه أشعار	المعجم
لهلاية والرانية)	٦٥٩ فصل في ان أهل الامصار على
٦٨٩ الموشحات والازجال للاندلس	الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✽ يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن
محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله تعالى ✽

الحمد لله الذي له العزة والجبروت ويديه الملك والملكوت وله الأسماء الحسنى
والنعوت العانة فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت القادر فلا
يعجزه شيء في السموات والأرض ولا يعوت أنشأنا من الأرض يسا واستعمرنا
فيها أجيالا ونما ويسر لنا منها رزاقا وقسما تكفينا الأرحام والبيوت
ويكفلنا الرزق والقوت وتبيننا الأيام والوقوت وتعتورنا الآجال التي خطت
علينا كتابها الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحى الذى لا يموت ✽ والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الامى العربى المكتوب فى التوراة والانجيل
المنعوت الذى تمخض لفصالة الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسيوت وتبين
زحل واليهوت وشهد بصدقه الخاء والعنكبوت وعلى آله وأصحابه الذين لهم
فى محبته واتساعه الأثر البعيد والصبب والشمل الجميع فى مظاهرتة ولعدوهم
الشمل الشتيت صلى الله عليه وعانهم ما اتصل بالاسلام جده المبخوت وانقطع
بالكفر حباه لنبوت وسلم كثيرا (أما بعد) فان فن التاريخ من الفنون
التي يتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركايب والرحال وتسمو الى معرفته

السوقة والاغفال وتنافس فيه الملوك والأقيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال
أذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القسرون
الأول تسمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها
الاحتفال وتؤدي البناء أن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول
فيها النطاق والمجال وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال
وفي باطنه نظر وتحقيق وتعميل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع
وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في عمومها
وخليق وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها
وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل
وهموافيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لمقوها ووضعوها
واقتنى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها اليأس كما سمعوها ولم
يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث
ولا دفعوها فالتحقيق قليل وسرف التنقيح في الغاب كليل والغلط والوهم
تسبب للأخبار وخليل والتقليد عريق في الأدميين وسابل والتطفل على الفنون
عريض وطويل ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل والحق لا يقاوم سلطانه
والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والنقل إنما هو يملئ وينقل والبصيرة تنقد
الصحيح إذا تمقل والعلم يجلوها صفحات الصواب ويصقل (هذا) وقد دون
الناس في الأخبار وأكثروا وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا
والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبره واستقرغوا دواوين من قبلهم
في صحفهم المتأخره هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأتامل ولا حركات
العوامل مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف
ابن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير
وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المظمن والمغمز ما هو معزوف عند

الآثبات ومشهورين بين الحفظة النقات الا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم
واقذفاه سنهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه
في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم فقلعهم ان طبائع في أحواله ترجع اليها
الاخبار ومحمل عليها الروايات والآثار ثم ان أكثر النواريج لهؤلاء عامة
المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك وتناولها
البعيد من الغايات في المأخذ والتأثرات ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من
الدول والامم والأمر العمم كدسعودي ومن نجا من حماه وجاء من بعدهم من
عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف في العموم والاحاطة عن الشأ والبعد
فتيد شوارد عصره واستوعب أخبار أقطره واقصر على أحاديث دولته
ومصره كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرقيق
مؤرخ أفريقية والدول التي كانت بالقرون ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد
وليد الطبع والعقل أو متبليد ينسج على ذلك النوال ويحتدى منه بالثال ويذهل
عما حالته الايام من الاحوال واستندت به من عوائد الامم والاجيال فيجابون
الاخبار عن الدول وحكايات توفيق في تصور الاول صوراً قد تجردت عن
موادها وصفاحاً لتضيت من أتماده ودمعرف تستمكر لاجهين بطارفيها وتلاذها
انما هي جوادث لم تعلم أصولها ونوعاً في تعبير جناحها ولا تحققت فصولها يكررون
في موضوعاتهم الاخبار المتداولة داعينها تسامح عن من المتقدمين بشأنها
ويغفلون أمر الاجيال الناشئة في ديورهم بعد عوز عليهم من ترجمانها فتستعجم
صحفهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا لذكر دولة نسقوا أخبارها نسقاً محافظين
على نقائها وهما أوصدقا لا يتعربون ليدبتهم ولا يذكرون السبب الذي رفع
من رايتهما واظهر من آيتها ولا علة وقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعاً
بعد الى افتقار أحوال مبادئ الدول ومراتبها ثم تشا عن أسباب تراحمها
أو تماقها باحثاً عن المقنع في تبينها أو تماقها حياً نذكر ذلك كافي مقدمة

الكتاب ثم جاء آخرون بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك
والاقتصار مقطوعة عن الانساب والاخبار موصوعة عليها أعداد أيامهم بحروف
الغبار كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمد ومن اقتفى هذا الاثر من الهملك
وليس يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما ذهبوا من
الفوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالمت) كتب
القوم وسبرت عور الامس واليوم نبت عين القرينة من سنة الغفلة والنوم
وسمت التصنيف من نفسي وأنا المنقاس أحسن السوم قاشات في التاريخ كتابا
رفعت به عن أحوال الناشئة من الاجيال حجبا وفصلته في الاخبار والاعتبار
بابا بابا وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عالا وأسابيا وبنيتها على أخبار الامم
الذين عمرو المغرب في هذه الاعصار وملأوا كنف النواحي منه والاصار
وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ومن سلف من الملوك والانصار
وهم العرب والبربر اذها الجيلان اللذان عرف بتغرب ماواهما وطل فيه
على الاحقاب متواهما حتى لا يكاد يتصور فيه معدنها ولا يعرف أهله من
اجيال الآدميين سواهما فهذبت مناجيه تهديا وقربته لافهام العلماء والخاصة
تقريبا وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي
مذمبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسوية ونشرت فيه من أحوال العمران
والتمدن وما يعرض في الاجتماع لاساني من العوارض الذاتية ما يمتدك بعلل
الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع من
التقليد يدك وتقف على أحوال من قبلك من الأيام والاجيال وما بعدك ورتبته
على مقدمة وثلاثة كتب

(المقدمة) في فصل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والانواع بمغالط المؤرخين
(الكتاب الاول) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من
الملك والسايطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب

(الكتاب الثاني) في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليفة الى هذا العهد وفيه الامتاع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسرانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط ويونان والروم والترک والافرنجة (الكتاب الثالث) في اخبار البربر ومن اليهم من زناة وذكر اوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار وأثبتت بهما كتبته في تلك الاسطر وأدرجتها ثم ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحي وملوك الامصار والضواحي سلكا سبيل الاختصار والتامخيص متتديا بالمرام السهل من العويص داخل من باب الاسباب على المموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليفة استيعابا وذلك من الحكم النافرة صعبا وأعطي لحوادث الدول عللا وأسبابا وأصبح للحكمة صوابا وللتاريخ جرابا (ولما كان) مشتملا على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر والامتاع بمن عاصرهم من الدول الكبرى وأفصح بلذكري والوبر في مبتدا الاحوال وما بعدها من الخبر (سميته) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ولم أترك شيئا في أولية الاجيال والدول وتعاصه الامم الاول وأسباب التصرف والحلول في القرون الخالية والملك وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحلة وعرة وذلة وكثرة وقلة وعلم وصناعة وكسب واطاعه واحوال متعلبة مشاعه وبدو وحصر وواقع ومنتظر الاواستوعبت جملة وأوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب قدما بما ضمنته من العالوم الغريب والحكم الحجيبة القريبة وانا من بعدها موقن بالتصور بين أهل المصور معترف بالعجز عن المعناء في مثل هذا القضاء راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة

الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتعظيم لما يعثرون عليه بالاصلاح
والاغضاء فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى
من الاخوان مرتجاة والله أسأل ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو
حسي ونعم الوكيل وبمدا ان استوفيت علاجه وانرت مشكاته للمستبصرين
وأذ كبت سراجيه وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في فضاء
المعارف بطاقه وادرت سياجه أنحفته بهذه النسخة منه (١) خزانة مولانا
السلطان الامام المجاهد الفاتح الماهد المتحلي مندب خلع التمام ولوث العمام بجي

(١) قوله أنحفته بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة
زيادة قبل قوله أنحفته وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها التمت له الكفء
الذي يامح بعين الاستبصار فونه وباحظت بداركه الشريفة معياره الصحيح
وقانونه ويميز رتبته في المعارف عمادونه فسرحت فكري في فضاء الوجود
وأجلت نظري ليل التمام والهجود بين التمام والتجود في العلماء الر كع السجود
والخلفاء أهل الكرم والوجود حتى وقف الاختيار بساحة السكال وطافت
الأفكار بموقف الآمال وظفرت أيدي الساعى والاعمال بمتدي المعارف
مشرقة فيه غرر الجمال وحداثق العلوم الوارفة الظلال عن اليمين والشمال
فأنحت مطى الافكار في عرساتها وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها وأنحفته
بديوانها مفاصير ايوانها وأطلعته كو كباوقادا في أفق خزائنها وصوانها ليكون آية
للعقلاء يهتدون بمنارة ويعرفون فضل المدرك الاسانية في آثاره وهى خزانة
مولانا السلطان الامام المجاهد الفاتح الماهد الى آخر النعوت المذكورة هنا
(ثم قال) الخليفة أمير المؤمنين اتتوكل على رب العالمين أبو العباس أحمد ابن
مولانا الامير الطاهر المقدس أبى عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير
المؤمنين أبى يحيى أبى بكر ابن الخلفاء الراشدين من أئمة الموحدين الذين
جددوا الدين ونهجوا السبل للمهتدين ومحووا آثار البغاة المفسدين من المجسمة

القائ الزاهد المتوشح من زكاء الثاقب والمحامد وكرم الشمايل والشهاد
 باجل من القلائد في محور الولايد المتناول بالعزم القوي الساعد والجد الموالي
 المساعد والمجد الطارف والتالد ذوائب ملكهم الراسي القواعد الكريم المعالي
 والمساعد جامع شتات العلوم والفوائد وناظم شمل المعارف الشوارد ومظهر
 الآيات الربانية في فضل المدارك الاسانية بفكره الثاقب الناقد ورأيه الصحيح
 المعاهد المير المذهب والعقائد نور الله الواضح المرشد ونعمته العذبة الموارد
 ولطفه الكامس بمراسد للشدائد ورحمته الكريمة المقلد التي وسعت صلاح
 الزمان الفاسد واستقامة المائد من الاحوان والعوائد وذهبت بالخطوب الاوابد
 وخلصت على الرمان رونق الشباب العائد وحجته التي لا يبطاها انكار الجاحد
 ولاشبهات المعاند (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان
 الكبير المجاهد نقس امير المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الاعلام من بني مرسين
 الذين جددوا الدين ونهجوا السبيل للمؤمنين ومحو آثار البغاة المفسدين أفاء
 الله على الامة خلاله وبأغاه في نصر دعوة الاسلام آماله وبعمته الى خزائنهم
 الموقفة لطاية العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم وكرسى
 سلطانهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة المدي وقضاء الاسرار
 الربانية فسيح امدي والامامة الكريمة الفارسية (٤) العزيزة ان شاء الله بنظرها
 الشريف وفضائها الغنى عن التعريف تبسط له من العناية مهادا وتفصح له

واعتدين سلالة أبي حفص الفاروق والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية
 والعروق والنور المتألي من تلك الانسعة والبروق فأوردته من مودعها العلي
 بحيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندي الى آخر ما ذكر هنا الا أنه لم يقيد
 الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من
 خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق النخ (٢) قوله
 الفارسية أي النسوبة الى الامير أبي فارس المتقدم ذكره اه

القبول في جانب آما إذا فتوضحها أدلة على رسوخه وأنها في سوقها تنفق
بضائع الكتاب وعلى حصرتها تعكف ركائب العلوم والآداب ومن مبدد
بصائرهم المنيعة نتاج القرائح والالباب والله يوزعها شكر نعمتها ويوفر لنا حظوظ
المواهب من رحمتها ويعيننا على حقوق خدمتها ويجعلنا من السابقين في ميدانها
المجانب في حومتها ويضئ على أهل بيانتها وما أوى من الإسلام إلى حرم
عمالتها لبوس حمايتها وحرمتها وهو سبحانه السؤل أن يجعل أعمالنا خالصة
في وجهتها بريئة من شوائب الغفلة وشهتها وهو حسبنا ونعم الوكيل

✽ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مباحثه والامساع لما يعرض
لامؤرخين من المغالط والأوهام ود كرشي من أسبابها ✽

(اعلم) أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو
يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والانياء في سيرهم والملوك
في دولهم وسياستهم حتى تم قائمة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين
والدنيا فهو محتاج إلى ما خلد متعدده ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت
يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينتجان به عن المنزلات والمغالط لان الاخبار
إذا اعتمد فيها على مجرد التمثل ولم يحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة
العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا فيس الغائب منها بالشاهد والحاضر
بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العنود ومبراة القدم والحيد عن جادة الصدق
وكتيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع
لا اعتمادهم فيها على مجرد النقل غيا أو - مما لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها
باشباهم ولا سبروها بمعيار الحكمة والتوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم
النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في ببداء الوهم والغلط سببا
في احصاء الاعداد من الاموال ولعسا كر اذا عرضت في الحكايات اذ هي
مظنة الكذب ومطية الهدر ولا بد من ردها إلى الاصول وعرضها على القواعد

وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها مثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصه من الحامية تسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فلما ضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تباع جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف (وعن عائشة والزهرى) أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية انما كانوا سنتين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ممالكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القاطنين بها في قوتها وكثرتها حسبما نسين في فصل الممالك من الكتاب الاول والقوم لم تسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا

فألقى بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى
 ابن عمران بن بصهر بن قاهت بفتح الهاء وكسر ها ابن لاوي بكسر الواو
 وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبة في التوراة والمدة بينهما على
 ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا
 إلى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام
 إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة وبعدها ان
 يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وان زعموا ان عدد تلك
 الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا إذ ليس بين سليمان
 وإسرائيل إلا أحد عشر أباه فإنه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيد ويقال ابن
 عوفد بن باعز ويقال بو عز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حمينا ذاب
 ابن رم بن حصرون ويقال حصرون بن يارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب
 ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه
 اللهم إلى المئين والآلاف فرما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود
 الأعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم
 باطلا ونقلهم كاذبا (والذي ثبت في الأسرئيليات) أن جنود سليمان كانت اثني عشر
 ألفا خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو
 الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم (وفي أيام سليمان عليه
 السلام وملكه) كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من
 أهل العصر إذا أقضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لهم أو قريبا
 منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في احصاء
 أموال الجبابرة وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء الموسرين
 توغلو في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب (١)

فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عسا كرمهم واستنبطت أحوال أهل
 الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجابت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار
 ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة
 على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر
 بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع
 الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله
 وحسبك بها صفقة خاسرة (ومن الاخبار الوامية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة
 أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن
 الى افريقية والبربر من بلاد المغرب وان افريقش بن قيس بن صيفي من
 أعظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقبائل غزا افريقية
 وأنحن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه
 البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من
 المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة
 وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيهي
 الى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتابيه نسبة البربر وهو الصحيح (وذكر
 المسعودي أيضا) أن ذا الأذعار من ملوكهم قبيل افريقش وكان على عهد سليمان
 عليه السلام غزا المغرب ودوَّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده
 وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع
 وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو اسعد أبو كرب وكان على عهد يستانسف
 من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقى الترك فهزمهم
 وأنحن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وانه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد
 فارس والى بلاد الصغد من بلاد أم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فلما
 الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي

غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فاتمخنا في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم
وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد وبلغ الثالث الى
قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعيدة
عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه باحاديث القمص الموضوعه وذلك
أن ملك التباية انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة
العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس
الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس
من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون
من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر السويس
والبحر الشامى قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم
في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا تمتع في العادة وقد كان
يتلك الاعمال العمانية وكنعان بالشام والقيبط بمصر ثم ملك العمافة مصر وملك
بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط ان التباية جاربوا أحدا من هؤلاء الامم
ولا ماكوا شيئا من تلك الاعمال وأيضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة
والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا الى
انتهاج الزرع والنعم وانتهاج البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفي ذلك للازودة
وللعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تنق لهم الرواحل
بنقله فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون
الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الامم من غير أن تهيجهم
فتمحصل لهم الميرة بالنسابة فذلك أبعد وأشد امتناعا فدل على ان هذه الاخبار
واهية أو موضوعة (وأما) وادى الرمل الذى يعجز السانك فلم يسمع قط ذكره
في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر
وكل جهة وهو على ما ذكره من الغرابة تتوفر الدواعى على نقله وأما غزوهم

بلاد الشرق وأرض الترك وإن كانت طريقه أوسع من مسالك السويس إلا أن الشقة هنا أبعد وأهم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط إن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك بين ذى الازعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبو كرب ويستأنف منهم أيضا ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالأخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قديما فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر يثرب والأوس والخزرج إن تبعما الآخر سار إلى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتأمن الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي إلى الصواب

﴿ فصل ﴾ وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد فيجعلون لفظة إرم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص ابن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلاك شديد فخاص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثمانمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب الأحمر وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة وثلاثم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك

الطبري والثعالبي والزحشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن
 قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عابها وحمل منها ما قدر عليه
 وبلغ خبره الى معاوية فأحضره ووقفص عابه فبعت عن كعب الاحبار وسأله عن ذلك
 فقال هي ارم ذات العماد وسيدخاها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر
 قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر
 ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ
 في شيء من بقاع الارض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط
 اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والادلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن
 هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها
 درست فيما درس من الآثار لكان أشبهه الا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة
 وبعضهم يقول انها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقد انتهى الهنديان
 ببعضهم الى أنها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه
 بالخرافات والذي حمل المنصرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة
 ذات العماد أنها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين فتعين أن يكون بناء
 ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عدارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا
 على تلك الحكايات التي هي أشبه بالاقتضيس الموضوعات التي هي أقرب الى الكذب
 المنقولة في عداد المضحكات والافالعماد هي عماد الاخبية بل الخيام وان اريد
 بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من
 قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيفت كما في قراءة ابن
 الزبير فعلى اضافة الفصيحة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر
 وربيعة نزار وأي ضرورة الى هذا المحلل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لامثال
 هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثابها لبعدها عن الصحة (ومن
 الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة

من قصة العباسية أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولا، وأنه لكانه بمكانهما
 من معاقرة اياهما الحر أذن لهما في عقد السكاج دون الخلووة حرصا على
 اجتماعها في مجلسه وأن العباسية تحيات عليه في التماس الخلووة به لما شغفها من حبه
 حتى واقعها زعموا في حالة سكر حلمات ووشى بذلك الرشيد فاستغضب
 وهيبات. ذلك من منصب العباسية في دينها وأبويها ورجالها وأنها بنت عبد
 الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظماء الأمة
 من بعده والعباسية بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر بن محمد بن محمد السجاد
 ابن علي أبي الحنفاء ابن عبد الله بن محمد بن القرآن بن العباس عم النبي صلى
 الله عليه وسلم ابنة خاليفة أخت خديجة محفوفة بميثاق العزيز والخلافة البوية
 وصحبة الرسول وعمومته وامامة ملقة ونور الوحي ومهيب الملائكة من سائر
 جهاتها قريبة عهد ببداوة العربينة وسنة حجة تدين المعيدة عن عوائد الترف
 وضرائع العواحيش فأين يطالب الصون والعدايق اذا ذهب عنها أو أين توجد
 الطهارة والذكاء اذا فقد من بينهما أو كيف يحجم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس
 شرفها العربي بمولى من موالى العجم بمكة حسده من الفرس أو بولامجدها
 من عمومة الرسول وأشرف قریش وعقيدته من جدت دولتهم بضميمة وضع
 آية واستخلصتهم ورقمهم الى مكارم الأشراف وكيف يسرح من الرشيد أن
 يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همة وعظمة آتائه ولو نظر المذامل في ذلك نظر
 انصف وقاس العباسية باينة ملك من غصناه يكون زمانه لا تكف لها عن مثله
 مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومه واستمكره ويج في تكديبه وأين
 قدر العباسية والرشيد من الناس وانما كك البرامكة ما كان من استبدادهم على
 الدولة واحتجابهم أموال الجبابرة حتى كان الرشيد يطالب يسير من المال فلا يصل
 اليه فغابود على أمره وشاركوه في سلطانه وما كان له معهم تصرف في أمور ملكه
 فعظمت آثارهم وبمدصيتهم وتمرو من سلطنة وخططهم بالرؤساء من ولدهم

مقارن ذلك عند محذومهم نواشي الغيرة والاستسكاف من الحجج والآفة وكامن
 الحقود التي بهتها منهم صفائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار
 المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
 اخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي
 استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمير الرشيد بخطه وبذل لهم فيه
 ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله
 بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخاية بيته ولاستبداد بحمل
 عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على الساطان في حكمه وسأله الرشيد
 عنه لما وشى به اليه ففطن وقال أطاقته فأبدي له وجه الاستحسان وأسرها في
 نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقوم حتى نزل عرشهم وأقيمت عليهم سائرهم
 وخسفت الارض بهم وبنارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين بهم ومن تأمل
 أخبارهم واستقصى سير الدولة ويرهم وحدث ذلك محقق الاثر مهد فيساب (وانظر)
 ما نقله ابن عبد ربه في مفاوصة الرشيد عيم جده داود بن علي في شأن نكبتهم
 وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقدي في حياورة الاصمعي بن رشيد والفضل بن
 يحيى في سمر رسم تفهم انه اتماقاتهم الغيرة والتدافسة في الاستبداد من الخليفة
 فن دونه وكذلك ما تحيل به اعداؤهم من البيضة فيمادسوه بمغنين من الشعر
 احتيالا على اسماعه للاخايفة ونجريات حفائظه فهم وهو قوله
 ليت هذا أنجز تماما تعد * وشفت أنفسنا من خود
 واستبدت مرة واحدة * اتما العاجز من لا سب

وان الرشيد ما سمعها قال اي والله اني عاجز حتى يعثروا مثل هذه كامن
 غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجاء وسوء الحال (واما)
 ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الحمر واقتران سكره بسكر لدمان فحاش
 لله ما علمنا عليه من سوء واين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب

الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والإولياء ومحاوراته
 للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من
 مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات
 الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها (حكي) الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل
 يوم مائة ركعة نافذة وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن أبي مريم مضجعه
 في سره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ومالي لأعبد الذي
 فطرنى وقال والله ما أدري لم فمات مالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضبا
 وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا اياك والقرآن والدين ولك ماشئت
 بعدها وأيضا فقد كان من العلم والسداجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين
 لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن انما خلفه غلاما وقد كان أبو جعفر
 بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه
 بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض أعلم مني ومنك واني قد
 شغلتنى الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجيب فيه رخص ابن عباس
 وشدائد ابن عمر ووطنه للناس توطئة قل مالك فوالله لقد علمنى التصنيف
 يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد
 لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو يجلسه يباشر الخياطين في ارقاع
 الخلقان من ثياب عياله فاستكف المهدي من ذلك وقال يا أمير المؤمنين على
 كسوة العيال عامنا هذا من عطاءى فقال له لك ذلك ولم يصد عنه ولا سمح بالانفاق
 من أموال المسلمين فكيف يابق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتة
 ومأربى عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو
 يجامر بها وقد كانت حالة الاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة
 ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآبؤه كانوا
 على نسيج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف

الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن
 بختيشوع الطيب حين أحضر له السمك في مائدة حياها عنه ثم أمر صاحب
 المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودرس خادمه حتى عاينه يتناوله
 فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقدماء خلطها
 باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجاً
 وعلى الثالثة خراً صرفاً وقال في الأول والثاني ههنا طعام أمير المؤمنين إن خلط
 السمك بغيره أولم يخلطه وقال في الثالث ههنا طعام ابن بختيشوع ودفعها الى
 صاحب المائدة حتى إذا أتته الرشيد وأحصره للتوبيخ أحضر الثلاثة الاقدمات
 فوجد صاحب الحمر قد اختلط وانما عرفت وتفتت ووجد الآخرين قد فسدوا وتغيرت
 وأحتملها فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب
 الحمر كانت معروفة عند بطنته وأهل مملكته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي
 نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع. وإنما كان الرشيد يشرب
 بييد التمر على مذهب أهل العراق وقتئذ وهم فيهماء روفة وأما الحمر السرف فلا سبيل
 الى اتهامه به ولا تقايد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً
 من أكبر الكبار عند أهل الملة ولقد كان أوامك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب
 السرف والتدرف في ملابسهم وزيتهم وسائر متاعهم لما كانوا عليه من خشونة
 البداوة وسداجة الدين التي لم يفارقوها بعد ما ظنك بما يخرج عن الإباحة الى
 الحظرو عن الحلية الى الحرمة وقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم
 على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة
 من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث
 الركوب بحلية الذهب هو المعتز ابن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا
 كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأنهم من هذا إذا
 فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والفضاضة كما نشرح في مسائل انكتاب

الاول ان شاء الله والله الهادي الى الصواب (ويناسب) هذا أو قريب منه
 ما ينقلونه كافة بن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وانه كان يعاقر المأمون
 الخمر وانه ساء ليلة مع شربه فدفن في الریحان حتى أفاق وينشدون على لسانه
 ياسيدي وأمير الناس كلهم * قد جار في حكمه من كان يستقيني
 انى غفقت عن الساقى فسيرنى * كما ترانى سائب العقل والدين
 وحال ابن أكرم والمأمون فى دلت من حل الرشيد وشرابهم انما كان التبيذ ولم
 يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة
 فى الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه فى البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن
 عشرته انه اتبه ذات ليلة عطشان فدم تحسس وياتمس الاناء مخافة ان يوقظ
 يحيى بن أكرم وثبت انهما كانا بصبيان الصبح جميعا فابن هذا من المعاقرة وايضا
 فان يحيى بن أكرم كان من عليقة اهل الحديث وقد اتى عليه الإمام احمد
 ابن حنبل واسماعيل القاسى وخرج عنه الترمذى كتابه الجامع وذكر المزنى
 الحافظ أن البخارى روى عنه في غير الجامع فالتدح فيه قدح في جميعهم وكذلك
 ما ينسبده الحبان باليونان الى الغلام بهتبا على الله وفرة على العلماء ويستندون
 فى ذلك الى أخبار القصاص الواهية التى لعابها من افتراء أعدائه فانه كان محسودا
 فى كماله وخلته للسلطان وكان مقبوه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد
 ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله - سبحان الله ومن يقول
 هذا وانكر ذلك انكارا شديدا واتى عليه اسمعيل القاضى فقتلته ما كان يقال
 فيه فقال معاذ الله أن تزول عدته مثله بتكذب باغ وحاسد وقال أيضا يحيى بن
 أكرم أبرأ الى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد
 كنت أقف على سرائره فأحسبه شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة
 وحسن خلق فرمى بما روى به وذكره ابن حبان فى الثقات وقال لا يشغل بما
 يحكى عنه لان أكثرها لا يبيح عنه (ومن أمثال هذه الحكايات) ما نقله ابن عدي ربه

صاحب العقدة من حديث الزنيل في سب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل
 في بنته بوران وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنيل مدلى
 من بعض السطوح بمعلق وجدل مغارة الفتى من الحرير فاعتقده وتناول
 المعلق فاهتزت وذهب به صعدا الى مجلس شاه كندا ووصف من زينة فرشه
 وتنضيد أبيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأة برزت
 له من خال السور في ذلك المجلس رائمة الجمال فتاة الحما من فحيتة ودعته الى
 المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره
 وقد شغفته حيابعته على الاصهار الى أبيها وابن هذا كله من حال المأمون المعروف في
 دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آتائه وأخذ به سير الخلفاء الاربعة
 أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته واحكامه فكيف
 تصح عنه احوال الفساق (١) المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل
 وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن
 سهل وشرفها وما كان يدأر ^{بها} ايها من العيون والعفاف وامثال هذه الحكايات
 كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة واندمعت على وضعها والحديث بها الانهاك
 في اللذات الخمرية وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسى بالقوم فيما يأتونه من
 طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون ناشياء هذه الاخبار ويتقرون عنها
 عند تصفحهم لاوراق الدواوين ولو اتتسوا بهم في غير هذا من احوالهم وصفات
 الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عدت
 يوما بعض الامراء من أبناء الملوك في كافه تتعلم الغناء ويولوعه بالاولاد وقلت له
 ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لايبالي بما فعل به وشتم له والذي كثرت
 أباطيله اه قاموس

كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له ياسبحان الله وهلا
تأسيت بأبيه او أخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك براهيم عن مناصبهم فصم عن
عدلى وأعرض والله يهندي من يشاء (ومن الاخيار الواهية) ما يذهب اليه
الكثير من المؤرخين والاثبات في المبيدين خافاء الشيعة بالقيروان والقاهرة
من نفهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والظعن في نسبهم الى اسمعيل الامام
ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفتت للمستضعفين من خافاء
بني العباس تزلفا اليهم بالقدح ويسن ناصبهم وتفننا في الشتم بعدوهم حسبما
نذكر بعض هذه الاحاديث في أخبارهم وينفلون عن التفتن لشواهد الواقعات
وأدلة الاحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم
فانهم متفقون في حديثهم عن مبداء دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا
بكتامة لارضا من آل محمد واشهر خبره وعلم نحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي
القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأتتهما
خرجان الاسكندرية في زى التجار ونمى خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر
والاسكندرية ففرح في طلبهما الخيالة حتى اذا أدركا خفي طاهما على تابعهما بما
لبسوا به من الشارة والزى فأفتوا الى المغرب وأن المعتضد أوعز الى الاغلبة
الى أمراء أفريقية بالقيروان وبني مدار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما
واذكاه العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدار على تخفي
مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاء لتخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الاغلبة
بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن
ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام
شق الابنة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزابلون من أمرهم ولقد أظهر
دعوتهم ببغداد وعراقها الامير البساسيري من موالى الديلم المتغلبين على خافاء
بني العباس في مفاضبة جرت بينه وبين امراء العجم وخطب لهم على منابرهما

حولا كاملا وما زال بنو العباس يفتنون بمكائهم ودولتهم ومبوك بني أمية وراء
البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب
في اتحال الامر واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في انتسابه كيف تلاشت دعوته
وتفرقت أتباعه وظهر سريعا على خشيتهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال
أمرهم ولو كان أمر العبيد بين كذلك لعرف ولو بدمهالة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان ظاهرا تخفي على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحو من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه
السلام ومصلاهم ومواطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه ومقبع الحجيج
ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أنهم كانوا عليه
من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسماعيل بن جعفر الصادق
ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين الى بدعتهم هاتفين
بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم
بالوصية ممن سلف قبلهم من الائمة ولو ارتابوا في سبهم لما ركبوا اعتناق الاخطار
في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب
نفسه فيما ينتحله (والمعجب) من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من
المتكلمين ينجح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف فان كان
ذلك لما كانوا عليه من الالحاد في الدين والتعمق في الرافضية فليس ذلك بدافع في
صدر دعوتهم وليس اثبات منتسبهم والذي يغني عنهم من الله شيئا في كفرهم
فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن انه انه ليس من أهالك انه عمل غير
صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لعاطمة يعظها يا فاطمة
اعلمي فان أغنى عنك من الله شيئا ومتى عرف امر وقضية أو استيقن أمرا وجب
عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال
الظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاعدية

بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد اخرى فلاذت رجالهم بالاخفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الایم ما سحى مادرت * وابن مكاني ما عرفن مكاني
 حتى لقد سمى محمد بن اسماعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالملكوت سمته بذلك
 شيعةهم لما اتفقوا عليه من اخفائه خذرا من المتغابين عايمهم فتوصل شيعة بني
 العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدادوا بهذا الرأي القائل
 للمستضعفين من خلائمهم وأعجب به اولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون - اربوبهم
 مع الاعداء يدفعون به عن انفسهم وساطنتهم معرفة العجز عن المقاومة والمدافعة
 من غابهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتامين شيعة العبيديين وأهل
 دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفهم عن هذا النسب وشهد بذلك
 عندهم من اعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرضي وابن
 البطحاوي ومن العامة أبو حامد الاسفرايني والقنودري والصيمري وابن
 الاكفاني والأبيوردى وأبو عبد الله بن العمان فقيه الشيعة وغيرهم من اعلام
 الامة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر وكانت
 شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة
 بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسبما
 وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب
 بلقبر وان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم
 فالمعتضد أقمد بسب أهل البيت من كل أحد والدولة والساطان سوق للعالم تجاب
 اليه بضائع العزم والصنائع وتلتبس فيه ضوال الحكم وتحدي اليه زكائب
 الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكفاة فان تنهت الدولة عن التعسف
 والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الأمم ولم تجر (١) عن قصد السبيل
 العرف بالسير

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار أي لم تملم اه

نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين المصفي وان ذهبت مع الاغراض والحقود
وماجت بسامرة البغي والباطل نفق البهرح والزائف والباقد البصير قسطان
نظرة وميزان بحته وملتمسه (ومثل هذا) وابعدا منه كثيرا مايتناجى به
الطاعنون في سب ادريس بن اريديس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي
ابن ابي طالب رضوان الله عليهم اجمعين الامام بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون
تعريض الحد بالتظن في الحمل الخائف عن ادريس الاكبر انه لراشد مولا لهم
قبحهم الله وابعدهم ما اجهتهم اما يعلمون ان ادريس الاكبر كان اصهاره في
البربر وانه منذ دخل المغرب الى ان توفاه الله عز وجل عريق في البدو وان
حال البادية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكان لهم يتأني فيها الريب واحوال
حرمهم اجمعين بمراى من جاراتهم ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران
وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشديتولى خدمة الحرم
اجمع من بعد مولا بمشهد من اوليائهم وشيئتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق
برابرة المغرب الاقصى نمة على بيعة ادريس الاصغر من بعد ابيه واتوه طاعتهم
عن رضا واصفاق وبايعوه على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه
وغزواته ولو حدثوا على انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت اسماءهم ولو من
عدو كاشح او منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت
هذه الكلمات من بي العباس اقبالهم ومن بنى الاغلب عمالمهم كانوا بافريقية وولاتهم
وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة سج او عز الهادي الى
الاغلبة ان يقدموا له بالمرصد ويذكوا عايه العيون فلم يظفروا به وخاضوا الى
المغرب فقم امره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من
واضح مولا لهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيمة التشيع للعلوية واذهابه في
في نجة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى المهدي ابيه للتحويل
على قتل ادريس فظهر الاحاق به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل عليه

ادريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته بما استهلكه به ووقع
 خبر مهاككه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة
 العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما نادى اليهم خبر الحمل المخائف لادريس
 فلم يكن لهم الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعه بالمغرب قد ظهرت وتوددتهم
 بادريس بن ادريس قد مجددت فكان ذلك عليهم أنكي من وقع السهام وكان
 الفشل والهزم قد نزل بدولة الغرب عن ان يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى
 قدرة الرشيد على ادريس الا كبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه
 الا ^{البحرين} التحليل في اهلاكه بالسموم فعند ذلك فرعوا الى اوليائهم من الاغالبه بافريقية
 في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبائهم واقتلاع
 تلك العروق قبل ان تشج منهم يخاطبهم بذاك الامون ومن بعده من خلفائهم
 فكان الاغالبه عن برابرة المغرب الاقصى أعجز ولماتها من الذين على ملوكهم أحوج
 لما طرق الخلافه من ابتزاز ممالك العجم على سبيلها وامتطائهم صهوة التغاب عاينها
 وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خطتها وساير
 نقضها واورامها كما قال شاعرهم

خائفة في قفص * بين وصيف وبقا يقول ما قاله * كما تقول البيضا

نخشي هؤلاء الامراء الاغالبه بوادر السعيات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار
 المغرب وأهله وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من
 أعقابه يخاطبونهم بتجاوزهم حدود التخوم من عماله وينفذون سركته في تحفهم
 وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا ببيتفحاله وتهويلا باشتداد شوكرته
 وتمظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسيه وتهديدا بقب الدعوة أن الجؤا
 اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا
 لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعده المسافة وأقن عقول من خلف من صبية
 بني العباس ومماليكهم العجم في القول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل

هذا دأبهم حتى انقضى أمر الاغلبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسباع الفوغاء
 وصتر عايبها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المناقشة
 وما لهم قبهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع
 والمظنون وادريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش على أن تنزيه أهل
 البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فالله سبحانه وتعالى قد أذهب
 عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ^ففراش ادريس طاهر من اللبس ومنزه عن
 الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد بابه بأبمه وولج الكفر عن
 بابه وانما أُنبت في هذا الرد سد الابواب الريب ودفعاً في صدر الحاسد لما
 سمعته أذناى من قائله المعتدى عليهم به القادح في نسبهم بفرسته وينقله بزعمه
 عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم
 والافالمحل منزه عن ذلك معصوم منه وانى العيب حيث يستحيل العيب عيب
 لكفى جادات عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادوا عنى يوم القيامة (ولتعلم) أن
 أكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لاعتقاب ادريس هذا من منتم الى أهل
 البيت أو دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على
 الامم والاجيال من أهل الآفاق فتعرض اشتهمة فيه ولما كان نسب بنى ادريس
 هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا
 لا يكاد يباحق ولا يطمع احد في دركه اذ هو نقل الامة والجيل من الخائف عن
 الامة والجيل من السلف وبيت جدتهم ادريس ^{مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم}
 ومسجده لصق محلهم ودروبهم وسيفه منتضى براس المأذنة العظمى من قرار
 بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت اخبارها حدود التواتر مرات وكادت
 تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من امثالها
 وما عضد شرفهم النبوى من جلال الملك الذى كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه
 بمزل عن ذلك وانه لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المنتسبين الى

البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لان الناس
 مصدقون في أنسابهم ويون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من
 نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء
 حسدا من عند انفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا
 الطعن الفائل والقول المكذوب تعلا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق
 الاحتمال وهيئات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم
 من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن
 وكبراء وهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الخوطى بن محمد بن يحيى
 العوام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم نقباء أهل البيت هناك والسالكون
 بيت جدهم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما تذكرهم عند ذكر
 الادراسة ن شاء الله تعالى (ويحق) هذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة
 ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القديح في الامام المهدي صاحب دولة
 الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنبي
 على أهل البغى قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون
 اتباعه من انتسابه في أهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم
 من حسده على شأنه ونهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين
 بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطأ العقب تقوا ذلك
 عليه وغضوا منه بالقديح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضاً كانوا يؤنون
 من ملوك المتونة اعدائه نخلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من
 السداجه واتحال الديانة فكان لمة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب
 للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فاصبحوا بذلك شيعة لهم وحر بالعدوهم
 ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتخريب عليهم والمناسبة لهم تشيعة
 للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما

ظنك برجل تقم على أهل الدولة مانقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم
منادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها
سافها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز اصرار او حامية وتساقت في ذلك
من أتباعه نفوس لا يحرصها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من
الملكوت وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب
لتلك الكلمة حتى عات على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من
التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقال من الدنيا حتى قبضه الله وليس
على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما تنجح اليه النفوس
وتخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم
يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره
وانفسحت دعوته سنة الله التي قد خات في عبادته (وإنما) انكارهم نسبه في
أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه ان ثبت أنه ادناه وانتسب اليه فلا دليل
يقوم على بطلانه لان الناس مصدقون في أنسابهم وان فالوا ان الرياسة لا تكون
على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبا يأتي في الفصل الاول من
هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودأبوا باتباعه والانقياد اليه والى
عصابته من مرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم
يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وإنما كان أتباعهم له بمعصية
المرغبة والمصمودية ومكانه منها ورسوم شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي
خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يناقلونه بينهم فيكون النسب
الاول كأنه انساخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الاول
في عصيته اذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذ كان النسب
الاول خفيا (وانظر) قصة عرقة وجرير في رياسة بجيلة وكيف كان عرقة
من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضى الله

عنه كما هو مذکور تتفهم منه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زات أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء وعاقبت بافكارهم ونقاها عنهم الكافة من ضعفه النظر والغفلة عن القياس وتلقوها أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناطره مرتبكا وعد من مناحي العامة فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمداهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمتنكف والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والازيفه واستقنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السرفيه حتى صار انتحاله مجهولة واستخف السوام ومن لارسوخ له في المعارف مطالعته وجملة الخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل والباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور (ومن الغلط) الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوى شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من أهل الخبايكة (وذلك) أن أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لأبدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في

الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده وقد كانت في
 العالم أمم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبارة ونو اسرائيل والقبط
 كانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياساتهم وصنائعهم ولغاتهم
 واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتبارهم للعالم تشهد
 بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الاحوال
 وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها أو ما يباينها أو يباعدها ثم جاء
 الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة أخرى وصارت الى ما أكثره
 متمارفا لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم
 وذهبت الاسلاف الذين شيدوا عزمهم ومهدوا ممالكهم وصار الامر في أيدي سواهم
 من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم
 أمم وانقلبت احوال وعوائد نبي ثأنها وأغفل أمرها (والسبب) الشائع في
 تبدل الاحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في
 الامثال الحكيمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة
 والامر فلا بد وان يفرغوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا
 عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا
 جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا
 بعض الشيء وكانت للاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي
 الى المباشرة بالجملة فما دامت الاجيال تتعاقب في الملك والساطان لا تزال المخالفة
 في العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن
 الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتخرج به عن مرامه
 قربا يسمع السامع كثيرا من اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال
 وانقلابها فيجريها لاول وهلة على ما عرف وبقيسها بما شهد وقد يكون الفرق
 بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط (من هذا الباب) ما ينقله المؤرخون من

أحوال الحجاج وان أباه كان من المعلمين مع أن التعاليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم (١) فيتشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والثأف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعاليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعلما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالله هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى لأعلى وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيبه للأمة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم عاذل الأئمة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث في ذلك من أصحاب العشرة فمن بعدهم فلما استقر الإسلام ووشجت عروق الأمة حتى تناوله الأم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعاليم واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والساطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي لتعاليم واختص استحاله بالمستضعفين وصار منتجها محترقا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن

يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهم
 قريش في الشرف ماعامت ولم يكن تعليمه للقرآن عني ما هو الامر عليه لهذا
 العهد من انه حرفة للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام
 (ومن هذا الباب) أيضا مايتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال
 القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود المسا كرفتت من بهوس
 الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون ان الشأن في خطة القضاء لهذا العهد عني
 ما كان عليه من قبل ويظنون بان ابن عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن
 عباد من ملوك الطوائف باشيانية اذا سمعوا ان آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة
 لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العروش كما نينه في
 فصل القضاء من الكتاب الاول وابن أبي عامر وابن عباد كاذم قائل العرب
 القاعين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معروفا ولم
 يكن نياهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد ان كان
 القضاة في الامر القديم لاهل (١) العصبية من قبيل الدولة واليه كما هي

(١) العصبية بفتح الحين التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه وشرفه
 عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبية محرمة وهم اقارب الرجل من قبل أبيه
 لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا المعنى ممدوحة وما العصبية
 المنمومة في حديث الجمع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل
 على عصبية وليس منا من مات على عصبية فهي تعصب رجل لقبيلة على رجل قبيلة أخرى
 لغير ديانة كما كان يقع من قيام عدو على حرام نسبة الى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين
 يتعصبون له ولو من غير اقاربه طالما كان أو مطاوما وفي الفتاوى الخيرية من مواع
 قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان ومن قبيلة
 كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم في الحديث ليس منا من دعا الى
 عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه قاله الاستاذ أبو الوفاء هـ

الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم
 عظم الامور التي لا تقاد الا لمن له الغنى فيها بالعصية فيغلط السامع في ذلك
 ويحمل الاحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعف البصائر من
 أهل الأندلس لهذا العهد لفقدهم ان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لقضاء
 العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البربر فبقيت
 أنسابهم العربية مضمومة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل
 صاروا من جهة العناية المتخاذلين الذين تعبدتهم القهر ورعمو اللئيلة يحسبون
 أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها التغلب والتحكم فتجد
 أهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك ساعين في نيابة فأما من باشر أحوال
 القبائل والعصبة ودولهم بالعبودية العربية وكيف يكون التقلب بين الامم والعشائر
 فقام يعاطون في ذلك ويخطون في اعتباره (ومن هذا الباب) أيضا ما يسلكه
 المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه
 ونسبه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين
 من غير تفرق لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضمون تواريخهم لأهل
 الدولة وأبنائها متشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليفتخروا آثارهم
 ويسبحوا على منوالهم حتى في اصطلاح الرجال من خائف دولتهم وتقايد الخطط
 والدراتب لابناء عسائهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدولة
 وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت
 الدول وتباعدت بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة
 ونسب ملوكهم من بعض في قوتها وتغلبتها ومن كان يناهضها من الامم أو
 يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش
 الخاتم واللقب والنسب والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم
 ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين

الاقدمين والذهول عن تحرى الاغراض من للمارح اللهم الاذكر الوزراء الذين
 عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخسدهم كالحجاج وبنى المهلب والبرامكة
 وبنى سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن أبي عامر وامنالهم فقير تكبير الامناع
 بأبائهم والاشارة الى أحوالهم لا تنضمهم في عداد الملوك (وانذكر) هنا فائدة
 نحتم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة
 بعصر أو جيل (فاما) ذكر الاحوال العامة الآفاق والاجيال والاعصار
 فهو أس للمؤرخ تبني عليه أكثر مفاصده وتبين به أخباره وقد كانت الناس
 يفردون بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال
 الامم والآفاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا وذكر ملهم وعوائدهم
 ووصف البلدان والجزيل والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والمعجم
 فصار اما مالمؤرخين يرجعون اليه وأسلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم
 عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون
 غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهد لم تقع فيها كثير انتقال ولا عظيم
 تغير واما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انتهت أحوال المغرب الذي
 نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتصم من أجيال البربر أهله على القدم من طرف
 فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بكسروهم وعلبهم واتزعوا
 منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيها بقي من انفس منكم هذا الى منازل بالعمران
 شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الصعود الجارف الذي تحيف الامم
 وذهب باهل الجليل وطوى كثيرا من محسن العمران ومحاها وجاء للدول على
 حين هزمها وبلوغ الغاية من مدتها فقتل من نخلها وقتل من حرها وأوهن
 من سلطتها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض
 بانتقاص البشر فخربت الامصار وانصعب وندرت السبل والمعالم وخات الديار
 والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل

ما نزل بالمغرب لك على نسبه ومقدار عمرانه وكأنتما نادي لسان الكون في العالم بالحمول والانتقاض فبادر بالاجابة والله ورث الارض ومن عابها واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنتما تبدل الخلق من منه وتحول العام بأسره وكانه خالق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث وحاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليفة الآفاق وأجيالها والموارد والسجل التي تبدلت لأهلها ويقفوا مسلك المسعودي بعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده (وانا ذاكر) في كتابي هذا ما أمكنتني منه في هذا القصر المغربي امد صريح او مندرجا في اخباره وتلويحا لاحتصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأئمه وذاكر ممالكه ودوله دون ما سواد من الاقطار لعدم اصلاحي على أحوال المشرق وأئمه وان الاخبار المتناقلة لا توفي كنه ما تريد منه والمسعودي انما استوفى ذلك بعد رحلته وتقابه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه نادى المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم وصمد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متمين واجب ومن كان الله في عونته تسيرت عنده المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب (ونحن) آخذون بعون الله فيما رزقنا من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعينه التكلان (وقد) بقي علينا أن تقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذ عرصت في كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف في اللطوق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الاصوات الخارجة من الخنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وحرف اللسان مع الخنك والحق والاضراس أو بقرع الشفتين بعد وتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجيء الحروف متميزة في السمع وتترك منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر وليست الامم كلها متساوية في اللطوق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعربيين حروفا ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضا

حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترک والبربر وغير هؤلاء من المعجم
ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطاحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة
باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع الف وباء وجيم وراء وطاء
الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف
لغتهم بقى مهملًا عن الدلالة الكتابية متفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب
بشكل الحرف الذي يليه من لغتهم قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل
هو تغيير للحرف من أصله * ولما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض
المعجم وكانت تعرض انا في ابحاثنا عن بعض كتابهم حروف ليست من لغة
كتابنا ولا اصطلاح أو ضاع اصطلاحنا الى بيانهم ولم نكتف برسم الحرف
الذي يراه كما قلناه لانه عندنا غير وافي بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا
على أن أضع ذلك الحرف المعجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتشفانه ليتوسط
القارىء بالنطق به بين مخرجي ديكت حرفين فيحصل تأديته وانما اقترنت
ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاسماء كالتصراع في قراءة خائف فان
النطق بصادها فيها معجم متوسط بين الصاد والراء فيوضع الصاد ورسموا
في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على المتوسط بين الحرفين وكذلك
رسمت انا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند
البربر بين الكاف المصرية عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلدين فاضعها كفا
وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو
ثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف
أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف
المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارىء أنه متوسط فينطق به
كذلك فتكون قد دللتنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبه
لكنا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم

فاعلم ذلك والله الموفق للصواب منه وفضله

﴿ الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من
البدو والحصر والتغلب والكدب والمعاش والصنائع والعلوم
ومحوها وما لذلك من العلل والاسباب ﴾

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الاسانى الذى هو عمران
العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأانس
والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من
الملك والدول ومراتبها وما ينتظمه البشر باعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش
والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال
ولما كان الكذب متطرقا لا يجبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء
والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه
من التحجيص والنظر حتى تبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأى أو
مخلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لأون وهمة وكان ذلك اميد والتشيع غطاء
على عين بصيرتها عن الانتقاد والتحجيص فتقع في قبول الكذب ونقله * ومن
الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع
الى التعديل والتجريح (ومنها) انه هول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف
القصد بما عين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب
(ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين
(ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس
والتصنع فينقلها الخبر كما رآها وهى بالتصنع على غير الحق في نفسه (ومنها)
تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال
واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة

بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في
 الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها * ومن الاسباب مقتضية
 له أيضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان
 كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته
 وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع نارقا بطبائع الحوادث والاحوال
 في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب
 وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قول
 الاخبار المستحيلة وينقلونها وتوثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما
 صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف أخذ تابوت الخشب وفي باطنه
 صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية
 التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية وصبها حذاء البنيان فبليت تلك
 الدواب حين خرجت وعابيتها وتم له بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة
 يستحيلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاج ومصادمة البحر وأواجهه بجرمه ومن
 قال إن الملوك لا تحبيل أنفسهم على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرّض
 نفسه للهلكة وانتقام العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك انلافه ولا يتطرون
 به رجوعه من عروره ذلك طرفة عين ومن قبل أن الجح لا يعرف لها صور
 ولا تماثيل تختص بها إنما هي قادرة على الشكل وما يدكر مس كثرة الرؤس لها
 فانما المراد به البشاعة والتهويل لأنه حقيقة (وهذه) كلها قاذحة في تلك الحكاية
 والقادح المحيل لها من طريق ان وجود أبن من هذا هو وأن المغمس في الماء
 ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء لتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة
 قلبه فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل مزاج الرئة والروح القاني وبهدت
 مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات اذا طبقت عليهم عن الهواء البارد
 والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالمفونة ولم تداخها

الرياح فتخلعها فان المتدلي فيها يهلك لحيمه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا
فارق البحر فن الهواء لا يكفيه في تعديل رثته اذ هو حار بافراط والماء الذي
يعدله ببرد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولى الحار على روحه الحيواني
ويهلك دفعة منه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المستحيلة
ماتقه المسعودي أيضا في تمثال الزرور الذي برومة تجتمع اليه الزراير في
يوم معلوم من السنة حاملة للكريتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما بعد ذلك
عن الحري الطيبي في اتخاذ زيت (ومنها) ماتقه البكري في بناء المدينة المسماة
دات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب
والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها
فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضا في حديث مدينة النحاس
وانها مدينة كل نائها نحاس اصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في
عزوتها الى المغرب وانها منقحة الابواب وان الصاعد اليها من أسوارها اذا أشرف
على الحائط صفق ورعى نفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة
من خروفت القصاص وصحراء سجلماسة قد تقضها الركاب والادلاء ولم يقفوا
لهذه مدينة على خير ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل مادة
مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الوجود
منها أن تصرف في الآية (١) والحري وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من
الاستحالة والمعد أمثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو معرفة طامع العمران وهو
أحسن لوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق
على المحييص تعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك
الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل
والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله

(١) قوله الحري بالضم أثاث البيت اه قاموس

أن يؤول بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الزان بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بنزواتها عدالة والصبط (وأما الاخبار) عن الواقعات فلا بد في صدقها وحقها من اعتماد المطابقة فإذ كان يجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدم عليه دونها الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بنظابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن ينظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران وتتميز ما يباحقه من الاحوال لذاته ومقتضى طبعه و. يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه رهني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران عامما محكما بقبوله مما نحكم بتزيينه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا تجري به انوار رحمة طريق الصديق والصوراب فيما ينقلونه وهذا هو عرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا وكان هذا علم مستغل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يباحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان او عقليا (واعلم) ان الكلام في هذا العرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غريب الفائدة اعتر عليه البحث وأدى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو ^{اطلعت} أحد العلوم المنطقية فن موضوع الخطابة تمامها والاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأى أو صدقهم عنه ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يحق بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فمذخالف موضوعه موضوع هذين الفنين الذين ربي يشبهانه وكأنه علم مستنط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليفة ما أدري لغفتهم عن ذلك وليس الظن بهم

أو لعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بتحويلها عند الفتح وأين علوم الأكلطيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عندهم من آثارها وتأثيرها وأين علوم القبط ومن قبائلهم وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكثافة المأمون باخراجها من لغتهم وافتاداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم تقف على شيء من علوم غيرهم وإذا كانت كل حقيقة متعلقة بطبيعية يصاح أن يبحث عما يمرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلمهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا إنما ثمرته في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحج الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجره والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا المن) الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجرى بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما ذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس يحتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيين العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للانسان مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد النوع وأن الظلم يؤذن بخراب العمران لمقضى لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يمرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلة وكذلك أيضا يقع إلينا القليل من مسائله في كليات متفرقة لحكماء الخائفة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام الموبدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقاهها المسعودي

أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت
 أمره ونهيته ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام
 للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل
 والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيا وهو الملك
 (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بعينه انك بالجند والجند بالمال والملك
 بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بصالح العمال واصلاح العمال
 باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على
 تأديتها حتى يملكها ولا تملكه (وفي الكتاب) المنسوب لارسطو في السياسة
 المتداول بين الناس جزء صالح منه الا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من
 البراهين ومختلط بغيره وقد اشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقانا
 عن الموبدان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها وهو
 قوله العالم بستان سياجه الدولة الدولة بساطان تحياه السنة السنة سياحة
 يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق
 تجمعه الرعية الرعية عبيد يكفلهم العدل العدل مأثوف وبه قوام العالم العالم
 بستان ثم ترجع الى أول الكلام فهذه ثمان كلمات حكيمية سياسية ارتبط بعضها
 ببعض وارتدت أعجازها على صدورها واتصت في دائرة لا تعين طرفها فخر
 بعثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك
 وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثناءه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل
 اجملها مستوفى بنا باوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عايه من غير
 تعليم ارسطو ولا افادة موبدان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد
 في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة
 كما برهناه انما يجليها في الذكر على منحنى الخطابة في أسلوب الترسيل وبلاغته
 الكلام وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه

على ابواب تقرب من ابواب كتابنا هذا ومسائله ولكنه لم يصادف فيه الرمية
 ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة انما يبوب الباب للمسئلة
 ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكام الفرس
 مثل بزرجمهر والمو بذان وحكام الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من
 أكابر الخليفة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حججا
 انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا
 تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهنا الله الى ذلك الهاما وأعثرنا على علم
 جعلنا بين بكرة وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسأله وميزت عن سائر
 الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتني شيء في احصائه
 واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق صلاحه ولي الفضل لاني نهجت له السبيل
 وأوصحت له الطريق والله يهدي بنوره من شاء (ونحن) الآن نبين في هذا
 الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب
 والعلوم والصنائع بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة
 وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان متميزا عن سائر
 الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي
 تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم
 التواضع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها
 الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامى
 لا بفكر وروية ومنها السعى في المعاش والاعتماد في تحصيله من وجوهه واكتساب
 أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى
 التماسه وطلبه قال تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التماس
 والتنازل في مصر أو حيلة للانس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من
 التعاون على المعاش كما سنبينه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون

في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجعة في القفار وأطراف الرمال ومنسفة
 ما يكون حضر ياوهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمدائر للاعتصام بها والتحصن
 بجدرانها وله في كل هذه الاحوال أمور آرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتياله
 فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الاول) في العمران
 البشرى على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض (والثاني) في العمران البدوي
 وذكر التباثل والائم الوحشية (والثالث) في الدول والخلافة والملك وذكر
 المراتب الساطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والامصار (والخامس)
 في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه (والسادس) في العموم واساسها وتعاليمها)
 وقد قدمت العمران البدوي لانه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقدم
 الملك على البلدان والامصار وأما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي وتعلم
 العلم كالمالي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب
 لانها منه ببعض الوجود ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق
 للصواب والمعين عليه

❖ الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشرى على الجملة وفيه مقدمات ❖
 (الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري ويمبر الحكماء عن هذا بقولهم
 الانسان مدني بطبيع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم
 وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خالق الانسان وركبه على صورة لا يصح
 حياتها وقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة
 على تحصيله الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذات
 الغدء غير موفقة له بمادة حياته منه ولو فرصانته أقل ما يمكن فرصه وهو قوت
 يوم من الخنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والصبغ
 وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين والآلات التي لا تتم الابصناعات
 متعددة من حديد ونجار وفاخوري هب أنه يأكله حبه من غير علاج فهو أيضا

يحتاج في تخصيصه حبا الى أعماق أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد
والدراس الذي يخرج الحب من علاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات
متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بمضه
قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل العوت
له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك
يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لان
الله سبحانه لما رك الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حطوظ
كثير من الحيوانات العجم من القدر أكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس
مثلا أعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والنور وقدرة الاسد
والتميل أضعاف من قدرته وما كان العدووان طبيعيا في الحيوان جعل لكل
واحد منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان
عوضا من ذلك كله المكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الذبكر والصنائع
تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع
من الرماح التي تنوب عن القرون المناظحة والسيوف النائية عن المنخالب الجارحة
والتراس النائية عن البشرات الخابية الى غير ذلك مما ذكره جايوس في كتاب
منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات
العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا
باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها
فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا
يحصل له قوت ولاغذاء ولا تتم حياته لما ركبته الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء
في حياته ولا يحصل له أيضا دفع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة
للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون
حصل له القوة للغذاء والسلاح ومدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه

فأذن هذا الاجتماع ضروري للوع الاساني والالم يكمل وجودهم وما اراده الله من اعتمار العالم بهم ونستحلافه ايهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لانه تقرير في الصنعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس ايضا من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضه ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهلماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسيطان وليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعة ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كفي النحل والجراد بل استقرى فيها من الحكم والانتقاد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه وجسمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى المنطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزبد الالاسمة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النسوة بالدليل العقلي وانها خاصة طبيعة للانسان فيقولون هذا البرهان الى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوارع ثم يقولون ما ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من الناس وانه لا بد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليتبع التسييم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تعريف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه

أول المعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون
 للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب وانهم أكثر أهل العالم
 ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فصلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا
 العهد في الأقاليم المنحرفة في الشبهان والحوب بخلاف حياة البشر فوضى دون
 وازع لهم البتة فإنه يتمتع وهمد يتبين لك عظمهم في وجوب النبوات وأنه ليس
 بعقلى وإنما مدركه الشرع كما هو مدع السلف من الأمة والله ولى التوفيق
 والهداية

﴿ المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض والاشارة الى بعض ما فيه من الأشجار والانهار والاقاليم ﴾

اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء البحريين في أحسوان العالم أن شكل الأرض
 كرى وأنها محفوظة بعنصر الماء كسائر عناصرها فالحجر بناء عن
 بعض جوانبها لما أراد الله من كبرى حيويت فيها وعمرانها بالوعاء المشرى
 الذى له الخلافة على سائرهما وقد يتوحد من ذلك أن شاء تحت الأرض وليس
 بصحيح وإنما التحت الطبيعي قبل الأرض ووسط كرتها الذى هو مركزها
 والكل يطأه بما فيه من الثقل وسعد ذلك من جوانبها وأما الماء فحيط بها
 فهو فوق الأرض وان قيل فى سببها من تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة
 أخرى منه وأما الذى انحسر عنه من الأرض فهو النصف من سطح كرتها فى
 شكل دائرة أحاط العنصر المائى من جميع جهتها بجرا يسمى البحر المحيط
 ويسمى أيضا الدايه بفتح اللام الثانية ويسمى أوقيانوس أسما أعجمية ويقال
 له البحر الأخضر والاسود ثم إن هذه تنكشف من الأرض من ران فيه القفار
 والخللاء من عمرانها والخللى من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وإنما
 المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالى على شكل مسطح كرى ينتهى من جهة

الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كرى ووراءه الجبال
 الفاصلة بينه وبين الماء العصري الذي بينهما سدياً جوج وما جوج وهذه الجبال
 مائلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب الى عنصر الماء أيضا بقطعتين
 من الدائرة المحيط. وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من
 الكرة أو أقن والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقليم السبعة وخط
 الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض واكبر
 خط في كرتها كما أن منطقة فلک البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك
 ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة
 وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال لان لميل أربعة
 آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والأصبع ست حبات شعير مصنوفة
 ماصق بعضها الى بعض ظهر البطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك
 بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون
 درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة
 والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والخمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء
 كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان الخبرين عن هذا المعمور
 وحدود. وما فيه من الامصار والمدن والسمال والبحار والانهار والقمار والرمال
 مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجاء من بعده قسموا هذا
 المعمور بسبعة أقسام يسمونها الاقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب
 متساوية في العرض مختلفة في الطول فالاقليم الاول أصول مما بعده وكذا الثاني
 الى آخرها فيكون السابع أقصر ما اقتضاه وسع الدائرة المنتشرة من تحسب الماء
 عن كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من
 المغرب الى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه
 (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الاقاليم الرابع

البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضابق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطرينف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفسح الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على الف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طرينف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويعبر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة اميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة اميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض هريقلية وينتهي الى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين امم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثاني من خليج هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال ما انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلابية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافته من البنادقة الروم وغيرهم اهم ويسمى خليج البنادقة (قالوا) وينساح من هذا البحر المحيط ايضا من الشرق الى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغربا الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي

وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلاد مقدشو ثم بلاد سفالة وأرض الواق واق وأمم آخر ليس بعدهم الا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشى بجران آخران (أحدهما) يخرج من نهايته عند باب المنذب فيبدأ متضايقا ثم يمر مستبحرا الى ناحية الشمال ومغربا قليلا الى أن ينتهي الى مدينة القازم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القازم وبحر السويس وبينه وبين قسطنطينية مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل العميد وعيداب وسواكن وزباج ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبلة يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشى ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغربا قليلا الى أن ينتهي الى الالة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على اربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين والتمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشى من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضى الى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبنغازي وايران كسرى والحيرة ووراء ذلك أمة

الاعاجم من الترك والحزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب
 منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة
 الجنوب منها وسواحلها على البحر الحبشى (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر
 منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان
 وطبرستان طول ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربه أذربيجان والديلم
 وفي شرقه أرض الترك وخوارزم ومن جنوبه طبرستان وفي شماله أرض الخزر
 واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا * قالوا وفي هذا
 الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر
 بلخ المسمى جيحون (فاما النيل) فبداؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء
 بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقاليم الاول ويسمى جبل
 القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب
 بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البخيرتين فتصب
 كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج من
 هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمتة ويمر ببلاد النوبة
 ثم بلاد مصر فاذا جاورها تشعب في شعب متفرقة يسمى كل واحد منها خليجا
 وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعاليه الصعيد
 من شرقه والواحات من غربه ويذهب الآخر منه مطلقا إلى المغرب ثم يمر على
 سمتة إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأسمهم كلهم على ضفتيه
 (وأما النرات) فبداؤه من بلاد رمنية في الجزء السادس من الاقاليم الخامس
 ويمر جنوبا في أرض اروم ومناطية إلى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقعة بالكوفة
 إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر
 الحبشى وتجاوب إليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في
 دجلة (وأما دجلة) فبداؤها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضا وتر على سمت

الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى واسط فتنفرق الى خلتيجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضى الى بحر فارس وهو في الشرق على عين الفرات، وينجلب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيها بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتى الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فببدءه من بلخ في الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليه أنهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي باسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله واليهما ينصب نهر فرغانة والشاش الآتى من بلاد الترك وعلى عرى نهر جيحون بلاد خراسان وحوارزم وعلى شرفيه بلاد بخارى وترمد وسمرقند ومن هناك الى ماوراء بلاد الترك وفرغانة والخزلية وأم الاعح وقد ذكر ذلك كله بطايموس في كتابه والتشريف في كتاب زجر وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والادوية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولان عنايتنا في الاكثر انما هي بالمغرب الذي هو وطن العرب وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق

✽ تكلمة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع السهلي من الارض أكثر عمراناً

من الربع الجنوبي ود كر السب في ذلك ✽

ونحن نرى بالمشاهدة والاختبار المتواترة ان الاول والثاني من الاقليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما وما وجد من عمرانها فيتنخاله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما وأم هدين الاقليمين وأناسيها ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدها بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومه وأممها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها مندرج ما بين الثالث

والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لا فراط الحر
وقلة دل الشمس فيها عن سمت الرأس فأنوضح ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة
العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع (فقول) ان
قطبي الفلك الجنوبي والشمالى اذا كانا على الافق فهناك دائرة عظيمة تقسم النلك
بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار
وقد تبين في موضعهم من الهيئة أن الفلك الاعلى يتحرك من المشرق إلى المغرب حركة
يومية يحرك بها سائر الافلاك التي في حوفه قهرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك
تبين أن الكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى
المشرق وبمختلف مؤداها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء وممرات
هذه الكواكب في أفلاكها وتوازيمها كلها دائرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه
بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجاً وهي على ما تبين في
موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول
الحمل وأول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل
النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة ونصف مائل عنه إلى الجنوب
وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق في جميع نواحي
الارض كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من
المغرب إلى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا
في مبدا الاقاليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه
والقطب الشمالى يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى
اربع وستين درجة وهناك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع * واذا ارتفع
على الافق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب
على سمت الرأس وصارت دائرة معدل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج
فوق الافق وهي الشمالية وستة تحت الافق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الاربعة

والسنتين الى التسعين ممتنعة لان الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعده
الزمان بينهما فلا يحصل التكوين فاذا الشمس تسامت الرؤس على خط الاستواء
في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامته الى رأس السرطان ورأس الجدى
ويكون نهاية مياهها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب
الشمالى عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه
وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل
المواقيت عرض البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس علت
عليها البروج الشمالية مندرجاً في مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت
البروج الجنوبية من الافق كذلك الى رأس الجدى لانجرافها الى الجانبين في
أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق الشمالى يرتفع حتى يصير ابعده الشمالية
وهو رأس السرطان في سمت الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً
وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذى اذا مال رأس السرطان عن
معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالى حتى صار مسامتا
فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامته ولا تزال
في انخفاض الى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس
عن المسامته كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الافق مثلاً فينقطع التكوين
لافراط البرد والجد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامته
وما يقارها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامته على
زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانشر بخلافه في
المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامته وما يقرب منها أكثر منه فيما
بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين * ثم ان المسامته في خط الاستواء تكون
مرتين في السنة عند تقطى الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر
يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صعدت الى المسامته

فتبقى الاشعة القائمة الزوايا تاج على ذلك الافق ويطول مكنها أو يدوم فيشتعل
الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا مادامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد
خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فإن الاشعة ماعحة على الافق في ذلك
بقرب من الحاحها في خط الاستواء وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا وبسا
يمنع من التكوين لانه اذا فرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين
في المعدن والحيوان والنبات اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس
السرطان عن سمت الرأس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس
عن التسامته فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين
ويتزايد على التدريج الى أن يفراط البرد في شدته لاقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة
الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم
منه من جهة شدة البرد لان الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في
الجسد فذلك كان العمران في الاقاليم الاولى والثاني قايلا وفي الثالث والرابع
والخامس متوسطا لاعتدال الحر بين صان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا
لنقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر
اذ لا تخفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع
فانها كان العمران في اربع السهالي أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ
الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأوردعائهم أنه معمور بلا شاهدة والاحبار
المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران
فيه بالكلية انما أدانهم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر
والعمران فيه اما تمتع أو تمكن أقل وهو كذلك فان خط الاستواء والذي
وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا * وقد زعم ابن رشد أن خط
الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر
من هنا والذي قلناه غير تمتع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط

الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً لتكوين ولما امتنع المعتدل لغاية الماء تبعه ماسواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لامن جهة الامتناع وأما البول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر، والله أعلم ولترسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجارتهم تأخذ في تفصيل الكلام عليها الخ

* تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا *

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله * فالاول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحدوده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الاقمار والرمل وبعض عمارة ان تحت فهي كلاب عمارة وبياه من جهة شماليه الاقاليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة لشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والاقمار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقاليم الاول في جهة الجنوب الا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب ثم ان أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب لشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقاليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقاليم الثاني مما على الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو مقابله الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدى ويبقى للاقصر من

الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة التلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطول من ليالها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا المعد وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء ويمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما شتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبل والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادريسي الحمودي لملك سقلية من الافرنج وهو زجار بن زجار عند ما كان نازلا عليه بصقاية بعد خروج صقاية من امارة مالتة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتابا جملة للمسمودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدرى وابن اسحق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

(الاقليم الاول) وفيه من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بساط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر

متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال أنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من
الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقتلوا منهم فغنموا منهم وسبوا وبعوا
بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا
اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة
بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتلهم
بالحجارة يرمونها إلى خائف وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون
ديناولم تباعهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا العتور لا بالقصد
اليها لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها وإلى أين
يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في عمر ذلك المهب وإذا اختلف
المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القاع محاذاة يحمل السفينة بها
على قوانين في ذلك محصاة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في
البحر والبلاد التي في حثافي البحر الرومي وفي عسوته مكتوبة كلها في
صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على
ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها رسوم معها في تلك الصحيفة
ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر
المحيط فلدلك لا تلجج فيه السفن لأنها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن
تهتدى إلى الرجوع اليها مع ما يتعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من
الابخرة المماعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة
من سطح الأرض فتحللها فلدلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها
وأما الجزء الأول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل
القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه
عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكروبر وغانة وكلها لهذا العهد
في مملكة ملك مالي من أمم السودان وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى

وبالقرب منها من شمالها بلاد لتونة وسائر طوائف المائمين ومفاوز يجولون فيها
وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم المم وهم كفار ويكتوون في
وجوههم وأصداعهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم
للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب
عمران يعتبر الأناسى أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون القيافي
والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربما يأكل بعضهم بعضا
وليسوا في عداد البشر وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل
توات وتكدرارين ووركلان فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين
يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زجاراته صالح بن عبد الله بن حسن
ابن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه
الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث
من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر يبيع من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا
فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان
مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك تذكرها
عند ذكر دولة مالي في محالها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم
من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد
نغاره وكاتم بلاد زغاوة وناجرة المتصلة بارض النوبة في الجزء الرابع من هذا
الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي
في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست
عشرة درجة واختاموا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم
نسبة الى قر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم
القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج
من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال

ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ماحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدها جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنا عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على وادي يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ونظاموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغرر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة أو فيما على سواحل الجنوبية وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحل من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الاول الاطراف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن في الجزء السادس من

هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وها
بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد
الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة
وما والاها كما نذكره في الاقليم الثاني وما بعده فاما الذي على ساحل هذا البحر من
غربيه فبلد زالغ من اطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة (١) في شمال الحبشة
ما بين جبل العلاقي في أعلى الصعيد وبين بحر القازم الهابط من البحر الهندي
وتحت بلاد زالغ من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر
الهابط هنالك بمزاحة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتد مع ساحل
اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى
ان يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مرابك اليمن
الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سوا كن ودهلك
وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في
هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله بلد على بن يعقوب وفي جهة الجنوب
من بلد زالغ وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضها
وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويايها هنالك من جهة شرقيها
بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي
شرقي بلاد سفالة من الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من
هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط وأما جزائر هذا البحر
فكثيرة من اعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال
ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهي جزيرة
مسطحة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال

(١) قوله البجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال أيضا البجاة وأما زالغ

فهو زيلع اه

الى أن تقرب من سواحل أعلى الصين ويختلف بها في هذا البحر من جنوبها
جزائر النواقي واق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر آخر في هذا البحر
كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والافاريه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد
وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من احوال
العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في
الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها من جهة بحر القلزم بلد زبيد
والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلاد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر
الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدها
الى المشرق أرض الاحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر
ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي
انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل
من الجزء التاسع واكثر منه من العاشر فيه أعلى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة
خانكو وقيالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر
الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بتمه وفضله

✽ الاقليم الثاني ✽ وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في
البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الاول
والثاني منه في الجانب الاعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعلى
أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الاسفل منهما صحراء نيسر
متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب
وبلاد السودان وفيها مجالات الملتامين من صناجة وهم شعوب كثيرة ما بين
كزولة وملتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض
فزان ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعلى الجزء الثالث على سمتها
في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض

انباجويين في اسافل هـ - الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان
 وعلى سمتها شرقا أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من
 أعلاه بقية أرض الباجويين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حنفا في
 النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر فيمر في هذا
 الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات منى غربيه وجبل المقطم من
 شرقيه وعليه من أعلاه بلد اسنا وأرمنت ويتصل كذلك حفاقيه الى أسبوط
 وقوس ثم الى صول ويفترق النيل هناك على شعبين ينتهي الايمن منهما في
 هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما أعلى ديار مصر وفي
 الشرق من جبل المقطم محازي عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن تنتهي الى
 بحر السويس وهو بحر القازم الهابط من البحر الهندي في الجنوب الى جهة الشمال
 وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرس الحجاز من جبل يامل الى بلاد يثرب
 وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل ابدعنداب في العدو
 الغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب
 وتباله وجرس الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز
 وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران
 في الشرق أرض سبا ومأرب ثم أرس الشحر وينتهي الى بحر فارس وهو البحر
 الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء بالبحر الى
 الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قضة مائة عاينها من أعلا مدينة قاهاث
 وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحل بلاد عمان ثم بلاد البحرين وحر منها
 في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس
 تتصل بالقطعة الاخرى في السادس ويعمر بحر الهند جانبه الاعلى كله وعليه
 هنالك بلاد السند الى بلاد مكران ويقابها بلاد الطويران وهي من السند أيضا
 فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتكون المفاوز بينه وبين

أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم إلى أسفل من السند ثم إلى أعلى بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد مايبار وفي الجباب الأعلى أعلى ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقا إلى البحر المحيط ببلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الأقاليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفصل والكرم

✽ الإقليم الثالث ✽ هو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وهو على نحو الثالث من أعلاه جبل درن معترس فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أم لا يخصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطع التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجاماسة ثم قطعة من صحراء نيسر الممازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني وهذا الجبل مظل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قبائل الشاي والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثدياه ومسالكه إلى أن ينتهي وفي هذه الناحية من أم المصامدة ثم همتانة ثم تيملاك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر انصامدة فيه ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناته ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أم أخرى من البرابرة تذكروهم في أمباكنهم ثم إن جبل درن هذا من جهة

غربية مظل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها
 بلاد مراکش واعمامات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا
 وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد قاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه
 هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها
 بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط
 وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر
 لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية
 الغربية من الاقليم الرابع ويذهب شرقا فيتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من
 الخليج لتضايق غير بعيد انفسخ جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس
 فاهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد
 الجزائر من شرقها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينة في الشرق منها وفي
 آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتقا
 الى جنوب المغرب الاوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة
 تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة
 الشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على
 نحو اثنا من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر
 البحر الرومي مسافة من شماله فلقطعة الجنوبية عن جبل درن غربها كله
 معاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا أرض ودان التي بقيتها في
 الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي
 في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والاويس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في
 سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة
 ثم المهديّة وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة
 ونفزاوة وفيما بينها وبين السه احل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة

وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواراة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها محلات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضا فيه جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هناك طرف أو نان والبحر الرومي من شماليه غمر طائفة منه الى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومحلات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقصر أو آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلاد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم أجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طامسة على البحر هناك ثم في شرق المنعطف من الجبل محلات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الاعلى من غربيه بحاري برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب افتراقا ثانيا من تحت مصر على شعبين آخرين من شطوف وزفتى وينقسم الايمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل

البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وخليجانا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام وأكثرها على ماأصف وذلك لان بحر القازم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في عمره مبتدى من البحر الهندي الى الشمال ينعطف آخدا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم ايلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحه الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من عريبه عاها المرما والعريش وقارب ضرفها ببلاد القازم فيضايق ما بينهما من هالك وبقي شبه الباب مفضيا الى ارض الشام وفي غربي هذا الباب فخص التيه أرض جداء لاتبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المضايق لبحر السويس بلاد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبيتهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغازة وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام ففي شرقه عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلاد عكا ثم صور ثم سيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القازم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى ان يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام ففي طرفه عند ايلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر

الى مكة ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل
السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت
الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد الحجر ودير ثمود وتيماء ودومة
الجنديل وهي اسافل الحجاز وفوقها جبل رصوى وحصون خيبر في جهة
الجنوب عنها وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم بحراء تبوك وفي شمال جبل
السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها بلاد
الغور الى اذرعان وفي سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر
الحجاز وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة
دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها
وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعابك ثم مدينة حمص في الجهة
الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن بعابك وحمص بلد
تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات
الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وحر
على بحر فارس وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية
ومغايض الفرات وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر
فارس عند عبادان والابلة (١) من أسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند
عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من
الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر
تسمه في أعلاه متضايقة في آخره في شرقه وضيقة عند منتهاه متضايقة للحد
الشمالى منه وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وحر والاحساء وفي
غربها أخطب والصمان وبقية أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس
من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من

(١) قوله الابلة بضم الهمزة والباء وتشديد اللام اه

هذا البحر مشرقا ووراءه الى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان
وتحت هرمز على الساحل بيد سيراى ونجيم على ساحل هذا البحر وفي شرقيه
الى آخر احياء وتحت هرمز بلاد فارس مثل صابور ودارا بجردوناس واصطخر
والشاهان وشيراز وهى قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف
البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وصدى وصابور والسوس ورام هرمز
وغيرها وأرجان وهى حده ما بين فارس وخوزستان وفي شرقى بلاد
خوزستان جبال الاكراد متصلة الى نواحي أصهبان وبها مساكنهم ومجالاتهم
وراءها فى أرض فارس وتسمى الريوم وفي الجزء السابع فى الاعلى منه من
المغرب بقية جبال القفص وزيابى من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران
ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت ويزدشير والبهرج وتحت أرض
كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود أصهبان ومدينة أصهبان فى طرف
هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم فى المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض
سجستان وكوهستان فى الجنوب وأرض كوهستان فى الشمال عنها ويتوسط بين
كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان فى وسط هذا الجزء المناور العظيم
القائمة المسالك لعمومتها ومن من سجستان بست والطاق وأما كوهستان
فهى من بلاد خراسان ومن مشهيرة بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء
الثامن من غربه وجنوبه مجالات لجامح من أمم الترك متصلة بأرض سجستان
من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال
الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرصة الهند وفي آخر الغور من الشمال بلاد
استراباذ ثم فى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة أوسط خراسان وبها سفراين
وقاشان وبوشنج ومر والروذ والظالقان والجوزجان وتنتهى خراسان هنالك
الى نهر جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ وفي
شرقيه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر نهر

جيجون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمتة الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما نذكره ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال الهم من شرقيه أيضا وجوف الجبل حتى يوسع ويعظم بما لا كفا له ومن هذه الأنهار خمسة الممددة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء بعرضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مسرعا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه إلا مسالك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه النصل بن يحيى سدا ونى فيه بنا كسد بأجوج ومأجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيجون عند حدود بلخ ثم يمر هابطا الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجورجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيجون بلاد الماسان من خراسان وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال الهم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيجون وتذهب مسرعة الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خافه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل ابن يحيى ويمر نهر جيجون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر

بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعنى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرقي النهر من همالك ارض الصفد وأسروشنة من بلاد الترك وفي شرقها ارض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك تحوزها جبال الهم الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه ارض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي اسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزرجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها ارض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا ومن شرقها ارض التغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافه وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخيز من الترك أيضا الى آخر الجزء شرقا وفي الشمال من ارض خرخيز بلاد كتمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسالك والصعود الى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الماحية في استخراجها بما يابهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والخيال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظوا عن رحالة أهل اس وشاه وبقر وخبيل للستاج والركوب والاكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويفزون الكفار منهم الدائمين بالمجوسية فيبيعون رقبتهم من يابهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهمس والعراق

(الاقام الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في

الجنوب مدينة طنجة. ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خايح متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر انازوسبة جنوبا ويذهب منسقا الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسخ في ذهابه تتدرج الى أن يعمر الاربعة أجزاء واكثر الخامس وبعمر عن جانبيه طرفا من الاقاليم الثالث والخامس كما سندكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مبرقة ثم منرقه ثم سردانية ثم سقاية وهي أعظمها ثم دلونس ثم أقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقاليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقاليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقاليم ثم يقضي الى الجزء الرابع من الاقاليم السادس وينعطف الى بحر نبطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقاليم السادس كما نذكر ذلك في أما كنه وعند ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطان ثم بادريس ثم يعمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الاندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ثم لبلبة وقيالها فيه جزيرة قانس وفي الشرق

عن شريش وليلة انبيلية ثم استنجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم
 وادياس وبسطة وتحت هذه شنتمرية وشاب على البحر المحيط غنا وفي الشرق عنهما
 بطابوس ووردة ويابرة ثم غافق وبزجاله ثم قاعة رياح وتحت هذه اشبونة على البحر
 المحيط غربا وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها شترين وموزية على النهر المذكور ثم
 قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب
 هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد
 النصف منه وتحت هذا الجبل طابيرة الشرق من فورته ثم طابيطلة ثم مدينة سالم
 وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غربي الاندلس وأما
 شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لنتة
 ثم دانية ثم بانسية الى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة
 وشقورة يتاحمان بسطة وقاعة رياح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم
 شاعية تحت بانسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت
 هذه شمالا ارض منجالة ووريدة متاحمان لشقورة وطابيطلة من الغرب ثم افراغة
 شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطه ثم
 لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثاني من هذا الاقليم عمر الماء جميعه الاقطة
 من غربه في الشمال فيها بقية جبال البرنات ومعناه جبل الثمايا والسالك يخرج اليه من
 آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطوف المنتهي من البحر المحيط
 عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجيوب بانحراف الى الشرق فيخرج
 في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيتبع فيه
 قطعة منه تنفض شباها الى البر المتصل وتسمى ارض غشكونية وفيه مدينة خريدة
 وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم اربونه وفي
 هذا البحر الذي عمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغر هافني
 غربه جزيرة سيردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها

سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوس، وبارم وطرابغه ومازر
ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أعوش ومالطة
والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر الاثلاث قطع من ناحية الشمال
الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض ابكرده والشرقية من بلاد البنادقة
والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر وجزائره كثيرة
وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية
الغربية الشمالية وجزيرة أقريطيش مستطبة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب
الشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم يمر البحر منه مائة كبيرة بين
الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي
الضلع الجنوبي منها الى نحو النامين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من
الجزء قطعة نحو الثالث يمر الشمالي منها الى الغرب منعطفًا مع البحر كما
قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسفل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن
يتى الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هالك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي
ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز
من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من
جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر
الرومي متأخر الى آخر الجزء من السما وبين هذه الجبال شيا تسمى الدروب
وهي التي تفضى الى بلاد الارمن وفي هذا جزء قطعة منها بين هذه الجبال
وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدما أن فيها أسفل الشام
وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى
الشمال فعلى ساحل البحر منه بلاد أطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة
اغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أطرطوس جبلة ثم
اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام

المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفاهيه فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء
 جنوبا من غريبه حصن الحوانى وهو للحشيشة الاسماعيانية ويعرفون لهذا العهد
 بالمداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة انطرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق
 الجبل بلد سامية في الشمال عن حصن وفي الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد
 أنطاكية ويقابها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة
 ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام ويجاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة
 قنسرين في شرق الجبل حات ويقابل عين زربة منج آخر الشام وأما الدروب فعن
 يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركان وسلطانها
 ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلاد أنطاكية والعلايا وأما بلاد الارمن التي بين
 جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلاد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء
 الشمالى ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سبيحان
 في شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم
 بالمصيصة ثم ينعطفها بطلا الى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومى جنوب
 سلوقية ويمر نهر سبيحان موازيا لنهر جيحان فيجاذى المعرة ومرعش ويتجاوز
 جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف
 الى الشمال مغربا فيختلط نهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة
 التي يحيطها منعطف جبل الاسكمان الى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة
 والرقه ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وأمدتحت جبل السلسلة
 وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه
 القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد
 الارمن جنوبا الى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربى سميساط
 وسروج وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقه ويخرج الى الجزء
 السادس وتمردجلة في شرق آمد وتنعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء

السادس وفي الجزء السادس من هذا الاقليم من غربه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنهى في الشرق الى قرب آخر الجزء ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصهان هابطا من جنوب الجزء مسجرا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففي الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس وفي شمالها مخرج دجلة منه أما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب في أرض الجزيرة وبعوض في نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمر جنوبا ويكفي صفين في غربية ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعا في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبار من جنوبهما ثم يصب في دجلة عند بغداد وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكربت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في شرقيه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفي غرب القادسية الى أن ينهى الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا الى أن يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوه وجدوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجعها ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقه ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهروان قبالة

بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقاليم الثالث
ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولا وفي شرقها عند
الجبل بلد حلوان وصيمرة وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ
من جبل الاعاجم مسرقة الى آخر الجزء ويسمى جبل شهر زور ويقسمها
بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال
عن أصبهان وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نها وند وفي
شمالها بلد شهر زور غرباً عند ماتي الجباين والدينور شرقاً عند آخر الجزء في
القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها
من جبل العراق يسمى بريا وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير
الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان
ومنها تبريز والبياقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من
بحر نيطش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه
وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همدان وقزوين وبقية في الاقاليم الثالث وفيها
هناك أصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقاليم
الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقاليم الرابع ويتصل بجبل العراق
في شرقيه الذي مر ذكره هناك وأنه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية
ويحيط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الاقاليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج
الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هناك قاشان ثم
قم وبنعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً
فيذهب مشرقاً ومنحرفاً الى الشمال حتى يخرج الى الاقاليم الخامس ويشتمل
على منعطنه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر
يمر غرباً الى آخر الجزء ومن جنوبه من هناك قزوين ومن جانبه الشمالي
وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى

الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان
 ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه
 ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمته
 مشرقا وبأحرف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى
 بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين
 ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين
 فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ
 وحفا في هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي
 جنوب الجبل وسرق المفازة بلاد نيسابور ثم مرو والشاهجان آخر الجزء وفي شماله
 وسرق جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه
 تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد سا ويحيط بها عند زاوية الجزأين الشمال
 والشرق مفاوز معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون
 ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففي عدوته الغربية رم وآمل وبلاد خراسان
 والظاهرية والجرحانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه
 جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه
 ويحيط به هذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين
 هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هناك وفي شرقي نهر
 جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصفد وقاعدتها
 سمرقند ثم بلاد أسروشنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن
 سمرقند واسروشنة أرض يلاق ثم في السماء عن يلاق أرض الشاش (١) الى
 آخر الجزء شرقا وبأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية
 (١) في المشترك اقليم ابلق متصل باقليم الشاش لافصل بينهما وهو بكسر الهمزة
 وسكون الياء بعدها اه

أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شانه الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض بلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطة بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطاة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد السججات وطراز وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزاجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال في شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل بأجوج ومأجوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك انتهى

﴿ الاقليم الخامس ﴾ الجزء الاون منه أكبره مغمور بالماء الاقاييم الايام من جنوبه وسرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقيام فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هناك بالاندلس وعابها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما صامان محيطان براوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس - يور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسامنكة شرقا عنها وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن سامنكة أيلة آخر الجنوب وأرض قستانلية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض

جلاقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلاد
 شنتياقو ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطاية عند آخر
 الجزء في الجنوب وشرقا عن قستالية وفي شمالها وشرقها وشقة وينبلونة على سمتها
 شرقا وشمالا وفي غرب ينبلونة قسطالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت ويعترض
 وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب
 ويتصل به وبطرف البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن
 يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الاندلس
 من جهة الشرق وثناياه أبواب لها تفضي الى بلاد غشكونية من أم الفرنج فمنها
 من الاقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة
 وراءها في الشمال ومنها في الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة وأمالانكشفت
 في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مئذنة مستطيل زاويته الحادة
 وراء البريات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل
 البرنت بلديونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء
 أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه
 أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما وفي شرق بلاد
 غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخات في هذا الجزء كالف س
 مائة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر
 وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد حنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون
 وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من
 البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر
 في غربه ييش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الافرنجة ومسكن
 البابا بتر كهم الاعظم وفيها من المباني الضخمة والهيكل المهولة والكنائس العادية
 ماهو معروف الاخبار ومن عجائبها النهر الجارى في وسطها من المشرق الى المغرب

مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أفريصية الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد اسكلانية في الاقليم السادس وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيته يوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرقي بلاد قلورية بلاد اسكرد في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمت من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى أن ينتهي قبالة خليج في شماله في بلاد اسكلانية من أم اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ماداما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الالمانيين عند طرف الخليج وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مصرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء ترقا قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك

عن قرب مشرقا الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسى القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأطنها لهذا العهد محالات لا تترك ان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قباهم للروم وعلمهم عليها الامم الى أن صارت للتركان وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباق الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يحاط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى عمرة في الاقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبداء نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الداهيين على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقيه هنالك مبداء نهر الدجلة الذاهب على سمته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ من نهر دجلة بلد ميفارقين ونهر قباق الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباق أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبداء الدجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباق وهي عريضة وفي آخرها عند مبداء الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمدد خليج القسطنطينية وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربيه بلاد أرمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء

الى جاب الشرق وفيها بلد أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس وديبل
 وفي شرق أردن مدينة خللاط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة
 ارمينية ومن هنالك مخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفي هنالك بلد
 المراغه في شرقي جبل الاكراد المسمى بارمي وقدمر ذكره في الجزء السادس
 منه ويتاخم بلاد ارمينية في هذا الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق
 فيها بلاد أذربيجان وآحرها في هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من
 بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر
 طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركان
 ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض
 على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين
 ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن
 هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا
 كالأبواب تفضي من الجانبين ففي جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق الى
 بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب
 في الغرب من ناحية جنوبها ببلد ارمينية وبينها في الشرق وبين بلاد أذربيجان
 الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من
 هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية
 الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطن الذي يمدد خليج القسطنطينية وقد مر
 ذكره ويحف بهذه القطعة من نيطن بلاد السرير وعليها منها بلد أطرا
 بريدة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء الى
 أن ينتهي شرقا الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة
 صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي الى الزاوية
 الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا والجزء

السابع من هذا الاقليم غريبه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة متكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى أن يلاقى بحر طبرستان فيحتف به ذاهباً معه الى بيته في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغرباً الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوباً الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر واتصلت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع حفافي هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي * والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثمانمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربع مائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل التاج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بأخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية ويحف به من جهة الشرق آخر

الجزء جبل قوقيا المحيط بيا أجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا ببلاد الكيما كية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيما كية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سمتة الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السدهنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يأجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط عمرت طرفا في شرقيه من جنوبه الى شماه والا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مرفيه وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ الاقليم السادس ﴾ فالجزء الاول منه عمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانتكشفت قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخله بين طرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانيا وفي باها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس * والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه في قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال

من غربه الى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك
قطعة من جزيرة انكلطرة وهي جزيرة عظيمة مائة وستة وستين على مدن وسها
ملك ضخمة وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف
الغربي من هذا الجزء بلادار مندية وبلادافلا دس متصلين بها ثم بلاد افرنسيه
جوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرعها وكلها لامم الافرنجة
وبلاد الالمانيين في النصف الشرقي من الجزء فثونه بلاد اسكلية ثم بلاد
برغونية شمالا ثم أرض طويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية
الشمالية الشرقية أرض افرية وكلها لامم الالمانيين * وفي الجزء الثالث من هذا
الاقليم في الناحية الغربية بلاد مرانية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي
الناحية الشرقية بلاد اسكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما
جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن
يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي * وفي الجزء الرابع من ناحية
الجنوب أرض جنولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل راط
من أول الجزء غربا الى أن يقف في النصف الشرقي وفي شرق أرض جنولية
بلاد حرماية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها
عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنس
فيقع قطعة من بحر نيطنس في أعلى الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها
خليج ويدهما في الزاوية بدمسيناه * وفي الجزء الخامس من الاقليم
السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنس يتصل من الخليج في آخر
الجزء الرابع ويخرج على سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض
السادس على طول ألف وثمانمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل ويبقى
وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها الى شرقها
ير مستطال في غربه مرقاية على ساحل بحر نيطنس متصلة بأرض الميلاقان

من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلى على بحر
 نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية
 وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في
 هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء
 الرابع من هذا الاقليم * وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش ويحرف
 قليلا الى الشمال ويبقى بيه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قانية وفي جنوبه
 ومنفسحا الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر
 جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر
 وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بانغار وفي الزاوية
 الشرقية الجنوبية أرض باجر يجوزها هنالك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف
 مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعد متارفته مغربا فجوز في هذه
 القطعة ويدخل الى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هناك بحبل
 الابواب وبيته من هنالك ناحية بلاد الخزر * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم
 في الناحية الجنوبية ما حازه جبل سياه بعد مفارقاته بحر طبرستان وهو قطعة
 من أرض الخزر الى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي
 يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها وراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية
 أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب وخنك وهم أمم
 الترك * في الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجوج من
 الترك في الناحية الشمالية غربا أو الأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال ارياجوج
 وما جوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الاثل من
 أعظم أنهار العالم وممره ببلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس وفي
 الجزء السابع منه وهو كثير الامطاف يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاثة

بنايبع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت غرب الى آخر السابع من هذا الاقليم
 فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب
 والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف
 ثاية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه
 جدول يذهب مغربا ويصب في بحر بيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة
 بين الشمال والشرق في بلاد باغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس
 ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الحزر ويخرج
 الى الاقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في
 القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع
 من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قنحاق
 وبلاد الركن منهم أيضا وفي الشرق منه بلاد بأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا
 المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب
 معه الى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه مغربا وانحرف الى الشمال حتى يدخل
 في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمتة الاول حتى يدخل في
 هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف الى المغرب وفي
 وسطه هناك السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على سمتة الى الاقليم السابع
 وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى ان يلقى البحر المحيط في شماله
 ثم ينعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه
 فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربه وفي وسط هذا الجزء التاسع
 هو السد الذي بناه الاسكندر كما قانا والصحيح من خبره في القرآن وقد
 ذكره عبد الله بن خرداذبه في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كان
 السد افتتح فانتبه فرعا وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه
 في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا * وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم

بلاد ماجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطية في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق

* الاقليم السابع * والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجز منها الى البر في هذه النطقة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة سلانده مستطية من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أكثره بالبحر الا قطعة مستديرة في جنوبه وتقع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وأما في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطية مع الشمال من المغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائرة اشلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه * وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جمل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطنش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الى بحيرة ظرمي من هذا الجزء وهي عذبة تنجاب اليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من

هذا لجزء أرض التتارية من التركان الى آخره وفي الجزء السادس من الناحية الغربية لجنوبية متصل بلاد القماية وفي وسط الناحية بحيرة عمور عذبة تنجاب اليها الامهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الاقايلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القماية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الراوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض باغار التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذا القطعة من أرض باغار ومنعطف مهر ائل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض يحنالك من أمم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر ب ثم بقية الارض الممتدة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه والجزء الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الارض الممتدة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الارض بعيد المهوى فسيح الاقطار ممتنع الوصول الى قمعه يستدل على عمرانه بالدخان في النهار واليران في الليل تصبى وتخبى وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يجوها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هناك سد يأجوج وماجوج

وقد ذكرناه وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطية أحاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خالق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

﴿ المقدمة الثالثة ﴾

﴿ في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر
والكثير من أحوالهم ﴾

(قد بينا) أن العمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه لا فراطا الحرفي الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط ويكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي حيزا فيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فاهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى البهوات فانما توجد في الاكبر فيها ولم نقف على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسل انما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتباغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس

والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منه في هذه الاقليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدى هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات وأما الاقليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب واقواتهم من الذرة والعشب ومسلابهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وادمتها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات واخلاقهم مع ذلك قريبة من خالق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الاقليم الامل أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذلك السقالية والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم واخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك احوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدنون بشريعة الامن قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الاقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائمين بالصراية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لارض المغرب الدائمين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا في المائة السابعة ومثل من دان بالصراية من أمم الصقالية والافرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الاقليم المنحرفة جنوبا وشمالا فلديهم مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسى قريبة من احوال البهائم ويخلق مالاتعمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن

وحضر موت الاحقاف وبلاد الحجاز واليامة وما اليها جزيرة العرب في الاقاليم الاول
 والثاني فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلاثة كما ذكرنا فكان
 لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه
 الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر وقد توهم بعض النسابين ممن
 لاعلم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد
 لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون
 في ذات حكاية من خرافات القصص ودعاء نوح على انه حام قد وقع في التوراة
 وليس فيه ذكر السواد وانما دعا عليه بان يكون ولده عبيد لولد اخوته لا غير
 وفي القول بنسب السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرها في الهواء
 وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل أهل الاقاليم الاول
 والثاني من مزاج هوائهم لاجل الحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم
 مرتين في كل سنة قريبة احدهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر
 الضوء لاجلها ويباح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر ونظير هذين
 الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الاقاليم السابع والسادس شمل سكانهما ايضا البياض
 من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى
 العين أو ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر
 فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي الى الزعورة ويتبع
 ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وسهوبة
 الشعور وتوسطت بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في
 الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع المنع في الاعتدال غاية
 لهائته في المتوسط كما قدمناه فكان لاهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه
 مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية المتوسط لميل
 هذا قليلا الى الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا أنهما لم ينتهيا الى

الانحراف وكانت الاقاليم الاربعه منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم
 فالاول والثاني للحمر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض ويسمى سكان
 الجنوب من الاقليمين الاول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة
 على الامم المتفيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمسجد مكة واليمن
 والزنج بمسجد بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من أجل انسابهم الى آدمي
 أسود لاحام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع
 المعتدل أو السابع المنحرف الى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التسريح مع
 الايام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود
 ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في
 أرجوزته في الطب

بالزنج حر غير الاجساد * حتى كسا جلودها سوادا

والصقل اكتسبت البياضا * حتى غدت جلودها بياضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لا أهل تلك اللغة
 الواضحة للاسماء فله يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده
 ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من
 الافرنجة وبأجوج ومأجوج أسماء متفرقة واجيال متعددة مسمين بأسماء متنوعة
 وأما أهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم
 وكافة الاحوال الطبيعية للاعتبار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم
 والرياسات والملك فكانت فيهم السموات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان
 والامصار والمباني والغراسه والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة وأهل
 هذه الاقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنو اسرائيل
 واليونان وأهل الهند والصين ولما رأى النسابون اختلاف هذه الامم
 بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان

من ولد حام واربوا في أولادهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنحايين للعلوم والصنائع والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو اختيار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحباشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالانتساب فقط وليس كذلك فإن التمييز للجبل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبنو إسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كالزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شابههم من نحلة أولون أو سمة وحدث لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وأن هذه كلها تبدل في الأعتاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجرد سنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكامه وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم

سنة المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر

(قدرأينا) من خاق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشييه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكائه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخاخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشي

الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصت حرارة الهواء في ارواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما نبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقاليم الحارة واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقايمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر نفسيا فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويحيى الطيش على أثر هذه وكذلك يالحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة مما ينعكس عليه من أضواء بسبط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الاقاليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياق والتلول واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غاب الفرح عنهم والحمة والغفنة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة ما كلفهم من أسواقهم * ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حموب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره وتبسع ذلك في الاقاليم والبلدان نجد في الاخلاق أثرا من كيمييات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسودي للبحث عن السبب في خلة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحول تعامله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا يحصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ المقدمة الخامسة ﴾

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك
من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم .

(اعلم) ان هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها
في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم
والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض
الحرّة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل
الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب
وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم
جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائئين في
القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من التلول الا أن ذلك في الاحايين
وتحت رقبة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجددهم فلا يتوصلون منه الا الى سد
الخلّة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب وتجددهم يقتصرون في غالب أحوالهم
على الالبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجدد مع ذلك هؤلاء الماقدين
للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل
التلول المنعمين في العيش فالوانهم أصفي وأبدانهم أبقى وأشكالهم أتم وأحسن
واخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقّب في المعارف والادراكات هذا أمر
تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين
المثلثين وأهل التلول بعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم بأمر
الاغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد اقطارها في غير
نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الاشكال
من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الازهان والافكار بما يصعد الى

الدماغ من اجزتها الرديئة فتجى البلاد والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة
 واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهاو والزرافة
 والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعى الخصبية
 كيف تجذب بينها بونا بعيدا في صفاء اديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب
 اعضائها وحمية مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر
 أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل أن الخصب في التلول
 فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عاينها أثره
 والجوع لحيوان القفر حسن في خاقها وأشكالها ماشاء واعتبر ذلك في الآدميين
 أيضا فاما نجد أهل الاقاليم الخصبية العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والقواكه
 يتصف اهلها غالبا بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم وهذا شأن البربر
 المنغمسين في الادم والحنطة مع المتقشقين في عيشتهم المقتصرين على الشعير او
 الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء احسن حالا في
 عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الادم والبرمع
 اهل الاندلس الملقود بأرضهم السمن جملة وغال عيشتهم الذرة فتجد لاهل
 الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاحسام وقبول التعاليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا
 اهل الضواحي من المغرب بالجملة مع اهل الحضرة والامصار فان أهل الامصار
 وان كانوا اكثر من مثاهم من الادم ومخصبين في العيش الا أن استعمالهم اياها يعد
 العلاج بالطبخ والتلطيف مما يخاطون معها فيذهب لذلك غاظها ويرق قوامها
 وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتماهته
 فتقل الرطوبات لذلك في اغذيتهم ويخف ما تؤديه الى اجسامهم من الفضلات
 الرديئة فذلك تجد جسوم اهل الامصار اللطيف من جسوم البادية الخشنين
 في العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لافضلات في جسومهم
 غليظة ولا لطيفة * واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى

في حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ
 نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً واقبالاً على العبادة من أهل الترف
 والخصب بل نجد أهل الدين قائلين في المدن والامصار لما يعمها من القساوة
 والغفلة المتصلة بالأكثر من اللحم والادم ولباب البر ويختص وجود العباد
 والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل
 المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب وكذلك نجد
 هؤلاء الخصبين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل البادية وأهل الحواضر
 والامصار إذا نزلت بهم السنون واختتمت المجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر
 من غيرهم مثل بزبرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا مثل العرب
 أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا
 مثل أهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الاندلس
 الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن اختتمت السنون والمجاعات فلا
 تنال منهم ماتناك من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندروا السب
 في ذلك والله اعلم ان المنغمسين في الخصب المتعودين للادم والسمن خصوصاً
 تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز
 حدها فادا خولف بها العادة بقلة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن
 غير المألوف من الغذاء اسرع الى الممي اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في
 الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل فالهاكوز في المجاعات
 انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون للعيمة
 وترك الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة
 وهي قابلة لجميع الاغذية الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الاغذية ييس ولا انحراف
 فيسهون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم في الماء كل
 وأصل هذا كله أن تعلم أن الاغذية واثلافها أو تركها انما هو بالعادة فمن عود

نفسه غذاء ولا يعمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء مالم يخرج
 عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع (١) وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد
 فيه التغدى والملاءمة فيعير غذاء مألوفا بالعادة فإذا أخذ الانسان نفسه باستعمال
 اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى
 به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع
 والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات قانا نسمع عنهم في ذلك أخبارا
 غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا ألفت شيئا
 صار من جبلتها وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج
 والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الاطباء من أن الجوع مهلك
 فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فانه
 حينئذ ينجم المعنى ويناله المرس الذي يخشى معه الهلاك وأما اذا كان ذلك القدر
 تدريجا ورياضة ناقدا للغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك
 وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع به الى
 الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج
 ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصلاوا أكثر * وحضر أشياخنا
 بمجاس السلطان أبي الحسن وقد وقع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء
 ورئدة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع امرهما ووقع اختبارهما
 وفصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا وراينا كثيرا من اصحابنا

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور أو تنور كل نبات له لبن دار مسهل
 محرق مقطوع والمشهور منه سبعة الشبرم واللاعبية والعرطينا والمهاودانة
 والمازريون والفاجاشت والعشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها
 أهلك اه

ايضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار او عند الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير أو لا يستنكر ذلك * واعد ان الجوع اصلح للبدن من اكثر الاغذية بكل وجه من قدر عايه او على الاقلال منها وان له اثر في الاجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قاناه واعتبر ذلك بآثار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رايت المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في اهل البادية مع اهل الحاضرة وكذلك المتغذون بالابن الابل ولحومها ايضاً مع ما يؤثر في اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ امعاؤهم ايضاً على نسبة امعاء الابل في الصحة والعاظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا يناها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبخه والدراس والفرييون ولا ينال امعاءهم منها ضرر وهي لوتناولها اهل الحضر الرفيعة امعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية * ومن تأثير الاغذية في الابدان ما ذكره اهل الفلاحة وشاهده اهل التجربة ان الدجاج اذا خذت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ بيضها ثم حضنت عليها جاء الدجاج منها اعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطمخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجىء دجاجها في غاية العظم وامثال ذلك كثير فاذا راينا هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك ان للجوع ايضاً آثاراً في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المحلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

المقدمة السادسة في اصناف المدركين للغيث من البشر بالفطرة أو بالرياضة

وبتقدمه الكلام فى الوحي والرؤيا *

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجماعهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بمحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف ويظهره على سنتهم من الخوارق واخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم (الا وانى لا اعلم الا ما علمنى الله) وأعلم ان خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر ان توجد لهم فى حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيظ كأنها غنى او اغماء فى رأى العين وليست منهما شىء وانما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلاية ثم ينزل الى المدارك البشرية اما بسمع دوى من الكلام فيتفهمه او يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تسجل عنده تلك الحال وقد وعى ماالتى اليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي (احيانا يأتينى مثل صائلة الجرس وهو اشد على فيفصم عنى وقد وعيت ما قالوا احيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى مايقول) ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط مالا يعبر عنه فى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى (انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) ولاجل هذه الحالة فى تنزل الوحي كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رثى أو تابع من الجن وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الاحوال (ومن يضلل الله فما له من هاد) * ومن علاماتهم أيضا انه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والرزق ومجانبة الدمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور

على التزهر عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجباته وفي الصحيح انه حمل
الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبياء الكعبة فجعلها في ازاره فانكشف فسقط
مغشيا عليه حتى استتر بازاره ودعى الى مجتمع ولية فيها عرس ولعب فأصابه
غشي اليوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم بل تزهره الله عن
ذلك كله حتى انه يجملته يتزهر عن المذمومات المستكرهه فقد كان صلى الله
عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فتيل له في ذلك فقال انى أناجى من لاتناجون
وانظر لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها بحال الوحي اول
ما جاء وأرادت اختباره فقالت اجعاني بينك وبين نوبك فلما فعل ذلك ذهب
عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذلك سأته عن
احب الثياب اليه أن يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعنى أن
البياض والخضرة من ألوان الخمر والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين
وأمثال ذلك * ومن علاماتهم أبيضادعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة
والعفاف وقد استدل خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك أبو
بكر ولم يحتاجا في أمره الى دليل خارج عن حاله وخلقته وفي الصحيح ان
مروق حين جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام أحضر من
وجده ببلده من قريش وفيهم أبو سفيان يسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن
قال بم يأمركم فقال أبو سفيان بالصلاة والزكاة والعفاف الى آخر ما سأل
فأجابه فقال ان يكن ما تقول حقا فهو نبي وسيد ملك ماتحت قدمي هذين والعفاف
الذى (١) أشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء
الى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ولم يحتاج الى معجزة فدل على أن ذلك
من علامات النبوة * ومن علاماتهم أيضا أن يكونوا ذوى حسب في قومهم وفي
الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه وفي رواية أخرى في ثروة من

(١) قوله الذى أشار اليه هرقل الظاهر أبو سفيان

قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مساءة هرقل لابي سفيان كما هو في
 الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل
 والرسول تبعث في أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن
 أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من أكل دينه وماتته (ومن
 علاماتهم) أيضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعال يعجز البشر
 عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع في
 غير محل قدرتهم وللناس في كيفية وقوعها ودلالاتها على تصديق الانبياء خلاف
 فالتكلمون بناء على القول بالناعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل
 النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن
 المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي صلى الله عليه وسلم فيها عند
 سائر المتكلمين إلا التحدي بها بإذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه
 وسلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت نزلت منزلة القول الصريح من
 الله بأنه صادق وتكون دلالاتها حيدئد على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع
 الخارق والتحدى ولذلك كان التحدي جزأ منها وعبارة المتكلمين صفة نفسها
 وهو واحد لأنه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة
 والسحر إذ لا حاجة فهما إلى التصديق فلا وجود للتحدى إلا إن وجد اتفاقا
 وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فأنما هي على
 الولاية وهي غير النبوة ومن هنا مع الاستاذ أبو اسحق وغيره وقوع الخوارق
 كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد أريناك المغايرة
 بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي صلى الله عليه وسلم فلا لبس على أن
 النقل عن الاستاذ في ذلك ليس صريحا وربما حمل على انكار ان تقع خوارق
 الانبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق وأما المعتزلة فالمانع
 من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة

فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب تليسا فهو محال أما عند الاشعرية فلأن
صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل
شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس
وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلان وقوع
الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله وأما الحكماء فالخارق عندهم
من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان في غير محل القدوة بناء على مذهبهم
في لايجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الاسباب والشروط
الحادثة مستتدة أخيرا الى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس
النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر
له فى التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف فى الاكوان مهما توجه اليها
واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدى
أو لم يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي فى الاكوان
الذى هو من خواص النفس النبوية لانه ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق
فلذلك لا تكون دلالاتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدى
جزأ من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن
السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلي الشر
بخوارقه والساحر على الضد فافعاله كلها شر وفي مقام صد الشر وفارقها عن
الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ فى الاجسام
الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيوان فى الهواء وخوارق الولي دون
ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن
تصريف الانبياء ويأتى النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق
الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ولقنوه عن أخبارهم
واذا تقرر ذلك فاعلم أن اعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم

المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الى فاننا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والامة

﴿ ولندكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول ﴾

﴿ اعلم فقه أرشدنا الله واياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لانتقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثاني وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى أن يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها الطف مما قبله الى أن ينتهي الى عالم الافلاك وهو الطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدى بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديمة من التدرج آخر

أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له وآخر أفق
 النبات مثل النخل والسكر متصل بأول أفق الحيوان مثل الخبزون والصدف
 ولم يوجد لهما الاقوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر أفق
 منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان
 وتعدت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية
 فترفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية
 والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم انا
 نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الافلاك
 والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها
 مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا
 العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والحركة ولا بد فوقها من وجود
 آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاتها ادراكا صرفا
 وتعدلا محصا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعدادا للانسلاخ
 من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في
 لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد
 ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلهذا في
 الاتصال جتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك
 الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الاعلى منها
 بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العامية والغيبية فان عالم الحوادث موحود في
 تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجودات اتصال
 ذواته وقواد بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان. آثارها
 ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفرقة آلات للنفس ولقواها
 أما الماعلية فالبطش باليد المشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن

متدافعا وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقية الى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرهما يرتقى الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة ولموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدهم عليها في الوقت الواحد ثم يؤدى به الحس المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشئ المحسوس في النفس كما هو مجردا عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الاول من الدماغ مقدمه للاولى ومؤخره للتانية ثم يرتقى الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لادراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذئب والحافظة لا يداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالمخزنة تحفظها الوقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ اوله للاولى ومؤخره للاخرى ثم ترتقى جميعها الى قوة المكر وآلة البطن الاوسط من الدماغ وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها دائما لما ركب فيها من النزوع للتخاص من درك القوة والاستعداد الذي لابشرية وتخرج الى النعل في عقلها متشبهة بللا الأعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في ادراكها بغير الآلات الحسية فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسخ بالكلية من البشرية وروحانياتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجيلة والفترة الاولى في ذلك * والمفوس البشرية على ثلاثة أصناف صنفت عاجز بالطمع عن الوصول الى الادراك الروحاني فينقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدرك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهي الى الاوليات ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها

وهذا هو في الاعلى نطاق الادراك البشرى الجسماني واليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذى لا يفتقر الى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات التى هى نطاق الادراك الاول البشرى ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية وهى وجدان كلها لانطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاولياء أهل العلوم الدنية والمعارف الربانية وهى الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة فى البرزخ وصنف مفطور على الاسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها أو روحانياتها الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير فى لحظة من المحطات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملائكة الاعلى فى أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهى فى تلك اللحظة وهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم فى الاسلاخ من البشرية فى تلك اللحظة وهى حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وحبلة صودهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملبسين لها بالبشرية بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى يحاذون بها تلك الوجهة وركز فى طبائعهم رغبة فى العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسميغ نحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الاسلاخ متى شاؤا بتلك النظرة التى فطر واعليها لآبا كتاب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملائكة الاعلى ما يتلقون وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها لحكمة التاييغ للعباد فتارة يسمع دويا كأنه رنين من الكلام يأخذ منه المعنى الذى أتى اليه فلا ينقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يمثل له الملك الذى يأتى اليه رجلا يكلمه ويبي ما يقوله والتاى من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه ما أتى عليه كله كأنه فى لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لانه ليس فى زمن بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحي فى اللغة الاسراع (واعلم) أن

الاولى وهى حالة الدوى هى رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهى
 حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هى رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت أكرم من
 الاولى وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله
 الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس
 وهو أشده على^ى فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا
 فيكلمنى فأعنى ما يقول وإنما كانت الاولى أشد لأنها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال
 من القوة الى التعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية
 اختصت باسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكرر التاقى يسهل ذلك
 الاتصال فعند ما يعرج الى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الاوضح
 منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوعى فى الاولى بصيغة الماضى وفى الثانية
 بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى ان الكلام جاء مجي التمثيل لحالتي الوحي
 مثل الحالة الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعى
 يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى
 المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك فى الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم
 والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد واعلم أن فى حالة الوحي
 كلها معوية على الجملة وشدة قد أشار اليها القرآن قال تعالى اناس اتقى عليك قولا ثقيلًا
 وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحى
 فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ايتفصد عرقا ولذلك كان يحدث عنه
 فى تلك الحالة من الغيبة والغطيظ ما هو معروف وسبب ذلك ان الوحي كما
 قررنا مفارقة البشرية الى المدارك الماكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة
 من مفارقة الذات ذاتها واسلاخها عنها من أفتها الى ذلك الافق الآخر وهذا
 هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوحي فى قوله فغطت حتى بلغ منى الجهد
 ثم أرساني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارى وكذا ثانية وثالثة كما فى الحديث وقد

يفضى الاعتياد بالتدرج فيه شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وانها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد ان كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قيسار المنصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد ان كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحي والفاق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميزها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة (وأما الكهانة) فهي أيضا من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك نحة للبشر في صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر انه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من الإدراك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما أو حركة ولا بأمر من الامور انما هو اسلاخ من البشرية الى المملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا في الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلي ان هنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطى تقسيم الوجود ان هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجلاء فيكون لها بالحكمة عند ما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كلاجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنج من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون

كالمشييع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الادراك هي الكهانة ولكون هذه
 النفوس مفضولة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها في الجزئيات
 أكثر من الكلبيات ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات
 فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيبة تحضرها
 الخيلة وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال في
 ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف
 أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى
 بمض الشئ على ذلك الاتصال الناقص فيهبس في قلبه عن تلك الحركة والذي
 يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما
 كذب لانه يتم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومما ين لها غير ملائم فيعرض
 له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفرع الى الظنون
 والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويهها على السائلين وأصحاب
 هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال
 صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم
 بمقتضى الاضافة وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختيار كيف
 يأتيك هذا الأمر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الأمر يعني أن
 النبوة خاصتها الصدق فلا يعترها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالمللا
 الاعلى من غير مشييع ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى
 الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخله في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه
 اليه فصار يختلط بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وانما
 قلما أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المغيبات من
 المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد
 فيه عن العجز بعض الشئ وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت

منذ من النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة
وان ذلك كان لمنهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان انما يتعرفون
اخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك
دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا
كما قررناه أيضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من اخبار السماء
وهو ما يتعاقب بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع
بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر
لان هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرير عند
وجود الشمس لان النبوة هي النور الاعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب
(وقد زعم) بعض الحكماء انها انما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة
وقعت لان وجود النبوة لا بد له من وضع فلاكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام
تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من
ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل ان يتم
ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن اما واحدا أو متعددا
فادا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك
الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على ان بعض الوضع الفلكي يقتضي
بعض اثره وهو غير مسلم فاعلم الوضع انما يقتضي ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص
بعض اجزائها فلا يقتضي شيئا لأنه يقتضي ذلك الاثر ناقصا كما قالوا ثم ان هؤلاء
الكهان اذا عاصر وازمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لان
لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كمال لكل انسان من أمر النوم ومعه واية تلك
النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصددهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب
الاقوة المطامع في انها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية بن ابي الصلت
فانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمساعمة وغيرهم فاذا غلب الإيمان

وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدي وسواد بن
قارب وكان لهما في المشوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان (وأما
الرؤيا) فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحّة من صور الواقعات
فانها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن
الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسدية والمدارك
البدنية وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تشوف
اليه من الامور المستقبلية وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا
وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى
التعبير وقد يكون الاقتباس قويا يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه
من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أمهات ذات روحانية بالقوة
مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلا محضا وبكامل وجودها بالفعل
فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية الا أن نوعها في
الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى الدين لم يستكملوا ذواتهم بشيء
من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ومنه
خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا وأما الذي
للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات
ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عندما يعرج على
المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراك شيئا بحال النوم شهاينا وان كان حال
النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بانها جزء من سنة
وأربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد
في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر
السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم في رواية
سنة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة

ومدة النبوء كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فصنف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلامٌ بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن اين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع أن ذلك انما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الابن الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاما في البشر ومعه عوائق وموانع كثير من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ومطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس باليوم الذي هو حبل لهم فتمرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الايمان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس باليوم فعلى ما أصممه لك وذلك أن النفس الناطقة انما ادراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الايسر من القلب على ما ذكره كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعبدل من برده وتم افعال القوى التى فى بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتعقل هذا الروح البخارى وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية صار محال آثار الذات المبينة له فى جسمانيته وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى بدن بواسطة وقد كنا قد منا أن ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهى ملت بالحواس الحس وادراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وان هذا الادراك كإيمان

صارف لها عن ادراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية لتي هي مستعمدة له
 بالهطيرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة لاوسن والفشل بما
 يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف تخافق الله لها طلب
 الاستجهام لتجرد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانحناس الروح
 الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعمين على
 ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن
 وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشبعة مركبها وهو الروح الحيوانى الى
 الباطن ولذلك كان النوم للبشر في العال انما هو بالليل فاذا انحس الروح عن
 الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس
 وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل
 صور خيالية وأكثر ماتكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتماهدة قريبا
 ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها عنى أنحاء الحواس
 الحس الظاهرة وربما التفتت النفس لنته الى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى
 الباطنية فتدرك بادراكها الروحاني لانها معطوبة عاينه وتقتبس من صور الاتيابه
 التي صارت متعاقبة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمشاها
 بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير
 وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللوحة
 ما تدركه هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
 الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التخصيل
 مطابق لما ذكرناه فالجى من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث
 الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة
 الرؤيا وما يسببها . بشيعة من النوم وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في
 البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الانسانى رأى في

نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع أن النفس
مدركة للغيب في النوم ولا بد وإذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من
الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي إلى
الحق بمنه وفضله

﴿ فصل ﴾ ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا إنما هو من غير قصد ولا قدرة
عليه وإنما تكون النفس منشوفة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللحظة في النوم
لأنها تقصد إلى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل
الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه
ويسمونها الخالومية وذكر منها مسلة في كتاب الغاية حالومة سماها حلومة
الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السروحة التوجه هذه الكلمات
العجمية وهي تماغس بعد أن يسواد وغداس نوقا غادس ويدكر حاجته فانه
يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكى) أن رجلا فعل ذلك بعد رياضة
ليال في مأكله ودكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباغك التام فسأله وأخبره
عما كان يتشوف إليه وقده قع لي أنا بهذه الاسماء مرأى عجيبة واطلمت بها على أمور
كنت أنتشوف إليها من أحوالي وليس ذلك بدليل على أن العصد للرؤيا يحسنها
وإنما هذه الخالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فإذا قوى الاستعداد
كان أقرب إلى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفهم من الاستعداد ما أحب
ولا يكون دليلا على يقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير المدرة على
الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما تجرد من أمثاله والله الحكيم الخبير

(فصل) ثم أنا نجد في النوع الانساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها
بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة
ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها إنما نجد مداركهم في ذلك
بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام

اشفاقة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها
 وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من
 الخنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الاسان لا يبع أحدا جحدها
 ولا انكارها وكذلك المحامين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها
 وكذلك النائم والمبتلأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات
 من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة * ونحن الآن
 نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدى منها بالكهانة ثم نأتى عليها واحدة
 واحدة الى آخرها وتقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الانسانية كيف
 تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك انها ذات روحانية
 موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة
 الى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة
 وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي
 توجد أولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكليّة والجزئية ثم يتم بثؤها
 ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها
 وما تنزع من تلك الادراكات من المعاني الكليّة فتتعقل الصور مرة بعد أخرى
 حتى يحصل لها الادراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالمهيولى والصور
 متعاقبة عاينها بالادراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر
 على الادراك الذي لها من ذاتها لا ينوم ولا يكشف ولا يغيرها وذلك لان صورتها
 التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات
 ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها مادامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك
 بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي
 محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس أبدا جاذبة لها
 الى الظاهر بما فطرت عاينه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر

الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للاسان على
الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة وانطرق
أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلقت حينئذ الى الذوات التي
فوقها من الملا الاعلى لما بين أفتقها وأفتقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه
قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالهـ عمل وفيها صور
الموجودات وحقائقها كما مر فينبجلى فيها شئ من تلك الصور وتقتبس منها علوما
وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع
الحس بما أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استمداد النفس
لهذا الادراك الغيبي * وارجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه فأما الناظرون في
الاحسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها
وأهل الطرق بالحصى والنوى وكلهم من قبيل الكهان الا أنهم أضعف رتبة فيه
في أصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة
. هؤلاء يمانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها واشرفها البصر
فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه وربما يظن
ان مشاهدته هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون
في سطح المرآة الى ان يغيب عن البصر ويبدو فيها بينهم وبين سطح مرآة حجاب
كأنه عمامة تمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى
مرفقه من ابني او اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما دركوه واما المرآة وما
يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع
الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك
الذمساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات
واكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء
من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما ادرك ونزعمون

أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكى لهم احوال مايتوجهون الى ادراكه
 بالمثل والاشارة وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الاولين والعالم أبو الغرائب
 * واما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سماع صوت طائر
 او حيوان والمكر فيه بعد مغيبه وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والمكر
 فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمنا. قوية فيبشها
 فى البحث مستعينا بما رآه او سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة
 الخيلة فى النوم وعند ركود الحواس تنوسط بين المحسوس المرئى فى بفظته
 وتجمعه مع ماعقته فيكون عنها الرؤيا واما المجانين فتموسهم الطاقة ضعيفة
 التماق بالبدن لفساد امرجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه
 غير مستعدة فى الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها فى نفسها من ام القاص
 ومرضه وربما زاحمها على التماق به روحانية اخرى شيطانية تنسبت به وتضعف
 هذا عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فاذا أصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه
 من فساد فى ذاتها او لمزاحمة من النفوس الشيطانية فى نعامه غاب عن حسه
 حجة فادرك لحة من عالم نفسه واطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال واد
 نطق على لسانه فى تلك الحال من غير ارادة المطلق وادراك هؤلاء كلهم
 مشوب فيه انيق بالباطن لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد
 الاستمالة بالصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يحيى الكذبت فى هذه المدارك
 وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون
 المكر على الامر الذى يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على
 مايتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال. الادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب
 وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الامور) وقد تكلم عليها المسمودى
 فى مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابة وبظهر من كلام الرجل انه كان
 بعيدا عن الرسوخ فى المعارف فينقل ماسمع من أهله ومن غير أهله وهذه

الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من أعمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولاعظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأوني رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به من ملك الحبشة لايمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة الحمدي في قريش . رؤيا الموبدان التي أولها سطوح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقات لعراف اليمامة داوني * فالك ان داويتي لطيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجد ان هما شفياني

وقالا شفاك الله والله مالنا * بما حملت منك الضلوع يدا

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابق الاسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتبسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار والكلام فيتمكلم كأنه مجبول على النطق وعائته أن يسمعه ويغهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام يمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجارية الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فاعلموهم بما يستبشع وذكروا مسامة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم . مك فيه أربعين

يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق. شئور رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شئ يشئ عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من منا كبر أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا تاما تمام جميع القوى البدنية ثم يحو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكرا لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع السكر وكثرة الجوع ومن المعتمد على القطع أنه اذا نزل الموت بالمدن ذهب الحس وحجابيه واطاعت النفس على ذتها وانماها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت مايقع لهم بعده وتطاع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأثر هؤلاء في الاقاليم المحرقة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الجوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المدمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكسبة ليحصل لهم ادواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكرا فيها تتم وجهتها في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكرا كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكرا كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صنفه فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المأمود لاشياء سواه واذا حصل أثناء ذلك ما يحصل بالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يخل به وانما يريد الله لذاته لاغيره وحصول

ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة
وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم
وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو اسحق الاسفرينجي وأبو محمد بن أبي زيد المالكي
في آخرين فرارا من الناس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول
التمرقة بالتمردى فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر وقد وقع للصحة من ذلك وقائع معروفة
تشهد بذلك في مثل قول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زعيم
كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين
في معتزك وهم بالاهزام وكان يقربه جمل يتحيز اليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب
على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه
هنالك ولقصة معروفة ووقع مثله أيضا لابى بكر في وصيته عائشة ابنته رضى
الله عنهما في شأن ما نجاها من أوسق التمر من حديقته ثم نهبها على جديده
لتحوزيه عن لورثة فقال في سياق كلامه وإنما هما أخواك وختاك فتالت انما
هى أسماء من الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خراجه أراها حارية فكانت جارية
وقع في الموطأ في باب مالا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولم
بعدمهم من الصالحين وأهل الاقتداء الا ان أهل التصوف يقولون انه يقل في
زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حالة بحصرة النى حتى أنهم يقولون ان المرید
اذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما ام فيها حتى يفارقها والله يرزقها الهداية
يرشدنا الى الحق

﴿فصل﴾ ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم بها ليل ممتوهون أشبه
بالحائنين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين
وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع
لهم من الاخمار عن الغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطأون كلامهم في ذلك

ويأتون منه بالمعائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فان فضل لله يؤتية من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للانسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه اذا مير أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقةه فيكون موجودا لحقيقة معدوم العقل التكليفى لذي هو معرفة المعاش ولا استجداله في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله معاده لامعرفة على شيء من التكليف واذا صح ذلك فاعلم أنه ربما ياتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة وياتحقون بالبهائم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهائيل تجد لهم وجهة ما لا يحلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلا ومنها أنهم يحاقون على البهائم من أول اشأهم والمجانين يعرض لهم الجمون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم ذلك فسدت نفوسهم الناطقة ذهوا بالخبيثة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى نسا الكلام اليه والله المرشد للصواب

من فصل * وقد يزعم بعض الناس أن هما مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المدجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ايسوا من الغيب في شيء انما هي

ظمون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع
مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس
ونحن نبين بطلان ذلك في محله ان شاء الله وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين
وليس مما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من العامة استندطوا لاستخراج
الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون
فيها عملهم ومحصل هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالاً ذات أربع
مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الروحية والفردية واستوائها فهما فكانت
سنة عشر شكلاً لأنها ان كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً وان كان الفرد
فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان المرء في مرتبتين فستة
أشكال وان كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها
كلها بأسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شان الكواكب وجعلوا لها ستة عشر
بينا طبيعية بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للثلك والاوناد الاربعة
وحموا الكل شكل منها يتناه حظوظاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر
يختص به واستندطوا من ذلك فنادوا به فن البجامة ونوع قضائه الا أن أحكام
النجمية مستمدة الى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذه انما مستمدة الى أوضاع
تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها يزعمون أن أصل ذلك من
النسوات القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس صلوات الله
عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله
عليه وسلم كان نبي يخط فن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على
مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان
نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض
الانبياء فن وافق خطه فذاك النبي فهو ذلك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده
من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما اذا أخذ

ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم فاذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا اللفظ سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك اربع مرات فتجى ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا في مرتبته على الترتيب فتجى أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابها من الشكل الذى بازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاورشكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة بالذات والمظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك محكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العبران ووضعت فيها التأليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهى كما رأيت تحكمه هوى والتحقيق الذى ينفى أن يكون نصب فكريك أن الغيوب لا تدرك بصناعة التفة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر الممتطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى الشجعون هذا الصنف كلهم بازعريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزمرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على ادراك العيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد هذه الامور التى ينظر فيها من النقط والمظام أو غيرها أشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد

معرفة الغيب بهذه الصناعة وانما تفيده ذلك فهندر من القول والعمل والله
يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عاينها أهل هذا الادراك الغيبي
أنهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعترهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالنشاؤب
ولتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف
وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما
هو ساع في تنسيق كذبه

﴿ فصل ﴾

ومنهم طوائف يضمون قوائين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول ادى
هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات المجوم
كزعمة بطايموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما
هي مغالط يجمعونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست أذكر من ذلك الا
مذكرة المصنفون ولع به الخواص فن تلك القوائين الحساب الذي يسمونه
حساب اليم وهو مذکور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف
به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي في
اسم احدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الالف
أحادا وعشرات ومئين وألوفاً فاذا حسبت الاسم وتحصل لك عدد منه فاحسب
اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا
وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددين
مختلفين في الكمية وكانا معازوجين أو فردين معا فصاحب الاقل منهما هو الغالب
وان كان أحدهما زوجا والآخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا
متساويين في الكمية وهما معازوجان فالملغوب هو الغالب وان كانا معا فردين
فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما
أرى الزوج والافراد يسموا قافها * وأكثرها عند التخالف غالب

ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوى * وعند استواء الفرد يغلب طالب
ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا معروفا عندهم
في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع
وهي (ا) الدالة على الواحد و (ي) الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات
و (ق) الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و (ش) الدالة على الالف لانها واحد
في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر
حروف أبجد ثم تبتوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية
وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا
مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في
المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد و (ك) الدالة على
اثنين في العشرات وهي عشرون و (ر) الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها
كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على
ثلاثة فنشأت عنها كلمة جاس وكذلك الى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات
بهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جاس دمت هنت و صخ زعد حفظ طضع
مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد
لكلمة ايقش والاثان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جاس وكذلك الى التاسعة
التي هي طضع فتكون لها التسعة فاذا أراد واطرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف
منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الاعداد
التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فاضا
عنها والأخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخرو ينظرون بينا وبين
بما قدمناه والسر في هذا القانون بين وذلك أن البقي من العقود ^{من عقود} من عقود
الاعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع الاثنين والعشرين من كل
مرتبة فصارت اعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين

والالفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثمانمائة والثلاثة الآلاف كلها
ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالى دالة على اعداد العقود لاغير وجعلت
الحروف الدالة على أصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين
والالوف (١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء
دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف
التي فيها وتجمع كلها الى آخرها كما قناه هذا هو العمل المتداول بين الناس
منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات
أخرى تسعة مكان هذه ومتواليه كتواليه ويفعلون بها فى الطرح بتسعة مثل
مايفعلونه بالآخرى سواء وهى هذه أرب يسقك جزا ط مدوص هف
تخذن عش خغ نضظ تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها
الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرابعى والثمانى وليست جارية على أصل مطرد
كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيمياء
أسرار الحروف والجمامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه ان العمل
بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقش والله أعلم
كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق
والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزوا الى أرسطو عند
المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك فتصفح
ان كنت من أهل الرسوخ اه * ومن هذه القوائين الصناعية لاستخراج الغيوب
فما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة الى أبى العباس سيدى أحمد
السبى أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة براكش ولعمد
أبى يعقوب ^{السنى} زملوك الموحدين وهى غريبة العمل صناعة وكثير من

(١) قوله والالف في ^{السنى} زملوك الموحدين وهى غريبة العمل صناعة وكثير من
البرلان الحروف ليس فيها مايزيد عن الالف كما سبق

الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعمائها المعروف الملقب فيعرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها أما البروج وأما العناصر أو غيرها وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الأوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم (١) الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة وأحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عيبت البيوت العامرة من الخالية وحقاً في الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة إلا أنها من قبيل الألفاظ في عدم الوضوح والجلال وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحيدان بالمغرب وهو مالك بن وهب من علماء أشيائية كان في الدولة الامتونية وانص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فص اذن * غرائب شك ضبطه الجدمثلا
وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرجة ثم إلى الوتر المكتشف فيها بالبرج الطالع

(١) قوله برشوم أي موضوعة برشوم بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة

من أوله مارا الى المركز ثم الى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع
الحروف المكتوبة عليه من أوله الى آخره والاعداد المرسومة بينهما ويصرونها
حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون أحادها الى العشرات وعشراتها الى المئين وبالعكس
فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون
الى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف
والاعداد من أوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون بالاعداد
ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي
هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها
ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسه عندهم هو بعد البرج
عن آخر المراتب عكس ما عليه الاس عند أهل صناعة الحساب فاه عندهم البعد
عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الاس الاكبر والدور الاصلى
ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال
مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون أخرى ويقابلون
بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السؤال وما معها
ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون في كل
دورا الحرف الذي ينتهي عنده الدور بما ودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم
لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة
في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن
وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه
الزائرجة وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك
الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل
على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قد مر لك ان الغيب لا يدرك باصر
صناعي البتة وانما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام

والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيماً او موافقاً للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والاورار والدخول في الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المقروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيتم له معرفة المجهول فالتناسب بين الاشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل لرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعاليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرة في الغالب لاهل الرياضة فهي منسوبة للسبقي ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري انها من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوما يظهر لى انما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك اسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه و~~كثير~~ من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل وتفوزه الى المطلوب فينكر صحتها وبحسب انها من التخيلات والايهات وان صاحب العمل بها اثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين اثناء حروف السؤال والاورار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجيء بالبيت ويوهم ان العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه التصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوقه ادراكه ويكفيها في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لامرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء

وحدس واذا كان كثير من المعاينة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعده النسبة فيه وخفائها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلندكر مسألة من المعاينة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتر بالدراهم كلها طيورنا بسعر ذلك للطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هي تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وان الثلاثة ثمنها وان عدة أثمان الواحد ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدراهم الى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشترت بالدراهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضرر بسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما ياتي اليك هذه وأمثلاها انما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلية اذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا ثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزايرة كلها انما هي في استخراج الجواب من الفاظ السؤال لانها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بينهما يطاع عاينه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع الفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأنتم لا تعلمون

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك
من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات)

﴿ فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية ﴾ ١

﴿ اعلم ﴾ ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف محتهم من
المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري
منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلاح من الغراسة
والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز
والنحل والدود لتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الملح
والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له
الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص
هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجتهم
ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة
ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت
احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه
دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واسة كثروا من
الاقوات والملابس والتأنيق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار
للتحضر ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجئ عوائد اترف البالغة ما لغها
في التأنيق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في
انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالة البيوت والصروح واحكام
وضعها في تنجيدها والانتها في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها
فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في

تجديدها ويختلفون في استجداده ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او آنية او ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتحل في معاشه الصنائع ومنهم من يتحل التجارة وتكون مكاسبهم انى وارفه من اهل البدولان احوالهم زائدة على الضرورى ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين ان اجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منهما كما قلنا

٢ * فصل في ان جيل العرب في الخلافة طبعى *

قد قدمنا في الفصل قبله ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام وانهم مقتصرون على الضرورى من الاقوات والملابس والمسكن وسائر الاحوال والعوائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجى او كمالى يتخذون البيوت من الشعر والوبر او الشجر او من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكنى لاما وراءه وقد يأتون الى الغيران والكهوف واما اقواتهم فيتأولون بها يسيرا بعلاج او بغير علاج البتة الامامسته النار فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولى من الظعن وهؤلاء سكان المدائر والقرى والجبال وهم عامه البربر والاعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغاب لارتياح المسارح والمياه لحوالهم فالتقاب في الارض اصاح بهم ويسمون شاوية ومعناه القاعون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لتمددان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك واخوانهم من التركان والصفالبة واما من كان معاشهم في الابل فهم اكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا لان مسارح النول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الابل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملمحة والتقاب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفاء هوائه وطلب الماء خض النتاج في رماله اذ الابل اصعب الحيوان فصلا ومخاضا واحوجها في ذلك الى الدفاء فاضطروا الى

أبعاد النجمة وربما ذاتهم الحامية عن التلوث أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن
الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ويزلون من أهل الحواضر منزلة
الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان المعجم وهؤلاء هم العرب وفي
معناهم ظعون البربر وزيانة بالمغرب والاكراد والتركان والترک فالمشرق الآن
العرب أبعد نجمة وأشد بداعة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهؤلاء
يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي
لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ ﴿ فصل في أن البدو أقدم من احضر وسابق عليه وأن البادية

أصل العمران والامصار مدد لها ﴿

قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري في احوالهم العاجزون عما
فوقه وأن الحضرة المعتنون بمحاجات الترف والكمال في احوالهم وعوائدهم ولا
شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لان الضروري
أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لان
أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري
حاصلا فخشونة البداعة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى
اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به
أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا
شأن القبائل المتبديية كلهم والحضرى لا يتشوف الى احوال البادية الا لضرورة
تدعوه اليها أو لتقصير عن احوال اهل مدينته ومما يشهد لنا ان البدو اصل
للحضر ومتقدم عليه أنا اذا فاشنا اهل مصر من الامصار وجدنا اولية اكثرهم
من اهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراء وانهم ايسروا فسكنوا المصر
وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضر وذلك يدل على أن احوال الحضارة

ناشئة عن احوال البداوة وانها اصل لها فتفهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حى اعظم من حى وقبيلة اعظم من قبيلة ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرا من مدينة فقدتين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار واصل لها بما ان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله اعلم

٤ ﴿ فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر ﴾

وسببه أن النفس اذا كانت على النظرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ويقدر ما سبق اليه من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه أيضا عوائده وأهل الحضر لكثرة ما يمانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تاونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعثت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فنجد الكثير منهم يقنعون في أقوال المعشاة في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا وأهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثاهم الا أنه في المقدار الضروري لافي الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس

من سوء الملكات بكثرة العوائد المدمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج
 الحضرة وهو ظاهر وقد توضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه
 الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البد وأقرب الى
 الخير من أهل الحضرة والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح
 البخارى من قول الحجاج اسلمة بن الاكوع وقد بلغه أنه خرج الى سكنى
 البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم أذن لي في البدو فاعلم أن الهجرة افترضت أول الاسلام على أهل
 مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه
 ويظاهرونه على أمره ومحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب أهل البادية
 لان أهل مكة يمسه من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة
 ما لا يس غيرهم من بادية الاعراب وقد كان المهاجرون يستعينون بالله من التعرب
 وهو سكنى البادية حيث لا يجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث
 سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم امض لاصحابي هجرتهم ولا تردهم على
 أعقابهم ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن
 هجرتهم التي ابتدؤا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعى الى وجه من
 الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية الى
 الهجرة لئلا المسلمون وأما بعد الفتح وحين كثر المسامون واعتزوا وتكفل الله
 اليه العصمة من الناس فان الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم
 لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها عن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها
 عن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل يجمعون على أنها بعد اوقاف ساقطة لان
 الصحابة افرقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة
 وهو هجرة فقول الحجاج اسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نبي
 عليه في ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله

ولا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت اشارة الى أنه صار من الاعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما لزمه من الامرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم اذن له في البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمه وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج انما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم اولى وافضل مما آثره به واختصه الالمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على منمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لامنمة البدو فليس في النعى على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على منمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

﴿ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضرة ﴾

والسبب في ذلك ان أهل الحضرة أقروا جنوبهم على مهاد الراحة وادعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيمة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على ابي مشواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب فأؤمن بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح وياتفتون عن كل جانب من الطرق ويتجافون عن الهجوع الاغرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبات والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين بياسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليهامتي

دعاهم داع أو استنفرهم صارخ واهل الحضرة مهما خالطوهم في البادية او صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شياً من امر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه واصله أن الانسان ابن عوائده ومالوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فلذی الفه في الاحوال حتى صار خاقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلية واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخاق ما يشاء

✽ فصل في ان معانات أهل الحضرة للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم ✽ وذلك انه ليس كل احد مالك امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قابل بالسببة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن وانقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب انفعة عنهم لما يكون من الكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضى الله عنهما عن مثاها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالوس يوم القادسية فقتله وأخذ سابه فانتزعه منه سعد وقل له هلا انتظرت في اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستأذنه وكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قابه وأمضى له عمر سابه وأما اذا كانت الاحكام بالعقاب فذهبة للباس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المدلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لم يرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلباً بأسه

واهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذهم الاحكام
 ومجد أيضا الذين يمانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم
 في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون
 عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحابين للقراءة والاختد
 عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه
 الاحوال وذهابها بالمنعة والباس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم
 باحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأسا لان
 الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كانوا زعمهم فيه من أنفسهم
 لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعالم صناعى ولا تأديب تعاليمى انما
 هى أحكام الدين وآدابه المتأقاة تقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد
 الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم يخذشها أظفار
 التأديب والحكم قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأذبه الله حرصا
 على ان يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بان الشارع أعلم بمصالح العباد
 وما تنقص الدين فى الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة
 يؤخذ بالتعالم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وحق الانقياد الى الاحكام
 نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين ان الاحكام السلطانية والتعاليمية مفسدة
 للبأس لان الوازع فيها اجنبى واما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتى
 ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعاليمية مما تؤثر فى اهل الحواضر فى ضعف
 نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم فى وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن
 هذه المنزلة لمعدهم عن احكام الساطان والتعالم والآداب ولهذا قال محمد بن
 ابى زيد فى كتابه فى احكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب ان يضرب
 أحدا من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شرح القاضى واحتج
 له بعضهم بما وقع فى حديث بدء الوحى من شأن الغلط وانه كان ثلاث مرات

وهو ضعيف ولا يصاح شأن الغلط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ * فصل في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية *

﴿ اعلم ﴾ ان الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى (وهديناها للنجدين) وقال (فألهمها فجورها وتقواها) والشر أقرب الخلال اليه اذا اهمل في مرعى عوائده ولم يهتد به الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجرم الغفير الا من وفقه الله ومن اخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع اخيه امتدت يده الى اخده الا ان يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجرد * ذا عفة فلعالة لا يظلم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على ايدي من تختمهم من الكافة ان يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عاينه فهم مكبوحوون (١) بحكمة القهر والسطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا أو يدفعه زياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللهم فانما يدود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وزيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل سب واحدا منهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل أحد على نسه وعصبية أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة (٢) والنعرة على دوى أرحامهم وأقربتهم موجودة في الطبائع

(١) قوله بحكمة بفتح الحاء والكاف (٢) العبرة والنمار بالضم فيهما والنمير الصراخ والصباح في حرب أو شر كما في القاموس

البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لايه (لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) والمعنى انه لايتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له وأما المتوردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعمة على صاحبه فاذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسأل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدر من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن ياتهمهم من الأمم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عايه من نبوة أو اقامة ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستمعاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذ اماما تقدى به فيما نوره عليك بعد والله الموفق للصواب .

٧ ﴿ فصل في أن العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب أو مافي معناه ﴾

وذلك أن صلة الرحم طبعي في البشر الا في الاقل ومن صاتها المعرة على ذوى العربى وأهل الارحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العدا عايه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الأتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرد ما ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فرما تنوسى بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على المعرة لدوى نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف اذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه الالفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبتها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله

صلى الله عليه وسلم تعاملوا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب
انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة
وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب امر وهمي لاحقيقة له ونفعه انما هو
في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان طاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من
النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت
فائدته وصار الشغل به مجانا ومن اعمال اللهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى
قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب اذا خرج عن الوضوح
وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي
تحمل عايبها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

٩ ﴿ فصل في أن الاصرح من النسب انما يوجد للمتوحشين

في القفر من العرب ومن في معنائهم ﴿

وذلك لما اقتصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم
عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على
الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره
وننتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلنا وعادة
وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وحبلة فلا ينزع اليهم أحد من الائم أن
يساهدهم في حالهم ولا يأس بهم أحد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم
السييل الى للفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عايبهم لاجل ذلك من
اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر
من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهديل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا
أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعثوا من أرياف الشام والعراق
ومعادن الادم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط
ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب

للمراعي والعيش من حمير وكملان مثل لحم وجذام وغسان وطي وقضاة
واياد فاختلطت أسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من
الخلافة عند الناس ما تعرف وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخلطتهم وهم
لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط * قال
عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كمنط السواد إذا سئل
أحدهم عن أصله قال من قرية كذا هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف
من الأزد حام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصبية فكثرت الاختلاط
وتداخلت الأنساب و قد كان وقع في صدر الإسلام الانتباه إلى المواطن فيقال جند
قنبرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك إلى الأندلس ولم يكن لأطراح
العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها
وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائها ثم وقع الاختلاط
في الأحوال مع العجم وغيرهم وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية
فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودرت ف نرت العصبية بدورها وبقي ذلك في
البدو كما كان والله وارث الأرض ومن عليها

١٠ * فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع *

* اعلم انه * من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر
بقراءة اليهم أو حانف أو ولاء أو إمرار من قومه بجناية أصابها فيدعى بنسب هؤلاء
ويعد منهم في ثمراته من العرة والقود وحمل الآيات وسائر الأحوال وإذا
وجدت ثمرات النسب فكانه وحده لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء
لا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الأول
بطول الزمان يذهب أهل العلم به فيخفي على الأكثر ومارات الأنساب تسقط
من شعب إلى شعب ويتحم قوم بأخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم
وانظر خلافاً للناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك ومنه

شأن بجيلة في عرصة بن هرثة لما ولاء عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو
 فينالزريق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولى عليهم جريرا فسأل عمر عن ذلك
 فقال عرصة صدقوا يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأرد أصبت دما في قومي ولحقت
 بهم وانظر منه كيف اختاط عرصة بجيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى ترشح
 للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتوسى
 بالجملة وعدمهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سرا لله في خليقته ومثل هذا
 كثير لهذا العهد ولما قبله من اليهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

(١١) ﴿ فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية ﴾
 ﴿ اعلم ﴾ أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام
 فبهم أيضا عصبية أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم
 مثل عشر واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين
 أو الأعمام فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصابات
 في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام
 لأنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحم والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب
 واحد منهم ولا تكون في الكن ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب يجب أن تكون
 عصبية ذلك النصاب أقوى سائر العصابات ليقع الغلب بها وتم الرياسة لهاها قادا
 وجب ذلك تعين أن الرياسة علم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب
 عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصابة الأخرى انما تزال عن عصابتهم
 في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منه إلى
 فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقربى من فروعه لما قلناه من سر الغلب لأن الاجتماع
 والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر

(١١) هذا الفصل ساقط في النسخة الفاسية وموجود في النسخة التونسية وإثباته

أولى لي مطابق كلامه أول الفصل ١٢ هـ

فلا بد من غلبة أحدها والالم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية
ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ ﴿فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم﴾
وذلك أن الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه
فلا بد في الرياسة على القوم ان تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة
لان كل عصبية منهم اذا احت بغير عصبية الرئيس لهم أقرروا بالاذعان
والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ماصق
لزيق وغاية التعصص له بالولاء والخائف وذلك لا يوجب له علما عليهم البتة واذا
فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهداه الاول من الالتصاق ولبس
جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام او لاحد من
سابقه والرياسة على القوم انما تكون متناقفة في منبت واحد تعين له الغلب
بالعصبية والاولوية التي كانت لهذا الماصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه
ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقت عنه وهو على حال الالتصاق
والرياسة لا بد وان تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من الغلب بالعصبية وقد
يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى أنساب ياهجون بها
اما لخصوصية فصيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة او كرم او ذكر كيف
اتفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون
ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في
الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زنانة جملة انهم من العرب ومنه ادعاء اولاد
رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر احد شعوب زغبة انهم من بني سليم
ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببني عامر نجارا يصنع الحرجان (١) واختلط بهم
وللتحم بنسبهم حتى راس عليهم ويسمونه الحجازي ومن ذلك ادعاء بني عبد
(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحعين نعش الموتى

القوى بن العباس بن توحين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطاً باسم العباس بن عطية ابى عبد القوى ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ اول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الأدارسة والعبيديين فكيف يسقط العباس الى احد من شيعة العلويين وكذلك ما يدعيه ابناء زيان ملوك المسمان من بنى عبد الواحد انهم من ولد القاسم ابن ادريس ذهاباً الى ما اشتهر في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناني انت القاسم اى بنو القاسم ثم يدعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا انه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم فكيف تم له الرياسة عليهم في ناديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شئ من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعتهم ومنازعتهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد ولقد بلغنى عن يغمر أسن بن زيان مؤثر سلطانهم أنه لما قيل له ذلك انكره وقال بلغته الزانية مامعناه أما الدنيا والملك فليماه بسيفوما لابهذا النسب وأما نفعه في الآخرة فردد الى الله واعرض عن التقرب اليه بذلك * ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بنى يزيد من زغبة انهم من ولد أنى بكر الصديق رضى الله عنه وبنو سلامة شيوخ بنى يدلتن من توجين انهم من سليم والزواودة شيوخ رياح انهم من أعقاب البرامكة وكذا بنو مهني أمراء طى بالمشرق يدعون فيما بلغنا انهم من أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في مرثمة قومه وانما رأس عليهم بعد

اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت
المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

١٣ ﴿ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل

العصية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه ﴾

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آباءه
أشرفاً منكم. من يكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجمة في أهل جلده لما
وقر في نفوسهم من تجمة سلته وشرفهم بخلالهم والناس في شأهم وتناسلهم. معادن
قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام
إذا فقهوا فمعنى الحسب راجع إلى الآساب وقد يما ان ثمره الآساب وقائدها
نما هي العصية للعررة والتحصن فحيث تكون العصية مرهوبة ومخشية والمثبت
فيها زكى محمى تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتمديد الإشراف من
الآباء زائد في قائدها فيكون الحسب والشرف أصيلاً في أهل العصية لوجود
ثمره النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتهافت العصية لانه سرها ولا يكون
للمفردين من أهل الأمصار بيت الا بالمجاز وان توهموه فزخرف من الدعاوى
وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار وجدت معناه ان الرجل منهم يعد سافراً
في خلال الحير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر
العصية التي هي ثمره النسب وتمديد الآباء ولكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز
لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الحير ومسالكه
وليس حسباً بالحقيقة وعلى الإطلاق وان نت انه حقيقة فهما بالوضع اللغوي
فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى وقد يكون لبيت شرف
أول بالعصية والخلال ثم ينسأخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون
بالغما ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشرف
البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء لذهاب العصية جملة وكثير من أهل

الامصار الناشئين في بيوت العرب أو المعجم لأول عهدهم موسوسون بذلك
وأكثر مارسخ الوسواس في ذلك لبني اسرائيل فانه كان لهم بيت من أعظم
بيوت العالم بانبتت أولا لما تعدد في سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم
عليه السلام الى موسى صاحب ماتهم وشريعتهم ثم بالعصية ثانيا وما آتاهم الله
بها من الملك الذي وعدهم به ثم انساخوا من ذلك أجمع وضرت عليهم الذلة
والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الارض وانفردوا بالاعتقاد للكفر الآفا من
السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فنجدهم يقولون هذا هاروني هذا
من نسل يوشع هذا من عقب كالك هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية
ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الامصار وغيرهم
المقطوعين في أنسابهم عن العصبية يذهب الى هذا الهذيان وقد غلط أبو الوليد
ابن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تايخيص كتاب المعجم
الأول والحسب هو ان يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه
وليت شعري ما الذي يبقعه قدم نزلهم بالمدينة ان لم تكن له عصابة يربها
جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطاق الحسب على تعدد الآباء فقط
مع ان الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالاته وهم أهل الحل والعقد وأما من
لاقدرة له ألبته فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستلم هو وأهل
الامصار من الحضرة بهذه المثابة الا ان ابن رشد ربي في حبل وولد لم يمارسوا
العصبية ولا أسوا أحوالها فبقي في امر البيت والحسب على الامر المشهور من
تعدد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الحقيقة
والله بكل شئ عليم

١٤ * فصل في ان البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع انما هو

بمواليهم لا بأسابهم *

وذلك انا قدمنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لأهل العصبية فاذا اصطنع أهل

العصية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه
ضرب معهم أو تلك الموالى والمصطنعون بنسبهم في تلك العصية ولبسوا جلدتها كأنها
عصيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله
تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحاف
وليس نسب ولادته ينافع له في تلك العصية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصية
ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه
أهل عصيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصية
كان له بينهم شرف وبيت على نسبه في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزهم الى شرفهم
بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم
فهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها
ألا ترى الى موالى الأتراك في دولة بني للعباس والى بنى برمك من قباهم وبنى
نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء
الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى
ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالى كل دولة وخدمها انما
يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضمحل
نسبه الاقدم من غير نسبها ويبقى ماغى لا عبرة به في أصلته ومجده وانما المعتبر
نسبة ولاءه واصطناعه اذ فيه سر العصية التي بها البيت والشرف فكان شرفه
مشتقا من شرف مواليه وبنائوه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجده
نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والترية وقد يكون نسبه الاول في
لحمة عصيته ودولته فاذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه
الأولى لذهاب عصيتها وانتفع بالثانية لوجودها وهذا حال بنى برمك اذ انتمت قول
أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء
بنى العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة

واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجاحشة ولا حقيقة له
والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥. * فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء *

* اعلم * ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله
فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة
بالمعينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تشأ ثم
تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين
فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليفة شرف متصل في آباءه
من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامته وحياطة
على السر فيه وأول كل شرف خارجية (١) كما قيل وهي الخروج الى الرياسة
والشرف عن الضعة والابتدال وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب فعمده
سابق عليه شأن كل محدث ثم ان نهايته في أربعة آباء وذلك ان باني المجد عالم
بما عناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده
مباشر لآبيه قد سمع منه ذلك وأخذته عنه الا انه مقصر في ذلك تقصير السامع
يالتى عن المعين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر
عن الثاني تقصير المتقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جملة
وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم ان ذلك البنيان ثم يكن
بمعاناة ولا تكلف وانما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد اتسابهم وليس
بعصاية ولا بخلال لما يرى من التجارة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا
سببها ويتوهم انه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصييته ويرى الفضل له عليهم
وثوقا بما ربي فيه من استباعتهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستباع من الخلال التي
منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه

(١) قوله خارجية أى حالة خارجية كذا بهامش اه

ويحتقرونه ويديلون منه سواء من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك
العقب للاذعان لعصبيتهم كما قاناه بعد الوثوق بما يرضوه من خلاله فتمو فروع
هذا وتدوى فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت
القبايل والامراء وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الامصار اذا انحطت
بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد
وما ذلك على الله بعزيز) واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والا
فقد يدر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتصل أمرها الى الخامس
والسادس الا أنه في انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة
بان ومباشر له ومثلد وهادم وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب
في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم
ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اشارة الى أنه بلغ الغاية
من الخلد وفي التوراة مامعناه أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء
للنين على الثواب وعلى الروابع وهذا يدل على ان الاربعة الاعقاب غاية في
الانساب والحسب ومن كتاب الاغانى في أخبار عزيز الغوانى ان كسرى قال
للعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قل بأى شئ قل من كان
له ثلاثة آباء متواليه رؤساء ثم اصل ذلك بكل الرابع والبيت من قبياته وطاب
ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل ذى الجدين
بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كعدة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس
ابن عاصم المنقرى من بنى تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم
وأقعد لهم الحكام والعدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقربته
من العمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم
وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصالح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي
المدكورة في العرب بعد بنى هاشم ومعهم بيت بنى الذبيان من بنى الحرث بن

كعب بيت العنبي وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم
 ١٦ ﴿ فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها ﴾

﴿ أعلم ﴾ انه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لا جرم
 كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب
 وانتزاع مافي أيدي سواهم من الأمم بل الجيل الواحد يختلف أحواله في ذلك
 باختلاف الأعصار فكما نزلوا الأرياف وتفنكوا النعم والفواهد الحصب في
 المعاش والنعم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدوتهم واعتبر
 ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها
 بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الاتهم والشدّة حتى
 في مشيتها وحس أديمها وكذلك الأدمي المتوحش إذا أس والف وسببه أن
 تكون السجايا والطباع انما هي عن المألوفات والعوائد وإذا كان الغلب للأمم
 انما يكون بالأقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر
 توحشا كان أقرب الى التغلب على سواه إذا تفارقت في العدد وتكافأ في القوة
 والعصية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى
 الملك والنعم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في البداوة
 وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغصارة النعم كيف أرهمت البداوة
 حدهم في التغلب فغلبوهم على مافي أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طي وبني
 عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن
 سائر قبائل مضر والعين ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة
 عليهم قوة عصبتهم ولم تحلقها مذاهب الترف حتى صاروا أغاب على الأمر منهم
 وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصبادون الحي الآخر فان الحي
 المبتدى يكون أغاب له واقدر عليه اذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ ﴿ فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصية هي الملك ﴾

وذلك لاننا قد مننا أن العصية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر
تجتمع عليه وقد مننا ان الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى
وازع وحاكم بزعم بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية
والالم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لان
الرياسة انما هي سودد وساحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك
فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طب مافوقها فاذا
بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب
للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب المسمى غاية
للعصبية كما رأيت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه نبوتات متفرقة وعصبيات
متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتزم
جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى والواقع الافتراق المفضى
الى الاختلاف والتنازع ولو ادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ثم اذا
حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طابت بطمعتها التغلب على أهل عصبية
أخرى بعيدة عنها فان كافاتهما أو ما نعتها كانوا أقتالا وأنظارا ولكن واحدة
منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم المتفرقة في العالم وان غلبتها
واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادتها قوة في التغلب وطلبت غاية من التغلب والتحكم
أعلى من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكفى بقوتها قوة الدولة فان
أدركت الدولة في هـ رما ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات
استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وسار الملك أجمع لها وان انتهت الى
قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصبيات
انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر
دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس واصنهاجة وزناة مع
كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك

هو غاية العصبية وانها اذا بانغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك اما بالاستعداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسهه الوقت المقارن لذلك وان عاقبها عن بلوغ الغاية عوائق كما نسينه ووقفت في مقامها الى أن يقضى الله بأمره

١٨ ﴿ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم ﴾
وسبب ذلك أن القبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغاب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غايتها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوعون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تنسهم آما لهم الى شيء من منازع الملك ولا اسبابه انما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتعممون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقتا لهم وسجية فتتقص عصيتهم وبساتهم في الاجيال بمدحهم بتعاقبها الى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرفهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغاب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتى ملكه من يشاء

١٩ ﴿ فصل في أن من عوائق الملك حصول المنالة للقبيل

والانقياد الى سواهم ﴾

وسبب ذلك ان المذلة والانتقياذ كاسران لسورة العصية وشدهتها فان انتقياذه
ومذلتهم دليل على فقدانها فارتعوا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن جز
عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بنى
اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بان الله قد كتب
لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخاها
حتى يخرجوا منها أى يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصيتنا
وتكون من معجزاتك يا موسى وما عزم عايهم لجوا وار تكبوا العصيان وقالوا اله اذهب
أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما آتسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة
والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خايق
الانتقياذ ومارتعوا من الذل للقبط أحقا حتى ذهبت العصية منهم جملة مع أنهم
لم يؤموا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العاقلة الذين
كانوا ياربحاء فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا وتعويلا
على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة
وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك . ما أمرهم به فمقبهم الله باليه وهو أنهم
ناهوا في قفر من الارض ما بين الشام ومصر اربعين سنة لم يأووا فيها العمران
ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العاقلة بالشام والقبط
بمصر عايهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها
ان حكمة ذلك التيه مقصودة . هي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضه الذل
والقهر والقوة وتخاقوا به وافسدوا من عصيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل
آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت لهم بذلك عصية
أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغاب ويظهر لك من ذلك أن الاربعين سنة
أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحانه الحكيم العليم وفي هذا
أوضح دليل على شأن العصبة وأنها هى التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية

والمطالبة وأن من فقد مدعا عجز عن جميع ذلك كله وبالحق هذا الفصل فيما
يوجب المدلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين ما أعطوا اليد
من ذلك حتى رضوا بالمدلة فيه لان في المغارم والضرائب ضيها ومدة لا تحتملها
النموس الابية الا اذا استهوته عن القتل والتنف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة
عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة
والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمدلة عاتقة كما قدمنا ومنه قوله صلى الله
عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الاوصار مادخات
هذه دار قوم الا دخلهم الدل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة هذا
الى ما يصحب ذل المغارم من خاق المكر والحديعة بسبب ملكه القهر فاذا رايت
القبيل بالمغارم في ربة من الذل فلا تطمع لها بملك آخر الدهر ومن هنا
يتبين لك غاظ من يزعم أن زناة بالمغرب كما وا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على
عهدهم من الملوك وهو غاظ فاحش كما رأيت ادل ووقع ذلك لما استتب لهم ملك
ولامت لهم دولة وانظر فيما قاه شهر براز ملك الساب لعبد الرحمن بن ربيعة لما
أطل عايه وسأل شهر براز أمانه على أن يكون له ففكان أنا اليوم منكم يدي في
أيديكم وصعري معكم فمرحما بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم
والقيام بما تحبون ولا تداونا بالحزية فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما مانا فانه كاف
٢٠ * فصل في أن من علامات الملك التمافس في الخلال الحميدة وبالعكس *
لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان
أقرب الى خلال الشر بأصل فطرته وقوة الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه
من قيل الفوى الحيوانية التي فيه وأمان حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله
أقرب والملك والسياسة انما كانا له من حيث هو انسان لانهما خاصة للانسان
للاحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذا الخير هو
المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبئ عليه وتحقق به حقيقة وهو

العصية والعشير وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصية فهو غاية لفرعها ومتنها وهي الخلال لان وجوده دون متماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء أو ظهوره عن بابين الناس واذا كان وجود العصية فقط من غير انحال الخلال الحميدة نقصا في أهل البيوت والاحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كقالة الخلق وخلافة الله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم واحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع واحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذا فاعل سواء فمن حصلت له العصية الكفيلة بالقدرة واوانست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكقالة الخلق ووجدت فيه صلاحه لذلك وهذا البرهان أوثق من الاول وأصح مبني فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصية فاذا نظرنا في أهل العصية ومن حصل لهم الغاب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير الفادر والقرى لضيق وحمل الكسر وكسب المعدم والصبر على انكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحمايين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدماء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه واصناف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في احوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجاني عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم

وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم مناسب لعصبيتهم وغابهم وليس ذلك سدى فيهم ولا
 وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تآذن
 لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تآذن الله بانقراض الملك من أمة
 حاهم على ارتكاب المذمومات واتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل
 السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقال الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل
 به سواهم ليكون نعيها عليهم في سب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في
 أيديهم من الخير (وادا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق
 عابها القول فدمرناها تدميرا) واستقر ذلك وتبعه في الامم السابقة تجد كثيرا
 مما قلناه ورسومناه والله يخاف ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال الكمال التي
 يتنافس فيها القمائل أولو العصبية وتكون شاهدتهم بالملك اكرام العلماء والصالحين
 والاشراف وأهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم
 وذلك أن اكرام القبائل وأهل العربيات والعشائر لمن يناهضهم في السرف
 ويجاذبهم جبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عابه
 في الاكثر الرغبة في الجاه أو الخفاة من قوم المكرم أو التماس مثاهم منه أو امثال
 هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم
 ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد واتسحال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة
 بالكفاية لان اكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيلة ونظرائه
 و اكرام الظارين من أهل المصائر والخصوصيات كمال في السياسة العامة
 فالصالحون للدين والعلماء لاجاه اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب
 حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم
 من الاضاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انما وهم
 للسياسة العامة وهي الملك وان الله قد تآذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا
 كان اول ما يذهب من القليل أهل الملك اذا تآذن الله تعالى بسب ملكهم

وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الحاق فاذا رايت قد ذهب من امة من الامم
فاعلم ان المضائل قد اخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم (واذا اراد
الله بقوم وأ فلامر دله) والله تعالى اعلم

٢١ ﴿ فصل في أنه اذا كانت الاممة حشية كان ملكها أوسع ﴾

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستيلاء كما قلناه واستعباد العلوانف لغيرتهم
على محاربة الامم سواهم ولانهم يتزلون من الالهيين منزلة المترس من الحيوانات
العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الاكراد والبركن وأهل
الاثام من سنهاجة وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتاقون منه ولا بلاد
يخرجون اليه فذمة الاقطار والمواض اليهم على السواء فانها لا يقتصرون على
ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يفدون عند حدود أقتهم بل يظفرون
الى الاقاليم البعيدة ويتعابون على الامم البائية وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر
رضي الله عنه لما بويج وقام يخرض الناس على العراق فقال ان الحجج ليس لكم
بدار الا على النجمة ولا يقوى عليه أهله لا بذلك أين التراء المهاجرون عن
موعد الله سيروا في الاض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فقال
ايظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك ايضاً بحال العرب السائفة
من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن الى المغرب مره والى
العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال المائمين من
المغرب لما نزعوا الى الملك طندوا من الاقاليم الامم بحالاتهم منه في حوار
السودان الى الاقاليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا
شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها
نهابة والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ ﴿ فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا

يد من عوده الى شعب آخر منها مادامت لهم العصية ﴾

والدب في ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغاب والاذعان لهم من سائر الامم سواهم فيتعين منهم المباشرين للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجتمع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أوائك القاعون بالدولة انغمسوا في النعم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجليل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومداهبها وبنى الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمجاهة من اهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على الاولين الايام وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وسرب بما أرهف المعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وناغوا عايتهم من طبيعة التمدن الانساني والتغاب السياسي كدود القز ينسج ثم يفنى * بتركيز نسجه في الانعكاس

كان حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غابهم من الكسر مخنوقة وشارتهم في الغاب معلومة فآسرو آمالهم الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترفع المازعة لما عرف من غابهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضا منتبها عنه من عشائر أمتهم فلا يرال الملك ملاحظا في الامسة الى ان تمكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم اخوانهم من نمود ومن بعدهم اخوانهم العمالة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التباينة من حمير أيضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمصر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقرضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى

صناعتهم المثلثين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا
سنة الله في عباده وخلقه واصل هذا كله انما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في
الاجيال والملك يخافه الترف ويذهب به كما سندرته بعد فاذا انقرضت دولة فانما
يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد
واونس منها الغالب لجميع العصبيات وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم
لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه او بعد حتى اذا
وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة او ذهاب عمران او ماشاء الله من قدرته
فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما
وقع لمصر حين غابوا على الائم والدول واخذوا الامر من أيدي أهل العالم بعد ان
كانوا مكبوحين عنه أحقابا

٢٣ * فصل في أن المغلوب مولع أبدا بالاقْتداء بالغالب

في شعاره وزيه ونجاته وسائر أحواله وعوائده *

والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما المظهر
بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغالب
طبيعي انما هو الكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتجات
جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما أراد والله أعلم من
أن غاب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما انتحلته من العوائد
والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغالب وهذا راجع للاول ولانك ترى المغلوب
يتشبه أبدا بالغالب في ما يسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر
أحواله وانظر ذلك في الابناء مع آباؤهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك
الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغالب على
أهله زى الحامية وجند الساطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت
أمة تجاور أخرى ولها الغالب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ

كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أمم الجلالة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابها اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الابناء بأبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العالم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ ﴿فصل في أن الامة اذا غابت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء﴾
 والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاثر اذا ملأ أمرها عايبها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التماسل والاعتماد انما هو عن جده الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاثر وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقض عم انهم وتلاشت مكابهم ومساءعهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضع الغاب من شوكتهم فاصبحوا معلمين لكل متغلب طعمه لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خاق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكسح عن غاية عزه تكامل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وأنها لانسافد اذا كانت في ملكة الأدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى ان يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في امة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فويت حاميتهم في ايام العرب بقي منهم كثير واكثر من الكثير يقال ان سعدا احصى من وراء المدائن فكانوا مائة الف وسبعة وثلاثين الفا منهم سبعة وثلاثون الفارب بيت ولما تحصلوا

في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قايلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم او عدوان شملهم فملكه الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على امره وصار آلة لغيره ولهذا انما تدعن للرق في الغالب ام السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قاناه او من يرجو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو افادة مال او عز كما يقع للملك الترك بالمشرق والعروج من الجلالة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدواة لهم فلا يأتفون من الرق لما يأموناه من الجاه والرتبة باصطناع الدواة والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

٢٥ ﴿ فصل في ان العرب لا يتغابون الا على البسائط ﴾

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل اتياب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفروا الى منتجعهم بالفقر ولا يذهبون الى المزاحفة والمخاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتعة عليهم باوعار الجبال بتجاعة من عيهم وفسادهم لانهم لا يتسنمون اليهم الهضاب ولا يركون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأكلهم يرددون عليهم الغارة والنهب والزحف لسهولة اعيانهم الى أن يصبح أهلها مغليين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى أن يقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

٢٦ ﴿ فصل في أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب ﴾

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشة باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خاقا وجبلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فناية الاحوال العادية

كلها عندهم ارحلة والتغاب وذلك مناقض للسكون الذي به عمران ومناف
له فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لصبه انماي للتقدر فينقلونه من المباني ويخربونها
عليه ويمدون له لذلك والحشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا
الاواد منه لبيوتهم فيخربوا السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم
منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم
انتهاب مافي أيدي الناس وان رزقهم في ضلال رماحهم وليس عندهم في أخذ
أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال او متاع أو ماعون
انتهبوه فاذا تم اقتدارهم تولى ذلك بالتغاب والملك بطات السياسة في حفظ أموال
الناس وخرب العمران وأيضا فلانهم يتفقون على أهل الاعمال من الصنائع
والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والتمن والاعمال كما
سند كره هي أصل المكاسب وحقيققتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا
سعت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل واندعر الساكن وفسد
العمران وأيضا فانهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المناسد ودفاع
بعضهم عن بعض انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبها أو مغرما فاذا
توصلوا الى ذلك وحصوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر
في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المناسد وربما فرضوا العقوبات في الأموال
حرصا على تحصيل الفائدة والجبابة والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس
بمغف في دفع المناسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك رائدا فيها لاستسهال
الغرم في جاب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم
والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة
طبيعية للاسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتهدم ذلك أول الفصل
وأیضا فهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسلم أحد مهم الامر لغيره ونو كان
أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحياء فيتمدد

الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران ويتقوض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سألته عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحس السياسة والعمران فقال تر كنهه يظلم وحده وانظر الى ماملوكه وتغابوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدات الارض فيه غير الارض فليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وحسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشبه بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدثر والله يرث الارض ومن عابها وهو خير الوارثين

٢٧ ﴿ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من

نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ﴾

والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فيهم أصعب الامم اتقيادا بعضهم لبعض للغاظة والانفة وبمد الهمة والمنافسة في الرياسة فقاما مجتمع احوالهم فاذا كان الدين بالسوة او الولاية كان ارازع لهم من انفسهم وذهب خاق الكبر والمنافسة منهم فسهل اتقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشماهم من الدين المذهب للغاظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يبعثهم على التيام بأمر الله ويندهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاطهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغاب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خاق التوحش القريب المعاناة المتهمى لقبول الخبر ببقائه على الفطرة الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد

وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ * فصل في أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك *

والسبب في ذلك انهم اكثر بدابة من سائر الامم وابعد مجالا في القفر واغنى عن حاجات التلؤلؤ وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يبالون في ذلك وللتوحش ورئيتهم محتاج اليهم غالبا للعصية التي بها المدافعة فكان مصطرا الى احسان ما كتبهم وترك مراغمتهم لئلا يفتل عليه شأن عصبية فيكون فيها هلا كه وهلا كههم وسياسة الملك والسايطان تقتضى ان يكون السائس وازعا بالتمهر والالم تستقم سياسته وايضا فان من طبيعتهم كما قدمناه اخذ ما في ايدي الناس خاصة والتجاني عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا امة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع باخذ ما في ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفسد في الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعنا بحسب الاغراض الباعثة على المفسد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب غرضه فتتمو المفسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامة كأنها فوضى مستطية أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كاه عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالسريرة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى ساطانهم كان رستم اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا

الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الاقياد واعطاء
النصفه فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخائفاء
ومن جياهم ولما ذهب أمر الخلافة وانمحي رسمها انقطع الامر جملة من أيديهم
وغاب عنهم المعجم دونهم وأقاموا بادية في قضاهم لا يعرفون الملك ولا سيادته بل
قد يجهد الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من
الامم في الحقيقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عادوثمود والعمالة وحير والتباعدة
شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الامم بنى أمية وبنى العباس لكن بعد عهدهم
بالسياسة لما سوا الدين فرجعوا الى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض
الاحيان غاب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله
وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله بثؤنى ما كنه من
يشاء

٢٩ ﴿فصل في أربواى من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الامصار﴾

قد تقدم لنا ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية
في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم في مواضعهم أمور
الفاح وموادها معدودة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكيفية من تجار وخياط
وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفاح وغيره وكذا الدنانير
والدراهم منقودة لديهم وانما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان
أو فضلاته ألباناً وأوبارا وأشعارا واهاباً مما يحتاج اليه أهل الامصار فيعوضونهم
عنه بالدنانير والدراهم الا ان حاجتهم الى الامصار في الضرورى وحاجة أهل
الامصار اليهم في الحاجى والكمالى فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم
فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون
الى أهابها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم الى ذلك وطالبوهم به
وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغاب الملك وان لم يكن في المصر

ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقيين والا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحماهم على طاعته والسعى في مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبدى لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين فيضطر الباقيون الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسمعهم مفارقه تلك النواحي الى جهات أخرى لان كل الجهات معذور بالبدو الذين غابوا عاينها ومنعواها من غيرهم فلا يجد هؤلاء ما جأ الاطاعة المصير فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله قاهر فرق عباده وهو الواحد الاحد القهار

﴿ الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب و

السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات ﴾

١ ﴿ فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصية ﴾

وذلك انا قررنا في النصل الاول ان المغالبة والمماعة انما تكون بالعصية لما فيها من النعرة والتدامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف مندوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا وقل ان يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غاب عليه فتقع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصية كما ذكرناه آنفا وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ اولها وطال أمد مرابهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبيغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من اوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه وخصوصا أهل الأندلس في نسيان هذه العصية وأثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب

عن قوة العصبية بما تلاشى وظنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شئ عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ * فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصبية *
 والسبب في ذلك ان الدول العائمة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغاب للغرابية وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقائل الناس معهم على أمرهم قتلهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها كتاب الله لا يدل ولا يعلم خلافه ولا امر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على ساطنهم ودولتهم المخصوصة اما لما والى والمصطنعين الذين نشؤا في ظل العصبية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بلما والى من العجم والترک والديلم والساجوقية وغيرهم ثم تغاب العجم الاولياء على النواحي وتقاص ظل الدولة فيه تسكر تعدوا أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك الساجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخرا التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقاصدة الظل بالمهدية وبجاية والقلمة وسائر ثغور أفريقيا وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والساطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية

في المصامدة فحوا آنا هم وكذا دولة بني أمية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبانهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك وابسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم او يغيره لان الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سند كره واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف

مما يزهدي في ارض اندلس * اسما معتصم فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها * كالمريحي انتفاخا صورقا لاسد

فاستظروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطرء على الاندلس من اهل العدو من قبائل البربر وزناة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر امرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن ابي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على اسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في ساطنهم ذلك حتي جاز اليهم البحر المرابطون اهل المصيبة القوية من لتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مرا كزهم ومحو آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ضن الطرطوشي أن حامية الدول باطلاق هم الجنيد أهل العطاء المفروض مع الالهة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وانما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انما أدرك الدولة عند هرمها وخاق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلاف دولة بني أمية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في ايلة المستعين بن هود

وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء
 الخوف على العرب منذ ثمانمائة من السنين وهذا بهم ولم ير إلا ساطعنا مستبدا
 بالملك بن عشارد قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية
 العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه واستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة
 فأطاق الطرطوشي القول في ذلك ولم يفتن لكيفية الأمر منذ أول الدولة
 وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية فتظن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه
 من يشاء

٣ * فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي

دولة تستغنى عن العصبية *

وذلك أنه إذا كان لعصبية عاب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين
 بأمره من أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج والتبدع
 مقر ملكة ومبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بأمره وضاغروا على شأنه وغنوا
 بتمهيد دولته يرجون استقلاله في نصابه وتناوله الأمر من يد أعيانه وجزاء لهم
 على مظاهرتهم باصطفاؤهم لترتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية فغر
 ولا يطمعون في مشاركته في شيء من ساطعانه نسيما لعصبيته وانقيادا لما استحكم
 له ولقومه من صبغة الغاب في العالم وعقيدة ايمانية استقرت في الأذعان لهم فهو
 راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها وهذا كما وقع للإدارة بالمغرب
 الأقصى والعبيديين بأفريقية ومصر لما تبدع الطالبيون من المشرق إلى القاصية
 وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا إلى طنبها من أيدي بني العباس بعد أن
 استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني أمية أولاً ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا
 بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة
 ومغياة للإدارة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين فشيّدوا دولتهم ومهدوا
 بعصائبهم أمرهم واقتطعوا من تمالك العباسيين المغرب كله ثم أفريقية ولم يزل

طل الدولة ينتقاص وطل العميديين يمتد الى ان ما كوامصر والشام والحجاز وقاسم وهم في الممالك الاسلاميه شق الابسة وهؤلاء البرابرة البائسون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون ناعميديين امرهم مدعون لما كهم وانما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة آسيا لما حصل من بفة الملك لبي هانم ولما استحكم من الغاب لقرائش ومضر على سائر الامم فلم يزل في اعقابهم الى ان انقضت دولة العرب بأسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

٤ ﴿ فصل في أن الدول العائمة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين

أما من نوة أو دعوة حق ﴾

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغاب وانما يكون بالعصبية واتهق الاهواء على البطالة وجمع القلوب وتأينها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى (لو أنفقت مافي الارض جميعا ماأمنت بين قلوبهم) وسره ان القلوب اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف وادا انصرف الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقامت على الله اتجرت وحنها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد وانسع نطاق الكلمة لذلك فعظم الدولة كما نبين لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لارب سواه

٥ ﴿ فصل في أن الدعوة الدينية تريد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية

التي كانت لهم من عددها ﴾

والسبب في ذلك كما قدمناه ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطابو متساو عندهم وهم مستمعيتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وان كانوا اضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا أكثر منهم بل يغلبون

عليهم ويواجههم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين الفا في كل معسكر وجوع فارس مائة وعشرين الفا بالقادسية وجوع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغابوهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصية أو يشف عليهم الا أن الاجتماع الديني صاعف قوة عصبيتهم بالانصباء والاستماتة كما قاناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حلت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغالب على نسبة العصية وحدها دون زياد الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عنها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصية منها وأشد بداعة واعتبر هذا في الموحدين مع زناة لما كانت زناة أبدى من المصامدة واشد توحشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية تابع المهدي فابسوا صبغتها وتصاعفت قوة عصبيتهم بها فغابوا على زناة أو لا واستتبعموهم وان كانوا من حيث العصية والبداعة أشد منهم فلما حاولوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناة من كل جانب وغابوهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره

٦ * (فصل في الدعوة الدينية من غير عصية لاتهم) *

وهذا لما قدمناه من كل أمر تحمل عليه الكفاية فلا بد له من العصية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الياس بنحرق العوائد فما طمك بغيرهم أن لا تحرق له المادة في الغاب بغير عصية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خاع النعمان في التصوف نار بالاندلس داعيا الى الحق وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهامى فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين

ولم تكن منك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن ذاته فلم يلبث حين استولى
 الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بخصن
 أركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى
 ثورة المرابطين ومن هذا الباب احوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة
 والعقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلك طرق الدين يذهبون الى القيام
 على أهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المسكر والنمى عنه والامر بالمعروف
 رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمنشبهون بهم من الغوغاء والدماء
 ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهلك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين
 غير مأجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما أمر به حيث تكون
 القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم
 يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية
 لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر
 كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله
 بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكور كله لو شاء لكنه انما أجرى
 الامور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب
 وكان فيه محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان
 من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتمقطع به المهالك
 لانه أمر الله لا يتم الا برضاه واعاقته والاحلاس له والصيحة للمسلمين ولا يشك
 في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد
 حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق
 ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه التكبر
 عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن
 المهدي فوق الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بهامن الشطار والحربية

على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلات أيديهم من نهب الناس
 وناعوها علية في الاسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل
 الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام بيغداد رجل يعرف بخالد
 الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل أهل
 الزعارة فغلبهم وأطاق يده فيهم بالضرب والتسكيل ثم قام من بعده رجل آخر من
 سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى أبا حاتم وعاق مصحفا
 في عنقه ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله
 وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من
 بني هاشم من ونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف بيغداد ومنع كل
 من أخاف المارة ومنع الخفاه لاه لك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لأعيب
 على السلطان فقال له سهل لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من
 كان وذلك سنة احدي ومائتين وجهاز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه
 وأسره وأحل أمره سريما وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير
 من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في
 اقامته من العصية ولا يشعرون بغبية امرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج اليه
 في أمر هؤلاء اما المداواة ان كانوا من أهل الجبون واما التسكيل بالقتل أو
 الضرب أو أحدثوا هرجا وأما ذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد
 ينتسب بعضهم الى الفاطمي المنتظر امانا به هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم
 من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المتبحرين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين
 أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلات بها جوانحهم وعجزوا عن
 التوصل اليها بشئ من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الاسباب البالغة بهم
 الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما
 يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس

رجل من المتصوفة يدعى التوبذرى عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هالك
 وزعم أنه الناطمي المنتظر تاييسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من
 الحدنان بانظاره هنالك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته قهاقت عليه
 طوائف من عامة البربر نهافت الفراش ثم خشي رؤسائهم اتساع نطاق الفتنة
 فدمس اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله في فراشه وكذلك خرج
 في غمارة أيضا لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع
 نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمسارهم وزحف الى بادس من أمصارهم
 ودخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين
 وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما ان
 كان التاييس فاحرى أن لا يتم له أمر وأن يموء نائمه وذلك جزاء الظالمين والله
 سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب غيره ولا معبود سواه

٧ ﴿ فصل في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها ﴾
 والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها المهديين لها اليد من توريهم
 حصصا على الممالك والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو
 وامضاء احكام الدولة فيهما من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصابات
 كلهم على الثغور والممالك فلا بد من تعداد عددهم وقد باغت الممالك حينئذ الى
 حد يكون ثغرا للدولة وتحمها لوطنها واطاقا لمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد
 ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعها لا تهواز الفرصة من
 العدو المجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق
 سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على
 الثغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفصح نطاقها
 الى غايتها والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل
 قوة يصدر عنها فعل من الافعال فثأنها ذلك في فعالها والدولة في مركزها

أشد ما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم إذا أدركها الهرم والضعف فالتأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظا إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز وإذا غاب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضحل لوقتها فان المركز كالقلب الذي تتبع منه الروح فإذا غلب القلب وملك انهزم جميع الأطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المداش فلما غلب المسلمون على المداش انقراض أمر فارس أجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكة وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغابهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزال ملكهم متصلا بها إلى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائهم موفورة كيف غابوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من الهند والحبشة وإفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والتغور ونزلوها حامية ونفذ عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجع الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائم بها في القلة والكثرة وعند نفاذ عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ ﴿ فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة

القائم بها في القلة والكثرة ﴾

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصية وأهل العصية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة واقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبيها

وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع
لذلك واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كفة العرب على الإسلام وكان
عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف
وعشرة آلاف من مضر وخطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد
ذلك إلى الوفاة فاما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى
ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم
والترك بالمشرق والافرنجة والبير بللغرب والتقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز
إلى السوس الأقصى ومن اليمن إلى الترك بأقصى السما واستولوا على الأقاليم
السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان
قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصادمة كانت
دولتهم أعظم فملكوا أفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك
دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصادمة قصر ماكنهم عن ملك الموحدين
لقصور عددهم عن عدد المصادمة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين
لهذا العهد لزناة بنى مرين وبنى عبد الواد لما كان عدد بنى مرين لأول ملكهم
أكثر من بنى عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم
الغالب مرة بعد أخرى يقال ان عدد بنى مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وان
بنى عبد الواد كانوا ألفا الا ان الدولة بالرقعة وكثرة التابع كثرت من اعدادهم
وعلى هذه النسبة في اعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما
طول امدها ايضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول
انما هو بالعصبية فاذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وكان امد العمر
طويلا والعصبية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك
ان النقص انما يندو في الدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت
اطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر

أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون
أمدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدها أطول
الدول لابنو العباس أهل المركز ولاينو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينقص أمر
جيمهم الا بعد الاربعمئة من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين
وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة امر افريقية لبلد كين
ابن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة الى حين استلاء الموحدين انبلى القلعة
وبحماية سنة سبع وخمسين وخمسمئة ودولة الموحدين لهذا العهد ناه مائتين
وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في اعمارها على نسبة القائمين بها سنة لله التي
قد خات في عبادته

٩ * فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن

تستحكم فيها دولة *

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وأن وراء كل رأى منها وهوى
عصية تمنع دونها فيكثر الانتقاص على الدولة والخروج عاينها في كل وقت
وان كانت ذات عصبية لان كل عصبية ممن تحت بدها تظن في نفسها منعة وقوة
وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد فان
ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول
الذي كان لابن أبي سرح عاينهم وعلى الافرنجة شيئا وعادوا بعد ذلك الى الثورة
والردة مرة بعد أخرى وعظم الأثقال من المسلمين فيهم ولما استقر الدين
عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرار عديدة قال
ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام
فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن
افريقية مبرقة لقلوب أهائها اشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة
لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام

انما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم
 المسلمون على الامر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها مانع ولا مشاق والبربر
 قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصابات وعشائر وكلما
 هلكت قبيلة عارت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال أمر
 العرب في تهديد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الامر بالشام لعهد
 بنى اسرائيل كان فيه من قبائل فاسطين وكنعان وبنى عيصو وبنى مدين وبنى
 لوط والروم ويونان والمهالقة واكريكش والبيط من جاب الجزيرة والنوصل
 مالا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بنى اسرائيل تهديد دولتهم ورسوخ
 أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم
 فاختتموا على ساطانهم وخرجوا عليه ولم يكن له ملك موطن سائر أيامهم الى
 أن غابهم الفرس ثم يونان ثم اروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غاب على أمره
 وبالعكس هذا ايضا الاوطان الخالية من العصبية تسهل تهديد الدولة فيها ويكون
 ساطانها وازعامة الهرج والانتقاس ولا تحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية
 كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد اذ هي خلوا من القبائل والعصبية
 كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في ناية الدعة والرسوخ اقله الخوارج
 وأهل العصابات انما هو ساطان ورعية ودواتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغالبون
 على الامر واحدا بعد واحد ويأخذ الامر فيهم من منبت الى منبت والخلافة
 مسماة للعباسي من اعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الاندلس لهذا العهد فان
 عصبية ابن الاحمر سلطانها لم يكن لاون دولتهم بقوية ولا كانت كرات انما يكون
 أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن
 أهل الاندلس لما انقرضت الدولة المرية منه وما ملكهم البربر من بتونة والموحدين
 سئعوا ملكاتهم وثقلت وطأهم عليهم فأشربت القلوب بغضاهم وأمكن الموحدون
 والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصول للطاغية في سبيل الاستظهار به على

شأنهم من تملك الحضرة مرا كس فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافي بهم المنبت عن الحضرة والامصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مرديش وأمثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخرج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حمص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر وتناوله بعصاة قايلة من قرانته كانوا يسمون الرؤساء ولم يمتنع لا أكثر منهم لقة العصائب بالاندلس وانها سلطان ورعيه ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز اليه البحر من اعيان زناتة فصاروا معه عصابة على المناصرة والرباط ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمسل في الاستيلاء على الاندلس فصار أولئك الاعيان عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى أن تأتل أمره ورسخ وألقت النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصاة الا أنها قايلة وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس لقة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغاب عليهم والله غني عن العائنين

﴿ فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ﴾ ١٠

وذلك أن الملك كما قدمناه انما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعا في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغاب على الناس والدول وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتوآلفها

وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضميرها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلب منبته لجمعها واذا تعين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خالق الكبر والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استنباعهم والتحكيم فيهم ويحيى خلق التائه الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لتساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة الا الله انفسدا فتجدع حينئذ انوف العصبيات ويفاج شكائهم عن ان يسموا الى مشاركته في التحكيم وتقرع غصبيتهم عن ذلك ويفرد به ما استطاع حتي لا يترك لاحد منهم في الامر لاناقة ولا حملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا انه امر لا بد منه في الدول سنة الله التي قد خلت في عباده والله تعالى اعلم

﴿ ١١ ﴾ فصل في أن من طبيعة الملك الترف ﴿

وذلك أن الامة اذا تغلبت ومالكت ما أبدي أهل الملك قبلها كثير رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قباهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك الوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويفاخرهون في ذلك ويفاخرهون فيه غيرهم من الامم في أكل الطيب ولبس الايق وركوب الفاره ويناغى خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تباغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى اعلم

﴿ ١٢ ﴾ فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون ﴿

وذلك ان الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعى اليها (قال الشاعر)

عجبت لسعى الدهر يبنى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاع التي كانوا يتكافونها في طلبه وآثروا
الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمسكن
والمسلايس فيبتدرون النصور ويحجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون
باحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاع ويتأنقون في احوال الملابس
والمطاعم والآنية والمرش ما استطاعوا وبألفون ذلك ويورثونه من بعدهم
من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بامرده وهو خير الحاكمين
والله تعالى أعلم

١٣ * فصل في انه اذا استحكمت طبيعة ملك من الانفراد بالمجد وحصول

الترف والدعة اقامت الدولة على الهرم *

وبيانه من وجوده * الاول انها تقتضى الانفراد بالمجد كما قاتناه ومهما كان المجد
مشاركاً بين المصابة وكان سعيهم له ، احد كانت همهم في التغلب على الغير والذب
عن الحوزة أسوة في طموحها ، قوة شكائهم ومرماهم الى العز جميع وهم
يستطيون الموت في بدء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم واذا انفرد الواحد
منهم بالمجد قبح عصبيتهم وكبح من أعتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاساوا
عن الغزو وفشل ريحهم ورثوا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على
ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من الساطان لهم على الحماية والمعونة
لايجرى في عقولهم سواه وقل ان يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك
وهنا في الدواة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد
العصية بذهب البأس من اهلها * الوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضى الترف
كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم

فالمعير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه وترقه ثم يزداد ذلك في اجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمتعهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينزعون ما في ايدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن اقامة احوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضاً اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتها احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح غلهم والجبابة مقاديرها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقاديرها بعد الزيادة محدوداً فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحماية حينئذ عما كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحماية ونالوا رابعاً الى أن يعود العسكر الى أقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قبة الدولة ويتجاسر عليها من يحاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبته على خايقته وأيضاً فالترف مفسد للخلاق بما يحصل في النفس من أوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخبز التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خايقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعف أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن تقضى عليها * الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألوماً وخلقوا سائر لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وايلافها فتربي أجيالهم الحادنة في غصارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق النوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها

الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق
 بينهم وبين السوقة من الحضرة الا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب
 بأسهم وتضعف شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم
 ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية
 في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة
 وينسأخون عنها شيئاً فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة
 حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي
 أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً في غير ربيعة وربما يحدث
 في الدولة اذا طرقها هذا الهرم والترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً
 وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب
 وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من
 الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة
 الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك
 المماليك المخلوبين اليهم فرساناً وجنداً فيكونون أجراً على الحرب وأصبر على
 الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قباهم وربوا في ماء النعيم والساطان وظاه وكذلك
 في دولة الموحدين بأفريقية فان صاحبها كثيراً ما يتخذ جناده من زناتة والعرب
 ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المعتادين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً
 آخر سالماً من الهرم والله وارت الارض ومن عاينها

١٤ ﴿ فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ﴾

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون
 سنة وهي سنة القمر الكبرى عند المنجمين وبخلاف العمر في كل جيل بحسب
 القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة
 تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين

فيها وأعمار هذه المائة ما بين الستين الى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر
 الطبيعي الذي هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة
 من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأما
 اعمار الدول أيضا وان كانت تختلف بحسب القرانات الا أن الدولة في الغالب
 لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط
 فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى (حتى اذا بلغ
 أشده وبلغ أربعين سنة) ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل
 ويؤيد ما ذكرناه في حكمة التيسير الذي وقع في بني اسرائيل وان المقصود
 بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه
 فدل على اعتبار الاربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وانما
 قلنا ان عمر الدولة لا يعد وفي الغالب ثلاثة أجيال لان الجيل الاول لم يزالوا
 على خلق البداوة وخشوتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس
 والاشترار في المجد فلا تزال بذلك سورة العصية محفوظة فيهم فهدم مرهف
 وجانبهم مرهوب والناس لهم مغاوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة
 من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشترار
 في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة
 الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة
 والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الاول وباشروا أحوالهم
 وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومرامهم في المدافعة والحماية فلا
 يسمهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه مذهب ويكونون على رجاء من مراجعة
 الاحوال التي كانت للجيل الاول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل
 الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز
 والعصية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تنكوه من النعيم

وعصارة العيش فيصرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويابسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يمهور بها وهم في الاكثر أجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بأقراضها فتذهب الدولة بما حمت فهذه كآراء ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة ونحاقها ولهذا كان اقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب انما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كاف طامر منى على مامهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من أهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على مامر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده الا ان عرض لها عرض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلًا مستوليا والمطالب لم يحصرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء أجاهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذه العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور ان عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفتالسين الماضية اذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فان نفذت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بحيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم بزيادة واحد في عمود النسب فان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك فتأمله تجده في الغالب صحيحا والله

يقدر الليل والنهار ١٥ * فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة *
اعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب الذي يكون به الملك انما هو
بالعصبية وما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا
مع البداوة فطور الدولة من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع
الاحوال والحضارة انما هي تفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه
ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل
واحواله فاكثر واحد منها صنائع في استجداته والتأنق فيه تختص به ويتلو
بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذوالتنعم
باحوال الترف وما تتلون به من العوائد فصار تطور الحضارة في الملك يتبع تطور البداوة
ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبدا يقلدون في طور
الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قباهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب
يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وماكوا فارس والرو واستخدموا
نباهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شئ من الحضارة فقد حكى أنه قدم
لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور في جزائن كسرى
فاستعملوه في عجينهم ما حا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم
واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة
عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من
اتساع العيش والتفنن في أحواله فباغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة
والترف في الاحوال واستجداد المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة
والفرش والآنية وسائر الماعون والخرتى وكذلك أحوالهم في أيام المباشرة والولائم
وليامي الاعراس فاتوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي والطبري
وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية
المأمون حين وافاه في خطبتها الى داره بقم الصلح وركب اليها في السفين وما

أنفق في أملاكها وما منحها للمأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب
فنه ان الحسن بن سهل نذر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون
فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ماثوثة على الرقاع بالضياع والعقار
مسوغة لم حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه اليه الاتفاق والبخت
وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على
الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعاف
ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها نيلة زفافها ألف حصاة من الياقوت
وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان (١) وبسط
لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت وقال المأمون
حين رآه قائل الله أبانواس كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الحمر

كأن صغرى وكبرى من فقاقتها * حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب للياسة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلامدة عام كامل
ثلاث مرات في كل يوم وفي الحطب للياتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه
الزيت وأوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من
بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات (٢)
المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله
وكذلك عرس المأمون بن ذى النون بطايطاة نقله ابن إسام في كتاب الذخيرة
وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك
جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسداجتهم يذكر أن
الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين بسأله عن ولائم

(١) قوله وثلثان ادى في كتب اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد
في النسخة التونسية الثلثان اه (٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها
مراعى نار يرمى بها العدو اه مختار

الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع شديده فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض
مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا حضر فيه صحاف الذهب على أخوتة
الفضة أربعة على كل واحد وتحمده أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا
طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بسحائبها ووصائفها فكان الحجاج يا غلام انحر الجزر
وأطعم الناس وعم أنه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كان * ومن هذا الباب
أعطية بنى أمية وجوائزهم فانما كان أكثرها الابل أخذنا بمذاهب العرب
وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بنى العباس والعباسيين من بعدهم ما علمت
من أحمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة
مع الاغالبة بافريقية وكذا بنى طنج بصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس
والموحدين كذلك وشأن زنادة مع الموحددين وهلم جرا تنتقل الحضارة من
الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة العرس للعرب بنى أمية وبنى
العباس وانتقلت حضارة بنى أمية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحددين
وزنادة لهذا العهد وانتقلت حضارة بنى العباس الى الدينم ثم الى الترك ثم الى
السلجوقية ثم الى ترك الممالك بصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة
يكون شأنها في الحضارة اذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع
الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه اهل
الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحا في
ال عمران والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

﴿ ١٦ ﴾ فصل في ان الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها *

والسبب في ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والنول
والعمومية فكثرت العصاة واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت اجيالهم
في جود ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب
كثرة العصاب حينئذ بكثرة المدد فاذا ذهب الجيل الاول والثاني واخذت

الدولة في الحرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شئ إنما كانوا عبيلا على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفا أو ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاميين سرير الملك والموالي والمصطنعين وقال المسعودي أحصى بنو العباس بن عبد المطاب خاصة أيام المؤمن للانفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكران واناك فانظر مبلغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وورثه فيه أجيالهم والافعدد العرب لأول الفتح لم يبالغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

١٧ ﴿ فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وحق أهلها باختلاف الأطوار ﴾
 (اعلم) ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب الثائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة واطوارها لاتعد وفي الغالب حمسة اطوار * الطور الاول طور الظمر بالبغيه وغاب اندفاع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالمة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشئ لان ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد مجالها * الطور الثاني طور الاستبداد على

قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا النطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجذع أنوف أهل عصيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه الضارين في الملك يمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصددهم عن موارده ويردهم على أعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه ويفرد اهل بيته بما يبنى من مجده فيعاني من مدافعهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الامر أو أشد لان الأولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعهم اهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاهرة على مدافعهم الا الاقل من الابعاد فيركب صعبا من الامر * الطور الثالث طور الفراغ والدعة لنحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل ائمال وتخايد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية وصبغ الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشيد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهيكل المرتفعة واجازة الوفود من أشرف الائم ووجوه القمم ووث المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار أرزاقهم واصنافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشككتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهى بهم الدول المسألة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم في هذه الاطوار كلها مستقلون بأرائهم بانون اعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم * الطور الرابع طور القنوع والمسألة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لانظاره من الملوك وأقناله مقلدا للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفى طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى ان في الخروج عن تقليدهم فساد امره وانهم ابصر بما بنوا من مجده * الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات

والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء وخضراء
الدمن وتقليد هم عظيما الامور التي لا يستقلون بحماها ولا يعرفون ما يأتون
ويذرون منها مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغفوا
عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما أنفق من اعطياتهم في شهواته
وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقدته فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما
لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها
المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه براء الى ان تنقرض كما
نينه في الاحوال التي نسردها والله خير الوارثين

١٨ * فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها *

والسبب في ذلك أن الآثار انما تحدث عن القوة التي بها كانت أولا وعلى قدرها
يكون الاثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة
الدولة في أصلها لانها لاتتم الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدي على العمل والتعاون
فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيح الجواب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين
جدا وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله الأثرى
الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى
وما اقتدر فيه الفرس حتى انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاهد عنه وشرع
فيه ثم أدركه العجز وقصة استشارته ليعحي بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف
تقدر دولة على بناء لا تستطيع أخري على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء
في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق
وجامع بني امية بقرطبة والقنطرة التي على وادياها وكذلك بناء الحنايا لجلب
الماء الى قرطاجنة في القناة الرابكة عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر
وكثير من هذه الآثار الماثلة للاميان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف
واعلم أن تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهدام واجتماع الفعلة وكثرة الايدي

عابها فذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ماتوهمه العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا في اطرافها واقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير يون كما تجدد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالق في ذلك اخبار اعريضة في الكذب من اغربها ما يحكون عن عوج (١) بن عناق رجل من العمالق الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى الشمس ويزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا ان للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الجوهر الضوء وان الضوء فيما قرب من الارض اكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر هلاك بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحاب وان الشمس في نفسها لاحارة ولا باردة وانما هو جسم بسيط مضي لامزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من العمالق او من الكنعانيين الذين كانوا قريسة بنى اسرائيل عند فتحهم الشام واطوال بنى اسرائيل وجنابهم لذلك العهد قريسة من هياكلنا يشهد لذلك ابواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلظهم في هذا أنهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهدام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدها بعظم هيكلها وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكم وهو ان الطبيعة التي هي جيلة للاجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في ناب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عنق بالنون اه

الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الاعمار أطول والاجسام اقوى لكمال تلك
 الطبيعة فان طرو الموت انما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت
 الاعمار أزيد فكان العالم في اولى نشأته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل
 يتناقص لقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص
 الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى لاوجه له الا التحكم كما تراه وليس
 له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وأبوابهم وطرقهم
 فيما احدهم من البنيان والهيكل والديار والمسكن كديار عمود المنحوتة في
 الصخر بيوتا صغارا وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه
 وآله وسلم الى انها يارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به
 وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا أن تكونوا باكين أن
 يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الارض شرقا
 وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حالها في الاعراس والولائم كما ذكرناه
 في ولاية بوران وصنيع الحجاج وابن ذى النون وقد مر ذلك كله * ومن آثارها
 أيضا عطايا الدول واسما تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو اشرفت على الهرم
 فان الهمم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ممالكهم وغايبه للناس والهمم
 لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذى نون لو فد
 قريش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشر اشرا
 ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطاب وانما ملكه
 يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همه نفسه
 بما كان لقومه التبابعة من الملك في الاض والغلب على الامم في العراقين والهند
 والمغرب وكان الصنهاجيون باقر يقية أيضا اذا اجازوا الوفد من امراء زناتة
 الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال احمالا والكساء تحوتا مملوءة والحملان جنائب
 عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة

وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معهما فانما هو الولاية والنعمة آخر
 الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم او بعض يوم واخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة
 وهي كلها على نسبة الدول جارية هنا جوهر الصقاي الكاتب قائد جيش
 العبيدين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال
 ولا انتهى اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط احمد بن محمد بن عبد
 الحميد حمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المأمون من جميع النواحي نقلته
 من جراب الدولة (غلات السواد) سبع وعشرون الف الف درهم مرتين
 وثمانمائة الف درهم ومن الحلال النجراتية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان
 واربعون رطلا (كنكر) احد عشر الف الف درهم مرتين وثمانمائة الف
 درهم (كورد جنة) عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم (حلوان) أربعة
 آلاف الف درهم مرتين وثمانمائة الف درهم ﴿ الاهواز ﴾ خمسة وعشرون
 الف درهم مرة ومن السكر ثلاثون الف رطل ﴿ فارس ﴾ سبعة وعشرون
 الف الف درهم ومن ماء الورد ثلاثون الف قارورة ومن الزيت الاسود عشرون
 الف رطل ﴿ كرمان ﴾ اربعة آلاف الف درهم مرتين ومائتا الف درهم ومن
 المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون الف رطل ﴿ مكران ﴾ اربعمائة
 الف درهم مرة ﴿ السند وما يابيه ﴾ احد عشر الف الف درهم مرتين وخمسمائة
 الف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا ﴿ سجستان ﴾ اربعة آلاف
 الف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن الفانيذ عشرون رطلا
 ﴿ خراسان ﴾ ثمانية وعشرون الف الف درهم مرتين ومن نقر الفضة المانقرة
 ومن البراذين اربعة آلاف ومن الرقيق الـ راس ومن المتاع عشرون الف
 ثوب ومن الاهليلج ثلاثون الف رطل ﴿ جرجان ﴾ اثنا عشر الف الف
 درهم مرتين ومن الابرسم الف شقة (قومس) الف الف درهم مرتين وخمسمائة
 الف من نقر الفضة ﴿ طبرستان والروبان ونهاوند ﴾ ستة آلاف الف درهم

مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبرى ستمائة قطعة ومن الاكسية مائتان
 ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن الماديل ثلثمائة ومن الجامات ثمانمائة ﴿ الرى ﴾
 اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون الف رطل ﴿ همدان ﴾
 أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمانين ألف رطل
 ومن العسل اثنا عشر ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف
 درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم ، ماسبدان والدينار (١) أربعة آلاف
 ألف درهم مرتين (شهر زور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف
 درهم (الموصل وما اليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن
 العسل الابيض عشرون ألف الف رطل (أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم
 مرتين (الجزيرة وما يابها من اعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم
 مرتين ومن الرقيق الف راس ومن العسل اثنا عشر الف زق (٢) ومن البزاة
 عشرة ومن الاكسية عشرون ﴿ ارمينية ﴾ ثلاثة عشر الف ألف درهم مرتين
 ومن القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المساج
 السور ماهى عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغان
 مائتان ومن المهرة ثلاثون (قاسرين) اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حبل
 (دمشق) اربعمائة الف دينار وعشرون الف دينار (الاردن) سبعة وتسعون
 الف دينار (فلسطين) ثلثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثمانمائة
 الف رطل (مصر) الف الف دينار وتسعمائة الف دينار وعشرون الف دينار
 (برقة) الف الف درهم مرتين (افريقية) ثلاثة عشر الف ألف درهم مرتين
 ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلثمائة الف دينار وسبعون الف دينار
 سوى المتاع (الحجاز) ثلثمائة الف دينار انتهى واما الاندلس فالذى ذكره

(١) قوله والدينار الظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ماسمدان وربان اه

(٢) قوله ومن البزاة الخ فى التركية ومن السكر عشرة صناديق اه

الثقات من مؤرخيها ان عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت امواله خمسة آلاف
الف الف دينارا مكررة ثلاث مرات يكون جماتها بالة اطير خمسمائة الف قطار
* ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف
قطار وخمسمائة قطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض
ولا تمكركن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شئ من أمثاله فتضيق حوصلتك
عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الاخبار عن
الدول السالفة بادربالانكار وليس ذلك من الصواب فان احوال الوجود والعدم ان
متفاوتة ومن ادرك منها رتبة سفلى او وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن
اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى امية والعباسيين وناسبننا الصحيح
من ذلك والذي لا شك فيه بالذى نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة
اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها
فالأثار كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا انكار ذلك
عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض
والمتواتر وفيها المعايين والمشاهد من آثار البناء وغيره نخذ من الاحوال المنقولة
مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه
عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي
عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة (١) كان
رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند
ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها
لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب
المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن

(١) كان ابتداء رحلته ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهى لها سنة ٧٥٤ وهي

شأن رحائه ومارأى من العجائب بمالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن
 دولة صاحب الهند وبأنى من احواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند
 اذا خرج الى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء واء لدان وفرض
 لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في
 يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في
 ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكاثر الدراهم والدنانير على الناس
 الى أن يدخل ايوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس تكذيبه * ولقيت
 أيامئذ وزير الساطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن
 وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي
 الوزير فارس اياك أن تستنكر مثل هذا من احوال الدول بما أنك لم تره فتكون
 كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيرا اعتقله ساطانه ومكث في السجن
 سنين ربي فيها ابه في ذلك الحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان
 يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصنفها له أبوه بشياتها
 ونعوتها فيقول يأت تراها مثل الفأر فينكر عايه ويقول أين الغنم من الفأر
 وكذا في لحم الاسد والبقر اذ لم يعاين في محسه من الحيوانات الا الفأر فيحسبها
 كلها أبناء جنس الفأر وهذا كثيرا ما يمتري الناس في الاخبار كما يعترهم
 انوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه اول الكتاب فليرجع الانساق
 الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله
 ومستقيم فطرته فمادخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس
 مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حدا بين الواقعات
 وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشئ فاننا اذا نظرنا أصل الشئ وجنسه
 وصفه ومقدار عطمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على احواله وحكمنا
 بالامتناع على ماخرج من نطاقه وقل رب زدني علما وأنت ارحم الراحمين والله

سبحانه وتعالى اعلم

١٩ ﴿فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالى والمصطنعين﴾
 (اعلم) أن صاحب الدولة انما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهرأؤه
 على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة
 دولته وجباية أمواله لانهم أعوانه على الغلب وشركاؤه فى الامر ومساهموه فى
 سائر مهماته هذا مادام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثانى وظهر
 الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا فى حقيقة الامر من
 بعض أعدائه واحتاج فى مدافعتهم عن الامر وصدهم عن المشاركة الى أولياء
 آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب
 اليه من سائرهم وأخص به قربا واصطناعا وأولى ايثارا وجاهالما أنهم يستميتون
 دونه فى مدافعة قومه على الامر الذى كان لهم والرتبة التى ألفوها فى مشاركتهم
 فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصهم بمؤيد التكرمة والايثار ويقسم لهم
 مثل مالاكثير من قومه ويقدمهم جايل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة
 والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خاصة له دون قومه من ألقاب المملاكة
 لانهم حينئذ أولياءه الاقربون وصحباؤه الخاصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام
 الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التى كان بناء الغلب عايتها
 ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة الساطان فيضطغنون عليه
 ويتربصون به الدوائر ويعود وبك ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها من هذا
 الداء لان ماضى يتأكد فى الاعقاب الى أن يذهب رسما واعتبر ذلك فى دولة
 بنى أمية كيف كانوا انما يستظهرون فى حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب
 مثل عمرو بن سعد بن أبى وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبى سفيان والحجاج
 ابن يوسف والمهلب بن أبى صفرة وخالد بن عبد الله القسرى وابن هبيرة وموسى
 ابن نصير وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى الاشعري ونصر بن سيار وامثالهم

من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجال العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبنو سهل بن نوح وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف واثامش ونا كنانك وابن طولون وابتائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتابه سنة الله في عباده والله تعالى اعلم

٢٠ * فصل في احوال الموالي والمصطنعين في الدول *

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالمة انما يتم بالنسب لاجل التناصر في ذوى الارحام والقربى والتخاذل في الاجانب والبعدهاء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق او بالحلف تنزل منزلة ذلك لان أمر النسب وان كان طبيعيه ونما هو وهمي والمعنى الذى كان به الالتحام انما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر احوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطباع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أو شج وعقائدها اصح ونسبها اصرح لوجهين احدهما انهم قبل الملك اسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فيتزلون منهم منزلة ذوى قرابتهم واهل ارحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى واهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالتهم ويتزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم اضعف والتناصر لذلك

أبعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك * الوجه الثاني ان الاصطناع قبل الملك
 يبعد عهده عن اهل الدولة بطول الزمان ويخفى شأن تلك اللحمة ويظن بها في
 الاكثر النسب فيقوى حال العصية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى في
 معرفته الاكثر فتبين اللحمة وتميز عن النسب فتضعف العصية بالنسبة الى
 الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان
 اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاماً به واقرب قرابة اليه
 ويتنزل منه منزلة ابنائه واخوانه وذوى رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك
 والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا مشاهد بالعيان
 حتى ان الدولة في آخر عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم
 مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأوليئهم ومشاركة الدولة
 على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوى الضعفة وانما يحمل صاحب الدولة
 على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعترفهم
 في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظره بما ينظره به
 قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمرجى والاتصال بأبائه
 وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز
 فينا فرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد
 استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد وييقون على حالهم من
 الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصنائع
 والاولياء على الاولين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولي المؤمنين وهو
 على كل شيء وكيل

٢١ ﴿ فصل فيما يعرض في الدول من حجب الساطان والاستبداد عليه ﴾
 اذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة
 وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب

الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في
 الاكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المبت يترشح للولاية بعهد أبيه
 أو برشيح ذويه وخوله ويؤنس منه المعجز عن القيام بالملك فيقوم به كفه
 من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويورى بحفظ أمره عليه حتى يؤنس
 منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات
 التي يدعوها اليها ترف أحواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في
 الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد ان حظ الساطان من
 الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصنقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء
 خاف الحجاب وان الحل والربط والامر والنهي ومباشرة الاحوال المملوكية
 وتفقدتها من النظر في الجيش والمال والثغور انما هو لاوزير ويسلم له في ذلك
 الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته
 وأبناءه من بعده بوقع لبني بويه والسترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق
 وللمنصور بن أبي عامر بالاندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المغاب لشأنه فيحاول
 على الخروج من ربة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه وينسرب على
 أيدي التغلبين عليه اما بقتل او برفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك في النادر الاقل
 لان الدولة اذا أخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل أن
 تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك
 منغمسين في نعيمه قد سوا عهد الرجولة وألتوا أخلاق الدايات والاطار
 وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب انما همهم
 في القنوع بالابهة والتفنن في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالى
 والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض
 للدولة ضرورى كما قدمناه وهذان مرئان لبراء للدولة منهما الا في الاقل النادر
 وانه يؤتى ما يملكه من يشاء وهو على كل شئ قدير

٢٢ ﴿ فصد في ان المتغابين على الساطان لا يشار كونه في اللقب الخاص بالملك ﴾
 وذلك أن الملك والسلطان حصل لاؤليه منذ أول الدولة بعصية قومه وعصيته التي
 استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ
 رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغاب وان كان صاحب عصية من قبيل الملك او الموالي
 والصنائع فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك
 وهو لا يجادل في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر
 والنهي والحل والعقد والابرار والنقض يوهم فيها أهل الدولة انه متصرف عن
 سلطانه منذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته
 وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر
 في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه الساطان وأولوه على انفسهم عن القبيل
 منذ أول الدولة ومغاطط عنه باليابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه (١)
 عليه أهل العصية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لانه لم تستحكم له في
 ذلك صبغة محملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لأول وهلة وقد وقع مثل هذا
 لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام
 وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به ابوه وأخوه من الاستبداد بالحل
 والعقد والمراسم المتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فتفس
 ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبايعوا الابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد
 الجبار بن الناصر وخرجوا عابهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك
 المؤيد خليفتهم واستبدل منه سواه من أعياص الدولة الى آخرها واختات مراسم
 ملكهم والله خير الوارثين

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح
 لم يره أهلاله كما في القاموس

٢٣ (فصل في حقيقة الملك وأصنافه)

الملك منصب طبيعي للانسان لاناقد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا
 الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت
 الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته
 يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض
 ويمانهه الآخر عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك
 فيقع التنازع المفضى الى المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء وازهاق
 النفوس المفضى ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خصه البارئ سبحانه بالمحافظة
 فاستحال بقاءهم فوضى دون حاكم يزرع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل
 ذلك الى الوازع وهو الحاكم عايمهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر
 المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من ان المطالبات كلها والمدافعات
 لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات
 ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شئ من ذلك الا بالعصبية كما مر والعصبية متفاوتة
 وكل عصبية فإها تحكم وتغاب على من يلبها من قومها وعشيرها وليس الملك
 لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويحجب الاموال ويبعث
 البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته
 في المشهور فمن قصرت به عصبية عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الاموال
 أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر
 في دولة الاغالبة بالقيروان والملوك المعجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به
 عصبية أيضا عن الاستعلاء على جميع العصبية والضرب على سائر الايدي وكان
 فوقه حكم غيره فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل أمراء النواحي
 ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة

المتسعة الطاق أعنى توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع الامويين تارة والعبيديين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عاده

٢٤ ﴿ فصل في أن أرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر ﴾

اعلم أن مصاحبة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقب ذهنه وانما مصاحبتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين حقيقة السلطان أنه الملك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصنفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملائكة وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملائكة وتوابعها من الجودة يمكن حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه فانها ان كانت جميلة سالحة كان ذلك مصاحبة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واهلاكا لهم ويعود حسن الملائكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات منقبها عن عورات الناس وتعميد ذنوبهم شامها الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخاقتوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات وفسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك فتمسد الدولة ويحرب السياج وان دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قاناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية واذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الامر من كل جانب وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك واما النعمة عليهم والاحسان

لهم فن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي اصل كبير في التعجب الى ارعية واعلم انه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس واكثر ما يوجد الرفق في الغفل والتمغفل وأقل ما يكون في اليقظ انه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الامور في مناديتها باللعينة فيهاكون لذلك قل صلى الله عليه وسلم (سيروا على سير أضعفكم) ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء وما أخذ من قصة زياد بن ابى سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا امير المؤمنين العجز أم لخيانة فقال عمر لم أعزلك لو احدة منهما ولكني كرهت ان احمل فضل عقلمك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن ابى سفيان وعمر وبن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في النكر كما أن البسالة افراط في الجمود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهوج واللين وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطان وأمثال ذلك والله يخاق ما يشاء وهو العليم القدير

٢٥ * فصل في معنى الخلافة والامامة *

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغاب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق بحجة بمن تحت يده من الخلق في احوال دنياهم لعله اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من اغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجي العصبية المفضية الى الهرج

والمتن فوجب ان يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يساهمها الكفاية وينقادون الى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خات الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب امرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الدين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية واذا كانت من الله بشارع يقررها وشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فأنها كلها عبث وباطل ادغياتها الموت والفتناء والله يقول ﴿أخسبتم أنما خالقناكم عبثا﴾ فالقصد بهم إنما هو دينهم المنقضى بهم الى السعادة في آخرتهم سرراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض نجاءت السرائع بجماسم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فاجرتة على منج الدين ليكون النكس محوطا بنظر الشارع فما كان منه بمتضى القهر والتغلب واهم من القوة العصبية في صراها جوار وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لان الشارع أعلم بمصالح الكفاية فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من تلك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عنايكم وأحكام السياسة إنما تطاع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى السرائع حمل الكفاية على الاحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك الطبيعي هو حمل الكفاية على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكفاية على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكفاية على مقتضى النظر

الشرعى فى مصالحهم الاخرى والديوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نوره عليك من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ * فصل فى اختلاف الامة فى حكم هذا المنصب وشروطه *

واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماماً فاما تسميته اماماً فتشبيهاً بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي فى أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلاف فى تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى ﴿ انا جاعل فى الارض خليفة ﴾ وقوله ﴿ جعلكم خلائف الارض ﴾ ومنع الجمهور منه لان معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو فى حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة ابى بكر رضى الله عنه وتسامى النظر اليه فى أمورهم وكذلك فى كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار واستقر ذلك اجماعاً دالاً على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى أن مدرك وجوبه العقل وأن الاجماع الذى وقع انما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لآزدهام الاغراض فالتم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المأوذى بهلاك للبشر وانقطاعهم مع ان حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا

المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نهينا على فسادها وأن احدى مقدماته ان الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تساميم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولولم يكن شرع كافي أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب او لم يتباغته الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعائهم أن ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظام فلا ينهض دليالهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذي قـمناه وقد شد بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتاج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذي حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتدة بدم ذلك والى على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفسد محظورة وهى من توابعه كما أتى على العدل والنصنة واقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بازائها التواب وهى كلها من توابع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة اليها وانما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك

بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً لانكم موافقون على وجوب اقامة أحكام
 الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصية والشوكه والعصية مقتضية بطبعها للملك
 فيحصل الملك وان لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرر أن هذا
 النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد
 والحق فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى ﴿ أطيعوا
 الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة
 العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل
 واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي فأما اشتراط العلم فظاهر لانه
 انما يكون مفداً لأحكام الله تعالى اذا كان عالماً بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها
 ولا يكفي من العلم الا أن يكون مجتهداً لان التقايد نقص والامامة تستدعي
 الكمال في الادب والاحوال وأما العدالة فلانه منصب ديني ينظر في سائر المناسبات
 التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه
 بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفاءها بالبدع الاعتقادية
 خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على اقامة الحدود واقتحام الحروب
 بصيرتها كنبلا يحمل الناس عايقاً بالعصية وأحوال الدهاء قويا على معاناة
 السياسة ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد الله و اقامة الاحكام
 وتدبير المسالمة وأما سلامة الحواس والاعضاء من النقص والمطلة كالجنون والعمى
 والصمم والخرس وما يؤثر فتنده من الاعضاء في العمل كفقده اليدين والرجلين
 والاشنين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه
 وان كان انما يشين في المنظر فقط كفقده احدى هذه الاعضاء فتشترط السلامة
 منه شرط كمال وياحق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب
 يباحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن
 التصرف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يباحق به منه وهو الحجر باستلاء بعض

أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة فينتقل النظر في حال هذا المستولى فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقض يده عن ذلك ويدفع عاتيه حتى ينفذ فعل الخليفة وأما النسب القرشي فلا جماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباداة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن الى محسنكم. وتجاوز عن مسيئكم واوكانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم شجوا الانصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت ايضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحى من قريش وأمثال هذه الأدلة كثيرة الا أنه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الارض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغاب عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفي اشتراط القرشية وعولوا على طواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وان ولى عابكم عبد حبشي ذو زبينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته أو لما دخاتني فيه الظنة وهو أيضا لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولى القوم منهم وعصية الولاة حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها منقودة في ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب الممد للعصية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فآه غير محتاج اليه اذ المائدة في النسب انما هي العصية وهي حاصلة من الولاة فكان ذلك حرصا من عمر رضى الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه

عهدة ومن القائلين بنى اشتراط القشية القاضى أبو بكر الباقلانى لما أدرك عليه
عصية قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء
فاسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأى الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء
لعهده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشى ولو كان عاجزا
عن القيام بعمور المسلمين ورد عليهم -م سقوط شرط الكفاية التي يقو بها على
أمره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصية فقد ذهبت الكفاية وادا وقع
الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط
هذا النصب وهو خلاف الاجماع * ولنتكلم الآن فى حكمة اشتراط النسب ليتحقق
به الصواب فى هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد
وحكم تشمل عاينها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط
النسب القرشى ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصفه النبي صلى الله
عليه وسلم كما هو فى المشهور وان كانت تلك الوصاية موجودة والتبرك بها حاصل
لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد اذن من المصلحة فى
اشتراط النسب وهى المقصودة من مشروعيتها واذا سبرنا وقسمنا لم نجد لها الا
اعتبار العصية التي تكون بها الخباية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها
لصاحب النصب فاسكن اليه الملة وأهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك أن
قريشا كانوا عصية مضر وأصلهم وأهل الغاب منهم وكان لهم على سائر مضر
العزة بالكثرة والعصية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكبتون
لغابهم فلو جعل الامر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقادهم
ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحماهم على الكثرة
فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم
ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصية وتحسن الحماية بخلاف
ماذا كان الامر فى قريش لانهم قادرون على سوق الناس بمصا الغلب الى ما يراد

منهم فلا يخشى من أحد خلاف عابهم ولا فرقة لانهم كقبيلون حينئذ بدفعها
 ومنع الناس منها فاشترط نسهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية
 ليكون أباع في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة
 مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب وانقادت الامم سواهم الى أحكام الملة ووطئت
 جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين الى أن
 اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة
 والنفط على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في
 احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحاق في كتاب السير وغيره فاذا ثبت أن اشتراط
 القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغاب وعلمنا أن الشارع
 لا يخص الاحكام بجيـل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية
 فردناه اليها وطردها العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية
 فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على
 من معها لعصرها ليستنبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا
 يعلم ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت
 لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الامم وانما يخص لهذا
 العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة
 لم تمد هذا لانه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بامور عباده ليحماهم
 على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الامن
 له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في
 كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع
 وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان الرجال
 قوامين عليهم اللهم الا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر اه

فيها بل وضع لا بالمعنى بل ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل الا من علم عليهم وقل أن يكون الامر الشرعى مخالفا للامر الوجودى والله تعالى أعلم

٢١ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة ﴿

(اعلم) أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع على وبنيه رضى الله تعالى عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لى اغتاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبار والصغار وأن عاين رضى الله تعالى عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على منتضى مذهبهم لا يعرفها حبا بذة السنة ولا نقالة الشريعة بل اكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلى وخفى فالجلى مثل قوله من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر اصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم على ولا معنى لامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الامر الواجبة طاعتهم بقوله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم﴾ والمراد بالحكم والقضاء ولهذا كان حكما فى قضية الامامة يوم السقينة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو وصي وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على ومن الخفى عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عاما لقراءة سورة براءة فى الموسم حين أنزلت فانه بعث بها أولا أبابكر ثم أوحى إليه ليلغره رجل منك أو من قومك فبعث عابا ليكون القارى المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم على وأيضا فلم يعرف أنه قدم أحدا على على وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما فى غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر

ابن العاص أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعين على للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الامامية ويتبرؤن من الشيخين حيث لم يقبلوا عليا وبياعوه بمقتضى هذه النصوص ويعصون في امامتهما ولا ياتفت إلى نقل القدر فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه الادلة انما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤن من الشيخين ولا يعصون في امامتهما مع قولهم بان عليا أفضل منهما لكنهم يجوزون امامة المنضول مع وجود الافضل ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد على فمنهم من ساقها في ولدفاطمة بالنص عاينهم واحدا بعد واحد على ما يذكر بعد هؤلاء يسمون الامامية نسبة إلى مقالهم باشرائط معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم علما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا إلى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يباظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج في الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة وأخذها ايها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الامامية زيدا في امامة الشيخين ورأوه يقول بامامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد على وابنيه السطيين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاة وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوز واحد العقل والايمان في القول بالوهية هؤلاء الائمة أما

على انهم بشر اتصفوا بصفات الالهية أو أن الاله حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق من ذهب الى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار ابن أبي عبيد لما باغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن باغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كان الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يميت الا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا ان الأئمة من قريش * ولادة الحق أربعة سواء
 على والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء
 فسبط سبط ايمان وبر * وسبط غيبته كربلاء
 وسبط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
 تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري وياقبونه المهدي دخل في سرداب بدراهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا من كافة جهات باسمه ويدعون

للخروج حتى تشتبك النجوم ثم يفضون ويرجعون الامر الى الليلة الآتية
 وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول ان الامام الذي مات
 يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة
 أهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بنى اسرائيل حين ضرب بعظام
 البقرة التي امروا بذبحها ومثل ذلك من الحوارق التي وقعت على طريق
 المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري
 ومن شعره في ذلك

اذا ما المرء شاب له قنديل * وعلاسه المواشط بالخطاب
 فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم ياساح نبك على الشباب
 الى يوم تؤب الناس فيه * انى دنياهمو قبل الحساب
 فليس بمائد مافات منه * الى أحد الى يوم الايات
 أدين بأن ذلك دين حقيق * وما أنانى النشور بنى ارياب
 كذلك الله أخبر عن أناس * حيوا من بعد درس فى التراب

وقد كنا مؤنة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم
 عليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه أنى هاشم
 وهؤلاء هم الهاشمية ثم افرقوا فمنهم من ساقها بعده الى أخيه على ثم الى ابنه
 الحسن بن على وآخرون يزعمون أن أباهم لما مات بارض السراة منصرفا من الشام
 أوصى الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعرف
 بالامام وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى
 هو الى أخيه عبد الله أنى جعفر الملقب بالمصور وانتقات فى ولده بلص والعهد
 واحدا بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائم بدولة بنى العباس
 وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبوسلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية
 وربما يعضدون ذلك بان حقهم فى هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيا

وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصية العمومة وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً إلى الامامة فقتل وصاحب الكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى حراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية نخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أبيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معسودة في كرماته وذهب آخرون منهم إلى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو اخو زيد بن علي نخرج محمد بن القاسم بالطائفة فقبض عليه وسبق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بامرته انه ادريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوك بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وتبقى أمر الزيدية بعد ذلك غير منظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في السيم الناصر الاطروش منهم وأسأهوا على يده وهو الحسن بن علي ابن الحسن بن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنائه بطبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكره

في أخبارهم * وأما الامامية فساقوا الامامة من علي الرضا الى ابيه الحسن بالوصية
 ثم الى أخيه الحسين ثم الى ابنه علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى
 ابنه جعفر الصادق ومن هنا افرقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ولده اسماعيل
 ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم
 الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيثته الى آخر الزمان كما
 قالوا الاسماعيلية فقالوا بامامة اسماعيل الامام بالوصية من أبيه جعفر وقائده الص
 عليه عندهم وان كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الامامة في عقبه كمنصة
 هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسماعيل الى
 ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له
 شوكة فيستر وتكون دعائه ظاهرين اقامة للحجة على الحاق واذا كانت له شوكة
 ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه
 محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته
 أبو عبد الله الشيعي في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من ممثقه
 بسجلماسة وملك القيروان وانغرب وملث بوه من بعده مصر كما هو معروف
 في أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسماعيل ويسمون
 أيضا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن أي المستور ويسمون أيضا المنجدة
 لما في ضمن مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها
 الحسن بن محمد النساج في آخر المائة الخامسة وملك حصونا بالشام والعراف ولم
 تزل دعوته فيها الى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتار لعراق
 فانقضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والمحل
 للشهرستاني وأما الاثنا عشرية فرما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم
 فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الاكبر اسماعيل الامام
 في حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه

انأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ثم انه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعنة اختلاف كثير الا ان هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب المال والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

﴿ ٢٨ ﴾ فصل في انقلاب الخلافة الى الملك ﴿

اعلم ان الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمناه فالعصية ضرورية للعامة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله اذهب عنكم عبية الجاهلية (١) ونحرها بالآباء اثم بنو آدم وادم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق والاسراف في غير التصد والتسك عن صراط الله وانما حرض على الالف في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية الآخرة ومن فقد المطية فقد اوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو ينميه من أفعال البشر أو يندب الى تركه اهاله بالكلية أو اقتلعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عنها بالكلية انما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتجدد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته

(١) عبية بضم العين وكسر ها وكسر الموحدة مشددة وتشديد الياء الكبير

والفخر والنخوة اه

الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيها
 أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه فلم يندم الغضب وهو يقصد نزعه
 من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد
 واعلاء كفة الله وانما يندم الغضب للشيطان وللاغراض الذميمة فاذا كان الغضب
 لذلك كان مذموما واذا كان الغضب في الله والله كان ممدوحا وهو من شمائه صلى
 الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضا ليس المراد ابطالها بالكيفية فان من
 بطلت شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد تصريفها فيما أبيض له باشماله على
 المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع الاوامر الالهية وكذا العصبية حيث
 ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فانما مراده حيث تكون
 العصبية على الماثل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لاحد نحرها
 أو حق على أحد لان ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي
 هي دار القرار فلما اذا كانت العصبية في الحق واقامة أمر الله وأمر مطلوب
 ولو بطل لمطات الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا
 الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغاب بالحق وقهر الكفاة على الدين ومراعاة
 المصالح وانما ذمه لما فيه من التغاب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض
 والشهوات كما قلناه فلو كان الملك محاصا في عايبه للناس أنه لله ولحمهم على عبادة
 الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموما وقد قل سابقا دلوات الله عليه رب هب
 لي ما كما لا ينبغي لاحد من بعدى لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة
 والملك ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما - عند قدومه الى الشام
 في أهبة الملك وزيه من العديد والعدة استمكر ذلك وقال أكرهية يا معاوية
 فقال يأمر المؤمنين أنا في نحر تجاه العدو وننا الى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد
 حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان
 القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب في تلك الكسروية وانتعالها

بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه
 أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سبيله والغفلة عن
 الله وأجابه معاوية بأن القصد بذلك كسروية فارس وباطلهم وإنما قصد بها وجه
 الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده
 حذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا
 بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وارتضاء الناس للخلافة وهي حمل الكفاية
 على أحكام الشريعة ولم يجز للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لاهل
 الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل اهل الردة
 حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقتنى أئمة وقاتل الامم فغابهم وأذن
 للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى
 عثمان بن عفان ثم الى علي رضي الله عنهما والكل متبرئون من الملك متكبرون عن
 طرقهوا كد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبدعوة العرب فقد كانوا
 ابعده الأمم عن أحوال الدنيا وترفها لامن حيث دينهم الذي يدعوهم الى الزهد
 في السعي ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش
 وشظفته الذي ألوه فلم تكن أمة من الامم أسغب عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز
 في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياق وحبوبها لبعدها
 واختصاصها بمن ولها من ربيبة واليمن فلم يكونوا يتناولون الى خصبها ولقد
 كانوا كثيرا ما يأكلون المقارب والخنابس ويفخرون بأكل العاهز وهو وبر
 الابل يمهونه بالحجارة في الدم ويطنخونه وقريبا من هذا كانت حال قريش
 في مطاعهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم
 الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى أم فارس والروم وطلبوا ما كتب
 الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحجار
 الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من

الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على مالا يأخذونه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان على يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غري وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لانه لم يعهد لها للعرب لقتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاتبهم مع هذا اتم ما كانت لاحد من اهل العالم * قال المسعودى فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحين وغيرها مائتا ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخالف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طاححة من العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربيط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرون ألفا من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثلاثين ألفا وخالف زيد بن ثابت من الدضة والذهب ما كان يكسر بالنؤس غير ما خالف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة ولأسكندرية وكذلك بنى طاححة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنهاها بالحص والآجر والساج وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها بمحصة الظاهر والباطن وخالف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم اه كلام المسعودى وكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم فى دينهم اذ هى أموال حلال لانها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد فى أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فلما يرجع الى ما أنسنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم فى سبل الحق ومذاهه

كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما
 تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية
 كما قناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه
 والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن
 مقاصد الديانة ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية
 كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض ذنوبى أو لا يشار
 باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ما يجد وانما اختلف
 اجتهادهم في الحق وسننه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه
 وان كان المصيب غلبا فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل انما قصد الحق
 وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد
 بالمجد واستثمار الواحد به ولم يكن معاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو
 أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة
 معاوية في اقتناء الحق من اتباعهم فانصروا عليه واستماتوا دونه ولو حاربهم
 معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة
 التي كان جمعها وتألينها أهم عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر
 ابن عبد العزيز رضى الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن أبى بكر لو كان
 لى من الامر شئ لوليت الخليفة أو أراد أن يعهد اليه لنعى ولكنه كان يخشى
 من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لئلا
 تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية فالملك
 اذا حصل وفرض ان الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه
 لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما
 بملك بنى اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا معاينات
 من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما

كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع ان ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليمهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من المسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغى انما كانوا متحجرين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحماتهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقنداء وما علم الساف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الامر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فترجع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد فيها . اعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن يعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرقوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر الى بنينهم فاعطوا الملك والترفع حقه وانغمسوا في الدنيا وباطاها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلفاتهم في تحرى الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته ودكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان

يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنهم معالى الامور ورفضهم دنياها
 حتى افضى الامر الى ابناءهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات
 من معاصى الله جهلا باستدراجهم وامننا لمكروه مع اطراحهم صيانة للخلافة
 واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسهم الذل
 ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله (١) بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة
 لما دخل أرضه فارا أيام السفاح قال أقمت مليا ثم أتاني ملكهم فقمعد على الارض
 وقد بسطت لى فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا فقال انى
 ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لى لم تشربون الخمر
 وهى محرمة عليكم فى كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤون
 الزرع بدوا بكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهالهم قال
 فلم تلبسون الديباج والذهب والحريز وهو محرم عليكم فى كتابكم قلت ذهب
 منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا
 فأطرق ينكت بيده فى الارض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا
 ثم رفع رأسه الى وقال ليس كما ذكرت بل أتم قوم استحلتم ما حرم الله عليكم
 وأتيم ما عندهم نهيتهم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز والبسكم الذل بذنوبكم والله
 نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأتم بيلدى فيا لى
 معكم وانما الضيافة ثلاث فتزود ما- تتجت اليه وارنحل عن أرضى فتعجب المنصور
 وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وان الأمر كان فى أوله
 خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور
 دنياهم وان أفضت الى هلاكهم وخدمهم دون الكفاة فهذا عثمان لما حصر فى
 الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون
 (١) قوله عبد الله كذا فى النسخة التونسية وبعض الفاسية وفى بعضها عبد
 الملك وأظنه تصحيفا قاله نصر

المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى الى هلاكه وهذا على أشار عايه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتمق الكلمة وله بعد ذلك ماشاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذي ينافه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس بما أشرت ثم عدت الى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وان الحق فيما رأيته أنت فقال على لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالامس وغششتني اليوم ولكن منعتي مما أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

ترقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما ترقع

فقد رايت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان ديننا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ما يكابحنا وجرت طبيعة التغاب الى غايتها واستعمات في أغراضها من القهر والتغاب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولما جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس ببعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الامر ما يكابحنا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زنائة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين ان الخلافة قد وجدت

بدون الملك أولاً ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افرقت
عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

٢٩ ﴿ فصل في معنى البيعة ﴾

علم ان البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له
النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه
به من الأمر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا
أيديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر
باع وصارت البيعة مصاحفة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع
وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العتمة وعند الشجرة
وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كأن الخلفاء يستحاثون
على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة
وكان الإكراه فيها أكثر وأغاب ولهذا لما أفتى مالك رضى الله عنه بسقوط
يمين الإكراه أنكراها اولاً عاين ورأوها قاذحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع
من محبة الامام رضى الله تعالى عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك
الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطاق عليها اسم
البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام
الأداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغاب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى
بها عن مصاحفة أيدي الناس التي هي الحقيقية في الاصل لما في المصاحفة لكل أحد
من التزل والابتغال المفايين للرياسة وصون المنصب الملوكي الا في الاقل ممن يقصد
التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته
فأفهم معنى البيعة في العرف فانه أكد على الانسان معرفته لما يلزمه من حق
قوله البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شعبة بسكون الياء فهما فهى

سلطانه وامامه ولا تكون أفعاله عبثا ومجنا واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك
والله القوى العزيز

﴿ فصل في ولاية العهد ﴾ ٣٠

اعلم أنا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وان حقيقتها
النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك
في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقوم لهم من يتولى أمورهم كما هو
كان يتولاهم ويشقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به قبلها قبل وقد عرف ذلك
من الترع باجماع الامة على جوازها وانعقادها اذ وقع بعهد أبي بكر رضى الله
عنه لعمر بمحض من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر رضى
الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى الى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن
يختاروا للمسامين ففوض بعضهم الى بعض حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن
عوف فاجتهدوا نظر المسامين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى فائر عثمان بالبيعة على
ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعين دون اجتهاده فانه قد
أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من الصحابة حاضرون للاولى والثانية
ولم ينكره أحد منهم فول على انهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيتها
والاجماع حجة كما عرف ولا يتم الامام في هذا الامر وان عهد الى أبيه أو ابنه
لانه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يخطر فيها تبعه بعد مماته خلافا
لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالوالد دون الوالد فانه بعيد
عن الظنة في ذلك كما لا سيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من اشارة مصلحة
أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد
وان كان فعل معاوية مع وفق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لا يثار
ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق
أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية اذ بنو أمية يومئذ

لا يرضون سواهم وهم عصابة قرينش وأهل الملة أجمع وأهل الغاب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبه مانعة من سوى ذلك وحضور أكبر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم أجل من ذلك وعدالته مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وتدور المخالف معروف ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيدي من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم إظهار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشانهم غير شأن أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكانوا أزع دينيا فعند كل أحد وأزع من نفسه فعهدوا إلى من يرضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسموا إلى ذلك إلى وأزعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصبي فلوعهد إلى غير من ترضه العصية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريرا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف * سأل رجل عابا رضى الله عنه مابال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك يشير إلى وازع الدين أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته

وباعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل
 وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى بادر المأمون من خراسان
 الى بغداد ورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف
 باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات تختلف باختلاف
 المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لظفا من الله بعباده وأما أن يكون
 القصد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من
 الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من
 العتب بالمناصب الدينية والملك لله يؤتية من يشاء * وعرض هنا أمور تدعو الضرورة
 الى بيان الحق فيها * فالاول منها ما حدث في يزيد من المسق أيام خلافته فإياك
 أن تظن بماوية رضى الله عنه أنه علم ذلك من يزيد فانه أعدل من ذلك وأفضل
 بل كان يعدله أيام حياته في سماع الغناء وبنهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت
 مذاههم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة
 حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل
 الحسين وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من
 أباه لما فيه من اثار الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد
 يومئذ هي عصاة بنى أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قریش وتستببع عصبية
 مضر اجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن
 يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور
 المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين فقاصدهم في البر
 وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم * والامر الثاني هو شأن العهد
 من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضى الله عنه
 وهو أمر لم يصح ولانقله أحد من أئمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب
 الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه

لم يقع وكذا قول عمر رضى الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال ان أعهد
فقد عهد من هو خير منى يعنى أبا بكر وان أترك فقد ترك من هو خير منى يعنى
النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول على للعباس رضى الله عنهما حين
دعاه للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شأنهم فى العهد فأبى
على من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على
أن عليا علم أنه لم يوص ولا عهد الى احد وشبهة الامامية فى ذلك انما هى كون
الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وانما هى من المصالح العامة
المدروسة الى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكان
يستخالف فيها كما استخلف أبا بكر فى الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة
واحتجاج الصحابة على خلافة أبى بكر بقياسها على الصلاة فى قولهم ارضاه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه الدنيا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك
أيضا على أن أمر الامامة والعهد بهما لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصية المراجعة
فى الاجتماع والافتراق فى مجارى العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان أمر الدين
والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك
من أجل الاحوال التى كانوا يشاهدونها فى حضور الملائكة لنصرهم وتردد
خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله فى كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة
العصية لما شغل الناس من صبغة الاقياد والاذعان وما يستفزه من تتابع
المعجزات الخارقة والاحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التى وجوا منها
ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه
الانواع مندرجا فى ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات
ثم بفساد القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت
الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصية ومجارى العوائد فيما
ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما من المهمات

الا كيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الاهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل والنزك كما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه ثم صارت اليوم من اهم الامور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوارع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والامر الثالث شأن الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم انما يقع في الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجاهدون اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لاتتبعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين المخطئ منها والتأنيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطا والتأنيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية طنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الاسلام انما هو واقعة على مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطاحنة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة علي فان الناس كانوا عند مقتل عثمان مفرقين في الامصار فميشهدوا بيعة علي والذين شهدوا منهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كعبد وسعيد وبن عمرو وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من كبار الصحابة والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته ايضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين ان يولونه وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا في الممالة عليه

شاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بملاءمته انما يوجهها عليا في سكوتة
 فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى على أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها
 باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة
 وارجأ الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن
 حينئذ من ذلك ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل
 والعقد بالآفاق ولم يحضر الا قليل ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد
 ولا تلزم بعقد من تولاهما من غيرهم أو من القليل منهم وان المسلمين حينئذ
 فوضى فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معاوية
 وعمرو بن العاصي وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطهحة وابنه محمد
 وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة
 الذين تخافوا عن بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الا أن أهل العصر الثاني من بعدهم
 اتفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب
 اليه وتعين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة والزبير
 لانتقاضهما على على بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التائيم عن كل من الفريقين
 كالشأن في المجتهد وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل
 العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل على رضى الله عنه عن قتلى الجمله صفين
 فقال والذي نفسى بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه تقي الا دخل الجنة يشير
 الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا
 قدح في شيء من ذلك فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم انما هي عن المستندات
 وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم ياتفت
 اليه احد من أهل الحق ولا عرج عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس
 أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها
 كانت فتنة ابتلى الله بها الامة بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وما كرمهم

أرضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر
 وكان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار حفاة لم يستكثروا من صحبة
 النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بحاقه مع ما كان
 فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصية والتناخر والبعد عن سكينة الايمان واذا
 بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من قريش
 وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب للسابقين الاولين الى الايمان
 فاستنكفوا من ذلك وغصوبه لما يرونه لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم
 ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل
 كندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش
 والانفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعال في ذلك بالتنظيم منهم والاستعداد عليهم
 والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدول في القسم عن التسوية وفشت المقالة
 بذلك وانتهت الى المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث الى
 الامصار من يكشف له الخبر من ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد
 وأمثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا ولا راوا عليهم طعنا وأدوا ذلك كما علموه
 فلم ينقطع الطعن من أهل الامصار وما زالت الشناعات تنمو ورمى الوليد بن
 عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحدثه عثمان وعزله
 ثم جاء الى المدينة من أهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا الى عائشة وعلى
 والزبير وطاححة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك أسنتهم بل وقد
 سديد بن العاصي وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولا
 ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة وتقوموا عليه متساعه
 عن العزل فأبى الا أن يكون على جرحه ثم نقلوا السكر الى غير ذلك من أفعاله
 وهو متمسك بالاجتهاد وهم أيضا كذلك ثم تجمع قوم من الغوعاء و جاؤا الى المدينة
 يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفهم من

البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم
 يحاولون تسكين الامور ورجوع عمان الى رايهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا
 قليلا ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مديس يزعمون انهم لقوه في يد حامله الى عامل مصر
 بأن يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا ما كنا من مروان فانه كاتبك فخاف مروان
 فقال عثمان ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم يتود على حين غملة
 من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فاسلك من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا
 مهتمين بامر الدين ولا يضيعون شيئا من تعاقباته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا
 والله مطاع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا خيرا لما شهدت به احوالهم
 ومقالات الصادق فيهم وأما الحسين فانه لما ظهر فسق يزيد عمدا لكافة من أهل
 عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى
 الحسين ان الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على
 ذلك وظننا من نفسه باهائه وشوكرته فأما الاهاة فكانت كاظن وزيادة وأما
 الشوكة فغاط يرحم الله فيها لان عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش
 في عبد مناف وعصبية عبد مناف التماكات في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش
 وسائر الناس ولا ينكرونه وانما نسي ذلك أول الاسلامنا شغل الناس من الدهول
 بالخوارق وأمر الوحي وتردد الامانة لمصر المسلمين فأعتلوا أمور عواتدهم
 وذهبت عصبية الجماهية ، منازعتها ونسيت ولم يبق الا العصبية الطبيعية في الحماية
 والدفاع ينتفع بها في اقامة الدين وجهها المشركين والدين فيها محكم والمادة معزولة
 حتى اذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد
 فعادت المدينة كما كانت ولم تكن وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم
 بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تبين لك غلط الحسين الا أنه في أمر دنيوي
 لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان
 ظنه القدرة على ذلك ولقد عدله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية

أخوه وغيره في مسيره الى الكوفة وعلموا غاظه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله
لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام
والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وان كان فاسقا لا يجوز
لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يبايعوا الحسين ولا أبا بكر
عليه ولا أئتموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغاصب أن تقول
بتأئيم هؤلاء بمخالفة الحسين وعودهم عن نصره فانهم اكثر الصحابة وكانوا
مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكر بلاء
على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري واس بن
مالك وسهل بن سعيد وزيد بن ارقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره
ولا تعرض لذلك لعلمه انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك
لا يذهب بك الغاط ان تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على
اجتهاد ويكون ذلك كما يحمد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب البييد واعلم أن
الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وان كان خلافه عن اجتهادهم وانما
انفرد بقتاله يزيد واصحابه ولا تقول ان يزيد وان كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج
عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم انه انما ينفذ من اعمال الفاسق ما كان مشروعا
وقتل البغاة عندهم من شرطه ان يكون مع الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا
يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا لزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لنفسه والحسين فيها
شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد الصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق ايضا واجتهاد
وقد غاظ الماضي ابو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم
والقواصم ما معناه ان الحسين قتل بشرع جده وهو غاط حماته عليه الغفلة عن
اشراط الامام العادل ومن اعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في قتال اهل
الآراء واما ابن الزبير فانه رأى في قيامه مارآه الحسين وظن كما ظن وغلظه
في امر الشوكة اعظم لان بني اسد لا يقاومون بني امية في جاهلية ولا اسلام

والقول بتعيين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجد ههنا وأما يزيد فعين خطاه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعاله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريره الحق هذا هو الذي ينبغي ان تحمل عايه افعال السائف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة واذا جعناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والني صلى الله عايه وسلم بقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثهم يفسحوا الكذب جعل الخيرة وهي مختصة بالقرن الاول والذي يايه فإياك أن تعود نفسك او اسنانك التعرض لاحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بيعة وما قاتلوا أو قتلوا الا في سبيل جهاد أو اظهار حق واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن عددهم من الامة ليقتدى كل واحد بمن يختاره منهم ويجمع له امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم انه على كل شيء قدير واليه المرجع والمصير والله تعالى أعلم

٣٢ * فصل في الخطط الدينية الخلافية *

لما تبين ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متمصرف في الامرين اما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها واما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا ان هذا العمران ضروري للبشر

وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهمات وقدمنا ان الملك وسطوته كاف
في حصول هذه المصالح نعم انما تكون اكمل اذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه
أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة اذا كان اسلاميا ويكون
من توابعها وقد ينفرد اذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة
ووظائف تابعة تتعين خططها وتتوزع على رجال الدولة ووظائف فيقوم كل واحد
بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عابهم فيتم بذلك امره ويحسن
قيامه بسلطانه * واما المنصب الخلافي وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار
الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين
فانذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع الى الخطط المنوكية
السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد
والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكانها الامام الكبير
والاصل الجامع وهذه كلها متمرعة عنها وداخله فيها لعموم نظر الخلافة
وتصرفها في سائر احوال الملة الدينية والدينية وتنفيذ احكام الشرع فيها على
العموم فاما امامة الصلاة فهي ارفع هذه الخطط كلها وارفع من الملك بخصوصه
المندرج معها تحت الخلافة واتمده يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر
رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه
رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لديننا فلولا أن الصلاة أرفع
من السياسة لما صح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة مهران
مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها تخصه
يقوم أو محلة وليست للصلوات العامة فاما المساجد العظيمة فأمرها راجع الى
الخليفة أو من يفوض اليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها امام في
الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو
من طريق الاولى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شيء من النظر في

المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون
نصب الامام لها عنده واجبا * وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فامرها راجع
الى الجيران ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها
والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الاحكام السلطانية
للماوردي وغيره فلا يطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يقدونها
لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة
وترصدتهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون
فيها وكذا كان رجال الدولة الاموية من بعدهم استشارا بها واستعظاما
لرتبتها يحكى عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جمعت لك حجابة بابي الا عن ثلاثة
صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والآذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فان
في تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغاظة والترفع
عن مساواة الناس في دينهم وديانهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها
في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة اشادة وتنويهها فعل ذلك كثير
من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم واما الفتيا فالخليفة تفحص أهل
العلم والتدريس ورد الفتيا الى من هو أهل لها واعانتة على ذلك ومنع من ليس
أهلا لها وزجره لانها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عاينه مراعاتها لئلا
يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس وللمدرس الاتصاف لتعظيم العلم
وبه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام التي لالسلطان
الولاية عليها والنظر في ائمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت من
مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على أنه ينبغي ان يكون لكل أحد من
المفتيين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيدل
به المستهدى ويضل به المسترشد وفي الأثر اجرؤكم على الفتيا اجرؤكم على جرائم
جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من اجازة أو رد * وأما

القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفعـل بين الناس في الخصومات حسباً للتداعي وقطعاً للتنازع الا انه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم واول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضى الله عنه فولى أب الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه احكام القضاة وهي مستوفاة فيسه يقول (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجاسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصاحـح جائز بين المسامحين الا صاحبا محل حراما أو حرم حلالا ولا ينعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماهى في الباطل الفهم الفهم فيما تاجاج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها واجعل من ادعى حقا غائبا او بينة امدا يتهى اليه فان احضر بينته أخذت له بحقه والا استجالت القضية عليه فان ذلك أنفى للشك وأجلى للامناء المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في نسب او ولاء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في موطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة اشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الـواقعات بين الناس واستخلفوا فيه

من يقوم به تخفيفا على أنفسهم وكانوا مع ذلك انما يقدونه أهل عصبيتهم بالنسب
 او الولاء ولا يقدونه لمن بعد عنهم في ذلك وأما أحكام هذا المنصب وشروطه
 فعروفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانية الا ان القاضي انما
 كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمورا
 أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر
 منصب القضاء آخر الامر على انه يجمع مع الفصل من الخصوم استيفاء بعض
 الحقوق الماسة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى
 والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد
 الاولياء على رأى من رأى والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود
 والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق
 بهم وصارت هذه كلها من تعاقبات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من
 قبل يجعلون للقاضي النظر في المضام وهي وظيفة تترجى من سطوة الساطنة
 واصمة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر
 المتعدى وكأنه يمضى ما عجز القضاء أو غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البيئات
 والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل
 الخصمين على الصالح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان
 الخلفاء الاولون يباشرونها بأنفسهم الى أيام المهتدى من بنى العباس وربما كانوا
 يجعلونها لقضاةهم كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى ادريس الخولاني
 وكما فعل المأمون ليحيى بن أكرم والمعتصم لاحمد بن أبى دواد وربما كانوا
 يجامون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أكرم يخرج
 أيام المأمون بالطائفة الى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن
 الناصر من بنى أمية بالاندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء
 أو من يجامون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغاب وكان أيضا النظر

في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعباسيين
 بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من
 الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قايلا
 فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم
 ويقم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقم التعزير والتأديب
 في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي
 تنوسى فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا الى السلطان كانه تفويض من
 الخليفة او لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم
 واقامة حدودها ومباشرة القمع والنصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه
 الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى
 تارة باسم الوالى وتارة باسم الشرطة وتبقى قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم
 الثابتة شرعا تجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته
 واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل عصبية الدولة
 لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الحطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الامن
 اهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالخائف أو ببارق أو بالاططناع من يوثق بكفايته أو
 غمائه فيما يدفع اليه * وما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا
 أو سلطانا صارت هذه الحطة الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لانها ليست من
 ألقاب الملك ولا من اسمه ثم خرج الامر جملة من العرب وصار الملك لسواهم
 من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الحطة الخلافية بعدا عنهم بتحقاقها وعصبيتها
 وذلك أن العرب كانوا يرون ان الشريعة دونهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم
 منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك انما
 يولونها جانبيا من التعظيم لما دانوا بملكه فقط فصاروا يقيدونها من غير عصائهم
 ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم

ترف الدول منذ مئتين من سنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا
 بالحضارة في عوائد ترفهم ودعوتهم وقلة المعاملة عن أنفسهم وصارت هذه
 الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين
 في أهل الامصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الاهلية بانسابهم وما هم عليه
 من الحضارة فاحقهم من الاحتقار ما لحق الحضرة انغمسين في الترف والدعة
 البعداء عن عصية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة
 من أجل قيامها نائمة وأخذها باحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للاحكام المقتدون
 بها ولا يكن ايشارهم في الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتامح من
 التجمال بتكثرتهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل
 والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لاحقية وراه اذ حقيقة الحل والعقد
 انما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم
 الا أخذ الاحكام الشرعية عنهم وتناق المتأدي منهم فنعم والله الموفق وربما
 يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وان فعل الملوك فيما فعلوه من
 اخراج النقباء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم
 العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والساطان
 انما يحري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة
 فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضى لهم شيأ من ذلك لان الشورى والحل والعقد
 لا تكون الا اصحاب عصية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما
 من لا عصية له ولا يملك من أمر نفسه شيأ ولا من حمايتها وانما هو عيال على
 غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم الا
 شورا فيما يعامه من الاحكام الشرعية فوجوده في الاستفتاء خاصة وأما شورا
 في السياسة فهو بعيد عنها لنقدانه العصية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها
 وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين

وتعظيم من ينتسب اليه باى جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء في الاغاب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حياها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة التشيخي ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرين فالعابد أحق بالوراثة من التقي الذي ليس بعابد لان البابد ورث صفة والتقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا انما هو صاحب أقوال يصحها عيننا في كينيات العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقابل ما هم

العدالة وهي وطبيعة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوطبيعة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعابهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند التمازح وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وسرط هذه الوطينة الانصاف بالعدالة الشرعية والبرائة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من التقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران (١) على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كانوا مختصون

(١) قوله المران في كتب اللغة مرن على الشيء مرونا وسرونة ومرانة تعوده

واستمر عليه اه

بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على
القاضي تصفح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وان
لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كما
وهو ضامن دركه واذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من
تحفى عدالته على القضية بسبب اتساع الامصار واشتباها الاحوال واضطرار القضاة
الى الفصل بين المتنازعين بالبيئات الموثوقة فيعملون غالبا في الوثوق بها على هذا
الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدون
اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مداول هذه اللقطة مشتركا
بين هذه الوظيفة التي تبين مداولها وبين العدالة الشرعية التي هي اخت الجرح
وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى اعلم ﴿ الحسبة والسكة ﴾ اما الحسبة فهي
وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على
القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاله فيتمين فرضه عليه ويتخذ
الاعوان على ذلك ويبعد عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل
الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع
الجمالين واهل السفن من الاكثار في الخيل والحكم على اهل المباني المتداعية
للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي
المعامين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في صرهم لاصبيان المتعامين ولا يتوقف
حكمه على تنازع او استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه
من ذلك ويرفع اليه وائس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق
بالغش والتدليس في المعاش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله ايضا
حل المايطين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم
وكانها احكام ينزده القاضي عنها عمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه
الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت

في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس
داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان
عن الخلافة وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك
وأفردت بالولاية ﴿ وأما السكة ﴾ فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس
وحفظها مما يداخا من الغش أو النقص ان كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق
بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك
النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ ذلك
ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه
بالمطرفة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية
التي وقف عندها السبك والتخايش في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة
الحاكمة فان السبك والتخايش في النقود لا يقف عند غاية وإنما ترجع غايته
الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخايش وقفوا عندها
وسموها اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمائلته فان نقص عن ذلك
كان زيفا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار
فتدرج تحت الخلافة وقد كانت تدرج في عموم ولاية القاضي ثم أفردت لهذا
العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها
وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة
والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في أما كتبها بعد
وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه
ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الاساب التي يتوصل بها الى
الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة قد
اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا
العهد والله مصرف الامور كيف يشاء

٣٣ * فصل في اللقب بامير المؤمنين وأنه من سمات

الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء *

وذلك أنه لما بويغ أبو بكر رضى الله عنه كان الصحابة رضى الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرل الامر على ذلك الى أن هلك فلما بويغ لعمر بعهدته اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استقلوا هذا اللقب بكثرة وطول اضافته وانه يتزايد فيها بعد دائما الى أن ينتهى الى الهجئة ويذهب منه التميز بتعدد الاضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه بما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فصيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن ابى وقاص أمير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المساهين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضى الله عنه بأمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمنيرة بن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعتها أختابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقباله فى الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بنى أمية ثم ان الشيعة خصوا عليا باسم الامام نعماله بالامامة التي هى أخت الخلافة وتعريفها يذهبهم فى أنه أحق بامامة الصلاة من ابى بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم نخصوه بهذا اللقب ولما يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالامام ماداموا يدعون لهم فى الخلفاء حتى اذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بنى العباس فانهم مازالوا يدعون أئمتهم بالامام الى

ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك
دعى أخوه السفاح بامير المؤمنين وكذا الرافضة بافريقية فانهم مازالوا يدعون
أئمتهم من ولد اسماعيل بالامام حتى انتهى الامر الى عبيد الله المهدي وكانوا
أيضا يدعونه بالامام ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الامر دعوا من
بعدهما بامير المؤمنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يلقبون ادريس بالامام وابنه
ادريس الاصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بامير المؤمنين
وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق الموطن التي هي ديار العرب
ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنقوان الدولة وبذخها
لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم
فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها في السنة
السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي
والرشيد الى آخر الدولة واقفنى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر
وتجاني بنو أمية عن ذلك بالمشرق قباهم مع الغضاضة والسداجة لان العروبية
ومنازعتها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة
وأما بالاندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك
بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعث عن دار الخلافة التي هي
مركز العصبية وأنهم انما منعوا بامارة القاصية أنفسهم من مهالك بنو العباس حتى
اذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد ابن الامير عبد
الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر مانال الخلافة
بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال
والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذهب الخلفاء بالمشرق
وافريقية وتسمى بامير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده
عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لأبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك

الى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من المعجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء أفريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية وافتقروا من أمر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب بعد أن تسموا جميعا باسم الساطان * فاما ملوك المشرق من المعجم فكان الخلفاء يخصوصونهم بالقباب تشريفية حتى يستشعر منها اتقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصوصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه القباب وتجاؤا عن القباب الخلافة اذبا معها وعدوا عن سبائها المختصة بها شأن المتغابن المستبدن كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلاب كعهم في الدولة والساطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى اتحال القباب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على القباب يخصصون بها قبل هذا الاتحال مشعرة بالخروج عن ربة الولا والاسطناع بما أضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * واما مساوك الطوائف بالاندلس فاقسموا القباب الخلافة وتوزعوها لقوة استمدادهم عليها بما كان من قبيلها وعصبيتها فتلقوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعي عليهم

مما يزهدني في أرض اندلس * اسما معتمد فيها ومعتمد

القباب مملكة في غير موضعها * كالمحكي انتفاخا صورة الاسد

وأما صنهاجة فاقنصروا على القباب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتبويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما ادالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه

الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا
 شيئاً من هذه الالقاب الا اسم الساطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما
 محى رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين
 ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعته به هتمته الى
 الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد
 عليه ببيعتة عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبابكر من مشيخة أشبيلية يطلبان
 توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك وتقبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب
 واستشعار زعيمهم في لبوسه ورتته وخاطبه فيه بأمر المؤمنين تشريفاً له واختصاصاً
 فاتخذها لقباً ويقال انه كان دعى له بأمر المؤمنين من قبل ادنا مع رتبة الخلافة
 لما كان عليه هو وقومه المرابطون من اتحاق الدين واتباع السنة وجاء المهدي
 على أثرهم داعياً الى الحق آخذاً بمذاهب الاشعرية داعياً على أهل المغرب
 عدو لهم عنها الى تقايد الساف في ترك التوريل لظواهر الشريعة وما يؤل اليه
 ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى أتباعه الموحدين
 تعريضا بذلك السكر وكان يرى رأى أهل البيت في الامام المعصوم وأنه لا بد منه
 في كل زمان يحفظه بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام لما قناه أولاً من مذاهب
 الشيعة في القاب خانائهم وأردف بلنعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة الامام وتنزه
 عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من
 مشاركة الاسمار والولدان من اعتقاد أهل الخلافة يومئذ بالمشرق ثم انتحل
 عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمر المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني
 عبد المؤمن وآل أبي حنص من بعدهم استئثرا به عن سواهم لما دعا اليه شيخهم
 المهدي من ذلك وأنه صاحب الامر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل احد
 لانتفاء عصية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الامر بالمغرب وانتزعه
 زناة ذهب اولهم مذاهب البداوة والساجدة واتباع لمتونة في انتحال اللقب بأمر

المؤمنين أدبا مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبي عبد المؤمن أولا ولبي
أبي حص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم الى اللقب بأمر المؤمنين واتحلوه
لهذا العهد استبلاغا في منازع الملك وتتميمًا لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره
﴿ فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم

الكوهن عند اليهود ﴾

(اعلم) ان الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي بحمامهم على أحكامها وشرائعها
ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكاليف والنوع الانساني ايضا بما
تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا يد لهم من شخص بحمامهم
على مصالحهم ويزعمهم عن مفسادهم بالقهر وهو المسعى بالملك والملة الاسلامية لما
كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا
او كرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا
واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا
في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شئ من سياسة الملك وانما
وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولا أمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصية
لما فيها من الطاب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير مكافئين بالتغلب على الامم
كما في الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في حاستهم ولذلك بقي بنو
اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهم نحو اربع مائة سنة لا يعنون
بشئ من امر الملك انما هم اقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى
الكوهن كانه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم امر الصلاة والقربات
ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب
ثم اختار والاقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون
أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وابعده عن شغب الاحكام
وانصل ذلك فيهم الى أن استحكمت طبيعة العصية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا

الكنعانيين على الارض التي اورشهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على
 لسان موسى صلوات الله عليه فخارهم - أم القاسطين والكنعانيين والارمن
 وأردن و عمان وما رب ورياستهم في ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على ذلك
 نحو من أربعائة سنة ولم تكن لهم حولة الملك وضجر بنو اسرائيل من مطالبة
 الامم فطالبوا على لسان شعويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم
 فولى عليهم طالوت وغاب الامم وقتل جالوت ملك القاسطين ثم ملك بعده داود
 ثم سايمان صلوات الله عليهما واستنحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم اضراف اليمن
 ثم الى أطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سايمان صلوات الله عليه
 بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه الى دواتين كانت احدهما بالجزيرة والموصل
 للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشام ابني يهوذا وبنيامين ثم عليهم يختصر
 ملك نال على ما كان بأيديهم من الملك أولا الاسباط العشرة ثم ثانيا بنو يهوذا
 وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرت مسجدهم وأحرق توراتهم
 وأمت دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى أن ردهم بعض موت الكيانية
 من الفرس الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فيها منسجدهم
 وأقاموا أمر دينهم على الرسم الاول للكهننة فقط والملك لا يمس ثم غاب لاسكندر
 وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فغز
 اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهننة
 الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقتلوا يونان حتى انقض أمرهم وعالمهم
 الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا الى بيت المقدس وفيها انوهيردوس أشهر
 بني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افنتحوها عنوة وأغشوا في
 القتل والهدم والتحريق وخرى بيت المقدس وأجلوهم عنها الى رومة وما وراءها
 وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يبق لهم بعدها
 ملك لمقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم

أمر دينهم الرئيس عايهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه
 عليه بما جاءهم به من الدين والسنخ لبعض أحكام التوراة وطهرت على يديه
 الخوارق العجيبة من ابراء الائمة والابرس واحياء الموتى واجتمع عليه كثير
 من الناس وآمنوا به وأكثرتهم الخواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث
 منهم رسلا الى الآفاق داعين الى ماته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة
 وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي أسهارة فحسده
 اليهود وكذبوه وكتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه فأذن
 لهم في قتيه ووقع مائة القرآن من أمره وافترق الخواريون شيما ودخل
 أكثرهم بلاد الروم داعين الى دين المصراة وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة
 دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في
 نسخ أربع على اختلاف . وابتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية
 ونقده يوحنا بن زبدي منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللاتيني
 الى بعض اكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس
 انجيله للطيني واسبه الى مرقس تلميذه واختانت هذه النسخ الاربع من
 الانجيل مع انها ليست كلها وحياصر قال مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام
 الخواريين وكلها مواعظ وقديس والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الخواريون
 الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين المئة المصرية وصيروها بيد اقليمطس
 تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فن شريعة
 اليهود القديمة التوراة وهي خمسة سفر وكتاب يوشع وكتاب القضاء وكتاب
 راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن
 كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب
 الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنة سايمان عليه السلام خمسة ونبوات
 الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سايمان ومن

شريعة عيسى صلوات الله عليه الملتقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة
 وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الايريكايس في قصة الرسل وكتاب بولس
 اربع عشرة رسالة وكتاب اقايمينطس وفيه الاحكام وكتاب ابو غالميس وفيه
 رؤيا يوحنا بن زيدى واختلاف شأن القياصرة في الاخذ بهذه الشريعة تارة
 وتعظيم اهلها ثم تركها اخرى والتسلط عليهم بالقتل والبيعى الى ان جاء قسطنطين
 واخذ بها واستمرروا عايرها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه
 البطرك وهو رئيس المئة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه الى
 ما بعد عنه من امم النصرانية ويسمونه الاسقف اى نائب البطرك ويسمون
 الامام الذى يقيم النصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى
 حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب واكثر خلواتهم فى الصوامع . كان بطرس
 الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية الى ان
 قتله نيروز حامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والاساقفة ثم قام بخلافته
 فى كرسي رومة اريوس وكان مرقس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب
 داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو اول البطارقة فيها
 وجعل معه اثني عشر قساعلى انه اذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر
 مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان امر البطارقة
 الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا
 بانيقية ايام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين واتفق ثمانمائة وثمانية عشر من اساقفتهم
 على رأى واحد فى الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون اليه
 وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه الى اجتهاد الاقسة
 كما قرره حنانيا تلميذ مرقس وأبطلوا ذلك الرأى وانما يقدم عن ملا واختيار
 من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الامر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك فى تقرير
 قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه القاعدة فبقى الامر

فيها على ذلك واتصل فيهم نياية الاساقفة عن البطارقة وكان الاساقفة يدعون
 البطرك بالاب أيضا تعظيما له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية
 هرقل بالاكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الاسقف في التعظيم فدعوه
 البابا ومعناه ابو الآباء وظهر هذا الاسم اول ظهوره بمصر على مارعم جرجيس
 ابن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي
 رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن ثم
 اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف
 وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور
 في ظهور فرقة دون فرقة الى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقةهم ولا
 يلتفتون الى غيرها وهم الماكية واليعقوبية والنسطورية ولم تر أن يستعمل أوراق
 الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الحجة معروفة وكما كفر كما صرح به
 القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام
 أو الجزية أو القتل ثم احتضت كل فرقة منهم بطرك فبطرك رومة اليوم
 المسمى بالبابا على راي الملكية ورومة الافرنجة وماكم قائم بتلك الناحية وبطرك
 المعاهدين بمصر على راي اليعقوبية وهو ساكن بين طهرانيهم والحبشة يدينون
 بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة تنوبون عنه في اقامة دينهم هناك واختص اسم
 البابا بطرك رومة لهذا العهد ولا سمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وخص
 هذه اللفظة بباين موحدين من اسفل والنطق بها مفخمة والثابتة مشددة ومن
 مذاهب البابا عند الافرنجة انه يخضعهم على الانقياد لماك واحد يرجعون اليه في
 اختلافهم واجتماعهم تخرجوا من افتراق الكرامة ويتجرى به العصبية التي لا فوقها
 منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الابردور وحرقة الوسط بين الذال
 والظاه الامجمتين ومباشره يضع التاج على راسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى
 لفظة الانبردور وهذا ماخص ماوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما

البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

٣٥ ﴿ فصل في مراتب انك والساطان والقايمها ﴾

اعلم ان الساطان في نفسه ضعيف يحمل امرا ثقيلًا فلا بد له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنته فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خاقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كنف عدوان بعضهم على بعض في انفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكنف العدوان عليهم في اموالهم بصلاح ساياتهم والى حماهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمكاييل والموازن حذرا من التطفيف والى العطر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يريد من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من اما كسها اهون على من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بأولى القربى من اهل النسب او التربية او الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم الحاقمة فتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى (واجعل لي وزيرا من أهلي هرون اخي اشدد به ارجي واشركه في امري) وهو اما ان يستعين في ذلك بسيفه او قلعه او رايه او معارفه او بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم او يدفع النظر في الملك كله ويموّل على كفايته في ذلك واطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في اشخاص وقد يتفرع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرع الى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعضاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البيد وولاية الثغور * ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال

منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فلاحكام الشرعية متعاقبة بجميعها
وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها العموم تعلق الحكم الشرعي
بجميع أفعال العباد والفقهاء ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها
استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة
عندهم كما يأتي وفي نظره في الاحكام والاموال وسائر السياسات مطاقا أو مقيدا
وفي موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا
في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية او ولاية لا بد
للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في
الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا ان كلامنا في وظائف الملك والسلطان
ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام
الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا محتاج الى تفصيل أحكامها الشرعية
مع أنها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي ابى الحسن الماوردي
وغيره من اعلام التمهات فان اردت استيفاءها فمليك بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا
في الوظائف الخلاقية وافرديتها لتمييز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لالتحقيق
أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما تكلمنا في ذلك بما تقتضيه طبيعة
العمران في الوجود الانساني والله الموفق

﴿الوزارة﴾ وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على
مطلق الاعانة فان الوزارة مأخوذة اما من المـ وازرة وهي المعاونة أو من الوزر
وهو الثقل كانه يحمل مع مناعله اوزاره وانقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة
وقد كنا قدمنا في اول الفصل ان احوال السلطان وتصرفاته لاتعد واربعة لانها
اما ان تكون في امور حماية الكافة واسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب
وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة
بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب واما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في

المكان او في الزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو
 الكاتب واما أن تكون في أمور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه
 ان يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير
 لهذا العهد بالمشرق واما أن يكون في مدافعة الناس ذوى الحاجات عنه ان
 يزدحموا عليه فمشغلوهم عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذى يحجبه فلا
 تعدوا أحواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة او رتبة من رتب الملك والسلطان
 فاليها يرجع الا أن الارتفاع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من
 ذلك الصنف اذ هو يقتضى مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف
 من احوال ملكه واما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون
 الرتبة الاخرى كقيادة نجر او ولاية جباية خاصة او النظر في امر خاص كحسبة
 الطعام او النظر في السكة فان هذه كلها نظر في احوال خاصة فيكون صاحبها تبعا
 لاهل النظر العام وتكون رتبته مرؤسة لأوائك وما زال الامر في الدول قبل
 الاسلام هكذا حتى جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها
 بذهاب رسم الملك الى ما هو طبيعي من المعاونة بالراى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله
 اذ هو امر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته
 العامة والخاصة ويخص مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى حتى كان العرب
 الذين عرفوا الدول واحوالها في كسرى وقيصرو والنجاشى يسمون ابا بكر وزيره
 ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسداجة الاسلام
 وكذا عمر مع ابي بكر وعلى وعثمان مع عمرو أما حال الجباية والانفاق والحسابان
 فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتاب والحساب
 فكانوا يستعملون في الحساب اهل الكتاب او أفرادا من موالى العجم ممن
 يجيده وكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم
 التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة

خاصة للامية التي كانت فيهم والامانة العامة في كتابان القول وتأديته ولم نخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شئ وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجد للخليفة احسنها لان الكل كانوا يعرفون عن مقاصدهم باباغ العمارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستيب في كتابته متى عن له من يحسنه * واما مدافعة ذوى الحاجات عن ابوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقابت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابله كان أول شئ بدى به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بمرو على معاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحة من ازدحام الناس عليهم وشغاهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسهوه الحاجب وقد جا أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فنه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استعمل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في امور القبائل والعصائب واستألفهم واطاق عليه اسم الوزير ونفى امر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسلالات كاتب مخصوص حوطة على اسرار السلطان ان تشهر فتنفسد سياسته مع قومه ولم يكن بتمابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذا اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني امية فكان النظر للوزير عاما في احوال التدبير والمناوضاة وسائر امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالاهلة وغير ذلك فالما جاءت دولة بني العباس واستعمل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما

تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه
وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار
السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم
لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع والشباع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعاً
لخطي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن
يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه
من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له الاستكافه
عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها
استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجاً الى استنابة
الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام السريعة وتجيء على حالها كما تقدم فانقسمت
الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه والى
وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه ثم استمر الاستبداد وصار
الامر للملك المعجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا
ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم فتسموا
بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو بالسلطان الى
ما يحاييه به الخليفة من ألقابه كما تراد في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها
للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال
ذلك كله وصارت صناعة يتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك
ولانهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر
الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب
الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره
نافذ في الكل اما نيابة أو استبداداً واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك
آخراً بمصر فأروا أن الوزارة قد ابتدئت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم

بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرؤسة ناقصة
فاستسكف اهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب
الاحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في
مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية * واما دولة بني أمية بالاندلس
فانقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أسنانا وأفردوا لكل
صنف وزيرا فجعلوا الحبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في حوائج
المتظاهرين وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون
فيه على فرش منضدة لهم ويفقدون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد
للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت
فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوصا باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر
دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك
الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت
دولة الشيعة بأفريقية والقبروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر
هذه الخطط أولا وتنقيح أسماؤها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقايد
الدولتين قبائهم في وضع اسمائها كما نرا في اخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين
من بعد ذلك اغفلت الامر أولا للبداوة ثم صارت الى اتحال الاسماء والالقب
وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان
واختاروا اسم الوزير من محجب السلطان في مجاسه ويقف بالوقوف والداخيلين
على السلطان عند الحدود في تحييمهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين
يديه ورفعوا خطة الجباية عنه مائاوا ولم يزل الشأن ذلك الى هذا العهد
* واما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب
في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوقوف بين يديه لا ويدار
ويضيفون اليه استتباع كاتب السر واصحاب البريد المصرفين في حاجات السلطان

بالقاصية وبالخاصرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الامور لمن يشاء
 * الحجابة * قد قدمنا ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة الاموية والعباسية
 بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره في
 مواعيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط سرؤسة لها اذ الوزير متصرف فيها
 بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر سرؤسة
 لصاحب الخطة العاليا المسمى بالمائب * وأما في الدولة الاموية بالاندلس فكانت
 الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء
 من دولهم فكانت في دولهم رفيعة عاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره
 من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لئلا يفرها
 فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره
 جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفا لهم وكان
 أعظمهم ما سكا بعد اتحال ألقاب الملك وأسمائه لانه من ذكر الحاجب وذى
 الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن
 العامة والخاصة وبذى الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم ثم لم يكن في
 دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداءة التي كانت فيهم وربما يوجد في
 دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها الا أنه قليل * ولما جاءت دولة
 الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى اتحال الالقاب وتمييز الخطط
 وتعيينها بالاسماء الا آخرها فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير وكانوا أولا يحرصون
 بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد
 السلام الكومى وكان له مع ذلك النظر في الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد
 ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم
 الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ (وأما بنو أبي حفص بأفريقية) فكانت الرياسة
 في دولتهم أولا والتقديم لوزير الراى والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين

وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى ويسمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضا بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل باسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره الى قهرمان خاص بداره في احواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما اضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات اذا اتفق انه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والجرم ثم الراي والمشورة فصارت الخطة ارفع الرتب واوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب آثار الحجر والاستبداد باذهب خطة الجباية التي كانت ساما اليه وبأشرف أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والامر على ذلك لهذا العهد

﴿ واما دولة زنادة بالمغرب ﴾ واعظمها دولة بني مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالوزار ومعناه المقدم على الجنادرية المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ

المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع اليه فكانها وزارة صغرى
 ﴿ وأما دولة بني عبد الواد ﴾ فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطة لبدء دولتهم وقصورها وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حماهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

﴿ وأما أهل الأندلس لهذا العهد ﴾ فالخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكان الوزير إلا أنه قد يجمع له الترسيب والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول

﴿ وأما دولة الترك بمصر ﴾ فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الأطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان ويقطع القائل من الأرزاق ويثبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم وأخبار من أبي الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في تصرفها في الانفاقات السلطانية أو الجرايات المقذرة وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك

في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة
من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها
بحكمته لا اله الا هورب الاولين والآخرين

﴿ ديوان الاعمال والجبليات ﴾

اعلم ان هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال
الجبليات و حفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر بايمانهم
وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في اباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين
التي يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد
بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به
الا المهرة من أهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان
جلوس العمال المباشرين لها ويقال ان أصل هذه التسمية أن كسرى نظريوما
الى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أى مجانين
نافعة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا ف قيل
ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسابات
وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم
الامور ووقوفهم على الجلى منها ولحفي وجمعهم لما شئد وتفرق ثم نقل الى مكان
جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان
جلوسهم بباب السلطان على ما يأتى بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد
ينظر في سائر هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض
الدهل النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب
مصطلح للدولة وما قرره أولوها واعلم ان هذه الوظيفة انما تحدث في الدول
عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في اعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من
وضع الديوان في الدلة الاسلامية عمر رضي الله عنه يقال لسبب أتى به أبو

هريرة رضى الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعجبوا في قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به اهرمزان لما راه يبعث البعث بغير ديوان فقبل له ومن يعلم بغيبه من يغيب منهم فان من تخاف اخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبر له ولما اجتمع ذلك امر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهرى عن سعيد ابن المسيد ان ذلك كان في المحرم سنة عشرين وأما ديوان الخراج والجبایات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقيين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وبتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سداجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سايمان بن سعد والى الاردن لعهد ان ينقل ديوان الشام الى العربية فأكله لسنة من يوم ابتداءه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم وأما ديوان العراق فأمر الحجاج صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان

له النظر فيه كما كان شأن بنى برمك وبنى سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلاح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة ان يكون وشروط الناظر فيها والكتاب وقوانين الحسابات فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هناك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثلاثة أركان له لان الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر في دولة بنى أمية بالاندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر اولاة والعلماء فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يبايها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو أبي حفص بافريقية وكان شأن الحالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بنى سعيد أصحاب القاعة جوار غرناطة المعروفين بنى أبي الحسن فاستكبروا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحساب والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغاب أمر الخاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبيه مرؤسا للخاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة * وأما دولة بنى مرين لهذا العهد فحساب العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان او الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخراج

والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فتتوعد وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المساء مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح ديوانهم وعظمة ساطانهم واتساع الاموال والجبايات عن ان يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولونافغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا الخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجهده جهده في متابعتة ويسمى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الامراء الاكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة الى الاموال والحسابان مقصورة النظر على امور خاصة مثل ناظر الخصاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصة به من اقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الامير استاذ الداروان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عايله ونظر الخصاص تحت يد الخازن لاموال السلطان من ممالكة المسعى حازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمنا من أمرها بالمغرب والله مصرف الامور لارب غيره

﴿ ديوان الرسائل والكتابة ﴾

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في مباراة عن المقاصد فصار الكاتب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية

في الاكثر وكان الكاتب الامير يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخافاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظم امانتهم وخلوص اسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس ربيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقا ويكتب في آخرها اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو اشارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا وآخرها على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب مانعة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم بعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحمصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التتويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب مانعاً وصورتها ثابتة اتباعاً لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صبيغ الانفاذ ماشاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فلما أن تصدر كذلك وأما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمى بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس الباغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة

منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروعة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالمضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى ارباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سداجة العصبية فيختص الساطان اهل عصبية بخط دولته وسائر رتبته فيقلد المال والسف والكتابة من فاما رتبة السبف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المالك والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة مادعت اليه الضرورة ويقهرونه الا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبية على يده ويكون نظره متصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية الساطان يعرف بالدويدار وتعويل الساطان ووثوقه به واستنামته في غالب أحواله اليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الاسرار وغير ذلك من توابعها وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب وهي أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرساين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب انحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الادب والروآت والعلم والرزانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم

أمورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك
عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون
وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبسطون
فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا تزع عنكم ما أضفناه من النعمة
عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير
المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب اذا كنتم على
ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكتاب يحتاج من نفسه وبحاجة منه
صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فهباني موضع
الحكم مقادما في موضع الاقدام محببما في موضع الاحجام مؤثرا للعفاف
والعدل والانصاف كتوما للاسرار وفيما عند الشدائد عالما بما يأتي من التوازل
يضع الامور مواضعها والطوارق في اما كتبها قد نظر في كل فن من فنون العلم
فأحكمه وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن
أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره
فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتتأفوا يا معشر
الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل
والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم
وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والمجم وأحاديثها وسيرها
فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه
قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها وسفساف
الأمور ومحارها فانها مذلة لارقاب مفسدة لاكتتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة
واربؤا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر
والسخف والعظمة فانها عداوة محتابة من غير احنة ومحابوا في الله عز وجل
في صناعتكم وواصوا عليها بالذي هو اليق لاهل الفضل والعدل والنبل من

سافكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعظفوا عليه وبواسوه حتى يرجع اليه
 حاله ويثوب الله امره وان اقمدا احدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه
 فزوروه وعظموه وشاوروه واستظفروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن
 الرجل منكم على من اصطنعه واستظفر به ليوم حاجته اليه احوط منه على
 ولده واخيه فان عرضت في الشغل محمدا فلا يصرفها الا الى صاحبه وان
 عرضت مدممة فايحماها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والمال عند تغير
 الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى الغراء وهو لكم افسد منه
 لما فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه
 من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته
 وكتبان سره وتدير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاً له عند الحاجة
 اليه والاضطرار الى مآلديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء
 والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه
 من وسمها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم او صير
 اليه من أمر خلق الله وعماله امر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن
 على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله واحبه اليه ارفقهم
 بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللإشراف مكرما وللأفئدة موفرا وللبلاد امرا وللارعية
 متألما وعن أداهم متخلفا وليكن في مجاسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجهم
 واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب احدكم رجلا فايختبر خلائقه فاذا عرف
 حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافق من الحسن واحنا على صرفه عما يهواه من
 القبح بالطف حية وأجل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرا
 بسياستها التمس معرفة أخلاقها فان كانت رموحا لم يهجمها اذا ركها وان كانت
 شبوبا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان
 كانت حرونا قمع برفق هو امان في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسأس له قيادها

وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم
والكتاب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حياته ومعاملته لمن يحاوله من
الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحب ومداراته وتقويم
وده من سائس البهيمة التي لا تخبر جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلا بقدر
ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عاينها الأفارقوا رحكم الله في النظر واعملوا
ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بأذن الله ممن صحبتهموه النبوة والاستئصال
والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتسيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء
الله ولا يجاوزن الرحل منكم في هيئة مجاسه ومابسه ومركبه ومطعمه ومشربه
وناله وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به
من شرف صمعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التفسير وحنظة لا تحتمل
مكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا على عناقكم بالقصد في كل ما ذكر
لكم وقصته عليكم واحذروا متالب السرف وسوء عاقبه الترف فانها يعقبان
النقر ويدلان الرقاب وينصحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب والامور
أشياء وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه
تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضاعها محجة وأصدقها حجة وأحدها
عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متانة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انشغاله
ودويته فإيقصد الرجل منكم في مجاسه قصد الكافي من منطقته وإيوجز في
ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصالحة لنعلمه ومدفعة للشاغل
عن اكناره وليضرع إلى الله في صلاة توفيقه وأمداده بتسديده مخافة وقوعه
في الغلط المضر ببدنه وعنده وآدابه فانه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذي
برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حياته وحسن تدبيره فقد
تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكلمه الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى
غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالامور

وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان أعقل
الرجلين عند ذوى الالباب رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان أصحابه أعقد
منه وأجمل في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله
جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكثر على اخيه او نظيره
وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل
لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) في كتابي هذا مناسب به المثل من تلزمه
النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من
ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولاانا الله واياكم يا معسر الطلبة
والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه توبيد والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته اه **﴿ الشرطة ﴾** ويسمى صاحبها لهذا العهد باقرية
الحاكم وفي دولة أهل الاندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالى وهى
وظيفة مرؤسة اصاحب السيف فى الدولة وحكمه نافذ فى صاحبها فى بعض
الاحيان وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال
استبدائها أو لاثم الحدود بعد استيفائها فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر
للتشرع الا فى استيفاء حدودها وللسياسة المظر فى استيناء موجباتها باقرار بكرهه
عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجه المصاححة العامة فى ذلك فكان الذى
يقوم بهذا الاستيناء وباستيفاء الحدود بعده اذا تزه عنه القاضى يسمى صاحب
الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فى الحدود والدماء باطلاق وافردوها من نظر
القاضى ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم
ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهماء واهل الريب
والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالاندلس
ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة
والدهماء وجعل له الحكم على اهل المراتب السلطانية والضرب على ايديهم فى

الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجلاء وجعل صاحب الصغرى
مخصوصا بالعامّة وأصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال
يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا في تصريفه وكانت ولايتها لا كابر
من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة واما في دولة الموحدين
بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها عامّة وكان لا يباها الا رجالات
الموحدين وكبرائهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد
اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من
المصطنعين واما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليهم
وأهل اصضاءهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة
قباهم من الكرد يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في
الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الزعارة وتخريب مواطن المسوق
وتفريق مجامعهم مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح
العامّة في امدينة والله مقاب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

• قودة الاساطيل • وهي من مراتب الدولة وخصتها في ملك لمغرب وافريقية
ومرؤسة اصحاب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها في
عرفهم لئلا يتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجية فانه اسمها في اصطلاح لغتهم
وانما اختلفت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة البحر الرومي
من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية
الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجية والصقالبة والروم الى بلاد
الشام أيضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى أهل عدوته والساكنون
بسياف هذا البحر وسواحلها من عدوته يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة
من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا

البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية مثل الروم الى أفريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الاساطيل وما كوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيبطة وجولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يجارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد وكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حقا فيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خاق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه احد من العرب الا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفة بن مرثمة الازدي سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبانه غزوه في البحر فانكر عليه وعنفه انه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والافرنجة لما رستهم في أحواله ومرابهم في التقاب على أعواده مرتوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ ساطنهم وصارت أمم المعجم خولاهم وتحت أيديهم تقرب كل ذي صنعة اليهم بمنافع صناعته واستخدموا من النواتية في حاجتهم البحرية أما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واخصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافظه مثل الشام وأفريقية والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ

دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها
 كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاول بن ابراهيم الاغاب على يد أسد بن الفرات
 شيخ القتيا وفتح قوصرة أيضا في أيامه بعد ان كان معاوية بن خديج أغزى
 صقاية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على
 يد ابن الاغاب وقائده أسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية
 والاندلس في دولة العبيدين والامويين تتعاقب الى بلادها في سبيل البتة
 فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى أسطول الاندلس أيام
 عبدالرحمن الناصر الى مائتي مركب أو نحوها وأسطول أفريقية كذلك منه أو قريبا
 منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفؤها للحط والاقلاع بحجاية
 والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن
 أسطول يرجع نظره الى قائد من الموالية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته
 ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو المجاذيف وأمر ارسائه في مرفئه فاذا اجتمعت
 الاساطيل لغزو محتمل أو غرض ساطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها
 الساطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجمعاهم لنظر امير واحد من اعلى
 طبقات اهل مملكته يجمعون كلهم اليه ثم يرحلهم لوجههم وينتظر اياهم بالفتح
 والغنيمه وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غابوا على هذا البحر من
 جميع جوانبه وعظمت صولتهم وساطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل
 بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم وكانت لهم المقامات
 المعلومه من الفتح والغنائم وما كوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه
 مثل ميورقة ومنورقة ويااسة وسردانية وصقاية وقوصرة ومالطة واقريطش
 وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج وكان أبو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون
 أساطيلهم من المهديية جزيرة جنوة فتمتقاب بالطفر والغنيمه وافتتح مجاهد
 العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة

خمس وأربعمائة وأرتجمعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا
 على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر
 الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقاية الى البر الكبير المقابل لها من
 العدو الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتشنخ في تمالكهم كما وقع في ايام بنى الحسين
 ملوك صقاية القائلين فيها بدعوة العبيديين وانجازت أم النصرانية باساطيلهم
 الى الحايين الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالية وجزائر الرومانية
 لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقدملات
 الاكثر من بسيط هذا البحر عدوة وعددا واختانت في طوقه سلمها وحر با فلم تسبح
 للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادرك الدولة العبيدية والاموية العشل ولوهن وطرقها
 الاعتلال مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقاية واقريطش ومالطة
 فلما كوها ثم الحوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا
 على سواحل الشام في تلك الفترة وما كوطراناس وعسقلان وصور وعكا واستولوا
 على جميع النغور بسواحل الشام وغابوا بنى خزرون على طراناس ثم على قاس
 وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ما كوا المهديّة مقر ملوك العبيديين من يد انقب
 بلكين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة به هذا البحر وضعف شأن
 الاساطيل في دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يعتنوا بشيء من امره لهذا
 العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف
 في اخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هناك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت
 مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موقورا الاساطيل
 ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قائد الاسطول به ليهدي
 لمثونة بن ميمون رؤساء جزيرة قانس ومن أيديهم أخذها بيد المؤمن بتسليمهم
 وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا * ولما
 استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وما كوا العدوتين أقاموا خطة هذا

دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها
 كان فتح صقاية أيام زيادة الله الاول بن ابراهيم الاغلب على يد أسد بن الفرات
 شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضا في أيامه بعد ان كان معاوية بن خديج أغزى
 صقاية أيام معاوية بن أنى سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على
 يد ابن الاغلب وقائده أسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية
 والاندلس في دولة العبيدين والامويين تتعاقب الى بلادها في سبيل الفتنة
 فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى أسطول الاندلس أيام
 عبدالرحمن الناصر الى مائتي مركب أو نحوها وأسطول أفريقية كذلك مشه أوقريبا
 منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفؤها للخط والاقلاع بحجاية
 والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن
 أسطول يرجع نظره الى قائد من الموانية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته
 ورئيس يدبر أمر جريته بالريخ أو المجاذيف وأمر ارسائه في مرفئه فاذا اجتمعت
 الاساطيل لغزو محتمل أو غرض ساطاني مهم عسكرت بمرقتها المعلوم وشحنها
 الساطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى
 طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يبرحهم لوجههم وينتظر ايامهم بالفتح
 والغنيمه وكان المسامون لعهد الدولة الاسلاميه قد غابوا على هذا البحر من
 جميع جوانبه وعظمت صولتهم وساطاتهم فيه فلم يكن للامم الصرانيه قبل
 بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم وكانت لهم المقامات
 المعلومه من الدبح والغنائم وما كوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه
 مثل ميورقة ومنورقة وبابسة وسردانية وصقاية وقوصرة ومالطة واقربطش
 وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج وكان أبو القاسم الشيعي وابناؤه يفزون
 أساطيلهم من المهديه جزيرة جنوة فتمتقاب بالظفر والغنيمه وافتتح مجاهد
 العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة

خمس وأربعمائة وارتجعتها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا
 على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر
 الإسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقاية الى البر الكبير المقابل لها من
 العدو الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتشنخ في تمالكهم كما وقع في ايام بنى الحسين
 ملوك صقاية القائميين فيها بدعوة العبيديين وانجازت أم النصرانية باساطيلهم
 الى الحايين الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالية وجزائر الرومانية
 لا يعدونها واساطيل المساميين قد ضربت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقدملات
 الاكثر من بسيط هذا البحر عدوة وعددا واختانفت في ط. قه سلما وحر با فلم تسبح
 للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادرك الدولة العبيدية والاموية العشل ولوهن وطرقها
 الاعتلال مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقاية واقريطش ومالطة
 فلكوها ثم الحوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغابوا
 على سواحل الشام في تلك المنة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا
 على جميع الثغور بسواحل الشام وغابوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قاس
 وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ما كوا المهديية مقر ملوك العبيديين من يد انقاب
 بلكين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شأن
 الاساطيل في دولة مصر والشام الى ان انقطع وبعثوا بشئ من امره لهذا
 العهد بعد ان كان لهم به في الدولة العبيدية عمارة تجاوزت الحد كما هو معروف
 في اخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هناك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت
 مختصة بها وكان الحانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفورا لاساطيل
 ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قائد الاسطول به ليهدي
 لمتونة بنى ميمون رؤساء جزيرة قانس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم
 وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا * ولما
 استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا

الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقبي أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جربة من سرويكش اسره النصارى من سواحلها وربى عندهم واستخاصه صاحب صقاية واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فاسخطة ببعض التزغات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بهامن بنى عبد المؤمن واجاز الى مراكش فتلقاء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالبرية والكرامة واجزل الصلة وقبده امر اساطيله فحلى في جهاد امم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجداء الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع نفور الشام من يد امم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبناءه تتابعت اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك النفور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فامدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغاب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن تمناعتهم هناك كما أشرنا اليه قبل فاقود صلاح الدين على ابى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من ايديهم وأبقي عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لنحوه في البحر بين اساطيل الكفرة وبين مرهم من امداد النصرانية بنفور الشام وأصحبه كتابه اليه في ذلك من انشاء الفاضل البيهقي يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا ابواب المواجه والميامن حسبما نقله العماد الاصبهاني في كتاب الفتح القدسي فنقم عليهم المنصور تجاقيهم عن خطايه بامير المؤمنين وأسماها في نفسه وحامهم على مناهج البر والكرامة وردهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على احتصاص

ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشان الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أم الجلائقة على الاكثر من بلاد الاندلس وألجوا المسلمين الى سيب البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زنادة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرآة الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامم في لجته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة من الولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلحا ويبقى الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معانة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الرنج على الكفر وأهله فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدنان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وأن ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ • فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول ﴿

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من

الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ لا يحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة الى الاستظهار بآرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الامر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون آرباب السياف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى اقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض الشيء عن السياف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهمة في مضاجع أغمارها الا اذا نابت نائبة أو دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون آرباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلسا وأكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لانه حينئذ آله التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والظفر في اعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله ويكون الوزراء حينئذ واهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوادره وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين امره بالقدوم اما بعد فانه مما حفظناه من وصايا النرس اخوف ما يكون الوزراء اذا ساكنت الدهاء سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ٣٧ ﴾ فصل في اشارات الملك والسلطان الخاصة به ﴿

(اعلم) ان للسلطان اشارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتعالها عن ارعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمباغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم ﴿ الآلة ﴾ فمن اشارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد

ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب اليه في السياسة أن السر في ذلك ارهاب العدو في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري انه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات وأما الحق في ذلك فهو ان النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها المرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستمتع في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتي في الحيوانات العجم بانفعال الابل بالحذاء والخيل بالصفير والصريح كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا اذا كانت الاصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لاطبلا ولابوقا فيحرق المغنون بالسلطان في موكبهم بالآتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم الى الاستماتة واقد رأيت في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب بتقديم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائها الجبل الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن اشوة الحمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم

﴿ وأما ﴾ تكثير الرايات وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الاقدام وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة (١) قوله الموسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقى بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحن وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول سفينة الشيخ محمد شهاب

والله الخلاق العليم ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم
 اكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمتها فأما الرايات فانها شعار الحروب
 من عهد الخليفة ولم تزل الامم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده من الخلفاء وأما قرع الطبول والنفخ في
 الابواق فكان المسلمون لاول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضاً
 لأحواله واحتقاراً لابهته التي ليست من الحق في شيء حتى اذا انقلبت الخلافة
 ملكاً وتبجحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولا يسهم الموالي من الفرس والروم أهل
 الدول السالمة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان
 مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها واذنوا لعالمهم في اتخاذها تنويها بالملك وأهله
 فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أوقد الجيش يعقده الخليفة من العباسيين
 أو العبيديين لواءه ويخرج الى بعته أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب
 من أجناب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية
 وقتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس
 فان راياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعيها على بني أمية في
 قتاهم ولذلك سموا المسودة ولما افترق امر الهاشميين وخرج الطالبيون على
 العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فأخذوا الرايات بيضا
 وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد
 بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا الى بدعة الراضية من غيرهم
 كالقرامطة ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون
 الخضرة فجعل رايته خضراء . وأما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت
 آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من الجنود وخمسمائة من
 الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد
 بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن

فيها لعماهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبنى الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بنذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاء والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبيل صغير ألام الحرب لا يتجاوزون ذلك * وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولا راية واحدة عظيمة وفي راسها خصبة كبيرة من الشعر يسمونها الشاش والجزر وهي شعار السلطان عندهم ثم تعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية نلسانهم وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيعون لكل أمير أو قائد عسكريان يتخذ من ذلك ما يشاء الا الجزر فانه خص بالسلطان وأما الحلالة لهذا العهد من أمم الافرنجة بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الاولية القايلة ذاهبة في الجوصعدا ومعا اقرع الاوتار من الطباير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقة في مواظن حروبهم هكذا يباغنا عنهم وعن ورائهم من ملوك المعجم ومن آياته خالق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوااسكم ان في ذلك لايات للعالمين

﴿ السرير ﴾ وأما السرير والمنبر والتحت والكرسى وهو اعود منصوبة او ارائك منصدة لجلوس السلطان عابها مرتفعا عن اهل مجده ان يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام وفي دول المعجم وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب وكان سليمان بن داود صاوات الله عليهما وسلامه كرسى

وسرير من عاج مغشى بالذهب الا أنه لا تأخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف
 شأن الابهة كلها كما قلناه واما في اول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون اليه * واول
 من اتخذ في الاسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم انى قد بدت فأذنوا له فاتخذ
 واتبه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر
 يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير
 من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا
 يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهة الملك ثم كان بعد
 ذلك لبنى العباس والعبيدين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر
 والتخوت ما عفى عن الأكاسرة والقياصرة والله مقاب الليل والنهار
 * السكة * وهى الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بهما بين الناس بطابع
 حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم
 فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد
 من ذلك الجس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم
 والدنانير بوزن معين صحيح يصطاح عليه فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر
 أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهى الحديد
 المتخذة لذلك ثم نقل الى أنرها وهى النقوش المائلة على الدنانير والدرهم ثم نقل
 الى القيام على ذلك والنظر استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما
 عليها في عرف الدول وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من المغشوش
 بين الناس في العقود عند انعامات ويتقون في سلامتها العيش بختم السلطان عليها
 بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل
 تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعمرها أو تمثيل حصن أو حيوان أو
 مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر أمرهم ولما جاء
 الاسلام أغفل ذلك لسداجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة

وزنا وكانت دنائير الفرس ودرهمهم بين أيديهم - ثم يردونها في معاماتهم الى الوزن
ويتصارفون بها بينهم الى أن تفاحش الغش في الدناير والدرهم لغفلة الدولة
عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب
الدرهم وتميز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدايني
سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر الدواحي سنة ست وسبعين وكتب
عليها الله أحد الله الصمد ثم وثى ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود
السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من
ضرب الدناير والدرهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد
الله لمساوي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم
الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك سنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على
ما كانت استقرت عليه أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة
دوايق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة
مناقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان
منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى
تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة
أسباع درهم وقيل كان منها البغلي ثمانية دوايق والطبري أربعة دوايق والمغربي
ثمانية دوايق واليميني ستة دوايق فامر عمر أن ينظر الاغاب في التعامل فكان
البغلي والطبري وهما اثنا عشر دابقا وكان الدرهم ستة دوايق وان زدت ثلاثة
أسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك
اتخاذ السكة لصيانة القدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها
على هذا الذي استقر له عهد عمر رضي الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه
كلمات لاصورا لان العرب كان الكلام والبلاغة أقرب منا حبيهم وأظهرها مع
أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان

الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب
فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهايلا وتحميدا وصلاة على النبي وآله وفي الوجه
الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعباسيين والأمويين وأما
صنهاجة فلم يتخذوا سكة الا آخر الامر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك
ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ
سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه
ويملأ من أحد الجانبين تهايلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتب في السطور
باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا
الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم
والمربع نعته بذلك المتكلمون بالحدنان من قبله المخبرون في ملاحظهم عن
دولته وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدره وإنما يتعاملون بالدينار
والدراهم وزنا بالصنجات المقدره بعدة منها ولا يطبعون عايبها بالسكة نقوش
الكلمات بالتهليل والصلاة واسم الساطان كما يفعل أهل المغرب ذلك تقدير العزيز
العالم (ولنختم الكلام) في السكة يذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان
حقيقة مقدارهما وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين
بالآفاق والامصار وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرها وعاق كثيرا من
الاحكام بهما في الزكاة والالتحاة والحدود وغيرها فلا بد لها عنده من حقيقة
ومقدار معين في تقدير تجرى عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أن
الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعي
هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاقوية منه أربعين درهما
وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب ثمان وسبعون حبة
من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه
المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها

الطبرى وهو ثمانية دوانق والبغلى وهو أربعة دوانق فجعلوا الشرعى بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة فى مائة درهم بغاية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذكر ذلك الخطام فى كتاب معالم السنن والماوردى فى الاحكام السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه ان يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين فى عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعاقب الحقوق الشرعية بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهما كانا معلومى المقدار فى ذلك العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعاقب بهما من الحقوق وكان مقدارها غير مشخص فى الخارج وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعى على المقدر فى مقدارها وزنتها حتى استفحل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال الى تشخيصها فى المقدار والوزن كما هو عند السرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فمشخص مقدارها وعينها فى الخارج كما هو فى الذهب ونقش عليها السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خاصت ونقش عليها سكة وتلاثى وجودها فهذا هو الحق الذى لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار اهل السكة فى الدول على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى كل الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصور مقاديرها الشرعية ذهنا كما كان فى الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التى بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الديار بائتين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذى نقله المحققون وعابه الاجماع الا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضى عبد الحق وردده المحققون وعدوه وهما وغلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هى المتعارفة بين الناس لال المتعارفة مختلفة باختلاف

الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله خالق كل شيء فقدره تقديرا

﴿ الخاتم ﴾ وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد نبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى قيصر فقبل له ان المعجم لا يقبلون كتابا الا أن يكون محتوما فالتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله * قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثاه قال وتحم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قابضة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كينية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم بطاق على الآلة التي تجعل في الاصبع ومنه تحم اذا لبسه ويطاق على النهاية والنمام ومنه ختمت الامر اذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الامر ويطاق على السداد الذي يسد به الأواني والذنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى (ختامه مسك) وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتام قال لان آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذي هو السداد لان الحمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبوانع في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين المعهودين في الدنيا فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح اطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الختم اذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم عمت في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتما فيه واذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى اذا كان النقش على الاستقامة من اليمين وقد يقرأ من الجهة اليمينى اذا

كان النقش من الجهة اليسرى لان الختم يقاب جهة الخط في الصفح عما كان في
 النقش من يمين أو يسار فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد
 أو الطين ووضع على الصفح فتنقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية
 والنمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات
 وهو من دونها ماخى ليس تمام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو
 أوله بكلمات منتظمة من حميد أو تسييح أو باسم السلطان أو الامير أو صاحب
 الكتاب من كان أو شئ من نعوته يكون ذلك الختم علامة على صحة الكتاب
 ونفوذه ويسمى ذلك في المتعارف علامة ويسمى ختما تشبيها له بأثر الخاتم الأصي
 في النقش ومن هذا خاتم القاضى الذى يبعث به للاخضوم اى علامته وخطه
 الذى ينفذ بهما احكامه ومنه خاتم السلطان او الخليفة اى علامته قال الرشيد
 ليحيى بن خالد لما اراد ان يستوزر جعفرًا ويستبدل به من الفضل اخيه فقال
 لابيها يحيى يا ابت انى اردت أن احول الخاتم من يمينى الى شمالى فكنى له بالخاتم
 عن الوزير لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزير اعهدهم
 ويشهد لصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى ان معاوية ارسل الى الحسن عند
 مراودته اياه فى الصلح صحيفة بيضاء ختم على اسفها وكتب اليه ان اشترط فى
 هذه الصحيفة التى ختمت اسفها ماشئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة فى آخر
 الصحيفة بخط او غيره ويحتمل ان يختم به فى جسم لين فتنقش فيه حروفه
 ويجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم وعلى المودوعات وهو من السدا
 كاسر وهو فى الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم واول من اطلق الختم على
 الكتاب اى العلامة معاوية لانه امر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة الف
 ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية وطاب
 بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه اخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان
 الخاتم ذكره الطبرى وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن نحزم أى جعل لها

السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على انفاذ كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب واما ناصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الاصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد عمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه أحمر فيرسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجذب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك لاوزير في الدولة العباسية ثم اختلفت العرف وصار من اليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالمصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويابسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البرية والتضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الامور بحكمه

﴿ الطراز ﴾ من أبهة الملك والاساطان ومذهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أنوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابرسيم تعتبر كتابة خطها في سجع الثوب الحاما وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناعات في تقدير ذلك ووضعها في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معاملة بذلك الطراز قصدا للتبويه لابساها من السلطان فمن دونه أو التبويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه

بذلك أو ولايته ، وظيفة من وظائف دولته وكان ملوك المعجم من قبل الاسلام يجعولون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب أسماؤهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفال أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أبهة الامور وأنعم الاحوال وكانت الدور المعدة لنسج أنوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والآلة والحياكة فيها واجراء أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومشاركة أعمالهم وكانوا يقدون ذلك لحواس دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك المعجم بالنسبة ثم لما ضاق بطاق الدول عن الترف والتفنن فيه اضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة * ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية اول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك اول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداجة التي لقتوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتودعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها اعتقادهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة واما لهذا العهد فأدر كونا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها ربما جايلا لقتوه من دولة ابن الاحمر معاصروهم بالاندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتي منه بالجملة شاهد بالانار * واما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد فقيه من الطرز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وانما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لظفة العجمية وسم اسم الساطان او الامير عليه وبعده الصنائع لهم فيما يعدونه لدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل

والتهار والله خير الوارثين

﴿ الفساطيط والسياج ﴾

اعلم ان من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن يجمل الكتان والقطن فيباهى بها في الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وانما يكون الامر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني أمية انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تنزل العرب لذلك العهد بدين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وحياتهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقية تحشد الناس على أثره أن يقيموا اذا ظعن ونقل انه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع وقصتها في احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولايات تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الا من يأمن بوادر السفهاء من احياتهم بماله من العصبية الخائفة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائها فيها بعصبته وصرامته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ ونزواوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الحلف الى طهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال مقطرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها باباغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير والقائد العساكر على فساطيطه وفاضاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو

لسان أهله افراك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره * وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وان كان دون السلطان ثم جنعت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم نجف لذلك ظهرهم وتقارت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في سيطرة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظننا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط وناغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر والله القوي العزيز

﴿ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة ﴾

وهما من الامور الخلافية ومن اشارات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام * فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ بيابجا على المحراب فيحوزه وما يليه فاول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأئمة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد

بالقلمة تم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة
البدعوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاه
أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة
ملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده*
(وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة
بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاعن
أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعهم بمصر وأول من
دعا بالخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة
عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد
وبعد اخذ عمرو بن العاص المنبر باغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر بن
الخطاب أما بعد فقد باغى ابك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو ما
يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك إلا ما كسرتة فلما
حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيها فكان
الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصالحة
العام فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن الساف في قولهم من كانت
له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر
والاستبداد صار المتغيبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد
باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص
السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو
إليه وكثيرا ما يفعل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في
أسلوب الغضاضة ومناحي البدعوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الأبهام
والاجمال لمن ولى أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا
المنحى عبانية يعنون بذلك أن الدعاء على الأجمال إنما يتناول الباسي تقليدا في ذلك

لماسف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصریح باسمه * يحكى أن
 يغمر اسن بن زبان ماهد دولة بنى عبد الواد لما غابه الأمير أبوزكريا يحيى بن أبى
 حفص على تاهسان ثم بدا له فى إعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر
 اسمه على منابر عماله فقال يغمر اسن تلك أعوادهم بذكرون عابها من شاؤوا وكذلك
 يعقوب بن عبدالحق ماهد دولة بنى مرين حضره رسول المستنصر الخليفة
 بتونس من بنى أبى حفص وثلك ملوكهم وتخاف بعض أيامه عن شهود الجمعة
 فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن فى
 الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول فى بدايتها وتمكنها
 فى الغضاضة والبداوة فاذا انتهت عيون سياستهم ونظروا فى أعطاف ملكهم
 واستتموا شيات الحضارة ومعانى البذخ والابهسة التحلوا جميع هذه السمات
 وتفطنوا فيها وتجاروا الى غايتها وأنفوا عن المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها
 وخاؤ سواتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شىء رقيب

٣٨ * فصل فى الحروب ومداهب الامم فى ترتيبها *

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الحليقة منذ برأها الله وأصاها
 ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فاذا تدامروا
 لذلك وتواقمت الطائمتان احداها تطالب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب
 وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام فى
 الاكثر اماغيرة و منافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للمالك
 وسعى فى تمهيده فالاول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر
 المتناظرة والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين
 بالقفر كالعرب والترك والتركمان والاكراد وأشباهم لانهم جعلوا أرزاقهم
 فى رماحهم ومعاشرهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذره بالحرب

ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمسايعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفًا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال المعجم كلهم على تماقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بسفوفهم إلى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط المتمد والقصر المشيد لا يطعم في إزالته وفي التنزيل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى في الزحف فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء بأهلهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرهما على المسامين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديتها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا ياجؤون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والمساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل

كردوس صفوفه وسبب ذلك انه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا
 من قاصية الذاهي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال
 الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم
 لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جوعا
 ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات
 الأربع ورئيس العساكر كلها من ساطان أو قائد في القاب ويسمون هذا
 الترتيب التعبية وهو المذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام
 فيجملون بين يدي الملك عسكريا منفردا بصفوفه متبيرا بقائده ورايته وشعاره
 ويسمونه المقدم ثم عسكريا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة
 يسمونه اليمين ثم عسكريا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه اليسرة ثم عسكريا
 آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه
 الأربع ويسمون موقفه القاب فدات لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى
 واحد للبصر أو على مسافة بعيدة كثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها
 أو كيفما أعطاه حال العساكر في القامة والكثرة حينئذ يكون الزحف من بعد
 هذه التعبية وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بلمشرق وكيف
 كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخفف عن رحيله لبعده المدى في التعبية فاحتجج
 ان يسوقها من خافه وعين ذلك الحجاج بن يوسف كما اسرنا اليه وكما هو
 معروف في أخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس ايضا كثير منه وهو مجهول
 فيما لدينا لأننا ادركنا دولة قاصية العساكر لانتهى في مجال الحرب الى التناكر
 بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل
 واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك
 التعبية

(فصل) ومن مذاهب أهل الكفر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم

من الجمادات والحيوانات المعجم فيتخذونها ماجاً للخيلة في كرههم وفرهم يطابون
به ثبات المقاتلة لتكون أدوم للحرب وأقرب الى الغلب وقد يفعله أهل الزحف
أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيبة
في الحروب ويحملون عابها أبراجاً من الحشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة
والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنهم حصون فتتوى
بذلك نفوسهم ويزدادون ثوقهم واطر مارقع من ذلك في القادسية وأن فارس في
اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب نخالطوهم
وبعجوها بالسيوف على خراطيمها ففترت ونكصت على أعقابها الى مرابطها
بلمدائن حنفاً معسكر فارس لذلك وانهمزوا في اليوم الرابع * وأما الروم وماوك
القوط بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك
سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم
بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سباح آخر من الرماة
والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وماجاً للكر والفر وجعل
ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً فيها على سرير نصبه لجأوسه
حتى اختلفت صفوف فارس وخلطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه الى
الفرات وقتل وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الائم البدوية الرجالة
فيصفون لذلك انهم والظهر الذي يحمل ظماعتهم فيكون فئة لهم وبسمنها المجموذة
وليس أمة من الائم الا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن
من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أنعم الله الدول امهدنا بالجملة واعتاضوا
عنه بالظهر الحامل الاثقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خانهم ولا تغني غناه
الفيبة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومسشعرة للمرار في المواقف
وكان الحرب أول الاسلام كله زحفاً وكان العرب انما يعرفون الكر والفر

لكن حماتهم على ذلك أول الاسلام أمران أحدهما ان عدوهم كانوا يقاتلون
 زحفا فيضطرون الى مقاتلتهم بمثل قتلهم الثاني أنهم كانوا مستعيتين في جهادهم
 لما رغبوا فيه من الصبر والمارسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة أقرب
 * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار الى اتعبية كراديس مروان بن
 الحكم في قتال الضحاح الخارجي والحبيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال
 الحبيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري وياقب أبا للدعاء
 وقتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى فتوسى
 قتال الزحف بابطال الصف ثم تنوسى الصف وراء المتنازلة بما داخل الدول من
 الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الحيام كانوا يستكثرون من الابل
 وسكنى النساء والولدان معهم فى الاحياء فلما حصلوا على ترف الملك والدوا
 سكنى التصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقمر اسوا لذلك عهد الابل
 والظمان وصعب عليهم اتخاذها فخافوا النساء فى الاسفار وحمهم الملك والترف
 على اتخاذ المساطيط والابخبية فاقترضوا على الظهر الحامل للاتقان والابنية
 (١) وكان ذلك صفتهم فى الحرب ولاينغى كل الغناء لانه لايدعو الى الاستماتة كما
 يدعو اليها الاهل والملك فيخفف الصبر من أجل ذلك ونصرفهم الهيئات وتحرم
 صفوفهم

(فعل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتناكده فى قتال الكر
 والقمر صار مفوك المغرب يتخذون طائفة من الاقربح فى جدهم واحتصوا بذلك
 لان قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والساطن يتناكده فى حقه ضرب المصاف
 ليكون رداً للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين
 (١) قوله لاتقال والابنية مراده بالابنية الحيام كما يدل له قوله فى فصل الخندق
 الآتي قريبا اذا نزلوا وضربوا أبنيتهم

للثبات في الزحف والا أجنفوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان
والعساكر باجفاهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الامة
المتعودة الثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحقق بهم منها هنا
على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أرينا كما
من تخوف الاجفال على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في
ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع ان الملوك
في المغرب انما يضعون ذلك عند الحرب مع أم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة
وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من عمالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع
بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شئ عليم

(فصل) وباننا أن أم الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهم وان تعبئة
الحرب عندهم بالمصاف وانهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف
ويترجأون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضون جلاوسا وكل
صف رده للذي أمامه أن يكبسهم العدو الى أن يتهيأ العصر لاحدى الطائفتين
على الاخرى وهي تعبئة محكمة غريبة

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم
عند ما يتقاربون للزحف حذرا من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل
لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فياوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في
الظلمة شرا من عاره فاذا تساوا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة وكانوا
لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون
الحفر ناطقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا
وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الايدي
عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك
فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجود وعدم الفعلة نسي هذا

الشان جملة كانه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية على رضى الله عنه
 وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن أحد ابصر
 بها منه قال فى كلام له فسوروا صفوفكم كالذيات المرصوص وقدموا الدارع
 وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أبى للسيوف عن الهام والتووا
 على أطراف الرماح فانه أصون للاسنة وعضوا الابصار فانه أربط للجاش وأسكن
 للقلوب وأخفتوا الاصوات فانه أطرده للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا
 يلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر
 ينزل النصر وقال الا شري يومئذ يجرى الأزد عضوا على النواجذ من الاضراس
 واستقبلوا القوم همامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بأبائهم واخه انهم
 حناقا على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ولا يباحقهم فى
 الدنيا عار وقد أشار الى كثير من ذلك أبو بكر الصير فى شاعر لمنونة وأهل
 الاندلس فى كلة يمدح بها تاشفين بن على بن يوسف ويصف ثباته فى حرب
 شهدها ويذكره بامور الحرب فى وصايا وتحنينات تنبهك على معرفة كثير
 من سياة الحرب يقول فيها

يأبها المـالـ الذى يتقنع * من مكم الملك الهام الاروع
 ومن الذى غر العدو به دجى * فانقض كل وهو لا يتزعزع
 تمضى الفوارس والطعان يصدها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
 والليل من وضع الترائك انه * صح على هام الجيوش يلمع
 انى فزعتم يابى صنهاجة * واليكوم فى الروع كان المفزع
 اسان عين لم يصبه منكم * حصن وقاب أسلمته الاضام
 وصدتمو عن تاشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع
 ما أنتموا الا اسود خمية * كل لكل كريمة مستطلع
 ياتاشفين أقم لجيشك عنده * بلليل والقدر الذى لا يدفع

﴿ ومنها في سياسة الحرب ﴾

أهديك من أدب السياسة مابه * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
 لأننى ادرى بها لكها * ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
 والبس من الخلق المضاعفة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
 والهتدوانى الرقيق فانه * أمضى على حد الدلاص وأقطع
 واركب من الخيل السوابق عدة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
 خندق عايك اذا ضربت محلة * سيان تتبع ظافرا أو تتبع
 والواد لاتعبره وانزل عند * بين العدو وبين جيشك يقطع
 واجعل مناجزة الجيوش عشية * ووراءك الصدق الذى هو أمتع
 واذا تضايقت الجيوش بمرك * ضحك فأطراف الرماح توسع
 واصدمه أول وهلة لاتكثرت * شياً فإظهار الكول يضعضع
 واجعل من الطلاع أهل شهامة * للصدق فيهم شيمة لاتخضع
 لاتسمع الكذاب جاءك مرجفا * لارأى للكذاب فيما يصنع

قوله واصدمه أول وهلة لاتكثرت البيت مخالف لما عاينه الناس في أمر الحرب
 فقد قال عمر لأبي عبيد بن مسعود التثني ١١ ولاء حرب فارس والعراق فقال
 له اسمع وأطع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تحبين
 مسرعا حتى تبين فانها الحرب ولا يصاح لها الا الرجل المكث الذي يعرف
 الفرصة والكف وقال له في أخرى انه لن يمنعنى أن أوامر سايطا الا سرعته
 في الحرب وفي التسرع في الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لأمرته لكن
 الحرب لا يصلحها الا الرجل المكث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل
 في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله
 الصيرفى الا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم

(فصل) ولا وثوق في الحرب بالظفر وان حصصت أسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الاكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومسه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهي اما من خدع البشر وحياتهم في الارجاف والتشايخ التي يقع بها التخديك وفي التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمئن الارض والتواري بالكدي عن العدو حتي يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتاممون الى النجاة وأمثال ذلك وأما أن تكون تلك الاسباب الخفية أمورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلتقي في القلوب فيستولي الرهب عليهم لاجها فتختل مرا كزهم فتقع الهزيمة وأكثر ماتع الهزائم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمد لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغاب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب ب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغاب في الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهيم من وقوع الغاب عن الامور السماوية كما نشر حناه في معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غابه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغاب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالثناء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا للهزائم في الفتوحات الاسلامية كلها الا أنه خفي عن العميون وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغاب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر

مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي
الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب
وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح
وانما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية
واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصاب متعددة لان العصاب اذا
كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين الفاقدين
للعصبية اذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته
متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصابته واحدة لاجل ذلك فتنهمه واعلم انه اصح
في الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك الانسيان شأن العصبية
في حلة وبلدة وانهم انما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة الى الوجدان
والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك اول
الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته انما هو من الاسباب الظاهرة مثل
اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الاساحة وما أشبهها فكيف يجعل
ذلك كميلا بالغاب ونحن قد قررناك الآن أن شياً منها لا يعارض الاسباب الخفية
من الحيل والخداع ولا الامور السهوية من الرعب والخذلان الا الهى فافهمه وتفهم
أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويأحق بمعنى الغاب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال
الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك
والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو
بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف
موضعها وتكون طبقاً على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت انما هما
بالاخبار والاخبار يدخلها الدهول عن المقاصد عند التماقل ويدخلها التعصب
والتشيع ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال اخفاها

بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب التجارة والمراتب
الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة
بمحب الثناء والناس متطاولون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة و ليسوا في
الاكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه
كلها فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل
ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى
أعلم وبه التوفيق

﴿ ٣٩ ﴾ فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها ﴿

اعلم ان الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون
كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين
فايست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قائمة الوزائع
لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا
الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وان كانت على
سنن التغاب والعصية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والداوة تنضي
المساحة والمكارمة وخفض الجناح والتجاني عن أموال الناس والغفلة عن
تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي
تجمع الاموال من مجموعها واذا قات الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل
ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويزايد محصول الاغتباط بقلة المعرم واذا كثر الاعتمار
كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فيكثر الجباية التي هي حماها فاذا
استمرت الدولة واتصت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد وانصفوا بالكيس
وذهب شر البداوة والسذاجة وخافها من الاغضاء والتجاني وجاء الملك المذوض
والحضارة الداعية الى الكيس وتحاق أهل الدولة حيث يد بخاق التحذلق
وتكثرت عوائدهم وحوادثهم بسبب ما انعموا فيه من العيم والترغ فيكثرون

الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والا كرة والفلاحين وسائر أهل المغارم
 ويزيدون في كل وظيفة ووزيمة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية ويضعون
 المكوس على المبايعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار
 بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى
 تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت
 قليلاً قليلاً ولم يشعر أحد بمن زادها على التعمين ولا من هو واضعها انما نت
 على الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه
 ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فتتقص
 جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف
 اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة
 ووزيمة الى غاية ليس وراها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار
 وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار
 الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى أن ينقض
 العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعودون الى ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار
 عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الاسباب في الاعتمار تقابل مقدار
 الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك المنفعة
 فيه والله سبحانه وتعالى مالك الامور كلها ويبيد ما يكتوت كل شئ

٤٠ ﴿ فصل في صرب المكوس أواخر الدولة ﴾

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قابلة للحاجات لعدم
 الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قابلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء
 بأزيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تابت أن تأخذ بدين الحضارة
 في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خرج

أهل الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحماية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابها عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضرها على البياعات ويفرض لها قدرا معاوما على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان الساع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى أن تضمحل وقد كان وقع منه بامصار المسرق في أخريات الدولة العباسية والبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأغاضها بآثار الخبر وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محارسه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بامصار الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ ﴿ فصل في أن التجارة من السلطان مضره بالرعايا متسدة للجباية ﴾

اعلم ان الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس ان كان قد استحدثت من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شئ طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والملاحة للسلطان على

تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلاة مع
يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤس الاموال فيأخذون في
اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة
الاسواق وبحسبون ذلك من ادرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غايط عظيم
وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار
في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فان الرعايا متكافئون في اليسار
متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنهى الى غاية وجودهم أو تقرب واذا
رافقهم الساطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحدهم يحصل على
غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم ان السلطان
قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غضا أو بأيسر ثمن أو لا يجد من يناقشه
في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه ثم اذا حصل فوائد الفلاحة ومغاها كاله من
زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من انواع الغلات وحصلت بضائع
التجارة من سائر الانواع فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولانفاق البياعات لما
يدعوهم اليه تكاليف الدولة فيكلفون اهل تلك الاصناف من تاجراة فلاح
بشراء تلك البضائع ولا يرون في انماها الا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض
اموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة وبمكثون عطلا من الادارة التي
فيها كسبهم ومعاشرهم وربما يدعوهم الضرورة الى شيء من المال فيبيعون تلك السلع
على كساد من الاسواق بالبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم
بما يذهب رأس ماله فيقعده عن سوقه ويندمد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا
من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة
ويؤدي الى فساد الجباية فان معظم الجباية انما هي من الفلاحين والتجار لاسيما
بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد
التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش واذا قايس

السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية أقل من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بمحظ عظيم من الجباية فيما يعاينه من شراء أو بيع فانه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تنكسها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لاهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تميم أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالفتقات وكان فيها اتلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الا من أهل بيت المملوكية ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والادب والسجاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بحيرانه ولا يتاجر فيجب غلاء الاسعار في البضائع وأن لا يستخدم العميد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصالحة واعلم ان السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل في أهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تبسط أموالهم وتنترح صدورهم للأخذ في تميم الاموال وتتميتها فتعظم منها جباية السلطان وأما غر ذلك من تجارته أو فلاح فانما هو مضررة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقدينتهى الحال بهؤلاء المتساعخين للتجارة والفلاحة من الامراء والمنغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى وأقرب الى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعنى التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها أجدر بتم الاموال وأسرع في تميمه ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي

للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد أنفسنا وينفعنا بإصلاح الاعمال والله تعالى أعلم

٤٢ ﴿ فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة ﴾
والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصية بمقدار غنائمهم وعصبيتهم ولأن الحاجة إليهم في تهديد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فله عليهم عزة وله إليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي ملتقن في الغالب وجاههم متقاص لأنه من جاء مخدمهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصيته فإذا استفحات طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلّة غنائمهم في الدولة بما انكبح من أعنتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتهديد الأمر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو مذهبها ويحتوى على الأموال ويحتججها للنفقات في مهمات الأحوال فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكتاب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الأموال ويتأثّلونها ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصية وقيام القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الاعوان والانصار لكثرة الحوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهوره وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وانفق خزائنه وحاصله في مهمات السولة وقات مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقاص ظل النعمة والزلف عن الخواص والحجبات والكتاب بتقاص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب

الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتتفق ابناء البطانة والحاشية
 ماتأثله آباؤه من الاموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير
 ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناجحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك
 الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجأهم فيصطلعها وينزعها منهم لنفسه
 شيئاً فشيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم ويعود وبال
 ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالها وأهل الثروة والنعمة من بطانها ويتقوض
 بذلك كثير من مباني المجد بعد ان يدعمه أهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك
 لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم
 ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي
 عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة
 الله التي قد خات في عباده

(فصل) وما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم
 ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخاص من رتبة السلطان بما حصل في أيديهم
 من مال الدولة الى قطر آخر ويرون أنه أهنا لهم وأسلم في انفاقه وحصول
 ثمرته وهو من الاغلاط المناجحة والاوهام المفسدة لحوالهم ودنياهم واعلم ان
 الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتع فان صاحب هذا الغرض اذا كان
 هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون
 له بل في ظهور ذلك منه هدم للملكه واتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لان
 رتبة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يمرض
 فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما اذا كان صاحب هذا الغرض
 من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته فقل أن يخلى بينه وبين ذلك
 أما أولاً فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم مطلعون
 على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضناً بأسرارهم واحوالهم

أن يطلع عاينها أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد كان بنو أمية بالاندلس
 يتمتعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني
 العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أبيع الحج لأهل الدول
 من الاندلس إلا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها الى الطوائف وأمانانيا فلأنهم
 وإن سمحوا بحل ربقته هو فلا يسهجون بالتجاني عن ذلك المال لما يرون أنه جزء
 من ملهم كما كان ربه جزءاً من دولتهم إذ لم يكتسب الألبها وفي ظل جاهها فتحوم
 نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم إذ
 توهمنا أنه خاص بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد اليه
 أعين الملوك بذلك القطر وينزعونه بالارهاب والتخويف تعريضاً وبالقهراً ظاهراً
 لما يرون أنه مال الجباية والدول وأنه مستحق الانفاق في المصالح وإذا كانت
 أعينهم تمتد الى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش فأحري بها أن
 تمتد الى أموال الجباية والدول التي تجرد السبيل اليه بالشرع والعادة ولقد حاول
 السلطان أبو يحيى زكريا بن احمد اللحياني تاسع او عاشر ملوك الحفصيين بافريقية
 الخروج عن عهدة الملك واللاحق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية
 لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة الى ثغر طرابلس يورى
 بتمهيدته وركب السفين من هالك وخاص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع
 ما وجدته بيت المال من الثمامت والذخيرة وباع كل ما كان بخزائهم من المتاع
 والعقور والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر
 محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزله ورفع مجلسه
 ولم يزل يستخاص بذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض الى أن حصل عاينها ولم يبق
 معاش ابن اللحياني الا في جرابته التي فرض له الى أن هلك سنة ثمان وعشرين
 حسماً نذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعترى أهل الدول
 لما يتوهمونه من ملوكهم من المعاطب وإنما يخاضون ان اتفق لهم الخلاص بانفسهم

وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة
الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجزايات السلطانية أو بالجاء في انتحال طرق
الكسب من التجارة والملاحة والدول أنساب لكن

النفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قابل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله اعلم

٤٣ * فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية ﴿

والسبب في ذلك ان الدولة والسلطان هي السوق الاعظم العالم ومنه مادة العمران
فاذا احتجج السلطان الاموال او الجبايات او فقدت فلم يصر فيها في مصارفها قل
حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم
وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهو معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن
سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل
الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعمار والمعاملات ونفاق
الاسواق وطاب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص
لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم
أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها
فأجدر بما بعدها من الاسواق أن ياحقها مثل ذلك وأشد منه وايضا قللنا انما
هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا خبسه السلطان عنده
فقدته الرعية سعة الله في عباده

٤٤ * فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران ﴿

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما
يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم في
اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء
وسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيرا

عاما في جميع أبواب المعاش كان القو عن الكسب كذلك لذهابه بالأمال جملة
 بدخوله من جميع أبوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب
 على نسبه والعمران ووفوره وفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعى الناس في
 المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم
 عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابدعت الناس في
 الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها تخف ساكن
 القطر وخت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسايطان لما
 أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي
 في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما
 عرض به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة
 بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم
 كلامها فقال له ان يوما ذكرنا يروم نكاح يوم اني وأنها شرطت عليه عشرين
 قرية من الحراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك أقطعتك
 ألف قرية وهذا سهل مرام فتنبه الملك من غفاته وخلا بالموبدان وسأله عن
 مراده فقال له أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالسريرة والقيام لله بطاعته
 والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال
 ولا قوام للرجال الا بالملك ولا سبيل الى انسال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا
 بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة بصفه الرب وجعل له قيا وهو الملك
 وأت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب
 الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال وأقطعتها احاشية والخدم وأهد البطالة
 فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصاح الضياع وسومحوا في الخراج لقرتهم
 من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا
 عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا الى ماتعذر من الضياع فسكنوها فقات العمارة

وخربت الضياع وقات الاموال وهالك الجنود والرعية وطمع في ملك فارس
 من جاورهم من الملوك اعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك الا بها
 فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة
 وردت على أربابها وحماوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى من
 ضعف منهم قعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند حياة الخراج
 وقويت الجمود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة
 أموره بنفسه فحسنت أيامه وانظم مملكه فنفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب
 لل عمران وان عاصمة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص ولا تنظر
 في ذلك الى أن الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع
 فيها خراب واعلم أن ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل
 المصر فلما كان المصر كبيرا وسمرانه كثيرا وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع
 النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا لان النقص انما يقع بالتدريج وداخلى بكثرة
 الاحوال واتساع الاعمال في المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تدهت ملك
 الدولة المعتدية من أسبابها قبل خراب المصر وتحي الدولة الاخرى فترقعته بجهدنها
 وتجزير المقص الذي كان خيرا فيه فلا يتركه يعمريه الا أن ذلك في الاقل المأدر
 والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع
 لا بد منه ما قدمنا ووبله عند على الدول والاحكام الظلم انما هو أخذ المال أو
 الملك من يد مالكه من غير عون ولا سبب كما هو المشهور من الظلم أعم من
 ذلك وكل من أخذ مال أحد أو غصبه في عمده أو طأبه بغير حق أو فرض
 عليه حفالم يفرسه السرع فقد طأبه حجة الاموال بغير حتمها طأبه والمعتدون
 عليها طأمة والمنتهون ها طأمة والمأمون لحقوق الناس طأمة وعباد الاملاك
 على العموم طأمة ووبال ذلك كله عند على الدولة بخراب العمران الذي هو
 مادتها لاذهابه الآمال من أهله واعلم ان هذه هي الحكمة النقصودة للشارع في

تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الخطر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وأدلته من القرآن والسنة كثير أكثر من أن يأخذها قانون الصبغ والحصر ولو كان كل واحد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة موضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقتنائها من الزنا والقتل والسكر الا أن الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة والسطان فيولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للتقدير عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقول ان العقوبة قد وضعت جزاء الخرابية في الشرع وهي من ظلم القادر لان المحارب زمن حرابته قادر فان في الجواب عن ذلك طريقين أحدهما أن تقول العقوبة على ما يترفعه من الجبايات في نفس أو مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه وانطالبة بحمايته وأمان نفسه الخرابية فهي خلوة من العقوبة * الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد الميسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فانما هي الحافة يجعها ذريعة لاخذ الامون وندافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء

﴿ فصل ﴾ ومن أشد اظلامات وأعظمها في فساد العمران تكاليف الاعمال وتسخير الرعايا غير حق وذلك أن الاعمال من قبيل التمولات كما سمين في باب الرزق لان الرزق والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران فاذا مساعهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فالرعية المعتمدين في العارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فاذا كانوا العمل في غير شأنهم

وآخذوا سحرىا في معاشهم يطل كسبهم واغتصوا قيمة عمالهم ذلك وهو متمولهم
 فدخل عايشهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة
 وان تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العماره وقعدوا عن السعى فيها جملة فأدى
 ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق
 (فصل) وأعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة والتساط على أموال
 الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرص البضائع عليهم بأرفع الأثمان
 على وجه الغصب والاكره في الشراء والبيع وربما تفرص عليهم تلك الأثمان
 على النواحي والتأجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما أخذتهم
 المطامع من جبر ذلك بحالة الاسواق في تلك البضائع التي فرصت عليهم بالغلاء
 الى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤس أموالهم وقد
 هم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر
 السوق وأهل الدكاكين في الماء والنفوس والاهل الصنائع فيما يتخذ من
 الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر اصناف الضمان وتتوالى على الساعات
 وتجنف برؤس الاموال ولا يجدون عنها وايجة الا القعود عن الاسواق لذهاب
 رؤس الاموال في جبرها بالارباح وينتقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع
 وبيعها من أجل ذلك فتكسد الاسواق ويطل معاش الرعايا لان عامته من البيع
 والشراء واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان
 أو تفسد لان معظمها من أوسط الدولة وما بعدها التي هو من المكوس على
 البيانات كما قدمنا ويؤثر ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق
 هذا الخلل على التدرج ولا يشعر به هنا ما كان تامثال هذه الذرائع والاسباب
 الى أخذ الاموال وما أخذها مجاهد والعدوان على الناس في أموالهم وحرمتهم
 ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنقض
 الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المنفضي الى الانتقاض ومن أجل هذه

المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع تنكيسه في البيع والشراء وحظراً كل أموال الناس بالباطل سد الابواب المفاسد المفضية الى انتقاص العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم ان الداعي لذلك كله انما هو حاجة لدولة والسايطان الى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يبي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون القابا ووجوها يوسعون بها الحباية ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد الى ان تمنحى دائرتها ويذهب رسمها وغايتها طالبيها والله اعلم

٤٥ ﴿ فصل في الحجج كيف يقع في الدول وانه يعظم عند الهرم ﴾

اعلم ان الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانه لا بد لها من العصية التي لها يتم أمرها ويحصل استقلالها والبدواة هي شعار العصية والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز الغيب فقط فالبدواة التي بها يحصل الغاب بعيدة ايضا عن منازع الملك ومنازعه فاذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبدواة والقرب من الناس وهوارة الاذن فاذا رسخ عتبه وصار الى الافراد بالجد والحجاج الى الاهراد تنسبه عن الناس لتحديث مع اوليائه في خواص شوقه لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطالب الافراد من العامة بالسطوع ويتخذ الاذن بابا على من لا يأمسه من اوليائه وأهل دوائه ويتخذ حاجباً له عن الناس يقام بيده لهدد المطيقة ثم اذا استجمل المالك وجاءت مناهسه ومنزعه استجحات خاق صاحب الدولة الى خاق الملك وهي خاق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملاتها بما يحب لها وربما جهل تلك الخاق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسيخطو دواروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب مع الخواص من اوليائهم وحببوا غير

أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على أنفسهم من مينة ما يسخطهم
وعنى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب
الأول يفضى إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة
والحجاب الثاني يفضى إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة
والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدثت لآيام معاوية وعبد
الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب
جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة
من الترف والعزما هو معروف وكمات خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك
إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار باب الخلاء دار ان للعباسية
دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب
ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن
أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد
عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابيه وخواص أوليائه
يوهمه أن في مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأرب ليقطع
بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم
الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في
الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة
ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لان القائمين بالدولة يحاولون
على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما
ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول
دواعيه ومبادئه

٤٦ * فصل في انقسام الدولة الواحدة بدواتين *

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عند

ما يستفحل ويباغ أحوال الترف والنعم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد
وينفرد به بأنف حينئذ عن المشاركة وبصير إلى قطع أسبابها ما استطاع باهلاك
من استراب به من ذوى قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في
ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار
والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد
ذلك المازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى
يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها
حريزاً مجتمعاً ونطاقها ممتداً في الاتساع وعصبية بنى عبد مناف واحدة غالبية
على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلف سائر أيامه إلا ما كان من بدعة
الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم
أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بنى أمية واستقل بنو
العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغاب والترف وآذنت
بالتقاص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام
فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وسير الدولة دولتين ثم نزع ادريس
إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البربرقة من أوربه ومغيلة
وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقاصاً فاضطرب الأغلبية
في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على
أفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الإدارسة وقسموا
الدولة دولتين آخرين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بنى العباس بمركز
العرب وأصاهم ومادتهم - الإسلام ودولة بنى أمية المجددين بالأندلس ملكهم
القديم وخلافتهم - بمشرق ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز
ولم تزل هذه الدولة إلى أن كان انقراضها منقارياً أو جميعاً وكذلك انقسمت
دولة بنى العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر

وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى اسقيلاء الديلم على العراقيين
وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء الساجوقية فلما كوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم
أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة
صنهاجة بالمغرب وأفريقية لما بلغت الى عايتها أيام باديس بن المنصور خرج
عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملاوية
واختط القلعة بجبل كتامة حيا للمسيبة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل
تيطرى واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس وتقى آل باديس بالقيروان وما
اليها ولم يزل ذلك الى أن انقرض أمرها جميعا وكذلك دولة الموحدين ما
تقلص ظلها نارا بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا مملكة لعاقبهم
بنوا حيا ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك المغربية من
أعقابهم الامير أبوزكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث
مملكة بجاية وقسطنطينية وما اليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى
على كرسى الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد
ينتهي الانقسام الى أكثر من دولتين وثلاثة وفي غير أعياص الملك من قومه كما
وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالشرق وفي ممالك صنهاجة بأفريقية
فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية نثار مستقل بأمره كما
تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره
وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة
وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجاء دولتها الامر ويتعدد
فيها الدولة والله وارث الارض ومن عايتها

٤٧ ﴿ فصل في أن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع ﴾

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبيننا أنها تحدث للدولة

بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل وقديسيه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى منازل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه يمكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفاتهم وليس كذلك فانها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانة له من تلافيا والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدرك مثلا أباه وأكبر أهل بيته يابسون الحرير والديماج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تدفعه وتصح عليه مرتكبه ولو فعليه لرمى بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته في ساطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا الأييد الالهى والنصر السماوى وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيات تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهاام الأبهة فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضى الامر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذنابها ايماضة الحمود كما يقع في الدمال المشتعل فانه عدم مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم أنها اشتعال وهى انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ ﴿فصل في كيفية طروق الحلال للدولة﴾

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالاول الشوكة والعصبية وهو المعبر

عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها في هدين الاسين فلند كرأولا طروق الخال في الشوكة والعصية ثم نرجع الى طروقه في المال والحباية واعلم أن تهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصية وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتمة لها وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوى قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سواهم ويأخذهم الترف أيضا أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والمزوالغاب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فيقلب غرته منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون وتفسد عصية صاحب الدولة منهم وهي العصية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتتحل عرته بها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطالة من موالى النعمة وصنائع الاحسان وتتخذ منهم عصية الا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية لمقدان الرحم والقراية منها وقد كما قدمنا أن شأن العصية وقوتها انما هي القراية والرحم لما جعل الله في ذلك فينمرد صاحب الدولة عن العشير والانصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبهمهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصية وينشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أوجر على الحماية ويقولون لذلك فتقل الحماية التي تنزل بالاطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الاطراف

ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون
حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية اليهم
ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضاق حتى تصير الخوارج في أقرب الاماكن
الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها في
الاصل كما قاتناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن اذعانا لأهل عصبيتها وانعابهم
المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت أولا الى الاندلس والهند والصين
وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب بعصية بني عبد مناف حتى لقد أمر
سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة
فقتل ولم يرد أمره ثم تلاشت عصية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا
وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشردوهم فانحلت
عصية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية
مثل بني الاغلب بافريقية وأهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج
بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم اذعانا للعصية التي لهم وأمننا أن تصاهم
مقاتلة أو حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرا فيتغابون على الاطراف والقاصية
وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة
تقاصا الى ان ينتهي الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف
فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال أمدها بعد ذلك
فتستغنى عن العصية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيالتها وهي صبغة
الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الاجيال مبدؤها
ولا أوليتها فلا يعقون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة
العصائب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تهديد أمرها الاجراء على الحامية
من جندي ومرزوق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا

يكاد احد أن يتصور عصيانا أو خروجا الا والجمهور منكرون عليه مخالفتون له فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يحتاج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتفاض الذي يحدث من العصاب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء الى أن تنتهي الى وقفها المقدور ولكل أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار * وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خالق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الاموال فتتجافى عن الامعان في الجباية والتعذلق والكيس في جمع الاموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف في النفقة فلا يحتاج الدولة الى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستعمل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات الساطن وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى أهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة في أعطيات الجنود وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية لان الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج الساطن الى ضرب المكوس على ثمان البياعات في الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقة سلطانه وأرزاق حنقه ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس وتكون الدولة قد استنفحت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد أيديهم الى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الاحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجمد في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصية فتتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجرد عن ذلك وليجة وتكون

حياة الاموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فيتوجه اليهم باحتجان الاموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعمهم المنكبات والمصادرات واحدا واحدا الى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم واذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم ادولة الى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقله غنائه فتعظم حاجته الى الاموال زيادة على الفققات وأرزاق الجند ولا يفتنى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل الدواحي والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه الى أن تفضى الى الهلاك وتتعرض من الاستيلاء الكلال فان قصدها طالب انزعها من أيدي القائمين بها والا بقيت وهي تتلاشى الى أن تضحل كالذباب في السراج اذا فنى زيتها وطفى والله مالك الامور ومدير الاكوان لا اله الا هو

٤٩ ﴿ فصل في حدود الدولة وتجديدها كيف يقع ﴾

اعلم ان نشأة الدول وبدايتها اذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين اما بأن يستبد ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية عند ما يتقاص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبناءه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ويتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولايتها في الاعمال وانقسمت دولها وملوكها

أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم وهذا النوع لا يكثر بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم ولا يطعمون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما لدولة أدركها الهرم وتقاص ظمها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج مما يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا اليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرا في قومه قد استفحل أمره فيسوء بهم الى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتمتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بنشاط الى أن يظفروا بها ويزنون (١) أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة

المستقرة بلنطاولة لا بللمساجزة ﴿

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقاص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم النوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون في اصحاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك ووافق به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجل تتكرر وتتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في العالب ظمرا للمساجزة والسبب في ذلك ان الظفر في الحروب انما يقع كما قدمناه بأمر نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال ككفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الحيداع من أنفع ما يستعمل في الحرب

(١) قوله ويزنون في نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء

وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قدسرت
العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك
العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وإن كان
الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته إلا أن الآخرين أكثر وقد
داخهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بمض الفتور
منهم ولا يكاد صاحب الدالة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع إلى
الصبر والمطاوله حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فتضمحل عقائد التسليم لها من
قومه وتامت منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا للدولة
المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع النعيم واللذات واختصوا
به دون غيرهم من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاساحة
وتعظم فيهم الأبهة للملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا
فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بعزل عن ذلك لما هم فيه
من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهاه الرعب بما
يبغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير
أمرهم إلى المطاوله حتى تخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الحلل
فيها في العصبية والجباية فيتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء
عليها بعد حين منذ المظالم سنة الله في عباده وأيضا فأهل الدولة المستجدة كلهم
مباينون للدولة المستقرة بتسليمهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون
لهم ومنابدون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن
النباعة بين أهل الدولتين سرا وجهرا ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة
خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة (١) باطنا وظاهرا لانقطاع
المداخلة بين الدولتين فينيمون على المطالبة وهم في احجام ويسكون عن

(١) قوله غرة بكسر العين أي غفلة اه

المناجزة حتى يأذن لله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في
 جميع جهاتها واتضح لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يخفى منهم من
 هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها
 فتنبعث همهم يدا واحدة للمناجزة وينهب ما كان بث في عزائمهم من التوهجات
 وتنتهي المطاولة الى حدها ويقع الاستيلاء آخرا بالمعالجة واعتبر ذلك في دولة
 بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم
 على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية
 وكذا العاوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاوتهم حتى
 استولوا على تلك الساحة ثم لما انقضى أمر العاوية وسما الديلم الى ملك فارس
 والعراقين فكثروا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصهبان ثم استولوا على
 الخليفة ببغداد وكذا العميدون أقام دعوتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بنى
 كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد تطاول بنى الاغاب بافريقية حتى ظفر
 بهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى ملك مصر فكثروا ثلاثين سنة أو
 نحوها في طابها بجهزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ومحي المدد
 لمدافعهم برا وبحرا من بغداد والشام ومالكوا الاسكندرية والقيوم والصعيد
 وتخطت دعوتهم من هالك الى الحجار وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر
 الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عاها واقطاع دولة بنى طنج من أسوها
 واحتض القاهرة شاء الخليفة بعد اعزاز الدين الله فنزلها لستين سنة أو نحوها ثم
 استيلاهم على الاسكندرية وكذا الساجوقية مانوك الترك لما استولوا على بنى
 سامان وأجازوا من وراء المهر فكثروا نحو من ثلاثين سنة يطاولون بنى سكتكين
 بخراسان حتى استولوا على دولته ثم رحلوا الى بغداد فاستولوا عاها وعلى الخليفة
 بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المنازة أعوام سبعة

عشر وستائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكهم من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحو من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش وكذا نومر من زناتة خرجوا على النوحدين فمكثوا يطاولونهم نحو من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاوله سنة الله في عباده ولن نجد لسنة الله تبديلا ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم ثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استمارة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالأيمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك حارقا للعادة المقررة في مطاوله الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك حارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية ولا يمتزج بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ ﴿ فعدل في وفور العمر - حر الدولة وما يقع فيها

من كثرة الموتى والمخاطات ﴾

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكاتها والاعتدال في آيالتها أما من الدين أن كانت الدعوة بنية أو من المنكرمة والمخاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول وإذا كانت المصلحة رقيقة محسنة انسطت آمل الرمايا وانشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدرج قائما يظهر أثره بعد جيلين أو جيلين في الأقل وفي انقضاء

الحياتين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولان انه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ماقلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقات الحيات فانما يظهر أثره في تناقض العمران بعد حين من أجل التدرج في الامور الطبيعية ثم ان المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فاقبض الناس أيديهم عن الفلاح في الاكثر بسبب مايقع في آخر الدولة من العدوان في الاموال والحيات أو القتل الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهزم الدولة فيقتل احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وتمرته بمسمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار وقاتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والرياح والثمار والضرع على نسبه الا أن الناس اثقون في أقواتهم بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أو اوار الحياصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فاما أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة القتل لاختملال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغاب فساد الهواء بكثرة العمران كثرة مايجالطه من العفن والرطوبة الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملايسه دائما فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتصاعف فتكثر الحيات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المعرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والتفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن

بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير كمصر بالشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

٥٢ ﴿ فصل في أن العمران اليسرى لا بد له من سياسته ينتظم بها أمره ﴾ اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به ملاغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل لهم نفعها في الدنيا والآخرة تعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكم رأسا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدية وايس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وانما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم ان السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين * أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح الساطان في استقامة مملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لان الاحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن يراعى فيها مصالحة الساطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعا وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع

التي لساير الملوك في العالم من مسلم وكافر الا ان ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذا محتمة من احكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والافتداء فيها بالسرع اولاً ثم الحكمة في آدابهم والملوك في سيرهم * ومن احسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما * فكتب اليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دوائه وسنطانه من الآداب الدينية والخاصة والسياسة الشرعية والمالوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (اسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومرايطة سخطه واحفظ رعيته في الليل والنهار والزم ما أبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل ويسجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والتب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبتهم والحقن لدمائهم والامن لسريرهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذتك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهت وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شغل وأنه رأس امرك وملاك شأنك وأول ما يوقفك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعلمك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من السنوات الحسن والجماعة عاينها بالناس فبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة من معك وتحت يدك واداب عليها فانها كما قال الله عز وجل

تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك
 امر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل
 في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتمام ما جاءت به الآيات عن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما
 أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحماته
 وكتاب الله عز وجل والعلماء به فان أفضل ما يميز به المرء الفقه في الدين والطاب
 له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير
 كله والقائد اليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ومع توفيق الله
 عز وجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودرجات العلى في المعاد مع ما في
 ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك
 وعليك بالاقتصاد في الامور كلها فليس نى أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع
 فضلا منه والقصد داعية الى الرشاد وارشاد دليل على التوفيق والتوفيق قائد
 الى السعادة وقوام الدين والسنة الهادية بالاقتصاد وكذا في دنياك كلها ولا تقصر
 في طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنة المعروفة ومعالم الرشاد
 والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطاب به وجه الله تعالى ومرضاه
 ومرافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز
 ويمحص من الذنوب وانك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصاح أمورك بأفضل
 منه نأته واهتد به تم أمورك وتزيد مقدرتك ويصاح علماتك وحاصتك وأحسن
 ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والخمس الوسيلة اليه في الامور كلها تستد
 به النعمة عليك ولا تهمن أحدا من الناس فيما توليه من عمالك قبل أن تكشف
 أمره فان إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم ثم فاجعل من شأنك حسن
 الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على

استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمدا فإنه انما
يكتفى بالقابل من وهناك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لئادة
عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من
أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة في الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن
بأصحابك واورافة برعيتك أن تستعمل المسئلة والمحت عن أمورك والمباشرة
لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما
سوى ذلك فإنه اقوم للدين وأحيا للسنة وأخاص ببيتك في جميع هذا وتفرد
بنقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤل عما صنع وجزى بما أحسن ومؤاخذ بما
أساء فإن الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه واسلك
بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب
الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر
عقوبة أهل العقوبة فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم
على أمرك في ذلك بالسنة المعروفة وجاب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتم
لك مروءتك واذا عاهدت عهدا فأوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقبل
الحسنة وادفع بها وأغضض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن
قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فإن أول فساد أمورك في عاجلها
وآجالها تقرب الكذب والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور
والنميمة حاتمها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له
أمر راجب أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل
الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار
الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك
من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالعرفة التي تنتهي بك
الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار واياك والخدمة

والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأى وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة الى أحد أسرع منه الى جهة النعمة من أصحاب الساطان والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ودفع عنك شره نفسك واتمكن ذخايرك وكنوزك التي تدخر وتكثير البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتمتع لامورهم والحفظ لدمائهم والاعانة لهم وفهم واعلم أن الاموال اذا اكتسبت وادخرت في الخزائن لا تنمو واذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم تمت وزكت وصلاحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائلك تقريق الاموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على اولياء أمير المؤمنين قلمك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبك المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيته وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أساس اطاعتك وط نفسا بكل ما أردت وأجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ولا يعظم حقاك فيه وانما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأنبهم عايه وإياك أن تنسبك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عايتك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث الموار وليكن عمالك لله عز وجل وفيه وارج التواضع فان الله سبحانه قد أسمع عايتك فضله واعتصم بالشكر وعايه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فان الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تدهنن عدوا ولا تصدقن تماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تمنعن غاويا

ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن اسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا
تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ولا تذهبن خرا ولا تظهرن غضبا ولا تبينن رجاء
ولا تمسبن مرحا ولا تزكبن سفيا ولا تفرطن في طاب الآخرة ولا ترفع للنام عيننا
ولا تعض عن ظالم رهبة منه أو محابة ولا تطاين نواب الآخرة في الدنيا واكثر
مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخد عن أهل التجارب وذوى العقل
والرأى والحكمة ولا تدخان في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم
قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم وليس شئ أسرع فسادا من الاستقبات فيه أمر
رعيته من الشح واعلم انك اذا كنت حريصا كمت كثير لاخذ قاييل العطيبة
واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فان رعيته انما تعتقد على محنتك
بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفالك من أولائك بالاتصال
اليهم وحسن العطيبة لهم واحتب الشح واعلم انه أول ما عصى به الانسان ربه
وان العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك
هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم في بيتك حظا
ونصيبا وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لتمسك خلقا وارض به عملا
ومذهبا وتفقد الجند في دواوينهم ومكانتهم وادبر عاهتهم أرزاقهم ووسع عاهتهم
في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فافتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم
في طاعتك وأمرك خلوفا واشراحا وحسب ذى السلطان من السعادة
أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته واصافه وعذيبته وشدة
وبره وتوسطه فذلك مكروه أحد البابين بالاشعار فضل الباب الآخر وروم
العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم ان القضاء من
الله تعالى بل كان الذى ليس له به شئ من الامور لانه ميزان الله الذى يعمل عايه
احوال الناس فى الارض وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصالح احوال الرعية
وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى

حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع
 في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود
 واقلل العجالة وابتعد عن الضجر والقلق واقمع بالقسم وانتفع بتجربتك وانبه
 في صحتك وسدد في منطقتك واصف الخضم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحججة
 ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وثبت وتأن
 وراقب وانظر وتذكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية
 وساط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل
 يمكن عظيم انتها كلها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية
 وجماله الله للاسلام عزا ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغیظا ولاهل
 الكفر من معاديههم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية
 والعموم ولا تدفع شيئا منه عن شريف لشرفه ولا عن غني لغناه ولا عن كاتب
 لك ولا لأحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا
 تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق فان ذلك أجمع لألفهم
 والرم ارضاء العامة واعلم انك جمعت بولايتك خزنا وحافظا وراعيا وانما سمى
 أهل عمالك رعيته لانك راعيتهم وقيمهم نخدت منهم ما أعطوك من عدوهم ونفذه
 في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير
 والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان
 ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسد اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا
 يدرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقت فيه باو اجب استدعيت به زيادة النعمة
 من ربك وحسن الاحدوث في عمالك واستجرت به المحبة من رعيته وأعنت على
 الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك
 وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جنودك وارضاء
 العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل في

ذلك عند عدوك وكننت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتدافس فيها
 ولا تقدم عليها شياً نحمد عافية أمرك ان شاء الله تعالى واجعل في كل كورة من
 عمالك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل
 عامل في عمله معاً لا لموره كلها واذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب
 ما أردت من لك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع
 والصنع فأمضه والا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته
 فانه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم
 ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره
 مدعون الله عروجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك واقرب
 من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرة بنعمك فان لغد أموراً وحوادث
 تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا
 أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا مضيت
 لكل يوم عماله أرحت بدك ونفسك وجمعت أمر ساطك وانظر أحرار الناس
 ذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طوبيتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم
 بالصبح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات
 ممن قد خات عابهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصالح حالهم حتى لا يجردوا خلتهم
 منافراً وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع
 مظالمته اليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسألة وكل
 بأمثاله أهل الصلاح في رعيته ومرهم برفع حوائجهم وخالاهم لتنظر فيما يصلح
 الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتأمامهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقاً من
 بيت المال اقتداء بأمر المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم
 ليصالح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر الامراء من بيت المال
 وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى

المسلمين دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم
 بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال واعلم أن الناس اذا أعطوا حقوقهم
 وفضل أمانتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل
 ذكره وفكره منها ما ينال به مؤنة ومشقة وائس من يرغب في العدل ويعرف
 محاسن أموره في العاجل وفصل ثواب الآجل كالذي يستقرى ما يقربه الى الله
 تعالى ويلتمس رحمته وأكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك
 واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك وان لهم في المسألة والبطق واعطف
 عليهم بجودك وفضلك واذا أعطيت فاعط بساحة وطيب نفس والتماس للصنعة
 والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء
 الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل الساطن
 والرياسة في القرون الخالية والامم الماضية ثم اعتصم في أحوالك بكلها بالله سبحانه
 وتعالى والتوقف عند محنته والعمل بسريعته وسنته وبقامة دينه وكتابه واجتنب
 ما فارق ذلك وخانه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من
 الاموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء
 ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هوذا اتساع السنن واقامتها وايشار مكارم الاخلاق
 ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيبا لم تسمع هيبتك
 من انهاء ذلك اليك في ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أصدق أوليائك
 ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين يحضرنك وكتائبك فوقك لكل رجل منهم
 في كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور
 الدولة ورعيته ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعتك وبصرك وفهمك وعتلك
 وكرر النظر فيه والتسبر له فما كان موافقا للحق والحزم فأمضه واستخر الله
 عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسألة عنه وانتبه ولا تنس على
 رعيته ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة

والعون في أمور المسلمين ولا تضعن المعروف الاعلى ذلك وتفهم كتابي اليك
وأمن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمهرك واستخره فان الله
عز وجل مع الصالح واهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله
عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزا وتمكيننا وللملة والذمة عدلا وصالحا
وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك وارشدك وكلاءتك والسلام *
وحدث الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل
بالمأمون فلما قرئ عليه قال ما بقي أبو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمور الدنيا
والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ الساطن
وطاعة الخناء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب
به الى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقت
عليه في هذه السياسة والله أعلم

٥٣ فصل في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه

وكشف الغطاء عن ذلك *

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على مر الاعصار انه لا بد في
آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت تؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه
المسلمون ويستولى على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال
وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أنه وان عيسى ينزل من
بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأنم بالمهدي في صلواته ويحتجون
في الباب بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها
ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة اخرى ونوع
من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم *
ومن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمتكبرين فيها من
المطاعن وما لهم في انكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم

ليتمين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الائمة
 خرجوا احاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم
 والطبراني وابويعمري الموصلي واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن
 عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وابي هريرة وأنس وابي سعيد الخدري
 وام حبيبة وام سلمة وثوبان وقرّة بن اياس وعلى الهلالي وعبد الله بن الحرث
 ابن جزء باسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما تذكره الا ان المعروف عند اهل
 الحديث ان الجرح مقدم على التمديل فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسانيد
 بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأى تطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن
 منها ولا نقولن مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال الصحيحين فان الاجماع قد اتصل
 في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الاجماع أعظم حماية واحسن
 دفع وليس غير الصحيحين بمثابةما في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في اسانيدها
 يانقل عن أئمة الحديث في ذلك * ولقد توغل ابوبكر بن ابي خيثمة على ما نقل
 السهيلي عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن اغربها اسنادا ما ذكره
 ابو بكر الاسكاف في فوائد الاخياز مستندا الى مالك بن انس عن محمد بن
 المنكدر عن حابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد
 كفر ومن كذب بالدجال فقد كفر وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل
 ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله اعلم بصحة طريقه الى مالك بن انس
 على ان ابانكر الاسكاف عندهم متهم وضاع * واما الترمذي فخرج هو وابو داود
 بسنديهما الى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود احد القراء السبعة الى
 زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق
 من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من
 اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم ابيه اسم أبي هذا لفظ ابي داود وسكت
 عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي

لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وفي
لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه
أيضا من طريق موقوفا على أبي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة
وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها
صحیحة على ما أصابته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من أئمة المسلمين
انتهى الا ان عاصما قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئنا للقرآن خيرا
ثقة والاعمش أحفظ منه وكان شعبة يخنار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال
العجلي كان يختلف عليه في زر واني وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما
وقال محمد بن سعد كان ثقة الا انه كثير الخطأ في حديثه وقال يعقوب بن سفيان
في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم قات لابي إن ابزرعة يقول
عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن عاية فقال كل من اسمه عاصم
سبي الحفظ وقال أبو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم يكن بذلك
الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال
ابوجعفر العجلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شيء وقال
يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته رديء الحفظ وقال أيضا
سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أنى النجود وفي الناس ما فيها وقال الذهبي
ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث
وان احتج أحد بن الشيخين اخرجاه مقرونا بغيره لا اصلا والله أعلم * وخرج
أبوداود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم
ابن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق
من الدهر الا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يماؤها عدلا كما ملئت جورا
وقطن بن خليفة وان وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم
الا ان العجلي قال حسن الحديث وفيه تشيع قابل وقال ابن معين مرة ثقة

شيبي وقال احمد بن عبد الله بن يونس كما نمر على قطن وهو مطروح لا يكتب
 عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال
 أبو بكر بن عياش ماتركت الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائغ غير
 ثقة انتهى وخرج ابو داود أيضا بسنده الى علي رضي الله عنه عن مروان بن
 المغيرة عن عمر بن ابي قيس عن شعيب بن ابي خالد عن ابي اسحق النسفي قال قال
 علي ونظر الى ابنه الحسن ارا بني هدا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم
 سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يلا
 الارض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن ابي قيس عن مطرف بن طريف عن
 ابي الحسن عن هلال بن عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج
 رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطى
 أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على
 كل مؤمن نصره أو قال احابته سكت ابو داود عليه وقال في موضع آخر في
 هرون هو من ولد الشيعة وقال السلمي فيه نظر وقال ابو داود في عمر بن
 ابي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الذهبي صدوق له أوهام وأما ابو اسحق
 الشيبعي وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت انه اختلط آخر عمره وروايته
 عن علي منقطعة وكذلك رواية ابي داود عن هرون بن المغيرة * وأما السند الثاني
 فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن الا من رواية
 مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج ابو داود ايضا عن أم سامة وكذا ابن
 ماجه والحاكم في المستدرک من طريق علي بن نفييل عن سعيد بن المسيب عن
 أم سامة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة
 وانفط الحام سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق
 وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر
 العقيلي وقال لا يتابع علي بن نفييل عليه ولا يعرف الا به وخرج ابو داود أيضا

عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون
 اختلاف عند موت خايفة فيخرج رحل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه
 ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه
 بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه
 أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش
 أخواله كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخبيبة لمن لم
 يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم
 ويبقى الإسلام بجرانه على الأرض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين
 ثم روى أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أسامة فتبين
 بذلك المبهم في الأسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لامطعن فيهم ولا معزز وقد
 يقال أنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وفتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس
 لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسمع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر
 المهدي نعم ذكره أبو داود في أبوابه وخرج أبو داود أيضا وتارة الحاكم عن أبي
 سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد
 الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني اجنبي الجبهة اقني
 الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا يملك سبع سنين هذا
 لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدي مننا أهل البيت أشم الأنف اقني
 أجلي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره
 وأصبعين من يمينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح
 على شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان محتلف في الاحتجاج به انما
 أخرج له البخاري استشهادا لأصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى
 ابن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال أحمد بن حنبل أرجو أن
 يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يرى السيف على

أهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا داود عنه فقال
 من أصحاب الحسن وما سمعت الا خيرا وسمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف
 أفتى في أيام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج
 الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمى عن
 أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال خشينا ان يكون بهض شيء
 حدث فسألنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في أمي المهدي يخرج بعيش
 خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاذلي قال قاتنا وماذا قال قال ستمين قال فيجزي اليه
 الرجل فيقول يا مهدي أعطني قال فيحتمى له في ثوبه ما استطاع ان يحمله هذا لفظ
 الترمذي ومال حديث حسن وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي
 صلى الله عليه وسلم وانظر ابن ماجه والحاكم يكون في أمي المهدي ان قصر
 فسبع والا فتسع فتتم أمي فيه بعمه لم ينعموا بمثلها قط تؤتى الأرض أكلها
 ولا يدخر منه شيء والمسال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي
 أعطني فيقول خذ اتبني وزيد العمى وان قال فيه الدار قطبي وأحمد بن حنبل
 ويحيى بن معين انه صالح وزاد أحمد انه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى الا
 انه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في
 رواية أخرى لاشيء وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجاني
 متمسك وقال أبو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيف وقال أبو حاتم ليس
 بذلك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه
 ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن
 أضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في صحيحه
 من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمي
 خليفة يحني المال حثيا لا يمهده عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفاءكم
 خليفة يحني المال حثيا ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة

تقسم المال ولا بعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا نبي
 قوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الاعرابي عن أبي
 صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي
 رجل يماؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا صحيح
 على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق سليمان بن عبيد
 عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها
 ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا
 وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له
 أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم
 رواد الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق
 وأبي هرون العبدى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك
 سبعا أو تسعا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم
 فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج
 عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هرون
 العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال
 الأئمة في تضعيفه * وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى
 ويلقب أسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه
 واحتج به أبو داود والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا
 له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الاوسط من
 رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن

ابن يزيد السعدي احد بني بهدلة عن ابي سعيد الجدي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من امتي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الارض بركتها وتملا الارض منه قسطا وعدلا كما مئت جورا وظلما يعمل على هذه الامة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال الطبراني فيه رواه جماعة عن ابي الصديق ولم يدخل احد منهم بينه وبين ابي سعيد احدا الا ابا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن ابي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن ابي سعيد ورواية ابي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات واما ابو الواصل الذي رواه عن ابي الصديق فلم يخرج له احد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن اس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخبرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من ط بق يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قبل فتية من بني هاشم فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقامت منازل ترى في وجهك شيئا نكرهه فقال انا اهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتي سيقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخمر فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ماسألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها الى رجل من اهل بيتي فيمأؤها قسطا كما مأؤها جورا فمن أدرك ذلك منكم فإياهم ولو حبوا على التاج انتهى * وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات وي زيد بن أبي زياد رآه قال فيه شعبة كان رفعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضيل كان من كبار أئمة الشيعة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال

المعجلى جائز الحديث وكان بأخرة ياقن وقال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا
 يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوى وقال الجرجاني سمعهم يضعون حديثه وقال
 أبو داود لأعلم أحدا ترك حديثه وغيره أحب الى منه وقال ابن عدى هو من
 شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره
 وبالجملة فالأكثر على ضعفه وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي
 رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن
 الجراح فيه ليس بشئ وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا
 أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات لو حلف عندى حسين يمينا
 قسامة ما صدقته أهنا مذهب إبراهيم أهنا مذهب علقمة أهنا مذهب عبد الله
 وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن
 ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين المعجلى عن إبراهيم بن محمد بن
 الحنفية عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا
 أهل البيت يصاح الله به في ليلة ويأسين المعجلى وان قال فيه ابن معين ليس به
 بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف
 جدا وأورد له ابن عدى في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه
 الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن علي
 رضي الله عنه أنه قال لابي صلى الله عليه وسلم أم المهدي أم من غيرنا يا رسول
 الله فقال بل منا بنا يحتم الله كما بنا فتح ونا يستقدون من الشرك ونا يؤلف
 الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما لنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال
 علي المؤمنون أم كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه عند الله بن طيبة وهو
 ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد
 ابن حنبل روى عن جابر منا كبر وبلغنى أنه كان يكذب وقال النسائي ليس
 بثقة وقال كان ابن طيبة شيخا أحق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب

وكان يجاس معنا فيبصر - سحابة فيقول هذا على قدم مر في السحاب وخرج
 الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون
 في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل
 الشام ولكن سوا أشراهم فان فيهم الابدال بوشك أن يرسل على أهل الشام
 صيد من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج
 خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول هم خمسة عشر ألفا والمقل يقول
 هم اثنا عشر ألفا واما رتاهم امت تمت بالقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل
 يطالب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله الى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم
 ودانيتهم اه وفيه عبد الله بن طيبة وهو ضعيف معروف الحل ورواه الحاكم
 في المستدرک وقال صحيح الاسناد ولم يخرج في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله
 الناس الى الفتن الح وليس في طريقه ابن طيبة وهو اسناد صحيح كما ذكره وخرج
 الحاكم في المستدرک عن علي رضي الله عنه من رواية ابي الطفيل عن محمد بن
 الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي
 هيات ثم تقدم بيده سمعا فقال ذلك يخرج في آخر الزمان اذا قال الرجل الله
 الله قتل ويجمع الله له قوما قزعا كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا
 يستوحشون الى أحد ولا يفترحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر
 لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا
 معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أنريده قلت نعم قال فانه يخرج من بين
 هذين الاخشبين قات لاجرم والله ولا أدعها حتى أموت ومات بها يعني مكة
 قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما هو على شرط
 مسلم فقط فان فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق ولم يخرج لها البخاري
 وفيه عمرو بن محمد العبقرى ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهدا مع
 ما ينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه أحمد وابن معين وأبو

حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سيفيان ان بشر بن مروان قطع عرقويه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد الجامي عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وان أخرج له مسلم فانما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل الا أن يصرح بالسمع وعلي بن زياد قال تذهبي في الميزان لاندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه النوري قالوا لانه رآه يفتي في مسائل ويخطب فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به وقال أحمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعى أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عايد ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدر فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك من أهل البيت ما حدثت بك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وغنا عن عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاطم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي فانه الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمين البهائم

السباع وتلقى الارض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الاسطواناته
من الذهب والفضة اه وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه
وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن أبيه واسمعيل ضعيف وابراهيم
أبوه وان خرج له مسلم قالوا كثرون على تضعيفه اه وخرج ابن ماجه عن
ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن
خليفة ثم لا يصير الى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلوهم
قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال فاذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على
النخج فانه خليفة الله المهدي اه ورجاله رجال الصالحين الا أن فيه أبا قلابه
الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور
بالتدليس وكذا واحد منهما عن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق
ابن همام وكان مشهوراً بالشييع وعفي في آخر وقته نفاط قال ابن عدي حدث
بأحاديث في الفصائل لم يوافقها أحد ونسبوه الى التشيع انتهى * وخرج
ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جبرء الزبيدي من طريق ابن هبيعة عن أبي
زرعة عن عمر بن جابر الحصري عن عبد الله بن الحرث جزء قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيه طؤون للمهدي يعني ساطنانه قال
الطبراني تفرد به ابن هبيعة وقد تقدم لما في حديث علي الذي خرج الطبراني
في معجمه الاوسط أن ابن هبيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه
* وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع
والافمان والافتسح تنعم فيها أمتي نعمت لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا
ولا تدخر الارض شيئاً من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يامهدي
أعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد
البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو داود وابن حبان أيضا بما

ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد
 اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل
 رأيت محمد بن مروان العجلي حدث باحاديث وأنا شاهد لم أكتبها تركتها على
 عهد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن
 أبي هريرة وقال حدثني خابلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة
 حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيصربهم حتى يرجعوا إلى الحق قال قلت
 وكم يملك قال خمسا واثنين قال قلت وما خمسا واثنين قال لأدرى أه وهذا
 السند وإن كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به
 الشيخان ووثقه الناس ولم ياتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به إلا أن فيه رجاء
 ابن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين
 ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له الديحاري في صحيحه
 حديثا واحدا * وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير
 والوسط عن قررة بن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الأرض
 جورا وظلما فإذا مائت جورا وظلما بعث الله رجلا من أممي اسمه اسمي واسم
 أبيه اسم أبي يماؤها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمتع السماء من قطرها
 شيئا ولا الأرض شيئا من نباتها يات قبكم سبعا أو ثمانيا أو تسعا يعني سنين أه
 وفيه داود بن الحبر بن قحزم عن أبيه وهما ضعيفان جدا * وخرج الطبراني
 في معجمه الاوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر
 من المهاجرين والانصار وعلى بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه إذ
 تلاحي العباس ورجل من الانصار فأغاظ الانصاري للعباس فأخذ النبي صلى
 الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي وقال سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض
 جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطا وعدلا فإذا رأيت
 ذلك فعليكم بالتميمي فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي

انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمى وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اه * وخرج
الطبراني في معجمه الاوسط عن طاحنة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ستكون فتنة لا يسكن منها جانب الا تشاجر جانب حتى ينادى مناد من
السماء ان اميركم فلان اه وفيه المثني بن الصباح وهو ضعيف جدا وليس في
الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكروه في ابوابه وترجمته استثناسا (فهذه)
جملة الاحاديث التي خرجها الائمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما
رأيت لم يخلص منها من النقد الا القليل أو الاقل منه وربما تمسك المنكرون
لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندی عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن
المصري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لامهدي الا
عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندی انه ثقة وقل البيهقي
تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه في اسناده
فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن ادريس الشافعي ومرة يروى عن
محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا قال البيهقي
فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك
عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف
مضطرب وقد قيل في أن لامهدي الا عيسى أي لا ينكلم في المهدي الا عيسى يحاولون
بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع
بحديث جريح ومثله من الخوارق * وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون
في شيء من هذا وانما كان كلامهم في المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج
المواجبة والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي
الله تعالى عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه
وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهيمهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول
بالامام المعصوم وكثرت التأليف في مذاهيمهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون الوهية

الامام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجمة من مات من الأئمة بفوق
التناسخ وآخرون ينتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود
الامر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الاحاديث في المهدي وغيرها
ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيها وراء الحس
وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فثاروا فيها الامامية
والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الاله فيهم وظهر منهم أيضا القول بالقطب
والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الامام والنقباء واشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا
في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقه أن عليا رضى الله عنه
ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجديد
من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى
كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلى
دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع
وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب وامتلات كتب الاسماعيلية
من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة يمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان
بعضهم يعليه على بعض ويتاقتنه بعضهم عن بعض وكانه مبني على أصول واهية من
الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المجمعين في القرانات وهو من نوع الكلام
في الملاحم ويأتى الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء
المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب
وابن قسي في كتاب خلع النملين وعبد الحق بن سبعين وابن ابى واطيل تلميذه
في شرحه لكتاب خلع النملين وأكثر كلماتهم في شأنه الغازو أمثال وربما يصرحون في
الاقبل أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن ابى واطيل
ان النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم
يعقب الخلافة الملك ثم يعود نجبرا وتكبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من

سنة الله رجوع الأمور الى ما كانت وجب أن يحى امر النبوة والحق بالولاية سم
 بخلاقتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون
 بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث
 مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج
 الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب
 الاولى قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذي لا يوهنه
 انكار من لم يزاول علمه وجب ان تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش
 بالنبي صلى الله عليه وسلم اما ظاهرا كبنى عبدالمطلب واما باطنا ممن كان من حقيقة
 الآل والآل من اذا حضر لم يغيب من هو آله وابن العربي الخاتمي سماه في كتابه
 عنقاء مغرب من تاليفه خاتم الاولياء وكنى عنه بابنة الفضة اشارة الى حديث
 البخارى فى باب خاتم البين قال صلى الله عليه وسلم مثلى فيمن قبلى من الانبياء
 كمثل رجل ابني بيتا وأكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة فأتانا تلك اللبنة
 فيفسرون خاتم البين باللبنة حتى أكمات البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له
 النبوة الكاملة ويمثلون الولاية فى تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال
 فيها خاتم الاولياء اى حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء
 حائزا للمرتبة التي هي خاتمة النبوة فكفى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة
 البيت فى الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة فى التمثيل
 فى النبوة لبنة ذهب وفى الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب
 والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة
 كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء
 وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبى واظيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل
 البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضى خ ف ج من الهجرة ورسم
 حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق

ستمائة والفاء أخت القاف ثمانين والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك
ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم
يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على ان المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره
عن مولده وان خروجه يكون بعد العسر والسبعائة فانه الامام الناجم من ناحية
المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة
فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا ان خروج الدجال
يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي
عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام الف سنة قال ابن ابي واطيل
في شرحه كتاب خلع النعلين الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار اليه بمحمد
المهدي وخاتم الاولياء وليس هو بنى وانما هو ولي ابنته روحه وحببيه قال
صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي في أمته وقال علماء أمي كانباء نبي اسرائيل
ولم تزل البشرية تسابع به من أول اليوم المحمدي الى قبيل الخمسمائة نصف اليوم
وتأكدت واضاعت بتباشير المشايخ بتفريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت
الى هام جرا قال وذكر الكندي ان هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر
ويجهد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الاندلس ويصل الى رومية فيفتحها
ويسير الى المشرق فيفتح القسطنطينية ويصير له ملك الارض فيتقوى
المسلمون ويعلموا الاسلام ويظهر دين الحنيفية فان من صلاة الظهر الى صلاة العصر
وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندي أيضا
الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة عددها سبعائة
وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر فيصلح
الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة
وستين عاما عدد حروف المعجم وهي ق ي ن دولة العدل منها اربعون عاما
قال ابن ابي واطيل وماورد من قوله لامهدي الاعيسى فعناه لامهدي تساوي

هدايته ولايته وقيل لا يتكلم في المهدي الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء في الصحيح انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قرشيا وقد اعطى الوجود ان منهم من كان في اول الاسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدى ثلاثون او احدى وثلاثون او ستة وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أمر معاوية خلافة أخذنا بأوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمرو بن عبدالعزيز والباقون خمسة من اهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لنذوق رنيها يريد الامة أي انك خليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بارجعة فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزها في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزها في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الامير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الاربعون فانها مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات ان مدة بقاء أمره واهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جاريا على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكا انتهى كلام ابن أبي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم الحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب ابن اسحق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات انه اذا وصل القران الى

الثور على رأس حوضج بحرفين (١) الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستائه من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الارض ماشاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين محصرتين واضعا كفيه على أجنحة الملائكين له لمة كأنما خرج من ديماس اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحسر منه جمان كالؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربع الخلق والى البياض والحمره وفي آخر انه يتزوج في القرب والغرب دلوا البادية يريد انه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء ان أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبي واظيل والشيعه تقول انه هو المسيح مسيح المساجح من آل محمد قات وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لامهدى الا عيسى اى لا يكون مهدي الا المهدي الذي نسبته الى الشريعة المحمدية سببه عيسى الى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ الى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بادلة واهية وتحكمات محتانة فينقصى الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون الى تجديد رأى آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الاول منهم والآخر وأما المتصوفة الذين عاصروناهم فأكثرهم يشيرون الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتعجبون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد قاضية وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الاولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أني محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه او بلغنا

من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قداستوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لآتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبة الماطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أم آخرون قداستعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا ما بقى بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبين من بنى الحسن وبنى حسين وبنى جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عايتها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وآرائهم وبياغون آفاق من الكثرة فان صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بأن يكون معهم وبؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها واما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم الى مثل هذا الامر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة الا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة وأمامادعيه العامة والاعمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل يهديه ولا علم يفيد فيجيئون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقايدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما بيناه وأكثرا ما يجيئون في ذاك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون وباطنا غماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملتصين من كدالة واعتقادهم انه منهم أو قائمون بدعوته زعما لا مستند لهم الا غرابة تلك الامم وعدمهم على يقين المعرفة باحوالها من كثرة او قلة او ضعف او قوة وابعاد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربة الدولة ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هنا وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة يمي

تمامها وسواسا وحمقا وقتل كثير منهم أخيرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري سبة الى توزر مصغرا وادعى انه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فدمس عليه السكسوي من قتله بيانا وانحل أمره وكذلك ظهر في عمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي واتبعه الدهماء من عمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو انه سحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثيرا التاميد والخدام قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالهفقات في أكثر البلدان قال وتأت كدت الصحبة بينما في ذلك الطريق فأنكشفت لي أمرهم وانهم انما جاؤا من موطنهم بكر بلاء لطاب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد أزرى بنا الغاص وليس هذا الوقت وقتنا ويدل هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصية المكافئة لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولاشوقته له وأن عصية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع الى الحق وأقصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن ان عصية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيا في المغرب الا ان المتعصب لشأنه لم يترك هذا القول والله يعلم وأنتم لاتعاملون وقد كانت بالمغرب هذه العصور القريية نزع من الدماء الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد

قالوا احد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون
 باصلاح السابلة لما ان أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم
 فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم لم تستحکم
 لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة
 والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم الى مناحي الديانة غير ذلك لانها المصيبة
 التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه
 بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب
 والبغى وافساد السابلة ثم الاقبال على طاب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان
 بين هذا الآخذ في اصلاح الخلق ومن طاب الدنيا فاتفقهما تمتنع لاستحکم
 له صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر ونختلف
 حال صاحب الدعوة معهم في استحکام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا
 هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بأفريقية لرجل من كعب
 من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم بعده لرجل آخر
 من بادية رباح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً
 من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه
 حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورباح وبعد ذلك ظهر
 ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها ويتحاون اسم السنة وليسوا
 عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ * فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم

والكشف عن مسمى الجفر *

اعلم ان من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب أمورهم وعاد ما يحدث
 لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كعرفة ما بقى من الدنيا
 ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع الى هذا طبيعة البشر محبوبون عليها

ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوقون الى الوقوف على ذلك في المنام والاختبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة واقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعايشة والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المنديل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر محجوبون عن الغيب الا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية وأكثر ما يعتنى بذلك ويتطلع اليه الامراء والملوك في آمام دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدنان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد اخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبدان حين بعث اليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في حيل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بني يفرن ويقال من عمرة وله كتابات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدنان كثير ومعظمه فيما يكون لزناة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة انه كاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا لان تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله

أعلم وقد يستند الجليل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عند ما يعنونهم في السؤال عنه وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدولة وأعمالها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام أثرا منقولة عن الصحابة وخصوصا مسالمة بنى اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتمة ووقع جعفر وأمثاله من اهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله أعلم بالكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذويهم وأعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة وأما بعد صدر المئة وحين عاق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصة من الطوابع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها فاندكر الآن ما وقع لاهل الاثر في ذلك ثم ترجع لكلام المنجمين * أما اهل الاثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبري ما يقتضى ان مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك انه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خالق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شئ مثليه

يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه
المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم
ان يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا
قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن ميثم أنها خمسة آلاف وستمائة
سنة أعنى الماضى وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي
وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله
ان يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضى نفي الزيادة على النصف
وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فانما فيه الاشارة الى القرب وأنه ليس بينه
وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين أمد
الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل
السور بعد حذف المكرر قال واى أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم يسطع
أص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه
الى المنقضى من الالف الآخرة قبل بعثته فهى مدة الملة قال ولا يبعد
ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يبعد
لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك انما هو ما وقع
في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابى أخطب من أحبار اليهود وهما أبو
ياسر وأخوه حبي حين سمعا من الأحرف المقطعة ألم وتأولاها على بيان المسدة
بهذا الحساب فباغت احدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حبي الى النبي صلى الله
عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد الرثم استزاد المر
فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد لبس علينا أمرك يا محمد
(١) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما
المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سجد كره عن يعقوب الكندي
قاله نصر اه

حتى لا ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدريكم
 لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن اسحق فنزل قوله تعالى
 منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات اه ولا يقوم من القصة دليل
 على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست
 طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم
 انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حي
 ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً
 عن الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وانما يتلقفون
 مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلى دليل على ما ادعاه
 من ذلك ووقع في الملة في حدثنان دولتها على الخصوص مسند من الاثر اجمالى
 في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه تميم بن يحيى
 الذهبي عن سعيد بن أبي مرثد عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد اللبثي
 عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما أدري أنسى
 أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة الى أن
 تنقضى الدنيا يباغ من معه ثلاثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه
 وقيباته وسكت عليه أبو داود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في
 كتابه فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحاً فهو مجمل ويفتقر في بيان اجماله
 وتعيين مهماته الى آثار أخرى تجرد أسانيدها وقد وقع اسناد هذا الحديث في
 غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة
 أيضاً قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً فسا ترك شيئاً يكون في
 مقامه ذاك الى قيام الساعة الا حدثت عنه حفظه من حفظه ونسبه من نسبه
 قد علمه أصحابه هؤلاء اه ولفظ البخاري ما ترك شيئاً الى قيام الساعة الا ذكره
 وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى

الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون الى قيام الساعة الا اخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه اه وهذه الاحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من احاديث العتن والاشراط لا غير لانه المعروف من الشارح صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكورة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مرزوق في ابن فروخ أحاديثه منا كبر وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فأنما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى ابن سعيد واحمد بن حنبل وقال ابو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة ابن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابن داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر وقد يستندون في حدثنان الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ماسيق لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر وبظايره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لان الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وانما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته

بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه نخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت الكرامة تقع لغبرهم فما ضحك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالاصل الكريم تشهد افروعه الطيبة وقد ينقل بين اهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى احد وفي اخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثناه به وكيف بعثاه الى بن حوشب داعيتهم - باليمن فأمره بالخروج الى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لفته أن دعوته تم هناك وان عبيد الله لما بنى المهديّة بعد استفحال دولتهم بافريقية قال بينها ليعتصم بها القواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الحمار أبي يزيد بالمهديّة وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاء الخبر ببلوغه الى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عندهم كثيرة * وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول الى الاحكام النجومية اما في الامور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر في تلك المائة من الثلاث الايمن ثم بعده الى آخر كذلك الى أن يتكرر في المائة الواحدة ثلثي عشرة مرة تسوي بوجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثلثة ثم رابعة فيستوي في المائة بثلثي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون في انتقاله في كل برج على الثلاث الايمن وينتقل من المئثة الى المئثة التي تليها أعنى البرج الذي يلي البرج الاخير من القران الذي قبله من المئثة وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الملك الى أن يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران

العلويين في كل مئثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل الى
 مئثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة
 يقترنان في برج آخر على تاليته الايمن في مثل درجه أو دقيقتيه مثال ذلك وقع
 القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس
 وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الاسد وهذه كلها نايه وهذا كله قران
 صغير ثم يعود الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران
 وبعد مائتين وأربعين ينتقل من البارية الى الزاوية لانها بعدها وهذا قران وسط
 ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو
 الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدولة و انتقال الملك
 من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغابين والظالمين للملك والصغير على
 ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القرائن قران
 التحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان
 هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريح فتعظم دلالة هذا القران في الفتن
 والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجنود والوباء
 والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على
 قدر تيسير الدليل فيه قال ابن جراس أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألغى لنظام
 الملك ورجوع المريح الى المقرب له أثر عظيم في الملة الاسلامية لانه كان دليها
 فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج المقرب فلما رجع هنالك حدث
 التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما
 انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال أنه كان عند قتل على رضى الله عنه ومروان
 من بنى أمية وانتوكل من بنى العباس فاداروعيت هذه الاحكام مع أحكام
 القرائن كانت في غاية الاحكام * وذكر شادان البلخي أن الملة تنتهي الى ثمانمائة
 وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين

منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور الببوة فيهم وان دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرات انقسمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقى من درجات شرف الزهرة وهي احدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الجدى المشتري وقال يعقوب بن اسحاق الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قل لان الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فلباقى احدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال هذه مدة الملة بانفق الحكماء وبعضهم الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سألت هرمز افريد الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها أربعائة وسبعاً وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيماكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس الى العرب فاخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ويمتلك المشرق والمغرب والمشتري يغوص الى الزهرة وينقل القران من الهوائية الى العقرب وهو مائى وهو دليل العرب فهذه الادلة تقضى للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأل كسرى

أبرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزر جهر وقال نوفيل الرومي
المنجم في أيام بني أمية ان ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة فاذا
عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها
في قران الملة فحينئذ اما أن يفتقر العمل به أو يتجدد من الاحكام ما يوجب خلاف
الظن قال جراس واتفقوا على أن خراب العالم يكون باسبلاء الماء والبار حتى
تهلك سائر المكونات وذلك عند ما يقطع قاب الاعد أربعة وعشرين درجة التي
هي حد المريح وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر جراس أن ملك
زابلستان بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان أخفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون
في الاختبارات بحروب أخيه وبعد قد اللواء لظاهر وان المأمون أعظم حكمته
فسأله عن مدة ملكهم فاخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وان
العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريد الله ثم
يسوء حالهم ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيحون
وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريد الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال
من كتب الحكماء ومن أحكام صصه بن داهر الهندى الذى وضع الشطرنج
قات والترك الذين أشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت
دولتهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القران الى المثلثة المائبة من برج
الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليرد جرد وبعدها الى برج العقرب
حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذى فى الحوت هو أول الانتقال
والذى فى العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة الاولى من القران
الاول فى المثلثات المائبة فى نانى رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف
الكلام على ذلك * وأما مستند المنجمين فى دولة على الخصوص فى القران الاوسط
وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها من
العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحاهم وأديانهم

وعوائدهم وحرورهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات وقد توجد هذه
الدلالة من القران الاصغر اذا كان الاوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام
في الدول * وقد كان يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع
في القرانات الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى
جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وانها نهايته وأشار
الى انقراضها والحادثة على بغداد انها تقع في انتصاف المائة السابعة وأن بانقراضها
يكون انقراض الملة ولم تقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف
عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكوا ملك التتر في دجلة عند استيلائهم
على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء منسوب الى هذا
الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين
من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه
وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في
الحدثان وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع
الدولة قال بعث الى الربيع والحسن في غزاتهم مع الرشيد أيام أبيه فجهت ماجوف
الليل فاذا عندها كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه
عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى
فاذا وقف عليه كنتم قد نعيت اليه نفسه قالوا فما الحيلة فاستدعيت عبسة الوراق
مولي آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين فتعمل
فوالله لولا اني رأيت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما كنت أشك أنها
هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوما ومنشورا ورجزا
ما شاء الله أن يكتبوه وبأيدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها
في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير
من أهل الخليفة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن

هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روى الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة انها من الحدنان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم و ذكر فيها استيلاءهم على سبته من يد موالى بني حمود وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضا قصيدة تسمى التبعية أولها

طربت وما ذاك منى طرب * وقد يطرب الطائر المغتضب

وما ذاك منى للهو أراه * ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار فيها الى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ما عبة من الشعر الزجلى منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والتمحسين وغيرهما وذكر ميته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الأزرق لشرفه خبارا * قفهموا يا قوم هدى الاشارا

نجم زحل أخير بذي الع الاما * وبدل الشكلا وهي سلا ما

شاشية زرقا بدل العماما * وشاش أزرق بدل الغرارا

﴿ يقول في آخره ﴾

قد تم ذا النجيس لانسان يهودى * يصب ببلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على الفراد

وأياته نحو الخمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم

المغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب على روى الباء في حدنان دولة بني أبي

حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار وقال لي قاضي قسطنطينية

الخطيب الكبير أبو على بن باديس وكان بصيرا بما يقوله وله قدم في التجيم فقال لي

ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الاندلسى الكاتب مقتول المستنصر وانما هو
رجل خياط من أهل تونس توأطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدى رحمه
الله تعالى ينشد هذه الابيات من هذه الملحمة وتقى بعضها فى حفظى مطلعها
عذيرى من زمن قلب * يغرب يبارقه الاشنب

﴿ ومنها ﴾

ويبعث من جيشه قائدا * ويبقى هناك على مرقب
فتأتى الى الشيخ أخباره * فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجلب

﴿ ومنها فى ذكر أحوال تونس على العموم ﴾

(١) فإما رأيت الرسوم انمحت * ولم يرع حق لذي منصب
نخذ فى الترحل عن تونس * وودع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة * تضيف البرىء الى المندب
ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى فى دولة بني أبي حفص هؤلاء تونس فيها بعد
السلطان أبى يحيى الشهرى عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها
وبعد أبى عبد الاله شقيقه * ويعرف بالوثاق فى نسخة الاصل
الا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يعنى بذلك نفسه الى أن هلك ومن
الملاحم فى المغرب أيضا الملعب المنسوبة الى الهوشنى على لغة العامة فى عروض
البلد التى أولها

دعنى بدمى الهتان * فترت الامطار ولم تفر
واستقت كلها الويدان * وانى تملى وتتغدر

(١) قوله فإما رأيت أصله فان رأيت زيدت ما وأدغمت فى ان الشرطية
المخدوف نونها خطأ وفى نسخة فلما رأيت والاولى هى الموجودة فى النسخة
التونسية قاله نصر اه

البلاد كلها تروى * فاولى ما يبذل ما تدرى
ما بين الصيف والشتوى * والعام والربيع تجرى
قال حين تحت الدعوى * دعنى تبكى ومن عذر
أنادى من ذى الازمان * ذا القرن اشدد وتمرى

وهى طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصى والغالب عاينها الوضع لانهم يصح
منها قول الا على تأويل تحرفه العامة أو الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة
ووقفت بالمشرق على ما حمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبيه
الغاز لا يعلم تأويله الا الله لتخلله أوافق عديدة ورموز ماغوزة وأشكال حيوانات تامة
ورؤس مة صعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روى اللام والغالب
أنها كلها غير صحيحة لانها لم تنشأ عن أصل علمي من نجمة ولا غيرها وسمعت
أيضا ان هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عتب و ليس في شيء منها
دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضا على
ما حمة من حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجريق
وكلها أغاز بالحروف أولها

ان شئت تكشف سر الجفر ياسائلي * من علم جفر وصى والد الحسن
فافهم وكن واعيا حرفا وجماته * والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصرى لست أذكره * لكننى أذكر الآتى من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بعد خمستها * وحاء ميم بطيش نام فى الككن
شـين له أثر من تحت سرته * له القضاء قضى أى ذلك المـين
فصر والشأم مع أرض العراق له * وأذريجان فى ملك الى اليمس
* ومنها *

وآل بوران لمـانال طاهرهم * الفاتك الباتك المعنى بالسمن
خلع سين ضعيف السن سين أتى * لالوفاق ونون ذى قرن (١)

قرم شجاع له عقل ومشورة * يقي بجاء وأين بعد ذو سمن

﴿ ومنها ﴾

من بعد بقاء من الاعوام قتلته * يلي المشورة ميم للملك ذو اللسن

﴿ ومنها ﴾

هذا هو الاعرج الكلي فاعن به * في عصره فتن ناهيك من فتن

يأتي من الشرق في جيش يقدمهم * عار عن القاف قاف جد بالفتن

بقتل دال ومثل الشام أجمعها * ادت بشجو على الاهلين والوطن

إذا أتى زلزات يابيح مصر من الزلزال مازال حاء غير مقتطن

طاء وطاء وعين كلهم حبسوا * هلكا وينفق أموالا بلا تمن

يسير القاف قافا عند جمعهم * هون به ان ذاك الحصن في سكن

وينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسلم الالف سين لذك بنى

تمت ولايتهم بالحاء لأحد * من السنين يدانى الملك في الزمن

ويقال انه أشار الى الملك الظاهر وقدم أليه عليه بمصر

يأتي اليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والشظف والرزق

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثيرا ومعروف

الانتحال (حكى) المؤرخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكى

يعرف بالداينالى ييل الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من

أسماء أهل الدولة ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه

كانها ملاحم ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا وأنه وضع في بعض دفاتره ميا

مكررة ثلاث مرات وجاء به الى مفاح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك،

وهو مفاح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه ويناله من الدولة وانصب لذلك

علامات يموه بها عليه فبدل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب

على مفاح هذا وكان معزولا فجاء بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف

وبعلامات ذكرها وأنه يلى الوزارة لثانى عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا فى أيامه وأوقف مفاها هذا الى الاوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عاينه المقتدر واهتدى من تلك الامور والعلامات الى ابن وهب وكان ذلك سببا لوزارته مثل هذا الحيلة العريضة فى الكذب والجهل بمنزل هذه الالغاز والظاهر أن هذه الملاحمة التى ينسبونها الى الباجريقى من هذا النوع * ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من المعجم بالديار المصرية عن هذه الملاحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب اليه من الصوفية وهو الباجريقى وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة فى حاق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومى الى رجال معينين عنده ويبلغ عليهم بحروف يعينها فى ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك فى أبيات قليلة كان يتعاهدها فتسوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملاحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس فى كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع اذ الرمز اعما يهدى الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالته على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان فى النفس من امر هذه الملاحمة وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

﴿ الفصل الرابع من الكتاب الاول ﴾

فى البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من

الاحوال وفيه سوابق ولواحق

(فصل فى أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما توجد تانية عن الملك)
وبيانه أن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التى يدعوا اليها الترف

والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعتها وأيضا فللمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم وللخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لا بد من اكراهم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعضا الملك أو مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرة الاملاك والدولة فلا بد في تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخرت وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبية تكثر وتتعدد ونطاق الاسواق يتباعد وينفسج الى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات باع عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعم ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لا فراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهديّة في الملة الاسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يباغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبساتين بادية يمدّها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لان أهل البداوة اذا انتهت أحوالهم الى غاياتها من الرأفة والكسب تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون وأما اذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مدة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا

لسياجها فيزول حفظها ويتناقض عمراتها شيئاً فشيئاً الى أن يبذرها ساكنها وتخرّب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالشرق والقيراون والمهديّة وقاعة بني حماد بالمغرب وأماها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطبيها الاولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحتظ تلك الدولة سياجها وتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمراتها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ ﴿ فصل في ان الملك يدعو الى نزول الامصار ﴾

وذلك ان القبائل والمصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لامرين أحدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لأن المصير الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتراع ذلك الملك الذي سموا اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصير ويغالهم ومغالبة المصير على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصير يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكابة الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصاية انما احتيج اليها في الحرب لثبات لما يقع من بعد كره القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عهد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضع شوكة استيلائها فاذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانحرام وان لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمراتهم أولا وحط أثقالهم وليكون شجرا في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم فتعين أن الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء

عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه
 ٣ ﴿ فصل في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة

انما يشيدها الملك الكثير ﴾

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كلنحال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعاقبة وشرشال بالمغرب انما كانت بقدرهم متعرقين أو مجتمعين فيتحيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويفعل عن شأن الهندام والتمثال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغابين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجراء عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم انما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين يعرف مقادير أجسامهم من الائم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العميديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأثرهم ياد الى اليوم في صومعة قاعة بنى حماد وكذلك بناء الاغالبية في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها مائلة أيضا لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهيكل التي نقلت اليها أخبار أهلها

قريبا وببيدا وتيقنا أنهم لم يكونوا بافراط في مقادير أحسامهم وإنما هذا رأى
ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة
الى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي
أكثر السنين ويشاهدونها لاتزيد في جوها ومساحتها وسماكتها على المتعاهد وانهم
ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل
العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك
ان الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس
الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة
وانما هي كوكب مضي لامزاج له وقد تقدم تنبؤ من هذا في الفصل الثاني حيث
ذكرنا ان آثار الدولة على نسبة قوتها في أصاها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد
٤ ﴿ فصل في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بمائها الدولة الواحدة ﴾

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية
وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مجردة أو مضاعفة بالهندام كما
قلناه فيحتاج الى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمة متعاقبة الى أن تم فيبتدىء
الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في
حشر المعلة وجمع الايدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون مائلا للعيان
يظنه من يراه من الآخرين انه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون
في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق اليه سبعين واديا وعاقه
الموت عن اتمامه فتمه ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة
وقناتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها
ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها
وتأسيسها فاذا لم يتسع أثره من بعده من الملوك في اتمامها بقيت بحالها ولم يكمل
القصد فيها ويشهد لذلك أيضا اننا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول

عن هدمها وتخریبها مع ان الهدم أيسر من البناء بكثير لان الهدم رجوع الى الاصل الذى هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا ان القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في ابوان كسرى لما اعتم الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه مانلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهبكل فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النعرة للعجم والله لأصرعه وشرع في هدمه وجمع الايدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الحل حتى اذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره ثانيا في التعجافى عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لثلاثا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الاهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في تقبه فانهوا الى جو بين الحائظ الظاهر وما بعده من الحيطان وهنالك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منقذ ظهر ويزعم الزاعمون انه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم وكذلك حيايا المعلقة الى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباى كثيرا والله خلقكم وماتعملون

٥ ﴿ فصل فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث

اذا غفل عن تلك المراعاة ﴿

(اعلم) ان المدن قرار يتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف

ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار وأن يكون وضع ذلك في ممتع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية على الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لاحالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخاص من حمى العفن بوجهه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه انه وقع فيها حشر ظهر فيه اناة من نحاس محتوم بالرصاص فلما فض خثامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك مبدءاً أمراض الخفيات فيه وأراد بذلك ان الاناة كان مشتملا على بعض أعمال الطلائع لوبائه وانه ذهب سره بندهابه فرجع اليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك ان هذه الاهوية العفنة أكثر ما يهيبها لتعفين الاجسام وأمراض الخفيات ركودها فاذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينا وشمالا خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج واذا خف

الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقى ساكناً راكداً وعظم
 عفته وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت دند ما كانت أفريقية مستجدة العمران
 كثيرة الساكن تموج بأهلها. ورجا فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه
 وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعند ما خف ساكنها
 ركده هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثرت العفن والمرض فهذا وجهه لا غير وقد
 رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت وتم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة
 الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثرت ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا
 مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم
 فتعدهم نجد ما قلته لك وأما حاجت المرافق والمرافق للبلد فيراعي فيه أمور منها
 الماء بأن يكون البلد على نهر أو باراتها عيون عذبة ترة فان وجود الماء قريباً
 من البلد سهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة فيكون لهم في وجوده
 مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم اذ
 صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد
 لها من المرعى فاذا كان قريباً طيباً كان ذلك ارفق بحالهم لما يعانون من المشقة
 في بعده ومما يراعى أيضاً المزارع فان الزروع هي الاقوات فاذا كانت مزارع
 البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر
 للخطب والبناء فان الخطب مما تم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء
 والطبخ والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من
 ضرورياتهم وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد
 النائية الا ان ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وماتدعو
 اليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما
 يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول
 الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وأفريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الأهم

عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء والمالح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالفيران والكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراعى فيها الامور الطبيعية

(فصل) ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل او تكون بين أمة من الامم موفورة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرقتها طارق من العدو والسبب فى ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعر من الخبل كانت فى غرة للبيات وسهل طروقها فى الاساطيل البحرية على عدوها وتخيفه لها لما يأتى من وجود الصرخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كلاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبالغهم الصرخ والبقير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويأسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريحها كما فى سبتة وبجاية ولد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع ان الدعوة من ورائها بركة وافريقية وانما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كانت طروق العدو للاسكندرية وطرابلس فى الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم

٦ ﴿ فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم ﴾

(اعلم) ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعاً اختصها بشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وتتمو بها الاجور وأخذنا بذلك على السن رسله وأنبأته لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم * وكانت المساجد

الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبها في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله بنائه وأن يؤذن في الناس بالتحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه * وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده وانصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه * والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ما حده الشريف في نزلتها فهذه المساجد الثلاثة قرعة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فانشر الى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كل ظهورها في العالم * (فأما مكة) فأوليتها فيما يال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محل الآية في قوله وان يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومسور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ اسمعيل بموضع الكعبة بيتا يأوى اليه وأدار عليه سياجا من الردم وجعله زربا لغنمه وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبقى اسمعيل ساكنا به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه

من بعده بامر البيت مع اخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل الخليفة لا من بني اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنا أو نأى فقد نقل أن التسابعة كانت تحج البيت وتمظمه وأن تبعاً كساها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحاً ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وان غزالى الذهب اللذين وجدها عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابيتهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد اسمعيل من قبل خوئلهم حتى اذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسمعيل وانتسروا واتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وسامت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عاينهم يومئذ قصى بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى

حانفت بثوبى راهب الدير والى * بناها قصى والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جرائه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً وكان الباب لاصقاً بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قوائمه وتركوا منه ستة اذرع وشبرا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقى البيت على هذا البناء الى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكونى ورمى البيت سنة أربع وستين فاصابه حريق يقال من النفط الذى رموا به على ابن الزبير فاعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة فى بنائه واحتج عاينهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ولجعت له باين شرقيا

وغربيا فهدمه وكشفت عن أساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والاكابر
 حتى عاينوه وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فادار على
 الاساس الخشب ونصب من فوقها الاستار حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء في
 الفضة والكس فحملهما وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج
 اليه ثم شرع في البناء على أساس ابراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين
 ذراعا وجعل لها باين لاصقين بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وأزرها
 بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره
 أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالنجنيقات الى أن تصدعت حيطانها ثم لما
 ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناء وزاده في البيت فامر بهدمه ورد
 البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم حجة
 رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت اني كنت حمت أبا خبيب في أمر
 البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحجر وبنائها
 على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي
 وترك ساورها لم يغير منه شيئا فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء
 الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان حجة ظاهرة بين البناءين والبناء متمير عن
 البناء بمقدار أصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض ههنا اشكال قوى لمنافاته
 لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر
 على أساس الجدر من أسفها فيتقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر انما
 قامت على بعض الاساس وترك بمضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل
 الحجر الاسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوى قائما لئلا يقع
 بعض طوافه داخل البيت وادا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو انما
 بنى على أساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا الا باحد
 أمرين اما ان يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة الا أن

العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصنعة يرد ذلك وأما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائمين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبطا للوحي والملائكة ومكانا للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من الخيظ إلا أزارا يستره وحمى العائذ به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحطب له شجر وخذ الحرم الذي يختص بهذه الحرمية من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثانية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشار * هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الأصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضها إليها أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميا كما قالوا لا زب ولازم لقرب الخرجين وقال البخمي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث إليه بالاموال والذخائر كسرى

وغيره وقصة الاسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر
 زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب
 الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها
 ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر
 لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقى وفي البخارى بسنده الى أبي وائل قال
 جاست الى شيبة بن عثمان وقال جاس الى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لأدع
 فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاتل قال ولم قلت فلم
 يفعله صاحبك فقال ما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام
 ذلك المال الى أن كانت فتنة الافطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي
 زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غاب علي مكة عمدا الى الكعبة فأخذ
 ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن أحق
 به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرف فيه وبطت الذخيرة من الكعبة
 من يومئذ **﴿ وأما بيت المقدس ﴾** وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام
 الصائبة موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة
 التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم
 وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني اسرائيل من مصر لتخليتهم
 بيت المقدس كما وعد الله أباهم اسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض
 التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وارتفاعها
 وهياكلها وتمثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنازة بقناديها
 وأن يصنع مذبحا للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة
 ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضا عن
 الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله الى

موسى بأن يكون هرون صاحب القربان و نصبوا تلك القبعة بين خيامهم في
 التيه يصلون اليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها ولما ملكوا
 الشام وبقيت تلك القبعة قبائهم ووضعوها على الصخرة بيت المقدس واراد
 داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى
 ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولحمائة سنة من وفاة موسى عليه
 السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه
 بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في
 ظهره قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من
 صهيون بلد أبيه داود تحمله الاسباز والكهونية حتى وضعه في القبر ووضعت
 القبعة والاعوية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ماشاء
 الله ثم خربه بمختصر بعد ثمانمائة سنة من نائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ
 الهياكل ونثر الاحجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس شاه عزيز نبى بنى اسرائيل
 لعهد باعانة بهم من ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من
 سبي بمختصر وحد لهم في نائه حدودا دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام
 فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني
 اسرائيل في هذه المدة ثم لبني خيمان من كهنتهم ثم اصهرهم هيردوس ولبنيه من
 بعد وبني هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى
 اكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغابهم وملك أمرهم
 خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح
 عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصارى
 تارة وتركه أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة وارتملت الى
 المقدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فاخبرها القساوسة نانه رمى
 بخشبته على الارض وألقى عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنيت

مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كانها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وامرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقى الامر كذلك الى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة تغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيديين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من تغور الشام وذلك لسحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أي قال بيت المقدس قيل فكم بينهما قال أربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسابحان لان سابحان بانيه وهو ينيف على الالف بكثير * واعلم

أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا
 يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان يمثل هذه المدة وقد
 نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فاعل ذلك أنها كانت مكانا
 للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الاصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها
 والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبعه
 مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وإن لم يكن هناك
 بناء كما هو المعروف وإن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه
 فتيه حل هذا الاشكال ﴿ وأما المدينة ﴾ وهى المسماة يثرب فهى من بناء يثرب
 ابن مهلايل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض
 الحجاز ثم جاورهم بنو قيسلة من غسان وغابوهم عنها وعلى حصونها ثم امر
 النبي صلى الله عليه وسلم الهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر إليها معه
 أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها ونبنى مسجده وبيوته فى الموضع الذى كان الله
 قد أعده لذلك وشرفه فى سابق أزله وآواد أبناء قبيلة ونصروه فلذلك سمو الانصار
 وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى عانت على الكلمات وغاب على قوميه وفتح
 مكة وملكها وظن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فأهمهم ذلك فخاطبهم رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه
 وسلم كان ملجده الشريفها وجاء فى فضاها من الاحاديث الصحيحة ما لا يخفى
 به ووقع الخلاف بين العلماء فى تعصباها على مكة وبه قال مالك رحمه الله ما ثبت
 عنده فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عند الوهاب فى المعونة الى احاديث أخرى
 تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعى * وأصبحت على كل حل
 ثمانية المسجدا الحرام وجنح إليها الامم باقتدائهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت
 الفضيلة فى هذه المساجد المعظمة منسبقة من عناية الله لها وتفهم سر الله فى الكون

وتدرجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا * وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الارض الا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسر تديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت الامم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي منها بيوت اسنا من ذكرها في شيء اذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكتفي في ذلك ما وقع في التواريخ فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبحانه

٧ * فصل في أن المدن والامصار بأفريقية والمغرب قليلة * ﴿

والسبب في ذلك أن هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم أعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وانما تم المباني بها فلا بد من الحدق في تعلمها فلما لم يكن للبربر اتساح لها لم يكن لهم تشوف الى المباني فضلا عن المدن وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب لا يخشون عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبيات أجنح الى البدو وانما يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستمكفون عن سكنى المدينة أو الاقامة بها ولا يدعو الى ذلك الا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس ولذلك كان عمران أفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا ورساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لان العجم في الغالب ليسوا بأهل انساب يحافظون عليها ويتناغون

في صراحتها والتحامها الا في الاقل وأكثر ما يكون البدو لاهل الانساب لان
لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبته كذلك وتنزع بصاحبها الى سكنى
البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه
وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٨ ﴿ فصل في أن المباني والمصانع بمالئة الاسلامية قليلة بالنسبة

الى قدرتها والى من كان قبلاها من الدول ﴾

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه اد العرب أيضا أعرق في البدو
وأبعد عن الصنائع وأيضا فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل
الاسلام ولما تملكوها لم يفسح الامسح حتى تستوفى رسوم الحضارة مع أنهم
استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وأيضا فكان الدين أول الامر مانعا من
المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنتوه في
بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل
فقالوا ولا يزيدن أحد على ثلاث أبناب ولا تطاولوا في البنيان والزموا
السمة تدرمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس أن لا يرفعوا بيانا فوق
القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما
بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد وغابت طبيعة الملك والترف
واستخدم العرب أمة الفرس واخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها حوان
الدعة والترف حينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض
الدولة ولم يفسح الامد لكثرة البناء واحتطط المدن والامصار الا قليلا وليس
كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالبت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط
والبيط والروم وكذلك العرب الاولى من عاد ونجد والعمالقة والتبايعه طالبت
أمامهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على
الايام أترا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

٩ ﴿ فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع

لها الخراب الا في الاقل ﴾

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعده عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قاناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فانه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعى ابلهم خاصة لا يباليون باناء طاب أو خبت ولا قل أو أكثر ولا يسألون عن زكاه المزارع والمنابت والاهوية لا تتقاهم في الارض ونقاهاهم الحبوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيها لان الرياح انما تخبت مع القرار والسكنى وكثرة المضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الامراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمناه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سباجا لها أتى عابها الخراب والانحلال كأن لم تكن والله يحكم لامعقب لحكمه

١٠ ﴿ فصل في مبادئ الخراب في الامصار ﴾

اعلم أن الامصار اذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقابلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزليج والرخام والزنج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا والاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرت الصنائع الى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فاذا تراجع عمرانها

وخف ساكنها قلت الصنائع لاجل ذلك فقدت الاجادة في البناء والاحكام
والمعالاة عايه بالتنسيق ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من
الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في
مبانهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء أكثر المصانع والقصور
والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولاً ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر
ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء
وأخذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنسيق بالكلية فيعود بناء
المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عايتها سيما البداوة ثم تمر في التناقص الى
غايتها من الخراب ان قدر لها أنه سنة الله في خلقه

١١ ﴿ في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق

الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة ﴾

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل
حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل
بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم أضماً فالقوت من الخنطة
مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة
من حداد ونجار والآلات وقائم على البقر وائارة الارض وحصاد السنبل وسائر
مؤن الفلاح وتوزعوا على تلك الاعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار
من القوت فانه حينئذ قوت لضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على
حاجات العاملين وضروراتهم فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على
مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال
كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه
غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك
حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب

انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم
 ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأتق في المساكن
 والملابس واستجدادة الآنية واندعون واتخاذ الحدم والمراكب وهذه كلها اعمال
 تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في ساعاتها والقيام عليها فتنفق أسواق الاعمال
 والصنائع ويكثر دخل المصروف وخرجه ويحصل اليسار لمنتهلى ذلك من قبل
 أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانياً ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت
 عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب
 في المدينة لذلك ثانياً ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الاول وكذا في الزيادة
 الثانية والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال
 الاصلية التي تختص بالمعاش فالمصر دا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب
 ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في لآخر فما كان عمرانه من الامصار أكثر
 وأوفر كان حال أهله في الترف أوسع من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة
 في الاصناف القاضى مع القاضى والناحر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقى
 مع السوقى والامير مع الامير والشرطى مع الشرطى واعتبر ذلك في المغرب مثلاً
 بحال قاس مع غيرها من أمصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما
 بونا كثيراً على الجملة ثم على الخوصوسيات بحال القاضى بقاس أوسع من حال
 القاضى بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا أيضاً حال تلمسان مع
 وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع مادونهما الى أن تنتهى المداشر
 الذين اعتملم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما ذلك الا لتفاوت
 الاعمال فيها فكانها كلها أسواق الاعمال والخروج في كل سوق على نسبته فالقاضى
 بقاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضى بتلمسان وحيث الدخل والخروج أكثر
 تكون الاحوال أعظم وهما بقاس أكثر لتفارق سوق الاعمال بما يدعو اليه الترف
 فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسطنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهى

كإقلائنا إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تمد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك نجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تنفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مفاكين محايين إلا في الأقل والنادر واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أنهم ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف وفتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغريبال والآية ولو سأل سائل مثل هذا بتمسان أو وهران لاستكر وعنف وزجر وبياغنا هذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائلهم ما يقضى منه العجب حتى أن كثيرا من الفقراء بالمغرب يتزعون إلى القفلة إلى مصر لذلك ولما يباغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرها أو أموال محتزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثارا من جميع أهل الأمصار وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم * وأما حال الدخل والخرج فتكفي في جميع الأمصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر كل شيء يباغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبه منها تكثر بساحتها وأفئتها بنثر الحبوب وسواقط الفئات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويخلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ

شبعاً ورياً وبيوت أهل الخصاصه والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها
ديب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوى الى زوايا بيوتهم قارة ولا هرة كما قال
الشاعر

تسقط الطير حيث تاتقظ الجب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناس بغاشية العجم من الحيوانات
وفئات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها
في الاكثر لوجود أمثالها لديهم وأعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران
تابع لكثيرته والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غنى عن العالمين

٢١ ﴿ فصل في أسعار المدن ﴾

اعلم أن الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الاقوات
من الخنطة وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكالي
مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا
استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه
وغلت أسعار الكالي من الادم والفواكه وما ينبعها واذا قل ساكن المصر
وضعف عمرانه كان الامر بالعكس والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات
القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت
منزله لشهره او سنته فيعم اتخاذها أهل المصر اجمع او الاكثر منهم في ذلك
المصر او فيما قرب منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل
بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن
أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب الا ما يصيبها في بعض السنين
من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت
دون ثمن ولا عوض لكثيرتها بكثرة العمران واما سائر المرافق من الادم
والفواكه وما اليها فانها لا يتم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر

أجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصير اذا كان مستحرا موفور العمران كثير
 حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها
 كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون
 لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الاغراض ويبدل أهل الرفه والترف أغانها
 باسراف في الغلاء لحاجتهم اليها اكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه * وأما
 الصنائع والاعمال أيضا في الامصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور
 ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصير بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز
 أهل الاعمال لخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أوقواتها
 والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصنائع
 في مهنتهم فيبدلون في ذلك لاهل الاعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة
 ومنافسة في الاستئثار بها فيعزز العمال والصنائع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم
 وتكثر نفقات أهل المصير في ذلك * وأما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن
 فأوقاتهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصيرهم من عدم القوت
 فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعزز وجوده لديهم ويغلو ثمنه
 على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو اليها أيضا حاجة بقلة الساكن وضعف
 الاحوال فلا تنفق لديهم سوق فيحتص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضا في
 قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق
 وأبواب الحفر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يسهم وبذلك كانت
 الاسعار في الامصار اعلى من الاسعار في البادية اذ المكوس والمغارم والفرائض
 قليلة لديهم او معدومة وكثرتها في الامصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل
 أيضا في قيمة الاقوات قيمة علاجها في الفلاح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما
 وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك انهم لما ألجأهم النصارى الى سيف البحر وبلاد
 المتوعدة الخبيثة الزراعة النكدية النبات وماكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد

الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والنفدن لاصلاح نباتها وفاحها وكان ذلك
العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلاحهم نفقات
لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم
النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا
سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم انها لقلة الاقوات والحبوب في ارضهم وليس
كذلك فهم أكثر أهل المعمور فاحا فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم
سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح الا قليل من أهل الصناعات
وانهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين وهذا يختصهم السلطان في
عظائمهم بالعولة وهي اقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وانما السبب في غلاء سعر
الحبوب عندهم مادكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاه مناسبتهم
وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المؤن حسنة في الفلاح مع كثرته وعمومه فصار
ذلك سببا لرخص الاقوات بينهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار
لا رب سواه

١٣ ﴿ فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران ﴾

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات
ساكنيه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتقلب ضرورات
وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدهام الاغراض عاينها
من أجل الترف والمغرم السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في
قيم البيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات
ساكنيه كثيرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال
الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوى لم
يكن دخله كثيرا اذا كان ساكنا فكان كاسد الاسواق في الاعمال التي هي سبب
الكسب فلم يتأمل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أحل ذلك سكنى المصر الكبير

لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدوه يسد خاتمه بأقل الاعمال لانه قابل
عوائد الترف في معاشه وسائر موته فلا يضطر الى الملك وكل من يتشوف الى
المصر وسكنائه من أهل البادية فسريعا ما يطهر عجزه ويفتضح في استيظانه الامن
يقدم منهم تأمل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجرى الى الغاية الطبيعية
لاهل العمران من الدعة والترف حينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع
أحوال أهله في عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل
شيء محيط

١٤ * فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بالرفه

والفقر مثل الامصار *

(اعلم) أن ما توفر عمرانته من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه
اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب
في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة
بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من البخله البالغة على
مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأثلون به حسبها نذكر ذلك في
فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويجيء
الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها
ويتفنن في اتخاذ المعاول والحصون واختطاط المدن وتشيد الامصار واعتبر ذلك
بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال
كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما أكثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم
وتعددت مدنها وحواسرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد
من أحوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع
أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم
وأبناغ منها أحوال أهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم

في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركب ان يتحدثها وربما تتناقى بالانكار في غالب الامر
ويحسب من يسمعون العامة ان ذلك لزيادة في اموالهم او لان المعادن الذهبية والفضية
اكثر بأرضهم أو لان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس
كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان
وهي الى المغرب اقرب وجميع مافي أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير
بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جابوا بضائعهم الى سواهم
يبتغون بها الاموال ولا استغنوا عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون
لما رأوا مثل ذلك واستغربوا مافي المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور
اموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل الشرق أكثر منها
حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام
النجومية والاحوال الارضية كما قاناها وهم انما اعطوا في ذلك السبب النجومي
وبقي عليهم أن يعطوا السبب الارضى وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه
بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي
هي سببه فذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لأن ذلك لمجرد الاثر
النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك وان المطابقة بين
حكمه وعمران الارض وطبيعتها أمر لا بد منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران
في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال
أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها بعد أن
كانت دول الشيعة وصنهاجة مها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع
الاحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى
صاحب مصر لحاجاته ومهماتة وكانت اموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب
في سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لارزاق الخنود وأعطياتهم
ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل

في ذلك وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال افريقية بعد أن كان عمراناه متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى الاما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ * فصل في تأمل العقار والضباع في الامصار وحال

فوائدها ومستغلاتها ﴿

(اعلم) ان تأمل العقار والضباع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ وانما يكون ملكهم وتأملهم لها تدريجا اما بالوراثة من آباءه وذوى رحمه حتى تتأدى املاك الكثيرين منهم الى الواحد وأكثر لذلك أو ان يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعى المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقلبة المنفعة فيها بتلاشى الأحوال فترخص قيمها وتملك بالائتمان اليسيرة وتتخطى بالميراث الى ملك آخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال رائمة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضباع لكثرة منافعتها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكمها من أغنى أهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك وأما فوائده العقار والضباع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وانما هي في الغالب لسد الحاجة وضرورة المعاش والذي سمعناه من

مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليصكون مبراهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ماداموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سمو فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه واجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر الا ان ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه أعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أرباحه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ ﴿ فصل في حاجت التمويل من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة ﴾
 وذلك أن الحضري اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأمله وأصبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولمافي طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربة حكم ساطاني وسبب من المؤاخذة طاهر يتزع به ماله وأكثر الاحكام السلطانية جائزة في الغالب اذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تدود عنه وجاء ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يحامها السلطان فيستظل بظلمها ويرتع في أمنها من طوارق التعدى . ان لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجود التحيلات وأسباب الحكام والله يحكم لامعقب لحكمه

١٧ ﴿ فصل في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول

وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ﴿

والسبب في ذلك ان الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران
 زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر
 وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج
 كل صنف منها الى القومة عايشه والمهرة فيه وبقدر ما يزيد من اصنافها يتزيد
 أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصت الايام وتعاقبت تلك الصناعات
 حذق أولئك الصنائع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح
 أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً وأكثر ما يقع ذلك في الامصار
 لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجي من قبل الدولة
 لان الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاء
 أكثر من اتساعها بلئال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخسرها في
 أهل الدولة ثم فيمن تعاق بهم من أهل المصر وهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم
 ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحك لديهم الصنائع في سائر
 فتونها وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القنصية ولو كانت موفورة
 العمران تغاب عايشها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف
 المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وماذاك الا لمجاورة
 الساطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الارض
 الى أن ينتهي الى الجفوف على البعد وقد قدمنا أن الساطان والدولة سوق للعالم
 فالصنائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت
 البضائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً
 بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً واعتبر ذلك في اليهود لما
 طال منكمهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا
 في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال

المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها
في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك
أيضا القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة
في بلدهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ لاسكل
فم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن
لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتابعة آلاف من السنين وأعقبهم ملك
مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين
والكيبانية والكسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين فلم يكن على وجه الارض
لهذا العهد أحضر من اهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا رسخت عوائد
الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها
من ملك بنى أمية آلاف من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصت فيها عوائد
الحضارة واستحكمت وأما افريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم
انما قطع الافرنجة الى افريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر اهل
الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوقاز وأهل المغرب لم
تجاورهم دولة وانما كانوا يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولما جاء
الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا
أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بافريقية
والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقد فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغمسين
في البداوة ثم انتقض برابر المغرب الاقصى لا قرب العمود على يد ميسرة المظفري
أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم
وان يابعدوا لادريس فلا تعد دولته فيهم عربية لان البرابر هم الذين تولوها ولم
يكن من العرب فيها كثير عدو بقيت افريقية للاغلبة ومن اليهم من العرب فكان
لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران

القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كما قيل لم يبلغ أربعين سنة وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يؤنس فيمن سلفه بالقلمة أو القيروان أو المهديّة سلف فتجد له من الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في أكثر أمصار أفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمدا منذ عهد الاعالية والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها يتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عني عليه الخلاء ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم فتنفض لهذا السرفانه خفي عن الناس واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجليل وعظم المدينة أو المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي ذاهبة عنهم

في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتة فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم لامعقب لحكمه

١٨ * فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده *
 قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبيية وأن الحضارة غاية للبداءة وان العمران كله من بداءة وحضارة ومات وسوقية له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في المعقول والمنقول أن الاربعين للاسنان غاية في تزايد قواه ونموها وانها اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشو والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فاعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لانه غاية لامزيد وراعاها وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلوا لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي الترف في الترف واستجداء أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الأتية والسائر أحوال المنزل وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداءة وعدم التأنيق فيها واذا بلغ التأنيق في هذه الاحوال المنزلية الغاية تبه طاعة الشهوات فقتلون النفس من تلك العوائد بالوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي بعسر نزعها وأما دنياها فللكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بهب * وبيانه أن المصر بالتفنين في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم زيدها المكوس غلاء لان الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة في استنفادها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها

حيثما كما تقدم والمكوس تعود على البيئات بالفلاحة لان السوق والتجار كلهم
يحتسبون على - انهم وانما هم جميع ما يتقونه من في مؤنة افسهم فيكون
المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وانما فتعظم تنفذت اهل الحصاره وتخرج
عن القصد الى الاسراف ولا يجودون وليجة عن ذلك ما ملكهم من اثر العوائد
وطاعتها ونذهب مكاسبهم كلها في التفتت ويتدبرون في الاملاق والخصاصة
ويغلب عليهم الفقر ويقال المستامون للمبايع فكسب الاسواق ويتسبب حال المدينة
ودعية ذلك كله افراط الحصاره والترق وهذه منسبات في المدينة على العموم
في الاسواق والعمران واما فساد اهلها في ذاتهم واحدا وحدا على الخصوص
في الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بلوان الشر في تحصيلها وما يعود على
النفس من الضرر بعد تحصيلها بخصون لون آخر من ألونها فلذلك يكثر منهم
الفسق والشر والفسسة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه
وتصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجدال الخيلة فنجدهم
أجرباء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والتجور في الايمان
والربا في البيانات ثم تجدهم أبصر طرق الفسق ومداهبه وانما هره به وبدواعيه
واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوي المحارم الدين تقتضى
البدائة الحياء منهم في الاقذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمر والخذاعة
يدفعون بذلك ما عساه يناههم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك
القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلق لا كثيرهم الا من عصمه الله ويموج بحر
المدينة بالسفلة من اهل الاخلاق الدميمة وبجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة
وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغاب عليه خلق الجوار وان كانوا اهل
أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق
واكتساب الدوائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبة الرذائل باى
وجه كان وقد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاه نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد

كثيرا من أعقاب البيوت وذوى لاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين
 في الغمار منتحابين لا تحرف الدنيا في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به
 من صبغة النسر والسفسفة واذا كثر ذلك في المدينة أو الامة تأذن الله بخرابها
 وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا
 فيها فحق عابها التول فدمرناها تدميرا ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفي
 بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم واذا فسدت
 أحوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله
 بعض أهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب حتى
 ان كثيرا من العامة يتجامى غرس النارج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه
 حاصية في النارج وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم
 ان النارج والليم والسرور وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية
 الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا أشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التمنن
 في مذهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما
 قلناه واتقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب اذ الدفلى لا يقصد بها الا
 تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاسد
 الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التمنن في
 شهوات اللبطن من الماء كل والملاذ ويتبع ذلك التمنن في شهوات الفرج بأنواع
 الماء كح من الزنا واللواط فيفضي ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط
 الاسباب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو لغير رشده لان المياه محتاطة
 في الارحام فتندم الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيها يكون ويؤدي ذلك
 الى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدي الى أن لا يوجد
 النوع والنا يؤدي الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله
 في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها

للمصالح فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترق وأنه اذا باغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمال الطبيعية للحيوانات بل نقول ان الاخلاق الحامسة من الحضارة والترق هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرته حاجته اما عجزا لما حصل له من الدعة أو ترغبا لما حصل له من المربي في النعيم والترق وكلا الامرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خالق الانسان بالترق والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه ثم ان هو فاسد أيضا غالبا بما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكائنها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت اسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخاقها موجودين في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

١٩ * فصل في أن الامصار التي تكون كراسي للملك

تخرّب بحراب الدولة وانتقاضها *

قد استقرينا في العمران أن الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصير الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور (الاول) ان الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويفصر الترق فاذا صار المصير الذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقص أحوال الترق فيها نقص الترق فيمن تحت ايديها من أهل المصير لان الرعايات تتبع للدولة فيرجعون

الى خالق الدولة اما طولها كما في طباع البسر من تفليد متببه عنهم او كرها لها يدعو اليه خالق الدولة من الاقباس عن الترف في جميع الاحوال وقلة العوائد التي هي مادة العوائد فنقص ذلك حضارة المصير ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في حرات المصير **الامر الثاني** انه ان الدولة لا يحصل لها الملك والاسيلاء باعب وانما يكون بعد العداوة والحرب والعداوة تقتضي منافاة بين أهيل الدولتين وتكثر احدهما على الاخرى في العوائد والاحوال وعب احد المتنافيين يذهب لثنائي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة مسكرة عند أهل الدولة الجديدة ومستشع وفيهجة وخصوصا أحوال الترف فتتقدم في عرفهم تمكيز الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حصرة مستأنفة وفيها بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصير **الامر الثالث** ان كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم واذا ما كانوا ما كما آخر صار تبعا للاول وامصار تابعة لامصار الاول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تحوم الممالك التي للدولة لانه شبه المركز للمطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الاول وتهوى أفئدة الناس اليه من أجل الدولة والساطان فينتقل اليه العمران ويحذف من مصر الكرسي الاول والحضارة انما هي توفر العمران كما قدمناه فتمتقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للساجوقية في عدوهم بكمسيهم عن بغداد الى أصهان وللعرب قباهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبنى العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مرا كش الى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الاول **الامر الرابع** ان الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشباعها بتحويلهم الى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصير الكرسي أشباع الدولة اما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة

أو أعيان مصر لأن لهم في الغالب سيطرة لا سواة على طبقاتهم وتوحيح اصنافهم بل
 أكثرهم ما سبى في الدولة فهم نسيعة لها وانما يكونوا راكدة والعصابة فهم
 بائيل والمحبة والمهيبة بطبيعة الدماء المتجذرة في اثار الدولة السابقة فينتقلهم
 من مصر الى ارضى الى وطنها المتعكك في ملكيتها فيعصهم على منع التعريب والحبس
 ومعصهم على نوع الكرامة والناصف بحيث لا يؤدي الى التبريد حسن لا يبقى في
 مصر الكرسي الا للباعة والهمل من أهل الناح والعمارة وسواد العامة وينزل
 مكانهم حاشيتها واشياعها من يشتد به النصر واذا ذهب من مصر أعيانها على
 طبقاتهم نقص سا كنه وهو معنى اختلاف عمرانه كما لا بد من أن يستجد عمران
 آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حصاره اخرى على قدر الدولة وانما
 ذلك بمثابة من له بيت على اوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك
 الاوصاف واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه
 نانيا وقد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي كراسي للملك وشاهدنا دواعمهنا
 والله يقدر الليل والنهار * والسبب الطبيعي الاول في ذلك على اجملة أن الدولة
 والملك لا عمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ لنوعه لوجودها وقد
 تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران
 لا تصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان
 الداعي الى الوازع فتتعين السياسة لذلك اما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة
 واذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر
 في عدمه واختلال العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو
 الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة
 الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد
 فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من
 بعض فلا تؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما

هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلال كما قررناه أولا والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ * فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض *

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة اليه وما لا يستدعي في المصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالحياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف واحواله فاما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذبايح وأمثال هذه وهي متفاوتة ويقدر ما يزيد عوائد الحضارة وتستدعي احوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انما توجد في الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجري احوالها الا أنها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرّب وتفر عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ * فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض *

من البين أن الاتحام والاتصال موجود في طباع البشر وان لم يكونوا أهل نسب واحد الا أنه كما قدمناه اضعف مما يكون في النسب وأنه تحصل به العصبية بعضها مما تحصل بالنسب واهل الامصار كثير منهم ماتحمون بالصرح يجذب بعضهم بعضا

الى أن يكونوا سحما لسحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصدافة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيهترقون شيئا وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتفاص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل امصارها الى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغاب والرياسة فتطمح المشيخة لخلاء الج. من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحب ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشييع والاحلاف ويبذلون مافي أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أ كفايته ليقص من أعنتهم ويتسمعهم بالقتل أو التغريب حتى يخض منهم الشوكات النافذة ويقلم الاطغار الحادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى انه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم أصحاب اقبائل والعشائر والمصبيات والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة واعداد المواكب للسفر في أقطار البلد والتختم والحسبية والخطاب بالتمويل مايسخر منه من يشاهد أحوالهم لما تخلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل انما دفعهم الى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السداجة فرارا من التعريض نفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدواة الحفصية لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة الزاب وما الى ذلك سموا الى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغاموا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الاحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانبيا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمزلة عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم

من العاقبة والنجبر من حيث لا يحسد ولا يحقد منهم ويطمئنون وأصبحوا أخصهم في عداد
 السلاطين على قريظ عهدهم إلى وقتنا هذا وما ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس
 و اتزع ما كان بأيديهم من دولة في بلادهم في أخذ الدولة وقد كان مثل ذلك
 وفتح في آخر السولة الصنهاجيه وسبقنا في الجريد أهلبها واستمدوا على
 الدولة حتى اتزع ذلك منهم شيخ أبو حسين وما لهم عبد المؤمن بن علي وثقاهم
 كلهم من أمارتهم به إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره
 وكذا وقع سبب لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغاب يكون غالباً في أهل
 السروات والبيونات المرشدين لأمشيخة والريسة في المصر وقد يحدث التغاب
 لبعض النسب من الغوغاء والذهباء وإذا حصلت له العصية والالتحام بالأوغاد
 لأسباب يجرها له المقدر فيتغاب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصبة
 والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

﴿ ٢٢ ﴾ فصل في لغات أهل الامصار ﴿

(اعلم) ان لغات أهل الامصار إنما تكون بلسان الامة أو الجيل الغالبين عليها
 أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالنسبة والمغرب لهذا
 العهد عربية وان كان اللسان العربي المنضري قد فسدت ما كتبه وتغير اعرابه
 والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغاب على الامم والدين والملة صورة
 للوجود وللملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين إنما يستفاد
 من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب
 هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك
 في نهى عمر رضي الله عنه عن بطانة الاعاجم وقال انها خب أي مكر وخديعة
 فلما هجر الدين للغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربياً هجرت
 كلها في جمع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان
 العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع

الامصار والممالك وصار للسان العربي اسنانهم حين رشح ذلك لغة في جميع امصارهم
ومدنتهم وصارت الالسة العجمية دخية فيها وغلبة ثم فسدت اللسان العربي
بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أو أحره وإن كان في التلاوات على أصح
وسمى لسانا حضريا في جميع أمصار الاسلام أيضا فالتأثر على الامصار في
لغته لهذا العهد من أعقاب العرب المتكلمين بلغة الهالكين في ترفها، كثروا العجم
الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على
حيال لغة الآباء وان فسدت أحكامها بمخالطة الاعجم شيئا فشيئا وسويت لغتهم
حضرية منسوبة الى أهل الخواصر والامصار بخلاف لغة المدعو من العرب فيها
كانت أعرق في العروبية وما تملك العجم من السلم والساجوقية بعدهم بالشرق
وزنانة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية
فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لو لا ما حفظه من عنابة المسلمين بالكتات
والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجعا لبقاء اللغة العربية المضرية
من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فاما ملك التتر والمغل بالشرق ولم يكونوا
على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق
لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند
وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر
والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتداولة من كلام العرب وحفظ
كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام
والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلبا لها فانحفظت بيهض الشيء وأما في ممالك
العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب
باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب

❦ الفصل الخامس من الكتاب الاول ❦

❦ في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك

كله من الاحوال وفيه مسائل *

١ (فصل) في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الامال البشرية * اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويعونه في حالاته وأطواره من لدن نشوء الى أشده الى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خالق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهد يد الانسان مبسوط على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاختلاف وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر الا بعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجته وضرورياته بدفع الاعراض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصالح للزراعة وأمثاله الا انها انما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة وريانا وتمولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو المقتنى ان عادت منفعته على العبد وحصات له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا قال صلى الله عليه وسلم ان مالك من مالك ما أكلت فأقنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى المالك رزقا والمتملك منه حينئذ يسعى العبد وقدرته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا اذ لم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة مسمى الرزق عند اهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه ومال يملك عندهم لا يسمى رزقا وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر

ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك حجب ليس هذا موضع بسطها
 * ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل فلا بد في
 الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند
 الله الرزق والسعي إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى والهامه فالكل من عند الله
 فلا بد من الأعمال الانسانية في كل مكسب وتمول لانه ان كان عملا بنفسه
 مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه
 من العمل الانساني كما تراه والام لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خاق
 الحجرين المعدنين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهما الذخيرة والقنية
 لاهل العالم في الغالب وان اقتنى سواها في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلها
 بما يقع في غيرها من حوالة الاسواق التي لها عنها بعزل فهما أصل المكاسب
 والقنية والذخيرة * واذا تقرر هذا كله فاعلم ان ما يفيد الاسان ويقتنيه من
 المتمولات ان كان من الصنائع فالغاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ
 ليس هناك الا العمل وليس يقصود بنمسه للقنية وقد يكون مع الصنائع في بعضها
 غيرها مثل التجارة والحياكة معهما الحشيش والغزل الا أن العمل فيهما أكثر
 فقيمتها أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المقاد والقنية من
 دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لو لا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون
 ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو
 صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الاقوات بين الناس فان اعتبار
 الاعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه ولكنه خفي في الاقطار
 التي علاج الفلاح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلاح فقد
 تبين أن المقادات والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية
 وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقديان معنى الكسب والرزق وشرح مسماها *
 واعلم انه اذا فقدت الاعمال أو قات بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب

الأثرى في الأمصار القليلة الساكن كيمت يصل الرزق والكسب فيها أو يفقد
 لثمة لأعمال الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمراتها أكثر يكون أهلها
 أوسع أحوالا وأشد روعة في مدنه فمن رمن تملك الثبات تقوى العامة في
 البلاد اذا تقس على أهلها راحة ذهب رزقهم حتى ن لانهار والبير بقطاع
 جريها في القصر لما أن فور العيون إنما يكون بالاساط والامراء الذي هو بالعمل
 الاماني كاشكال في صروع الامام فانه يمكن ان يبط ولا مبرء نصبت وغارت
 راحته كما يخف السرع ذنير الامراؤه واضرء في الدلاد التي عهد فيها العيون
 لانه عمرهم ثم يأتي عنها الحرب كيف تغور مياهها جلاء كأنها تكم والله
 يفدر الليل والنهار

٢ * فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومناهبه *

اعلم أن المعاش هو عمدة عن اتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من
 العيش كانه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بهنذه خعات موضعا له
 على طريق المتباغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما أن يكون باخذه من يد الغير
 واتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية واما أن يكون
 من الحيوان النوحى باقتناصه وأخذه برمييه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا
 واما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فصوله المنصرفه بين الناس في
 منافعهم كلابن من الاعام والحرب من دوده والعسل من نحلته أو يكون من
 النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله
 فلحا واما أن يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما في مواد معينة وتسمى
 الصنائع من كتابة وتجارة وخطاظة وحييا كة وفروسية وأمثال ذلك أو في مواد غير معينة
 وهي جميع الامتهانات والتصرفات واما أن يكون الكسب من البضائع واعدادها
 للاعواض اما بالتقاب بها في البلاد واحتكارها ارتقاب حوالة الاسواق فيها
 ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون

من أهل الأدب والحكمة كالطبريزي وغيره فمنهم من قالوا المعاش إماراة وتجارة
 وفلاحة وخدمة فاما الأماراء فأنست يذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بما إلى
 ذكرها وقد تقدم شيء من أحوال الخانات السلطانية وما لها في الفصل الثاني
 وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهذه حرفة طبيعية لا ينسب أم الفلاحة فهي
 متقدمة عليها كلها فالتدبير الذي يسيطره الطبيعة فطورية لا يحتاج إلى نظر ولا
 علم ولهذا نسبت في الحياة إلى آدم أبي البشر وأنه معلمها والتعمير بما لها أشار إلى
 أنها أقدم وجوده للمعاش وأسبغها في الطبيعة وأما الصناعات فهي ثابته ومتأخره
 عنها لأنها مركبة وعنهية نسرف فيها الأفكار ولا ضرر ولهذا لا توجد في الأفق
 أهل الحصر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت إلى
 ادريس الأب الثاني للحياة فإنه مستنبطها من بعده من البشر نأوحى من الله
 تعالى وأما التجارة أن كانت طبيعية في الكسب فلا أكثر من طرقها ومداهاها
 إنما هي تحيالات في الحصول على ما يرضى التمتين في الشراء وبيع لتحصل فائدة
 الكسب من تلك النصلة ولذلك أباح الشراء فيه انكاسهما أنه من باب المتامرة
 إلا أنه ليس أخذاً مال الغير مجازاً فلهذا اختص بالتشروعية

٣ * فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي *

اعلم أن الساطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أنواع الامارة والملك الذي
 هو بسببها من الجندي والشرطي والكتاب ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناه
 فيه ويتكفل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها إذ
 كلهم يذهب عنهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وأما
 مادون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو
 يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التمتع والترف فيتخذ من يتولى ذلك
 له ويقطعه عليه أجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية
 للإنسان إذ الثقة بكل أحد معجز ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على

العجز والخث اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما الا أن العوائد تقاب طباع الانسان الى مألوفها فهو ابن عرائمه لابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي به ويوثق بغنائه كلمة قود اذ الخديم القائم بذلك لا يعد وأربع حالات اما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده وأما بالعكس فهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس في أحدهما فقط مثل أن يكون مضطاعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه اذ هو باضطلاع وفتنه غنى عن أهل ارباب الدنية ومحتقر مثال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه وأما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي لعامل استعماله لانه يجحف بتخديمه في الامرين معا فيضيع عليه لعدم الاسطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حل كل على مولاة فهذان الصنفان لا يطمع احد في استعمالهما ولم يبق الا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق ولاناس في الترجيح بينهما مذهبان والكل من الترجيحين وجه الا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من نضيبه ويحاول على التحرز من خيائته جهد الاستطاعة وأما النضيع ولو كان مأمونا فضرره بالنضيب أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذ قانونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٤ ﴿ فصل في أن ابتغاء الاموال من الدقائق والكنوز

ليس بمعاش طبيعي ﴿

اعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت الارض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الائم السالفة مخزنة كلها تحت الارض محتوم عابها كلها بطلاسم سحرية لا يفيض ختامها ذلك

الا من عثر على علمه واستحضر ما يحمله من البخور والدعاء والقربان فأهل
 الامصار بأفريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا اموالهم
 كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب انى أن يجدوا السبيل الى استخراجها
 وأهل الامصار باسرق يرون مثل ذلك فى أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون
 فى ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من بعض انتهاء الطالبين لذلك الى حر
 موضع المال ممن لا يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو
 يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميم به
 الارض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر وتجد كثيرا من طلبة البربر
 بالغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون الى أهل الدنيا بالاوراق
 المتحزمة الحواشى اما بنحوظ عجمية أو بما يرجم بزعمهم منها من خطوط أهل
 الدفائن باعطاء الامارات عليها فى أماكنها يتغنون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم
 على الحفر والطلب ويموتون عليهم بأنهم انما حماهم على الاستعانة بهم طلب الجاه
 فى مثل هذا من منال الحكام والعنوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة
 من الاعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه وهو بمعزل عن
 السحر وطرقه فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدى على الاحتقار والتستر
 فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فاذا لم يمشروا على شئ
 ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذى ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم
 عن اخفاق مطامعهم والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل انما
 هو العجز عن طاب المعاش بالوجوه الطبيعية لا لكسب من التجارة والماح
 والصناعة فيطالبونه بالوجوه المتحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله
 عجزا عن السعى فى المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب
 فى تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم باستغناء ذلك من غير
 وجهه فى نصب ومتاع وجهه شديد أشد من الاول ويعرضون أنفسهم مع

ذلك مثال العقوبات وربما يحمل على ذلك في لا أكثر زيادة السرف وعوائده
 وخروجها عن حشد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومداهبه ولا يفي
 بمطالبها ودا عجز عن الكسب بالجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه الا التمس
 له جود امان العضم دفعة من غير كافة لبي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها
 فيحرص على ابتغاء ذلك وسعى فيه جهده ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون
 على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة السرف
 المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها فتجد الكثير منهم مغرمين ابتغاء ذلك
 وتخصيته ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بانغى
 عن أهل مصر في معاوضة من يلتقونه من ظابة المغاربة لعالمهم يمشرون منه على
 دفين أو كثر ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه بما يرون أن غالب هذه
 الاموال الدفينة كلها في محارى النيل وأنه أعظم ما يسر دفيننا أو مختزننا في تلك
 الآفاق ويمود عليهم أصحاب تلك الاقتر المتفتحة في الاعتذار عن الوصول اليها
 بجرية النيل نسترأ ذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع
 ذلك منهم على نضوب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاهم من هذه كلفاشان
 السحر متوارنا في ذلك الفطر عن أوليه فعلموهم السحرية وآثارها باقية بأضهم
 في البرارى وغيرها ووقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل
 أهل المغرب قصيدة ينسبونها الى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير
 بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهى هذه

ياضال لاسر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خبير
 دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
 واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي * ان كنت مما لا يرى بالزور
 فاذا أردت تغور البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
 صور كصورتك التي أوقفتها * والرأس رأس الشبل في التقوير

ويداه مسكتان للحبيل الذي * في الدلو ينشل من قرار البير
 وبصدره هاء كما عاينتها * عدد الطلاق احذر من التكرير
 ويطأ على الطآآت غير ملامس * مشى للبيب الكيس المحرير
 ويكون حول الكل خط دائر * تربيعه أولى من التكوير
 واذبح عليه الطير والطخه به * واقصده عقب الذبح بالتبخير
 بالسندروس وباللبان ومبعة * والقسط والبسه ثوب حرير
 من أحمر أو أحمر فر لأزرق * لأخضر فيه ولا تكدير
 ويشده خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص النجمير
 والطلع الاسد الذي قد ينوا * ويكون بدء الشهر غير منير
 والبدر متصل بسعد عطارد * في يوم سبت ساعة التدير

يعنى ان تكون الطآآت بين قدميه كأنه يمشى عاها وعندى أن هذه القصيدة من
 تمويهات المتخرفين فاهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجبية وتنتهى
 التحرفة والكذب بهم الى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة مثل
 هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف
 كذبتهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بامثال هذه الصحائف ويبهثون على اكتر
 ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دقينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون
 بالمال لا شراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التي
 قد أعدوها هنالك بانفسهم ومن فعلمهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع
 وليس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يابسون به
 عاينهم ليخفي عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وامثال ذلك
 وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا خبر واعلم أن الكون
 وان كانت توجد اكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لأعلى وجه القصد اليها
 وليس ذلك بامر نعم به البلوى حتى يدخر الناس أوالهم تحت الارض ويختمون

عليها بالطلاسم لافي القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه
 الفقهاء وهو دفين الجاهلية انما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وأيضا
 فمن اختزن ماله وختم عليه بالاعمال السحرية فقد بالغ في اخفائه فكيف ينصب
 عليه الادلة والامارات لمن يتبعه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على
 ذخيرته أهل الاعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفا وأيضا فاعمال العقلاء
 لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فانه يختزنه لولده
 أو قريبه أو من يؤثره واما أن يقصد اخفائه بالكلية عن كل أحد وانما هو
 لبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الامم فهذا ليس من مقاصد
 العقلاء بوجهه وأما قولهم أين أموال الامم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة
 والوفور فاعلم أن الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة انما هي معادن
 ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران
 يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس
 فهو متساقل متواتر وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى أخرى بحسب
 أغراضه والعمران الذي يستدعى له فان نقص المال في المغرب وافريقية فلم ينقص
 ببلاد الصقالبة والافرنج وان نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين
 وانما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها
 البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع الى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع
 الى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والتصدير يتأهلها
 من البلاء والفتناء ما يذهب بأعيانها لا قرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر
 المطالب والكتوز فسببه ان مصر في مملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين
 وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلى على
 مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم
 نقرأ على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام

من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويمتد على الدفين فيها في كثير من الاوقات أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فذلك عنى أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى أنهم حين ضرت المكوس على الاصناف آخر الدولة صرت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحقي والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا الا على الحيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الحسران فيحتاج من وقع له شئ من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووساوسه ولا يشغل نفسه بانحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

○ ﴿ فصل في أن الجاه مفيد لعمال ﴾

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة في جميع اصناف المعاش أكثر يسارا ورتوة من فاقد الجاه والسبب في ذلك أن صاحب الجاه محذور بالاعمال يتقرب بها اليه في سبيل التراف والحاجة الى جبهه فالتاس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كالي فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ماشأته أن تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو بين قيم الاعمال يكتسبها وقيم أخرى يدعو الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغني لا قرب وقت ويزداد مع الايام يسارا ورتوة ولهذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا

يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهوؤلاء هم أكثر التجار ولهذا
تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيرا من الفقهاء
وأهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في
ارقادهم فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم والاعمال في مصالحهم
أسرعت اليهم الثروة وأصبحوا مياير من غير مال مقنتى الا ما يحصل لهم من
قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس رأينا من ذلك أعدادا في الامصار
والمدن وفي البدو يسمى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من
مكانه فينموا ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغنى من غير سعى ويعجب من لا يفتن
لهذا السرفى حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من
يشاء بغير حساب

٦ ﴿ فصل في أن السعادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع
والتملق وان هذا الخلق من أسباب السعادة ﴾

قد ساف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفيد به البشر انما هو قيم أعمالهم ولو
قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرقه
بين الاعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو
نقصانه وقد بينا آنفا أن الحاه سيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه
بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجاب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال
عوضا عما يحصلون عايه بسبب الجاه من الاغراض في صالح أوطال وتسير تلك
الاعمال في كسبه وقيمتها أموالا وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لا قرب وقت ثم
ان الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهى في العنوالى الملوك
الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء
جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتيسر
مصالحهم ويتم بقاؤهم لان النوع الانسانى لا يتم وجوده الا بالتعاون وأنه وان

ندر فقد ذلك في صورة مفرضة لا يصح بقاؤه ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا
 بالا كراه عليه لجهاهم في الاكثر بمصالح النوع ولما حمل لهم من الاختيار وان
 أفعالهم اما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد تمتنع من المعاونة فيتعين حمله
 عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتم الحكمة الالهية في بقاء
 هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ
 بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن الجاه هو القدرة
 الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أساء جنسهم بالاذن والمنع
 والتسلط بالفهر والغاية ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل
 بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولكن الاول مقصود
 في العماية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالارض كسائر الشروط الداخلة في
 القضاء الالهى لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من أجل
 المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوى عليه من الشر اليسير وهذا
 معنى وقوع الظلم في الخليقة فتنهم ثم ان كل طبقة من طباق أهل الممران من
 مدينة أو اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى
 يستمد بذى الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كاسبه تصرفا فيمن تحت يده
 على قدر ما يستفيدة منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش
 ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسما كان
 الكسب الماشى عنه كذلك وأن كان ضيقا قليلا فثله وفاقده الجاه وان كان له
 مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيبا في تنميته
 كما كثر التجار واهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه
 واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر
 ولا تسرع اليهم تروة وانما يرمقون العيش ترمقا ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة
 واذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت

أن بذله وافادته من أعظم النعم وأجلها وان باذله من أجل المنعمين وانما يبذله
 لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع
 وتعلق كما يسأل أهل العز والملوك والا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع
 والتعلق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان أكثر
 أهل الثروة والسعادة بهذا التماق **لهذا** نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشتم
 لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ويصيرون الى الفقر
 والخصاصة * واعلم أن هذا الكبر والترفع من الاخلاق المذمومة انما يحصل من
 توهم الكمال وأن الناس يحتاجون الى بضاعته من علم أو صناعة كالعالم المتبحر
 في علمه أو الكاتب الخبير في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره وكل محسن في
 صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا
 يتوهم أهل الانساب ممن كان في آباءه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون
 بما رأوه أو سمعوه من حال آباءهم في المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك
 بقرابتهم اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالامر المعلوم وكذلك
 أهل الحياة والبصر والتجارب بالامور قد يتوهم بمضهم كمالا في نفسه بذلك
 واحتياجا اليه وتحد هؤلاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه
 ولا يتماقون من هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لأعتقادهم الفضل
 على الناس فيستكف احداهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعدده منلة وهو انما
 وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم اياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من
 قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من
 تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه او اباية الناس له من
 ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله وقل أن يسلم احد
 منهم لاحد في الكمال والترفع عايبه الا ان يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة
 والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو

مفقود له كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم
وقد الجاه لذلك من اهل الطبقة التي هي اعلى منه لاجل المقت وما يحصل له
بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم فقد معاشه وبقي في خصاصة
وفقر او فوق ذلك بقليل واما الثروة فلا تحصل له اصلا ومن هذا اشتهر بين
الناس ان الكامل في المعرفة محروم من الحظ وانه قد حوسب بما رزق من
المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خالق لشيء يسر له والله المقدر
لارب سواه ولقد يقع في الدول اضراب في المراتب من اهل هذا الخلق ويرتفع
فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول اذا
بلغت نهايتها من التغاب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وساطانهم
ويؤس من سواهم من ذلك وانما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد
السلطان وكأنهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في
المنزلة عند الساطان كل من اتقى الى خدمته وتقرب اليه بنصيحة واصطنعه
السلطان لغناؤه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسي في التقرب
من السلطان بحده ونصحده ويتزلف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك
بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته واهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم
وينظمه السلطان في جماته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في
عدد اهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من ابناء قومها الذين ذلوا اضعفانهم
ومهدوا اكنافهم مغترون بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار لم تسمح به نفوسهم
على السلطان ويمتدون بآثاره ويجرون في مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان
لذلك ويباعدهم ويميل الى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتمدون بقديم ولا يذهبون
الى دالة ولا ترفع انما دأبهم الخضوع له والتملق والاعمال في غرضه متى ذهب
اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتتصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل
لهم من قبل السلطان والمنكاة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع

والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا من الساطان ومقتنا واشارا لهؤلاء
المصطنعين عليهم الى أن تنقرض الدولة وهذا أمر طبيعي في الدولة ومنه جاء
شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب غيره
٧ ﴿ فصل في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة
والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ﴾

والسبب في ذلك أن الكسب كما قدمنا قيمة الاعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة
اليها فاذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به كانت قيمتها أعظم
وكانت الحاجة اليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر اليهم عامة الخلق
وانما يحتاج الي ما عندهم الخواص ممن اقبل على دينه وان احتيج الي الفتيا
والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن
هؤلاء في الاكثر وانما يهتم باقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في
المصالح فيقسم له حظ من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذي قررناه
لايساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنوع من حيث الدين والمراسم الشرعية
لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم الا
القائمين وهم أيضا اشرف بضائعهم أئمة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون
لاحد الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم
لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على اعمال الفكر
واليدن بل ولا يسعهم ابتدال أنفسهم لأهل الدنيا اشرف بضائعهم فهم بمنزل
عن ذلك فذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض المضلاء فذكر
ذلك على فوق بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل
على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة
والمؤذنين فوقته عايبه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من
أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لارب سواه

٨ ﴿ فصل في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل

العافية من البدو ﴾

وذلك لانه أصيل في الطبيعة وبسيط في منجاء ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحيه بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار مادخات هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضى الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في التمولات واعتبار الحقوق كلها مغرماً للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ ﴿ فصل في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها ﴾

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحاً فالمحاولة لذلك الربح إما أن يحتزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة له بذلك الى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

١٠ ﴿ فصل في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأهمهم

ينبغي له اجتناب حرفها ﴾

قد قدمنا أن معنى التجارة تسمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من
 ثمن الشراء أما بانتظار حوالة الاسواق أو نقلها الى بلد هي فيه أنفق وأغلى
 أو بيعها بالفلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى أصل المال يسير الا أن
 المال اذا كان كثيرا عظم الربح لان القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه
 التسمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في
 تقاضى ائمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطيف المحخف بالبضائع
 ومن المثل في الايمان المحخف بالربح كتمطيل المحاولة في تلك المدة ومها نماؤه
 ومن الجحود والانكار المسحت لراس المال ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء
 الحكام في ذلك قاييل لان الحكم انما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك
 أحوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الا بعظم العناء والمشقة
 أو لا يحصل أو يتلاشى راس ماله فان كان جريثا على الخصومة بصيرا بأحسبان
 شديدا لما حكمة مقداما على الحكام كان ذلك اقرب له الى النصفة بجرأته منهم
 ومما حكته والا فلا بد له من جاء يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل
 الحكام على انصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعا في الاول
 وكرها في الثاني واما من كان فاقدا للجرأة الاقدام من نفسه فاقدا للجهاد من
 الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لانه يعرض ماله للضياع والذهاب
 ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لان الغالب في الناس وخصوصا الرعاع
 والباعة شرهون الى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الاحكام
 لاصبحت أموال الناس نهبا ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض
 ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ ﴿ فصل في أن خاق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك ﴾

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم انما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايسة
 ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي أعنى خلق المكايسة بعيدة

عن المروءة التي تتغلق بها الملوك والاشراف وأمان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في
 اهل الطبقة السفلي منهم من المماحكة والغش والخلافة وتعاهد الايمان الكاذبة
 على الايمان ردا وقبولا فاجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف
 ولذلك تبحر اهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من
 هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماها لشرف نفسه وكرم
 جلاله الا أنه في النادر بين الوجود والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهو
 رب الاولين والآخريين

١٢ ﴿ فصل في نقل التاجر للسلع ﴾

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما تم الحاجة اليه من الغنى والفقير
 والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلعته وأما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه
 البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء من ذلك البعض لعارض
 من العوارض فتمكسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها
 فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به اهل
 الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس أسوة في الحاجة الى الوسط
 من كل صنف فليتحر ذلك جهده فقيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل
 السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون اكثر فائدة
 للتجار واعظم ارباحا واكفل بحوالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون
 قليلة معوزة لبعدها مكانها او شدة الفرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها
 واذا قلت وعزت غات أمانها وأما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن
 فانه حينئذ يكثرت ناقلوها فتكثرت وترخص أمانها ولهذا تبحر التجار الذين يولعون
 بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعده طريقهم ومشقته
 واعتراض المفازة الصعبة الخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا في أماكن
 معلومة يهتدى اليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبمسه الا

الاقبل من الناس فنجد سلع بلاد السودان قايلة لدينا فنختص بالغلاء وكذلك
 سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من
 اجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق ليمد الشقة أيضا وأما
 المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة
 لكثرة الساع وكثرة ناقلها والله هو الرزاق ذو القوة المتين

١٣ * فصل في الاحتكار *

ومما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة في الامصار أن احتكار الزرع لتعين
 أوقات الغلاء مشؤم وانه يعود على فائدته بالتناوب والحسبان وسببه والله أعلم
 أن الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا
 فيبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وبالها على من يأخذه
 مجانا ولعله الذي اعتبره الشارع في اخذ اموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن
 مجانا فالنفوس متعلقة به لا عطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما
 عدا الاقوات والمأكولات من المذمومات لا اضطرار للناس اليها وانما يبعثهم عليها
 التفتن في الشهوات فلا يبذلون اموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبقى لهم
 تعلق بما اعطوه فلهاذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على
 متابعتها لما يأخذه من اموالهم فيفسد ربحه والله تعالى أعلم * وسمعت فيما يناسب
 هذا حكاية طريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا ابو عبد الله الابلي
 قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان ابي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن
 المايلى وقد عرض عليه أن يختار بعض الالقاب المخزينة لجرأته قال فأطرق
 مليا ثم قال لهم من مكس الحمر فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وواله
 عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراما فاختار منها ما لا يتابعه نفس
 معطيه والحمر قل أن يبذل فيها أجد ماله الا وهو طرب مسرور بوجوده غير
 أسف عليه ولا متعاقبة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم

١٤ * فصل في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص *

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الاسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فاذا استدیم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متبول على الحملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعده التجار عن السعي فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولا بالزرع فانه اذا استدیم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته وفاقده فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالانفاق على رؤس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرت الى صيرورته مأكولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الناح زرعاً فانها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية التي هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا اذا استدیم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات اذا استدیم فيها الرخص فاذا الرخص المفرط ينجف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضا وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق وعلم ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين أهل العمران وانما يجهل الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغني والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه

وتعالى رب العرش العظيم

١٥ ﴿ فصل في أن خلق التجارة نازلة عن خلق

الرؤساء وبعيدة المرواة ﴾

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحدلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف نقص من الذكاء والمرواة ونجرح فيها لان الافعال لا بد من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وافعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالفا لاشرار الباعة أهل الغش والخلاصة والفجور في الائتمان اقرارا وانكارا كانت رداة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المرواة واكتسابها بالجملة والا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مرواته وفقدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدرعون بالجماء ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة تنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فخصات له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه وبدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكم النصفية في حقوقهم بما يؤسه من بزه واتخاذه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مر فتكون مرواتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة الا ما يسرى من آثار تلك الافعال من وراء الحجاب فانهم يخطون الى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء ووافقهم أو

خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك الا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خالقكم وما تعملون

١٦ ﴿ فصل في أن الصانع لا بد لها من المعلم ﴾

(اعلم) ان الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكبرى ويكونه عمليا هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل لان المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكاليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولانه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدرج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لاسيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزايدت حصارتها ودعت أمور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل وتنقسم الصنائع أيضا الى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري والى ما يختص بالافكار التي هي خاصية الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الاول الحياكة والجزارة والنجارة والحداة وأمثالها ومن الثاني الوراقه وهي معاناة الكتب بالانساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها

والله أعلم

١٧ ﴿ فصل في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته ﴾
 والسبب في ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتمتد المدينة انما
 همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا
 تمدت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف
 الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ثم ان اصنائع والعلوم انما هي للانسان
 من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت به من حيث الحيوانية
 والغداية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري
 وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجادة
 ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة واما العمران البدوي أو القليل
 فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار او
 حداد أو خياط أو حائك أو جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة
 ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل اتي غيرها
 وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بخر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من
 جملتها التأنيق في الصنائع واستجادتها فكلمات بجميع متعلقاتها وتزايدت صنائع
 اخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار وديباغ وخرارز وصنائع
 وأمثال ذلك وقد تنهى هذه الاصناف اذا استبحر العمران الى ان يوجد منها
 كثير من الكمالات والتأنيق فيها في الغاية وتكون من وجود المعاش في المصر
 لمنتحاتها بل تكون قائدها أعظم من فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة
 مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاح والهراس ومعلم الغناء والرقص
 وقرع الطبول على التوقييع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة اتساخ الكتب
 وتجليدها وتصحيحها فالب في هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف في المدينة من
 الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران

خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والأخر
الاسية وتخييل أشياء من العجائب بيهام قات الاعيان وتعاليم الحداء والرقص
والمشى على الحيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك
من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران أمصاره لم يبايع عمران مصر
والقاهرة أدام الله عمراتها بالمسلمين

١٨ * فصل في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ

الحضارة وطول أمدها *

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد انما
ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال
واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استبحرت
في الحضارة لما تراجع عمراتها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ايست
في غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو نامت مبالغها في الوفور والكثرة
وما ذاك الا لان أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحتكاك
وتداول الاحوال وتكررها وهذه لم تبايع الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس
لهذا العهد فانا نجد فيها رسوم الصنائع فئمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع
مناقصها عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات
والاوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاصواع في البناء
وصوغ الانية من المعادن والحزف وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس
وسائر الصنائع التي يدعو اليها الحرف وعوائده فمجددهم أقوم عليها وأبصر بها
ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين
جميع الامصار وان كان عمراتها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها
من بلاد العدو وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة
الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا

فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم يتباغه في قطر الا ما ينقل عن العراق والسنام ومصر
 أيضا لطول آماة الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكما تجميع أصنافها على
 الاستجادة والشميق ونقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه الى أن ينتقض
 بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها
 بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك
 من الصنائع في سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف برسوم
 منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى
 قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عسورا فينقلون من عوائد ترفهم
 ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة
 من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق
 الاندلس بين الحلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان
 عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا ان الصبغة اذا استحكمت فقليل ما تحول
 الا بزوال محالها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثرا باقيا من
 ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها الا
 البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا تدله على ما كان بها كأثر الخط
 المنحوي في الكتاب والله الخلاق العليم

١٩ * فصل في ان الصنائع انما تستجد وتمكث اذا أكثر طلبها *

والسبب في ذلك ظاهر وهو ان الانسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانا لانه كسبه
 ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصح فيه الا فيما له
 قيمة في مصدره ليعود عايبه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها التفاق
 كانت حينئذ الصناعة بمثابة الساعة التي تنفق سوقها وتجاب للبيع فتجهد الناس
 في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة
 لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا

يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع واجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها ومالم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على سببها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على سعة واحدة فاتفق منها كان أكثرها ضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافذة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ ﴿ فصل في ان الامصار اذا قاربت الحراب انتقصت منها الصنائع ﴾
وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجد اذا احتيج اليها وكثر طلبها واذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصح له بها معيشه فيفر الى غيرها أو يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في التناقص مازال المصر في التناقص الى ان تصمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ ﴿ فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ﴾
والسبب في ذلك انهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها الرمال المهيمنة لنتاجها ولهذا نجد أوطان العرب وممالكهم في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من

قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وارض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خزره ودبغه فانهم لما استحصروا باغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغاب الساع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والبيط والقبط وبنى اسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جماتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا انهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبلى ببلبى الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشى والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحريز فيها والله وارث الارض ومن عاينها وهو خير الوارثين

٢٢ ﴿ فصل فيمن حصات له ملكة في صناعة فقل أن يجيد

بعدها ملكة في أخرى ﴾

ومثال ذلك الحياطة اذا اجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها فاذا بلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون

الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى اضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل ان تبحر صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها اخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى اهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل ان يجيد ملكة علم آخر على نسبه بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبنى سببه على مذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

﴿ فصل في الاشارة الى أمهات الصنائع ﴾ ٢٣

اعلم ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العد الا ان منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فتخصصها بالذكر وترك ما سواها فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والدجارة والحياكة وأما الشريفة بالموضوع فكانت توليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فنها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها يحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهم واما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة له عن النسيان ومباغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني وأما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس أسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وماسوى ذلك من الصنائع فتابعة وتمهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله أعلم بالصواب

﴿ فصل في صناعة الفلاحة ﴾ ٢٤

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على ائارة الارض لها وازدراعها
وعلاج نباتها وتمهده بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج
حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل اسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع
لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع
الاشياء الا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو اذ قدمنا انها قدم
من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة
ولا يعرفونها لان احوالهم كلها تانية عن البداوة فصنائعهم تانية عن صنائعها
وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقم العباد فيما اراد

٢٥ ﴿ فصل في صناعة البناء ﴾

هذه الصناعة اول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ
البيوت والمنازل للسكن والمأوى الابدان في المدن وذلك أن الانسان لما جبل عايه
من الفكر في عواقب احواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد
كأخذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في
هذه المجيلة الفكرية فمن المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال أهالي الثاني
والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك
لقصور أفكارهم عن ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة
من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد
بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى
حفظ مجتمعهم بادارة ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصرها
واحد ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى
الانتصاف ويتخذون المعازل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن
في معناهم من الامراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون
ويصطاحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم في الغنى والفقير

وكذا حال أهل المدينة الواحدة منهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة
المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله
وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكس ويعلو عليها بالاصبغة
والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبطوة بالعناية في شأن المأوى
ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير للاختزان لاقواته والاصطبلات لربط مقرباته
اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معنائهم ومنهم
من يبني الدورية والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يتغنى ما وراء ذلك لقصور حاله
عنه واقتضاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد
يحتاج لهذه الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة واليهما كل
المرتفعة ويبالغون في اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة
مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه
الصناعة في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه اذ الاقاليم المنحرفة لا يبنى فيها
وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة
له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الناهر ومنهم القاصر
ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا
بعضها الى بعض بالطين والكس الذي يعقد معها ويلتحم كلها جسم واحد ومنها
البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولوا وعرضا باختلاف
العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد
ما بينهما بما يراد صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب
يربط عليها بالحبال والجدر ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بالوحين
آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكس ويركز بالمرآكز انعمدة حتى
ينعم ركزه وتختلط أجزاءه ثم يزداد التراب تانيا وثالثا الى ان يمتلئ ذلك الخلاء
بين اللوحين وقد تداخلت اجزاء الكس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد

نصب الاوحين على الصورة ويركز كذلك الى أن يتم وينظم الالواح كلها سطرا
من فوق سطر الى أن ينظم الحائط كله ملتجها كانه قطعة واحدة ويسمى
الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع البناء أيضا أن تجال الحيطان بالكس بعد
أن يحل بلناء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط
النارية الممددة للحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاء من فوق الحائط وذلك
الى أن يانحم ومن صنائع البناء عمل السقف بان يمد الخشب المحكمة المجارة
أو الساذجة على حائط البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالداثر ويصب
عليها التراب والكس ويسطرنا نزا كز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى
عليها الكس كما يعالى على الحائط. ومن صناعة البناء ما يرجع الى التسميق والترين
كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال الجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع
جسدا وفيه بقية البال فيشكل على التماسب تخربا بمناقب الحديد الى أن يبقى
له رونق وهذواء وربما عولى على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف
أو بالصدى أو بالسبيج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع فى الكس على
نسب وأوضاع مقدره عندهم يبدو به الحائط للعيان كانه قطع الرياض المنمنمة
الى غير ذلك من ساء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعد فى البيوت قصاع
الرخام القوراء المحكمة الخرط بالمهوهات فى وسطها لتببع الماء الجارى الى الصهرج
تجلب اليه من خارج فى القنوات المفضية الى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء
وتختلف الصناعات فى جميع ذلك باختلاف الخندق والبصر ويعظم عمران المدينة
ويتسع فيكثر ون وربما يرجع الحكم الى نظر هو لاء فيهم أبصر به من أحوال
البناء وذلك أن الناس فى المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى فى
الفضاء والهواء الاعلى والاسفل ومن الاتماع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول
الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا
فى استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة فى القنوات وربما

يدعى بعضهم حرق بعض في حائطه أو علوه أو وقناه لتضايق الجوار أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج الى قسمة دار أو عرصة بين شر يكتين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعتها وأمثال ذلك ويخفى جميع ذلك الاعلى أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستبدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بمامرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فاهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها فان قدمنا أن الصنائع وكما لها انما هو بكمال الحصار وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء الى غير قطرها كما وقع لاوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالسطنطينية في القعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج الى البصر بشيء من مسائله وكذلك في جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالحجارة الكبيرة بمجزز قدرا لفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الجبل بادخاله في المعالق من أنقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلنة وهذا انما يتم باصول هندسية معروفة متداولة بين البشر ويمثلها كان بناء الهيكل المائتة لهذا العهد التي بحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وان أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

﴿ فصل في صناعة النجارة ﴾ ٢٦

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر بما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشبا إذا يبست وأول منافعها أن يكون وقودا للنيران في معاشهم وعصيا للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما ينحشى مياله من أفعالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لاهل البدو والحضر فاما أهل البدو فيتخذون منها العمدة والاوئاد خيامهم والحدوج لظعائهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاعلاق لابوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب أولا اما بنحش أصغر منه أو ألواح ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعيته أعداد تلك الفصائل بالاتظام الى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيها يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كإلية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل تهيشة القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم بربها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدهن بالدهن فتبدول رأى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج الى هذه الصناعة في انشاء المراكب البحرية ذات الألواح

والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في الماء بقوامه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة الى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب في المقادير اما عموما أو خصوصا وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع الى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك ابلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال ان معلم هذه الصناعة في الخليفة هو نوح عابه السلام وبها انشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكنا أعني كونه نجارا إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعده الآمدي وانما معناه والله أعلم الاشارة الى قدم التجارة لانه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كانه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليفة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

﴿ فصل في صناعة الحياكة والحياطة ﴾ ٢٧

انان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الرفه فالاولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول والحاما في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدره قنبا الاكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للاعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالحياطة المحكمة وصلا أو تبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون

عنها وانما يشتملون الاثواب اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وقتونها وتفهم هذا في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبد العـ الاثاق الديوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خاقنا اول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشئ من عوائد ترفه لاطيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وانما يجي كأنه وارد الى المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه وكان جزاؤه ان تم له اخلاسه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طاب هدايتهم اليك * وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحر فلا يحتاج أهله الى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الاقليم الاول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقد هم هذه الصنائع ينسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العالم

٢٨ * فصل في صناعة التوليد *

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الأدمي من بطن أمه من الرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطىها الجنين وكأنها تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذا كلها آلام يشتد

لها. جمع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر
 والوركين وما يحاذي الرحم من الاسافل تساق بذلك فعل الدافعة في اخراج
 الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدى الى معرفة عسره ثم اذا
 خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من
 سرته بمعاها وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من
 حيث لا تتمدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاها ولا برحم امه ثم تدمل مكان الجراحة
 منه بالكي او بما تراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك
 المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانهاء فربما تتغير أشكال
 اعضاءه واوضاعها القرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح
 حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم
 بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لانهار بما
 تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية
 قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات فتعفن ويسرى عفنها الى الرحم
 فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في اعانة الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية
 ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتتمرخ اعضاءه بالادهان والذرورات
 القابضة لتشده وتجنف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاها وتسهطه لاستفراغ
 بطون دماغه وتفرغ رده بالعوق لدفع السدد من معاه ونجويها عن الالتصاق ثم
 تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم
 الانفصال اذ المولود ان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين في الرحم صيرته
 بالالتحام كالمضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتداوى مع
 ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج وهذه
 كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدواها وكذلك ما يعرض للمولود مدة
 الرضاع من أدواء في بدنه الى حين الفصال نجد من أبصر بها من الطبيب الماهر

وما ذاك الا لان بدن الانسان في تلك الحالة انما هو بدن انساني بالقوة فقط فاذا
 جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطيب أشد
 فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون اشخاصه في
 الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما
 بخاق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما في حق الانبياء صوات الله وسلامه
 عليهم او بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه
 الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روى أن النبي صلى
 الله عليه وسلم ولد مسرورا محتونا واضعا يديه على الارض شاخصا يبصره الى
 السماء وكذلك شأن عيسى في المهدي وغير ذلك واما شأن الالهام فلا ينكر واذا
 كانت الحيوانات المعجم تخص بفرائب من الالهامات كالنحل وغيرها فطائفة
 بلاسان المفضل عليها وخصوصا بمن اختص بكرامة الله * ثم الالهام العام
 للمولودين في الاقبال على الندي اوضح شاهد على وجود الالهام العام لهم فشأن
 العناية الالهية أعظم من أن يخاطبه ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكامه
 لاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات خصوصا
 في النوع الانساني وقالوا لو انقطعت اشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه
 على هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه
 الصناعة وكفالتها الى حين النصال لم يتم بقاؤه أصلا ووجود الصنائع دون
 الفكر ممتنع لانها ثمرة وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته
 اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانيا
 لاقتضات فلكية وأوضاع غريبة تندر في الاحقاب بزعمه فتقتضى تخمير طينة
 مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقبض له حيوان بخاق فيه الهام
 لتربيته والحنو عليه الى أن يتم وجوده وفصاله وأظن في بيان ذلك في الرسالة
 التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنا نوافق على

انقطاع الانواع لكن من غير ما استدل به فان دليله مبنى على اسناد الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلف * ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبغي عليه اطراد وجود هذا الشخص بخالق الالهام لتربيته في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق في الحيوان الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق الالهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما منا قررتك والله تعالى أعلم

٢٩ * فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر

والامصار دون البادية *

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من امراضهم واعلم ان أصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله صلى الله عليه وسلم المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما قوله أصل كل داء البردة فمعنى البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الاول وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى أن يصير دما ملامئا لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذ النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولا كتته الاشداق أذرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت

مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة اذا تناولها طعاما ثم أجدها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى أن يصير كيموسا وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المي ثفلا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى أن يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول وبأخذها طبخ الحار الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لها ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لها ثم ان أصل الامراس ومعظمها هي الحميات وسببها ان الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو ادخال الطعام الى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزي ويترك الاول بحاله أو يتوزع عنهما فيقتصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على انضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء الاول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتزايد مع الايام وكل ذي رطوبة من المتزجات اذا لم يأخذ الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالمخاط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الانسان بالحمى واختبر ذلك بالطعام اذا ترك حتى يتعفن وفي

الزبل اذا تعفن أيضا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الابدان وهي رأس الامراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسباب معلومة ثم يناول الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عمو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العمو ويحدث جراحات في البدن اما في الاعضاء الرثية أو في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض وأصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله مرفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض في أهل الحضرة والامصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة ما آكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيهم لتناولها وكثيرا ما يخاطون بالاغذية من التوابل والبقول والمواكه رطبا ويأيسا في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزاء ثم ان الاهوية في الامصار تفسد بمخالطة البحر العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منشطة للارواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار ذمهم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أنرا فكان وقوع الامراض كثيرا في المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فأكلهم قابل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها ثم الادم قايمة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والمواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم بعزل عنه فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخاطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا

أهلين أو لاختلاف الاهوية ان كانوا ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في كس الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات مهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصاح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه وما ذلك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو الى سكناه سنة الله التي قدسخت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ ﴿ فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية ﴾

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على مافي النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي يعير بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على مافي الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغم في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار الخارج عمرانها عن الحد أبغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصناعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بهامعا من منتصيين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتمتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووقورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال

وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغته من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر سبب التبابعة في العصبية والمجدين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر يقال ان الندى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية واخذها من اسلم بن سدره وهو قول تمكن واقرب ممن ذهب الى أنهم تعلموها من اباد أهل العراق لقول شاعرهم قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ابادا وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وانما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز انما لقتوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الاليق من الاقوال وكان لحمير كتابة تسمى المنسد حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مصر الكتابة العربية الا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون بحكمة المذاهب ولا مائلة الى الاتقان والتميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد أو نقول ان كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لان هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخاطبة الامصار والدول وأما مصر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه

الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم
 ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسومهم
 فيها تبركا بما رسمه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده
 المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتضى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا
 ويتبع رسمه خطأ أو صوابا واين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك
 واثبت رسما ونسبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض
 المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم
 لاصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ويقولون في مثل زيادة الألف في
 لأذبحنه انه تنبيه على ان الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأبيد انه تنبيه على كمال
 القدرة الربانية وامثال ذلك مما لا اصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك
 الا اعتقادهم ان في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قبلة اجادة الخط
 وحسبوا ان الخط كل فزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطالبوا
 تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم ان الخط ليس
 بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيت في ماسر والكمال
 في الصنائع اضافى وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في
 الخلال وانما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل
 دلالة على مافى النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا في حقه
 وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش
 والعمران كلها وليست الامية كمالا في حقتنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن
 متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال
 في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار
 وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا
 الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ في

الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا أنها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا أفريقية والاندلس واخطت بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتحميز ملك الاندلس بالامويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكة بما لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها بها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون تعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الاوضاع وقد لقيها حسنا وحنق فيها دربة وكتابتها واخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خففهم من البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وأفريقية من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعنى عاين ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عواندهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل أفريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقى منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخاطبوا كتاب الاندلس ولا تفرسوا بجوارهم انما

كانوا يغدون على دار الملك بتوانس فصار خط أهل أفريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم ايامهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

﴿ فصل في صناعة الوراق ﴾ ٣١

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجايدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونطاق أسواق ذلك لذيها فكثرت التاكيف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والاعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعادين للانتساخ والتصحيح والتجايد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق

المهياة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كما نذكره وقلة
الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقترضوا على الكتاب في الرق تشريفا
للمكتوبات وميلا بها الى الصحة والاتقان ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر
ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة
الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذته الناس من بعده
صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ماشاءت ثم وقفت
عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها
بالرواية المسندة الى مؤلفيها وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والاصط
فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها
ومالم يكن تصحيح المتن باسنادها الى مدونها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا
وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والاجيال والآفاق حتى لقد
قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من
معرفة صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسأها ومقطوعها وموقوفها من
موضوعها قد ذهبت وتمحضت زبدة ذلك في الامهات المتلقاة بالقبول عند الامة
وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم تبق عمرة الرواية والاستغفال بها الا في
تصحيح تلك الامهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من
الدواوين والتأليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد
اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والاندا س معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا
نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام
والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية
لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد العناية ولقد
ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد حجلة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخض والضببط
والرواية منه بانتقاص عمرانه وبدأوة أهله وصارت الامهات والدواوين تنسخ

بالخطوط البدوية نسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل النادر وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتنع ذلك أيضا ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا أنارة خفية بالاحياء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الا ان الخط الذي بقي من الاجادة في الاندلس هنالك انما هو للمعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كفسد بالمغرب وأشد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

﴿ فصل في صناعة الغناء ﴾ ٣٢

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على سبب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعة فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بمصها الى بعض على سبب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسل وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى ان الاصوات تناسب فيكون صوت اصف صوت ورابع آخر وخمس آخر وجزأ من أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع يخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل تركيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذکور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات اما بالقرع أو بالفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها لذة عند السماع فمنها لهذا العهد أصناف منها ما يسمونه الشبابة وهي قصبة حوفاء بانخاش في حواشيها معدودة

ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الابحاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابحاش وضعا متعارفا حتى يحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتد السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبه منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل ائتلافها من قطعتين منفردتين كذلك بابحاش معدودة ينفخ فيها بقصبه صغيرة توصل فينشد النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الابحاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع الى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل يرى القلم وينفخ فيه بقصبه صغيرة تؤدي الريح من الفم اليه فيخرج الصوت نحينا دويا وفيه ابحاش أيضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار على بساطها مشدودة في رأسها الى دساتر جائلة ليتأني شد الاوتار ورخوها عند الحاجة اليه بادارتها ثم تقرع الاوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكنندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره أو نقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الاوتار توقع بأصابعها على أطراف الاوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الاعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي ادراك الملائم المحسوس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة واذا كانت منافية

له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من المموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والازهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المرثبات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فاذا كان المرثي متناسبا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بادراك ملامتها ولهذا تجد العاشقين المسهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج ارواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه ان كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وأن كل ماسواك اذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحادا في البداية يشهد لك به اتحاد كما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقرها الى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الانساني فكان ادراكه للجها والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب الى فطرته فيلهمج كل انسان بالحسن من المرثي او المسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع أن تكون الاصوات متناسبة لامتنافرة وذلك أن الاصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقاقة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولا أن لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل بتدرج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصورتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة الخارج فانه من بابها وثانيا تناسبها

في الاجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الاصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملاذوة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه الى تعاليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هـ هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما شرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فانه لا ينبغي أن يختلف في خطره اذ صناعة الغناء مباحنة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف لامن حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر اذا تعارضا وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المتقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر في القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع يذكر الموت وما بعده وليس مقام التناداد بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة

الصحابة رضى الله عنهم كما في أخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتى
 مزماراً من مزامير آل داود فليس المراد به التردد والتلحين إنما معناه حسن
 الصوت وأداء القراءة والابانة في مخارج الحروف والنطق بها * واذ قد ذكرنا
 معنى الغناء فاعلم انه يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى
 ثم الى الكمالى وتفنونوا فيه فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ
 من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا
 الفارغون عن سائر احوالهم تفننوا في مذاهب المذوذات وكان في سلطان المعجم قبل
 الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون
 به حتى لقد كان ملوك المرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم
 وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن المعجم هذا العهد
 في كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر
 يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة
 والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً
 بالافادة لا ينقطع على الآخر ويسمونه البيت فنلائم الطبع بالتجزئة أولاً ثم
 تناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها
 فاهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه
 بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكالقراآتهم في أصابة
 المعانى واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذى من أجل
 الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات
 كما هو معروف في كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم
 ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب محلهم ثم تغنى الحداء منهم
 في حداء ابائهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا يسمون
 الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تقييراً بالغين المعجمة

والباء الموحدة وعلتها أبو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وهو الباقي أي
 بأحوال الآخرة وربما نسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن
 رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم
 في الخفيف الذي يرقص عليه ويمثي بالدق والمزمار فيطرب ويستخف الحلووم
 وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائها ولا
 يبعد أن تفتن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل
 هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك
 الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على
 الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس
 بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيأما ولم يكن المذوذ عندهم الا ترجيع
 القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم
 الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى تضارة العيش ورقة الحاشية
 واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا
 موالى للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب
 تلاحينهم للاصوات فلدنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة شيط الفارسي وطويس
 وسائب حار مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه
 وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة
 الغناء تتدرج الى أن كات أيام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي و ابراهيم
 الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ماتبعه الحديث
 بعنه به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا في اللهو والعب وأنخذت آلات الرقص في
 الملابس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده وأنخذت آلات
 أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تمثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة
 باطراف أقبية يلبسها النسوان ويمحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون

الشافقون وأمثال ذلك من اللعب الممد للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس
 وفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان
 للموصائين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غير
 منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمته
 وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه
 بمكان فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ماتناقلوه الى ازمان الطوائف وطما
 منها بشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية
 والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمراتها وتناقص
 دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كالية في غير
 وظيفة من الوظائف الاوظيفة الفراغ والفرح وهي ايضا أول ما ينقطع من
 العمران عند اختلاله وتراجعه والله اعلم

﴿ ٣٣ ﴾ فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا

وخصوصا الكتابة والحساب ﴿

قد ذكرنا في الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان
 خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات
 اولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا
 فتكون ذاتا وحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع
 من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا والصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون
 عامي مستفاد من تلك الملكة فلها كانت الحكمة في التجربة تفيد عقلا والملاكات
 الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع في شأن
 تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بامور
 الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علومها فيحصل منها
 زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم

والانظار بخلاف الصنائع وبيانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعمق تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس في الامور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وجنون قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعودا الاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

﴿ الفصل السادس من الكتاب الاول ﴾ في العلوم واصنافها

والتعليم وطرقه وساثر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من

الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ ﴿ فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري ﴾

وذلك أن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذي يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه ببناء جنسه والاجتماع المهيب لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر في ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر نشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما استدعيه الطباع فيكون الفكر راعبا في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو ادراك أو أخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تاقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد

واحد من الحقائق وينظر لما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيزعون الى أهل معرفته ويحیی التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر

٢ ﴿ فصل في أن التعليم للعالم من جملة الصنائع ﴾

وذلك أن الخلق في العلم والفن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بمحصل ملكة في الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك الفن المتناول حاصلًا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي لا نأجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيا مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامي الذي لم يحصل علما وبين العالم التحرير والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواها فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف يخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول

فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان
 وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس واستبحر عمرانها وكان فيهما للعلوم
 والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما
 وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتنا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان في
 دولة الموحدين بمرأ كش مستفادا منها ولم ترسخ الحضارة بمرأ كش لبداءة
 الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها ببدئها فلم تتصل أحوال الحضارة
 فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمرأ كش ارتحل الى المشرق من أفريقية
 القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذ الامام
 ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع
 الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عماد الله بن
 شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى
 يونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سنده
 تعليمهما في تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد
 السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام
 وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها
 وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من
 القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو
 على ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن
 تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات
 والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سنده
 تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها
 وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل
 وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم

قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فمسر عليهم حصول الملكة والحدق
 في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فنق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية
 فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعم ذهاب الكثير
 من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم
 بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم
 والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجمد ملكته قاصرة في علمه
 ان فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده
 والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة
 العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم
 بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس
 على المتعارف هي أقل ما يتأثى فيها الطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية
 أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب هذه المدة لاجل عنورها من قلة
 الجودة في التعليم خاصة لا بما سوى ذلك وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم
 من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسامين بها منذ مئتين من السنين
 ولم يبق من رسم العلم فيهم الا من العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند
 تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خاو وأثر بعد عين وأما
 العقلية فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران
 وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم
 بما بعدها والله غالب على أمره وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه
 نافقة وبجوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت
 الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة
 الا أن الله تعالى قد أدال منها بامصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها الى
 عراق المعجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما إليها من

المغرب فلم تزل موفورة وعمرائها متصلا وسد التعليم بها قائما فأهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة وأعظم كيسا بمطرتهم الاولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك وبولعون به ما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع وتزیده الآن تحقيقا وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلمهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كاسها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستمد به لقبول صناعة أخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الاسبية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويمجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العامة فيظنه العامي تفاوتنا في الحقيقة

الانسانية وليس كذلك ألا ترى الى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف نجد الحضري متعلما بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذلك الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية مما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعاليمها طن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكامل في عقله وان نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبناتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد من أهل البدو من هو في اعلى رتبة من الفهم والحكماء في عقله وفطرته انما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فان لها آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب الى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادئ الرأي أنه لكامل في حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والأرض

٣ ﴿ فصل في أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ﴾ والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش فتى فضات أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي له فقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف

زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولما تناقص عمراتها وابدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه حجة وفقد العلم بها والتعميم وانتقل الى غيرها من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعميم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمراتها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جعلتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين ابن أيوب وهلم جرا وذلك ان أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من ابرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

٤ ﴿فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد﴾

(اعلم) ان العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلها وتعلما هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف نقلى يأخذه عن وضعه والاول هي العلوم الحكيمة الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وأبحاثها براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره (١) ويبحثه على الصواب من الخطأ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعديا فنقول وقفته على كذا أي أطلعته عليه قاله نصر اه

فيها من حيث هو انسان ذو فكر والتانى هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الاصل وهو نقلى فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيشها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقاية كثيرة لان المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عايه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق فلا بد من النظر فى الكتاب ببيان ألفاظه أولاً وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه وسلم الذى جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراءات ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق باخبارهم بعلم مايجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد فى استنباط هذه الاحكام من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالايان ومايجب أن يمتد مما لا يمتد وهذه هي العقائد الايمانية فى الدات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر فى القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهي اصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب حسبما تتكلم عليها كلها وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية واهلها

وان كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فبإيئة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فهجور والنظر فيها محذور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل البنا وأنزل اليكم واهلنا واليهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لا فوقها وهذت الاصطلاحات وربت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل فن رجال يرجع اليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعاميم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به تفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكبالية لكثرة عمرانها والحضارة ووجود الاعانة لطلاب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعالم لما يريد ويبيده التوفيق والاعانة

• علوم القرآن من التفسير والقراءات •

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين لامة الا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوكل ذلك واشتهر الى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب

الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع الا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن وأباه الأكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفية بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها اني أن كتبت العلوم ودوت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلمها مفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل الى أن ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالى العاصريين وكان معتيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضورته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقرآات خصوصا فظهر له هذه أبو عمر والداني وبلغ العناية فيها ووقعت عليه معرفتها وانتهت الى روايته أساسها وتعددت تأليفه فيها وعتول الناس عايتها وعملوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يابيه من العصور والاجيال أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة فعمد الى تهذيب مادونه أبو عمرو وتاخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف ا ب ج د ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ماقصده من الاختصار ويكون أسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والاندلس وربما أضيف الى فن القراءات فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية لأن فيه حروفا

كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في بأييد
 وزيادة الالف في لا اذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزاؤا الظلمين وحذف الالفات
 في مواضع دون أخرى ومارسهم فيه من النآت ممدودا والاصل فيه مربوط على
 شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط
 فلما جاءت هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب الناس
 فيها أيضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمرو لداني المذكور
 فكتب فيها كتبا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه
 أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الراء وولع الناس بحفظها ثم
 كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن
 نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل
 علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب
 أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقايه واشتهرت بالمغرب
 واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في
 الرسم ﴿ وأما التفسير ﴾ فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم
 فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا
 جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الواقع ومنها ما هو في
 العقائد الايمانية ومنها ما هو في احكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر
 ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمع ويميز الناسخ من المنسوخ
 ويعرفه أصحابه فعرّفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا
 عنه كما علم من قوله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح انها نعى النبي صلى الله عليه
 وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول
 ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول
 والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك

ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبرى والواقدي
والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوه من الآثار
ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الاعراب
والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب
لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتوسى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل
اللسان فاحتيج الى ذلك في تفسير القرآن لانه باسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم
وصار التفسير على صنفين تفسير نقلى مسند الى الآثار المنقولة عن السلف وهى
معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآى وكل ذلك لا يعرف الا
بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الا ان كتبهم
ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك ان
العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وانما غابت عليهم البداوة والامية اذا تشوقوا
الى معرفة شئ مما تشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة
وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل الكتاب قباهم ويستفيدونه منهم وهم أهل
التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب
يومئذ بادية مثاهم ولا يعرفون من ذلك الا ما عرفه العامة من أهل الكتاب
ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان
عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التى يجتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة
وما يرجع الى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الاحبار ووهب
ابن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم
وفى أمثال هذه الاغراض اخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الاحكام
فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملوا
كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون
البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا أنهم بعد صيتهم وعظمت

أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والمسئلة فتلقبت بالقبول من يومئذ
فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيض وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين
بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها ونحري ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع
ذلك في كتاب متناول بين أهل المغرب والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي
في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق * والصف
الآخر من التفسير وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة
في تأدية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا الصف من التفسير قل أن ينفرد
عن الاول اذا الاول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه
صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما شتمل عليه هذا الفن
من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق الا أن مؤلفه
من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض
له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف
عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان
والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج
عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد
وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي
من أهل توريث من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع الفاظه
وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بادلة تزيها وبين أن البلاغة انما تقع في الآية على
ما يراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ماشاء مع امتناعه في سائر
فنون البلاغة وفوق كل ذي علم علم عليم

٦ * علوم الحديث *

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه
وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفًا من الله بعباده وتخفيفا

عنهم باعتبار مصالحتهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت
 بخير منها أو مثاها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض
 التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من
 اهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ
 حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضى الله عنه
 فيه قدم راسخة ومن عاوم الاحاديث المظرة في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل
 به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما واجب بما
 يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجتهد في
 الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط
 وانما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبرائتهم من الجرح والغفلة
 ويكون لنا ذلك دليلا على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من
 الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الاسانيد
 تتفاوت باتصالها وانقطاعها بان يكون الراوى لم يلق الراوى الذي نقل عنه
 وبسلامتها من العال الموهنة لها وتتمى بالتفاوت الى طرفين فحكم بقبول الاعلى
 ورد الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك
 الفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف
 والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من القاب المندولة
 بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو اوافق
 ثم النظر في كيفية اخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة او كتابة او مناولة او
 اجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك
 بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب او مشكل او تصحيف او مفترق
 منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه اهل الحديث وغالبه
 وكانت احوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة

عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام
ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز
في أعصارهم في الاسانيد أعلى ممن سواهم وأمن في الصحة لاستبدادهم في شروط
النقل من العدالة والضبط وتحافيتهم عن قبول الجهول الحال في ذلك وسند
الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة رضى الله تعالى عنه ثم
أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان
علم الشريعة في مبدا هذا الامر نقلا صرفا شمر لها السلف ونحروا الصحيح حتى
أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ أودعه أصول الاحكام من
الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عنى الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث
واسانيدها المختلفة وربما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين
وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء
محمد بن اسمعيل البخارى امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها
في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد
منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الاحاديث يسوقها في كل باب بمعنى
ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال انه اشتمل
(١) على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق
والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه
الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخارى في نقل الجمع عليه
وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والاسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع
ذلك فلم يستوعب الصحيح كله وقد استدرك الناس عليها في ذلك ثم كتب أبو
داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع
من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في
(١) قوله تسعة الذي في النووى على مسلم أنها سبعة بتقديم السين فخره اه

الاسانيد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه من الحسن وغيره
 يكون ذلك اماما للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات
 كتب الحديث في السنة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة
 هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ
 والمنسوخ فيجعل فنا براسه وكذا الغريب وللناس فيه تآليف مشهورة ثم المؤلف
 والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن حول علمائه
 وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذب وأظهر محاسنه
 وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمر وابن الصلاح كان لعهد أوائل المائة
 السابعة وتلاه محي الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لانه معرفة
 ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء
 من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بان هؤلاء الأئمة على
 تعددهم وتلاحق عصورهم وكفائتهم واجتهادهم لم يكونوا يغفلوا شيئا من السنة
 أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وانما تتصرف العناية لهذا العهد
 الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدها
 الى مؤلفيها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والاحكام
 لتصل الاسانيد محكمة الى منتهائها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه
 الامهات الخمسة الا في القليل * فاما البخاري وهو اعلاها رتبة فاستعصب الناس
 شرحه واستغلقوا منحه من أجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة
 ورجالها من أهل الحجز والشأم والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس
 فيهم ولذلك يحتاج الى معان النظر في التفقه في تراجمه لانه يترجم الترجمة ويورد
 فيها الحديث بسند أو خريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه
 لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى أن يتكرر

الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوفى حق الشرح كابن بطلال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون في شرح كتاب البخاري دين على الأمة أن أحدا من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار ^{يعنونه} * أما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبروا عليه وأجمعوا على فضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفتون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه اكمل المعلم وتلاههما محي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاه شرحا وافيا * وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم ما أخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة * واعلم أن الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه يفتنون الى أنه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن احاديث قابوا أسانيدها فقال لأعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده وأقروا له بالامامة * واعلم أيضا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فابو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة

عشر حديثاً ونحوها ومالك رحمه الله (١) إنما صح عنده ما في كتابه مسنده
وغايتها ثمانمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في منزهة
خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبهة ^{أولاً}
المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلهمنا قلت روايته ^{تمة}
سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة
ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والنشمير
في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتأقن الأحكام عن صاحبها المبلغ لها
وإنما قلل منهم من قال الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي
تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأكثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الاخذ
بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل
روايته لضعف في انطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من
أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى
العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر والامام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد
في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها العمل
النفسي وقات من اجابها روايته فقل حديثه لانه ترك رواية الحديث متعمداً
فحاشاه من ذلك ويدل على انه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه
بيدهم والتعمويل عليه واعتباره رداً وقبولاً وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور
فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع اصحابه من

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية اقوال خمسة في عدة احاديثه
اولها خمسمائة ثانياً سبعمائة ثالثاً الم ونيف رابعها الف وسبعمائة وعشرون
خامسها ستمائة وستة وستون وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر

بعده في الشروط وكثرت روايتهم وري الطحاوي فأكثر وكتب مسنده وهو
 جليل القدر الا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التي اعتمدها البخاري
 ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الامة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق
 عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن
 المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين
 بالاجماع على قبولها من جهة الاجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عايتها
 فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتمس استخراج
 الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الامور

٧ * علم الفقه وما يتبعه من الفرائض *

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكافين بالوجوب والحظر والندب
 والكراهة والاباحة وهي متاقتة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لعرفتها
 من الأدلة فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف
 يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة
 أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بانغة العرب وفي اقتضات ألفاظها لكثير
 من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت
 وتعارض في الاكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا فالأدلة
 من غير النصوص مختلفة فيها وأيضا فالوقوع المتجددة لانوفى بها النصوص وما
 كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه
 كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف
 والأئمة من بعدهم ثم ان الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ
 عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاميين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه
 ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن
 سمعه منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب

لان العرب كانوا أمة أمية فاخص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلماء فبدلوا بسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قابلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثرنا من القياس ومهروا فيه فذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وامام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي والعلية المنصوصة الى النص لان النص على العلة نفس على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة (١) وشهد أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبسوءه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشهد بذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلا تعرف شيئاً من مذاهبهم ولا زوى كتبهم ولا أثر لنسب منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك واكل منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس ائمتهم وانكار الجمهور على منتحلته ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين من تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم اخذ

(١) قوله وشهد أهل البيت صوابه وشهد شيعة أهل البيت بدليل مقاباتهم بالخوارج

فقههم منها و نذهبهم فلا يحلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه
ورعا عد بهذه النحلة من أهل البدع بقفه العلم من الكتب من غير مفتاح
المعالمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس عن غير رتبته في حفظ الحديث وصار
الى مذهب اهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف امامهم داود
وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فقم الناس ذلك عليه أو سعوا مذهبه استهجانا
وانكارا وتلقوا كتبه بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالاسواق وربما
تمزق في بعض الاحيان ولم يبق الا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث
من الحجاز فأما أهل العراق فامامهم الذي ستقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة
النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يباحق شهده بذلك أهل جلدته وخصوصا
مالك والشافعي * وأما أهل الحجاز فكان امامهم مالك بن أنس الاصبحي امام
دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة من ذكر آخر للاحكام غير المدارك
المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون عليه من
فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة بسببهم واقتدائهم وهكذا الى الجيل
المباشرين لفضل النبي صلى الله عليه وسلم الأخيين ذلك عنه وصار ذلك عنده
من اصول الأدلة الشرعية وطن كثير من ذلك من مسائل الاجماع فأنكره لان
دليل الاجماع لا يخص أهل المدينة من سواه بل هو شامل للامة واعلم ان
الاجماع انما هو الاتفاق على الامر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم
يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة
للجيل الى ان ينتهي الى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم
بمعين ذلك بعم الملة وذكرت في باب الاجماع الابرار بها من حيث ما فيها من
الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا ان اتفاق أهل الاجماع عن نظر واجتهاد
في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستمد من مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت
المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره او مع الأدلة المختلف فيها

مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان اليق ثم كان من بعد مالك بن انس محمد بن ادريس المطالي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل الى العراق من بعد مالك ولقي اصحاب الامام ابي حنيفة واخذ عنهم ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكا رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما احمد بن حنبل رحمه الله وكان من عليه المحدثين وقرأ اصحابه على اصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشى من اسناد ذلك الى غير اهلهم ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالمعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل بين اختص به من المقلدين وحظروا ان يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا بمحصول اليوم للفقه غير هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار اهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة فأما احمد بن حنبل فقده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصلاته في معاضدة الرواية وال اخبار بعضها ببعض واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم اكثر الناس حفظا لسنة ورواية الحديث واما ابو حنيفة فقده اليوم اهل العراق ومسلة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه اخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظرتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستطرف وانظار غريبة وهي بين ايدي الناس وبلغت منها شي قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وابو الوليد الباجي في رحلتها واما الشافعي فمقتدوه بمصر اكثر مما سواها وقد كان انتشر

مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد الى أحسن ما كان وتفوق سوقه واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام أيضا ثم ابن الرفعة بمصر وتقى الدين بن دقيق العيد ثم تقى الدين السبكي بعدها الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا أنهم لم يقدوا غيره الا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقنصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته وأيضا فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل مناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذوا تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام عالما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم

سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها
 عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك
 كله يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة
 واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد
 وأهل المغرب جيمامقدون لما لك رحمه الله وقد كان تلميذه افترقوا بمصر والعراق
 فكان بالعراق منهم القاضي سمعي وطبقته مثل ابن خويرز منداد وابن اللبان
 والقاضي أبو بكر الابهرى والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب
 ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحريث بن مسكين
 وطبقتهم ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته
 وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتي من
 تلامذته كتاب العتيبة ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب
 أبي حنيفة أولاً ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب
 الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمى الاسدية نسبة الى أسد بن الفرات فقرأ
 بها سحنون على أسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه
 بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت
 ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتب سحنون فأثف من ذلك فترك الناس
 كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب
 فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل
 الاندلس على الواضحة والعتيبة ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في
 كتابه المسمى بالمختصر وخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في
 كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخذوا به وتركوا
 ما سواه وكذلك اعتمد أهل الاندلس كتاب العتيبة وهجروا الواضحة وما سواها
 ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب

أهل أفريقية على المدونة ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الاندلس على العتبية ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقيين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك الى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد اقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين وابن المبشر وابن الهيثم وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم ادر عن اخدها ابو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيخهم ابو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جاءه الى المغرب فانه كان قرأ على اصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميده ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلبيهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٨ ﴿ علم الفرائض ﴾

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها

الاصول أو مناسختها وذلك اذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض
ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصحح الفريضة الاولى حتى يصل أهل
الفروض جميعا في الفريضتين الى فروضهم من غير تجزئة وقد تكون هذه المناسخات
أكثر من واحد واثنين وتعدد لذلك بعدد أكثر ويقدر ما تعدد تحتاج الى
الحسبان وكذلك اذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث
ويذكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة
على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحسبان وكان
غالبا فيه وجعلوه فيما مفردا واناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية من
متأخرى الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي
ومن متأخرى أفريقيا ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية
والحنابلة فاهم فيه تأليف كثيرة واعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع
في الفقه والحساب وخصوصا أبا المعالي رضى الله تعالى عنه وأمثاله من أهل
المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به الى الحقوق
في الوراثة بوجود صحيحة يقينية عند ما تجهل الخطوط وتشكل على القاسمين
والعلماء من أهل الأمصار بها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها الى الغلو في
الحساب وفرض المسائل التي تحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب
كالجبر والمقابلة والتصريف في الجدور وأمثال ذلك فلما تأليفهم وهو وان
لم يكن متداول بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم اغرابته وقلة وقوعه
فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتاج الاكثر
من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضى الله عنه ان
الفرائض ثلث العلم وانها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجته أبو نعيم
الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة
والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض انما هي الفرائض التكليفية

في العبادات والعبادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والنائية
وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها وبمعين
هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض
الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم
يكن صدر الاسلام يطابق على هذا الا على عمومته مشتقا من الفرض الذي هو
لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في اطلاقه الا جميع الفروض كما قلناه
وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي أن يحمل الا على ما كان يحمل في عصرهم فهو
اليق بمرادهم والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ ﴿ أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات ﴾

(اعلم) ان أصول النقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة
وهو النظر في الادلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الاحكام والتكاليف وأصول
الادلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي
صلى الله عليه وسلم كانت الاحكام تناقى منه بما يوحى اليه من القرآن ويبينه بقوله
وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج الى نقل ولا الى نظر وقياس ومن بعده صلوات
الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع
الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل اليها منها قولاً
أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في
الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلهما لاجماع الصحابة على
النسكيب على مخالفهم ولا يكون ذلك الا عن مستند لان مثلهم لا يتفقون من غير
دليل ثابت مع شهادة الادلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات
ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون
الاشبه بالاشباه منهما وينظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم
لبعض في ذلك فان كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تدرج

في النصوص الثابتة فقا سوما بما ثبت وألحقوها بما نص عليه يشروط في ذلك الالحاق
تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثاليين حتى يغلب على الظن أن حكم الله
تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع
الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وأن خالف بعضهم
في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لأحاجة
بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا
الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه
والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع
على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل في حياته
صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع
أمرأ ونهيا وأما الإجماع فلا تفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم
مع العصمة الثابتة للامة وأما القياس فباجماع الصحابة رضئ الله عنهم عليه كما
قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر
في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط
وجوب العمل وهذه أيضا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين
الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضا
وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك إن استفادة المعاني على
الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفه الدلالات الوضعية
مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان
وحيث كان الكلام مائة لاهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ
يحتاج إليها لأنها جبلية ومائة فلما فسدت المائة في لسان العرب قيدها الجهابذة
بمجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوما يحتاج
إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من

ترا كيب الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة
 من ترا كيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق
 بل لابد من معرفة امور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد
 الاحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه
 الاستفادة مثل ان اللفظة لا تثبت قياسا والمشارك لا يراد به معنياه معا والواو لا تقتضى
 الترتيب والعام اذا أخرجت افراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر
 للوجوب أو التدب وللفور أو التراخي والسهي يقتضى الفساد أو الصحة والمطلق
 هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعمد أم لا وأمثال هذه فكانت
 كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر
 في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس
 ويمثل من الاحكام وينفتح الوصف الذى يغاب على الظن أن الحكم علق به في
 الاصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير
 معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد
 لهذا الفن (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف
 في غيبة عنه بما أن استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها الى مزيد مما عندهم
 من الملكة اللسانية وأما القوانين التى يحتاج اليها فى استفادة الاحكام خصوصا
 فمنهم أخذ معظمها وأما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر
 وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت
 العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه
 القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه
 أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعى رضى الله تعالى عنه أملى فيه رسالته
 المشهورة تكلم فيها فى الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العالة
 المنعوسة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا

القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك الا ان كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأبقى بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون مجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما أمكن لانه غالب فتونهم ومقتضى طريقهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسى من أئمتهم فكتب فى القياس بأوسع من جميعهم وتم الاجمات والشروط التي يحتاج اليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكامله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعن الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفي للغزالي وهما من الاشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابى الحسين البصرى وهما من المعتزلة وكانت الاربعة قواعد هذا الفن وأركانها ثم لخص هذه الكتب الاربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الامام نجر الدين بن الخطيب فى كتاب المحصول وسيف الدين الآمدى فى كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما فى الفن بين التحقيق والحجاج فان الخطيب أميل الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الامام سراج الدين الارموى فى كتاب التحصيل وتاج الدين الارموى فى كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافى منهما مقدمات وقواعد فى كتاب صغير سماه التنقيحات كثير وكذلك فعل البيضاوى فى كتاب المنهاج وعن المبتدؤن بهذين الكتابين وشرحهما من الناس * وأما كتاب الاحكام للآمدى وهو أكثر تحقيقا فى المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب فى كتابه المعروف بالمتنصر الكبير ثم اختصره فى كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعن أهل المشرق والمغرب وبمطالعته وشرحه وحصلت زيادة طريقة المتكلمين فى هذا الفن فى هذه المختصرات * وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من احسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبى زيد الدبوسى

وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوى من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتى من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام وكتاب البزدوى فى الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فحاش من أحسن الاوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحنا وولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعميد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويحمانا من أهله بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير

﴿ وأما الخلافات ﴾ فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وانظارهم خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك فى الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الائمة الاربعة من علماء الامصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التى هى مواده باتصال الزمان وافتقار من يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فأقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية والاصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب امامه تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمية يحتاج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به وأجريت فى مسائل الشريعة كلها وفى كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعى ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدها وتارة بين مالك وأبي حنيفة والشافعى يوافق أحدها وتارة بين الشافعى وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدها وكان فى هذه المناظرات بيان ما أخذ هؤلاء الأئمة ومشاراة اختلافهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التى يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد

الا ان المجتهد يحتاج اليها للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج اليها حفظ تلك
 المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بادلته وهو لعمرى علم جليل الفائدة في معرفة
 مأخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يروون الاستدلال عليه
 وتأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية لان القياس عند الحنفية أصل
 للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث وأما المالكية فالأثر
 أكثر معتمد هم وليسوا بأهل نظر وأيضا فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من
 الصنائع الا في الأقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ ولأبي زيد الدبوسي
 كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الادلة وقد جمع ابن الساعاتي
 في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبنى عليها من الفقه الخلافى مدرجا في كل
 مسألة ما ينبنى عليها من الخلافات * أما الجدل * وهو معرفة آداب المناظرة
 التي تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة في الرد
 والقبول متسما وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه
 في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة الى ان يضعوا
 آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال
 المستدل والحجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا منقطعا
 ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال
 ولذلك قيل فيه انه معرفة بالتواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي
 يتوصل بها الى حفظ رأى وهدمه كانت ذلك الرأى من الفقه أو غيره وهى
 طريقتان طريقة البردوى وهى خاصة بالادلة الشرعية من النص والاجماع
 والاستدلال وطريقة العميدى وهى عامة في كل دليل يستدل به من أى علم كان
 وأكثره استدلال وهو من المناحى الحسنة والمغالطات فيه فى نفس الامر كثيرة
 واذا اعتبرنا النظر المنطقي كان فى الغالب أشبه بالقياس المغالطى والسوفسطائى
 الا أن صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة تحرى فيها طرق الاستدلال

كما ينبغي وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة اليه وضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره جاؤا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف وهى لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم فى الامصار الاسلامية وهى مع ذلك كالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

١٠ * علم الكلام *

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقابية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب الساب وأهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة فى برهان عقلى يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير الى حدوده فى الملة وما دعا الى وضعه فنقول ان الحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت من الذوات او من الافعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عابها بها تقع فى مستقر العادة وعنهما يتم كونه وكل واحد من هذه الاسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخر ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنهى الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب فى ارتقائها تتفصح وتضاعف طولا وعرضا ويحار العقل فى ادراكها وتعميدها فاذا لا يحصرها الا العلم المحيط سببا الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة أسبابها فى الشاهد القصور والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه والقصور والارادات امور نفسانية ناشئة فى الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضا وتلك التصورات هى أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع فى النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع أحد على مبادئ والامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هى أشياء ياقبها الله فى الفكر يتبع بعضها بعضا والاسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وانما

يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة ويقع في مداركها على نظام
 وترتيب لان الطبيعة محصورات لنفس وتحت طورها واما التصورات فخطها
 اوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها
 فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر الى الاسباب
 والوقوف معها فانه وادبهم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة
 قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى
 ما فوقه فزلت قدمه واصبح من الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان
 والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك
 بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الاسباب على نسبة
 لانعامها اذ لو عامناها لتحرزنا منها فانتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة
 وأيضا فوجه تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف
 عليها بالعادة لاقران الشاهد بالاستناد الى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة
 وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه
 الى مسبب الاسباب كلها وفعالها وموجدتها لترسخ صفة التوحيد في النفس على
 ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء
 الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فان
 وقف عند تلك الاسباب فقد انقطع وحققت عليه كلمة الكفر وان سبغ في بحر
 النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنا الضامن له
 أن لا يعود الا بالحبيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد
 المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا
 تثقن بما يزعم لك المكبر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف
 على تفصيل الوجود كله وسفه رايه في ذلك واعلم ان الوجود عند كل مدرك في
 بادي رايه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من

ورائه الا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع
 والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى ايضا
 يسقط عنده صنف المرئيات ولولا مايردهم الى ذلك تقايد الآباء والمشيخة من
 اهل عصرهم والكافة لما اقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف
 لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه
 منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فاعلم هناك ضربا من
 الادراك غير مدركاتنا لان ادراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خالق
 الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط
 فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ماأمرك الشارع به من اعتقادك
 وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لانه من طور فوق ادراكك
 ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك نقادح في العقل ومداكه بل
 العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن
 به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء
 طوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن
 به الذهب فطمع ان يزن به الجبال وهذا لا يدرك على ان الميزان في احكامه غير
 صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له ان يحيط بالله
 وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن في هذا الغلط من
 يقدم العقل على السمع في امثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رايه فقد
 تبين لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فاعمل الاسباب اذا تجاوزت في الارتقاء
 نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن ان تكون مدركة فيفضل العقل في بيدها
 الاوهام ويحار وينقطع فاذا التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكيفيات
 تأثيرها وتفويض ذلك الى خالقها المحيط بها اذ لفاعل غيره وكلها ترتقى اليه
 وترجع الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل

عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان المعتبر في هذا التوحيد ليس
 هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكيم فان ذلك من حديث النفس وانما
 الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان المطلوب من الاعمال
 والعبادات ايضا حصول ملكة الطاعة والالتقياد وتفريغ القلب عن شواغل ماسوى
 المعبود حتى ينقأ المرید السالك ربانيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق
 ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم ان رحمة ايتيم والمسكين
 قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر ما أخذه من
 الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفر عنه واستكف
 أن يباشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف
 والحمو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام
 الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة
 المسكين قربة الى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة
 وحصول ملكتها فمضى رأى يتيما أو مسكينا بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب
 في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره
 من دات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف
 ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل
 عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل
 الاتصاف والتحقيق وينجى العلم الثانى النافع في الآخرة فان العلم الاول المجرد
 عن الاتصاف قليل الجدوى والتمتع وهذا علم أكثر المظار والمطلوب انما هو
 العلم الحالى الماشئ عن العادة * واعلم أن الكمال عند الشارع فى كل ما كلف
 به انما هو فى هذا فاطاب اعتقاده فالكمال فيه فى العلم الثانى الحاصل عن
 الاتصاف وما طلب عماله من العبادات فالكمال فيها فى حصول الاتصاف والتحقق
 بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة

قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جمعت قرّة عيني في الصلاة فان الصلاة
صارت له صفة وحالا يجحد فيها منتهى لذته وقرّة عينه وأين هذا من صلاة الناس
ومن لهم بها فويل للمصايين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا
الصراط المستقيم صراط الدين أعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد
بين لك من جميع ما قررتاه أن المطلوب في التكليف كلها حصول مائة راسخة
في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية
وهو الذي تحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكليف القلبية والبدنية ويتفهم
منه أن الايمان الذي هو أصل التكليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب
أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيمية من ذلك الاعتقاد
القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في
طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني
وهذا أرفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة
ولا كبيرة اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناخه طرفة عين
قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل
لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه
هل يرد أحد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته
القلوب ومعناه أن مائة الايمان اذا استقرت عمر على النفس مخالفتها شأن
الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمثابة الجبهة والنظرة وهذه هي المرتبة العالية
من الايمان وهي في المرتبة الثابتة من العصمة لان العصمة واجبة للانبيا وجوبا
سابقا وهذه حاصله للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم وبهذه الملكة
ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف وفي
تراجم البخاري رضى الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن الايمان قول
وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الايمان وأن تطوع رمضان من

الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه والى ملكته وهو فعلى وأما التصديق الذى هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فن اعتبر أوائل الاسماء وحمه على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الاسماء وحمه على هذه الملائكة التى هى الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح فى اتحاد حقيقته الاولى التى هى التصديق اذ التصديق موجود فى جميع رتبة لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو الخاص من عهدة الكفر والفصيل بين الكافر والمسلم فلا يجزى أقل منه وهو فى نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت فى الحال الخاصة عن الاعمال كما قلناه قافهم * واعلم ان الشارع وصف لنا هذا الايمان الذى فى المرتبة الاولى الذى هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلنا التصديق بها بقولنا واعتقادها فى أنفسنا مع الاقرار بالسنتنا وهى العقائد التى تقررت فى الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هى العقائد الايمانية المقررة فى علم الكلام ونشر اليها مجمل لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوده فقول * اعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذى رد الافعال كلها اليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن فى هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا لم نعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود اذ ذلك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه فى ذاته عن مشابهة المخلوقين والالما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والاشابه المخلوقين ثم توحيد به بالايجاد والالما يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد انه عالم قادر فبذلك تم الافعال شاهد قضيته لكمال الايجاد والخلق ومريد والالما يخص شئ من المخلوقات ومقدر لكل كائن والالما ارادة حادثة وانه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالايجاد ولو كان لامر فان كان عبنا فهو للبقاء السرمدى بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من

شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإيتاء بذلك وبيان الطريقين وأن الجملة للمعجم وجهن للعذاب هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحقها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر منارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمع وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر للدلالة من غير تأويل في أي كثيرة وهي سلوب كلاما وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن أي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فأمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرأها كما جاءت أي آمنوا بلها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من النعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات ان كان بالمعقولية واحدة من الجسم وان خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه

الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه والى ملكته وهو فعلى وأما التصديق الذى هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فن اعتبر أوائل الاسماء وحملة على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الاسماء وحملة على هذه الملائكة التى هى الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح فى اتحاد حقيقته الاولى التى هى التصديق اذ التصديق موجود فى جميع رتبة لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو الخاص من عهدة الكفر والتصديق بين الكافر والمسلم فلا يجزى أقل منه وهو فى نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت فى الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه بقافهم * واعلم ان الشارع وصف لنا هذا الايمان الذى فى المرتبة الاولى الذى هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها فى أنفسنا مع الاقرار بالسنتنا وهى العقائد التى تقررت فى الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هى العقائد الايمانية المقررة فى علم الكلام ولنشر اليها مجمل لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فقول * اعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذى رد الافعال كلها اليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن فى هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود اذ ذاك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه فى ذاته عن مشابهة المخلوقين والالهاما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والاشابه المخلوقين ثم توحيد به بالابجاد والالهام يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد انه عالم قادر فبذلك تتم الافعال شاهد قضيته لكمال الابجاد والخلق ومريد والالهام يخص شئ من المخلوقات ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة وانه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالابجاد ولو كان لامر فان كان عبثاً فهو للبقاء السرمدى بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من

شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشفاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتتمام لطفه بنا في الايتاء بذلك وبيان الطريقين وأن الجمة للنعيم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققتها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر منارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل حدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمع وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر للدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلاما وصرحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فأمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها بمبحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤها كما جاءت أي آمنوا بلها من عند الله ولا تعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لمصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه فمريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقهم في التجسيم الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من النعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غيبة وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه

ولم يبق الا جعلهم لفظ الجسم اسما من اسمائه ويتوقف مناسه على الاذن وفريق
منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات كاثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت
والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم الى التجسيم فنزعوا مثل الاولين الى قولهم
صوت لا كالأصوات جهه لا كالجهاات نزول لا كالنزول يعنون من الاجسام
واندفع ذلك بما اندفع به الاول ولم يبق في هذه الظواهر الا اعتقادات الساف
ومذهبهم والايمن بها كما هي لئلا يكر النبي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة
من القرآن ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر
له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم ونهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض
عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع
وولع الناس بالتسديين والبحث في سائر الانحاء وألف المتكلمون في التنزيه
حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي الساب فقضوا نفي صفات
المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك
من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بان الصفات ليست عين الذات ولا غيرها
وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام وهو مردود لعدم
اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك المسموع أو المنصر وقضوا
بنفي الكلام لشبهه ما في السمع والبصر ولم يعقوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس
فقضوا بان القرآن مخلوق بدعة صرح الساف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة
واقضها بعض الخلفاء عن أئمتهم فعمل الناس عابها وخالف أئمة السلف فاستحل
لخلافهم أيسار كثير منهم ودماءهم وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالادلة
العقاية على هذه المقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن
الاشعري امام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية
وقصر التنزيه على ما قصره عليه الساف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه فثبت
الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل

والعقل ورد على المتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلاح والتحسين والتقييح وكمل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن همله وكذلك على الامة وقصارى أمر الامامة انها قضية مصاحبة اجماعية ولا تلتحق بالعقائد فذلك الحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعها علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف اولست براجعة الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في ثبات الكلام المفسى وكثر أتباع الشيخ ابى الحسن الاشعري واقتنى طريقه من بعده تلميذه كان مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاصى أبو بكر الباقلانى فتصدر للامامة في طريقهم وهدبها ووضع المقدمات العقائدية التي تتوقف عليها الادلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والحلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية في وحوار اعتقادها اوقف تلك الادلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجمات هذه الطريقة وجاءت من أحسن الننون النظرية والعلوم الدينية الا أن صور الادلة تعتبر بها لاقيسة ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لما لبسها للعلوم الفاسفية المباشرة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبى بكر الباقلانى امام الحرمين ابو المعالى فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الارشاد واتخذة الناس اماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفاسفية بأنه قانون ومعيار للادلة فتمت يسر به الادلة منها كما يسر من سواها ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للاقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين

التي أدلت الى ذلك وربما ان كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم الى ذلك فيها ولم يمتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار اليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما ادخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الايمانية وجعواوهم من خصوم العقائد اناس الكثر من مذاهب ابيتدعة ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقايدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلاسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتبا. المسائل فيهما * واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستندون في أكثر احوالهم بالكائنات واحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلواهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات الا أن نظره فيها يخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الالهيات انما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث انه يدل على الوجود وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عاينها بالادلة العقائية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد واذا تأملت حال الفن في حدونه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والادلة علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلفت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة بحيث لا يميز أحد الفتن من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعاه البيضاوي في الطواع ومن جاء بعده من علماء المعجم في جميع تأليفهم

الا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب ولاغراق
 في معرفة الحجاج ، فور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام
 فانما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه ومن
 اراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن
 الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط
 في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى
 الجملة فينبغي أن يعلم ان هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد
 على طالب العلم اذ الملحة والمبتدعة قد انقرضوا والائمة من اهل السنة كفونا
 شأنهم فيما كتبوا ودونوا والادلة العقلية انما احتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا
 وأما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه الباري عن كثير ايها ماته واطلاقه ولقد
 سئل الجنيد رحمه الله عن قوم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هؤلاء
 فقيل قوم يزهون الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفى
 العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة
 معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي
 المؤمنين

١١ ﴿ علم التصوف ﴾

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل
 عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق
 والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن
 زخرف الدنيا وزينتها والزهد في فيما يقبل عاينها الجمهور من لذة ومال وجاه
 والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما
 فشا لاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا
 اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله

ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فمعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قلت والاطهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصور وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والافراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بما خذ مدركة لهم وذلك ان الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وارادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة والفرح والحزن عن ادراك المؤمن أو المتلذذ به والنشاط عن الحمم والكسل عن الاعياء وكذلك المرید في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال اما ان تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما ان لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المرید يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فالمرید لا بد له من الترقى في هذه الاطوار وأصاها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها اخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فتعلم انه انما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر الفسائسية والواردات القلبية فانها يحتاج المرید الى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لان حصول النتائج عن الاعمال

ضرورى وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه وبحاسب
 نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا
 كأنها شاملة وغاية أهل العبادات اذا لم يتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات
 مخلصا من نظر الفقه في الاجزاء والامثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالاذواق
 والمواجد ليطاعوا على انها خالصة من التقصير أولا فظهر أن أصل طريقهم
 كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه الاذواق والمواجد
 التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويرتقي منها الى غيرها ثم لهم
 مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم اذا اوضاع
 اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا
 عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فالهنا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم
 الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على
 صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات
 والعبادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في الميام بهذه المجاهدة ومحاسبة
 النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى
 منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت
 العلوم ودونت وألف الفقهاء في المصنف وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك
 كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة
 النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي
 في كتاب عوارف المعارف وامثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في
 كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم
 وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد ان
 كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها انما تناقى من صدور الرجال كما وقع
 في سائر العلوم التي دوت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير

ذلك * ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاصلاصاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شئ منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتسمية الروح ولا يزال في نموّ وتزيد الى أن يصير شهودا بعد أن كان عاميا ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب داته في تحقق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهمهم وقوى نفسوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يحسبون عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالشك فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منها اذا هاجهم وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوة لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم * ثم ان قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وانهم كشفوا ذوات الوجود وتصورا حقائقها كلها من العرش الى الفرش هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم ان هذا الكشف لا يكون

صحيحا كاملا عنده الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب
 الجوع والخلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين
 وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله ان المرأة الصعبة اذا
 كانت محدبة أو مقعرة وحوذى بها جهة المرئي فانه يتشكل فيها معوجا على غير
 صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا فالاستقامة لنفسه كالانبساط
 للمرأة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف
 تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش
 والكرسى وأمثال ذلك وقصرت مداك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم
 أذواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان
 والدليل بنافع في هذه الطريق ردا وقبولا اذ هي من قبيل الوجدانيات وربما
 قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فآنى
 بالانغمض فالانغمض بالنسبة الى أهل النظر والامطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني
 شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك النسخ فانه ذكر
 في صدور الوجود عن الماعل وترتيبه ان الوجود كله صادر عن صفة الوجدانية
 التي هي مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة
 لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلى وأول مراتب التجليات عندهم تجلى الذات
 على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الابدان والظهور لقوله في الحديث الذي
 يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فأحببت ان أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا
 الكمال في الابدان المتزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني
 والحضرة الكمالية والحقيقة الحمديدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق
 الانبياء والرسول أجمعين والكمال من أهل الملة الحمديدية وهذا كله تفصيل الحقيقة
 الحمديدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهباتية وهي مرتبة
 المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا

في عالم الرتق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل
التجني والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه
لعمومه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل
وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول
بالوحدة المطابقة وهو رأى اغرب من الاول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن
الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها
والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان
وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب
كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولها وزيادة القوة المعدنية ثم القوى الحيوانية
تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذلك القوة الانسانية مع الحيوانية
ثم الملك يتضمن القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة
للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي اثبتت في جميع الموجودات كليه
وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة
الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات
الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع
الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثاونها بالجنس مع النوع
في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا
كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه رانما أوجبها عندهم الوهم
والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهبان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة
ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الالوان من أن وجودها مشروط
بالضوء فاذا عدم الضوء لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات
المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل والموجودات المعقولة والمتوهمة
ايضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فاذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود

المدرك البشري فهو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن سنالك تفصيل الوجود
 بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والبار
 والسماء والكواكب انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك
 من التفصيل الذي ليس في الوجود وانما هو في المدارك فقط فاذا فقدت المدارك
 المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك واحد وهو انا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال
 النائم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا
 ما يفصله له الخيالي قالوا فكيفنا اليقظان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل
 بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم
 الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ما يخص رأيهم على ما يفهم
 من كلام ابن دهقان وهو في عية السقوط لاننا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون
 عنه واليه بقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلمة والكواكب وسائر
 الاشياء الغائبة عنا والاسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن
 المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المرید عند الكشف ربما يعرض له
 نوع هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز بين
 الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام المرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد
 عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لانه يخشى على المرید من وقوفه عندها
 فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين
 من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توعدوا في ذلك فذهب الكثير
 منهم الى الحلول والوحده كما أشرنا اليه وماؤا الصحف منه مثل الهروي في
 كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف
 وابن الفارض والجم الاسرائيلي في قصائد ثم وكان سلفهم خالطين للاسماعيلية
 المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيبة الائمة مذهبا لم يعرف لاوهم
 فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت

عفاؤهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عايه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليتهم رفعوه الى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا والافعل رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشئ يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحناوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنى أو اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومداهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويرتقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان في صدورهما عن موجدتها وتكوونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والاكوان بانواع

الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فنكر ومحسن ومتأول فلما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفرائني من أئمة الاشعرية على انكارها لا اتباعها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتجدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقاية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الواحدان عندهم بمنزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا يتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة * وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم انهم أهل عيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على التصدي الخليل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد وأمثاله ومن

لم يعلم فضله ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحمانا على
 تأويل كلامه وأمامنا تكلم بتمامها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ
 أيضا ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور
 وهو مناك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الأمة الذين
 أشرفنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من
 الأبرار إنما همم الاتباع والاقتراء بالاستطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك
 أعرض عنه ولم يفتل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وانه
 ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنصير في مدارك
 الانسان وعلم الله أوسع وخلقته أكبر وشريعته بالهداية أملاك فلا ينطقون بشيء
 مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من
 أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل ياتزمون طريقهم كما تاتوا في عام
 الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتراء ويأمرون أصحابهم بالترامها وهكذا
 ينبغي ان يكون حال المرید والله الموفق للصواب

﴿ علم تعبیر الرؤيا ﴾ ١٢

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الأمة عندما صارت العلوم صنائع وكتب
 الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف
 وربما كان في الملوك والامم من قبل الا أنه لم يصل اليها للاكتفاء فيه بكلام
 المتعبين من أهل الاسلام والافالرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق
 ولا بد من تعبیرها فاعلم كان يوسف الصديق صوات الله عليه تعبیر الرؤيا كما
 وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي
 بكر رضى الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم
 الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وقال لم يبق من المبشرات
 الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما بدى به النبي صلى الله

عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وكان
النبي صلى الله عليه وسلم اذا انتقل من صلاة الغداة يقول لاصحابه هل رأى أحد
منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين
واعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو أن الروح القلبي وهو البخار
اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشرايينات ومع الدم في سائر
البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا أدركه الملال بكثرة
التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح
البدن ما يغشاء من برد الليل الخمس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه
القلبي فيستجم بذلك معاودة فعله فتعطت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو
معنى النوم كما تقدم في اول الكتاب ثم ان هذا الروح القلبي هو مطية لا وح
العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته
وذاته عين الادراك وانما يمنع من تعقله والمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب
الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد حلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع
الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت
شواغله فلا بد له من ادراك نحة من عنده بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة
قد خمت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول
ما هنالك من المدارك اللائقة من عنده واذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى
بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك
الجسمانية للعالم انما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه ينتزع من الصور
المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحتفظها له الى وقت الحاجة اليها
عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية
فيترقى التجريد من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك اذا
أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألتفتت الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له

ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلية الى الحسى والخيال أيضا واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا العسالمة وأضغاث الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور منزلة من الروح العقلية المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها لياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلية اذا أدرك مدركة وألقاه الى الخيال فصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا انه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وان المدرك وراءها وهو يهتدى بقرائن اخرى تبين له المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب ان يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب ان تشبه بالعدو اعظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن اوعية وامثال ذلك ومن المرثى ما يكون صريحاً لا يفتقر الى تعبير لجلالها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث واعلم ايضا أن الخيال اذا التقى اليه الروح مدركة فانما يصوره في القوالب المعتادة للحس مالم يكن الحس ادركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعشى ان يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئاً من هذه وانما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جسم مداركه التي هي المسموعات والمشمومات وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم ان علم التعبير

علم بقوانين كلية يدنى عليها المعبر عمارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحياة تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خالقت فيه وكل ميسر لما خالق له ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوايين وتناقلها الناس لهذا العهد والنف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين اهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة لاسالمى وهو علم مصفى بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

﴿ ١٣ ﴾ العلوم العقلية وأصنافها *

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للاسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بجملة بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليفة وتسمى هذه العلوم علوم الفلاسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الاول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وقائده تمييز الخطا من الصواب فيما ياتمه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بتمهي فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى

هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها واما أن يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أو لها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق أما المتصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها اما من حيث ذاتها او من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي وهو معرفة ما يعرض للنكم المتفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة سبب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعدادها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبرها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطيقي أولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتمديها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد الى آخرها واعلم أن أكثر من عني بها في الاجيال الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وها فارس والروم فكانت أسواق العاوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والساطان قبل الاسلام وعصره لهم فكان هذه العاوم بجزر زاخرة في آفاقهم وامصارهم وكان للسكلدانيين ومن قبلهم من

السريانيين ومن عاصروهم من القبط عنابة بالسحر والنجمانة وما يتبعها من
 الطالاسم وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان فاخص بها القبط وطمي بحرهما
 فيهم كما وقع في المتأو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم
 من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الممال بخطر ذلك وتحريره فدرست علومه
 وبطالت كان لم تكن الا بقايا يتناقها منتحاو هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع
 أن سيوف الشرح قائمة على ظهورها مائة من اختبارها وأما الفرس فكان
 شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعاً لما كانت عليه دولتهم من
 الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم
 حين قتل الاسكندر دارا وغاب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم
 مالا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد
 ابن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين فكتب
 اليه عمر أن اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه
 وان يكن ضلالاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس
 فيها عن أن تصل اليها وأما الروم فكانت الدولة منهم ابونان أولاً وكان لهذه
 العلوم بينهم مجال رحب وجاهها مشاهير من جاهلهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم
 واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعاليم كانوا يقرؤون
 في رواق يظاهم من الشمس والبرد على مازعموا واتصل فيها سنده تعاليمهم على
 ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط اللدن ثم الى تلميذه أفلاطون
 ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافروودي وتلميذون وغيرهم
 وكان ارسطو معلماً للاسكندر ملكهم الذي غاب الفرس على ملكهم وانزع الملك
 من أيديهم وكان أرسطو في هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى
 المعلم الاول فطار له في العالم ذكر * وما انقرض أمر اليونان وصار الأمر
 للقيصرية وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع

فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائهم ثم ملكوا الشام وكتب
 هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له
 وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للائم وابتدأ أمرهم بالسنداجة والغفلة عن
 الصنائع حتى اذا تبجبح الساطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم
 يكن اعبرهم مع الائم وتفتنوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه
 العلوم الحكيمية بما سمعوا من الاواقفة والاقسة المماهدين بعض ذكر منها وبما
 تسمو اليه أفكار الاسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يبعث
 اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقايدس وبعض كتب الطبيعيات
 فقرأها المسلمون واطعموا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها
 وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث هذه العلوم
 حرصا وأوفد الرسل على ماوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها
 بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف سنيها البطار
 من أهل الاسلام وحنذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا
 كثيرا من آراء المذاهب الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا
 في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة
 أبو بصير الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والورير
 أبو بكر بن الصائغ بالاندلس الى آخرين باغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء
 بالشهرة والذكر واقتصر كثير على اتحال التعاليم وما يضاف اليها من علوم النجامة
 والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد
 الجريطي من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها
 داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا آراءها والذنب في
 ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركبت ربح
 العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه

تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وانهم على نبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على آليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بان له مائة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية وقدماء عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما لبها من العدو الشمالية نافعة الاسواق وأن رسوماها هناك متحددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطابقتها متكررة والله أعلم بما هنالك وهو يخاق ما يشاء ويختار

﴿ العلوم العددية ﴾ ١٤

وأولها الارتمطاطي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الاعداد اذا توالت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على تواليها والازواج على تواليها ومثل أن الاعداد اذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة ان كانت عدة فردا وذلك مثل اعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والخمسات والمدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد الى العدد الاخير

فتكون مائة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على كل
 مائة ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مائة الضلع
 الذي قبله فتكون مخمسة وهم جرا وتتوالى الاشكال على توالي الاضلاع ويحدث
 جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الاعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها
 ثم المربعات ثم الخمسات الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ وتحدث في
 جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضاً خواص غريبة استقرت منها وتقرر
 في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد
 وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست
 في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأنها يدخل في براهين الحساب والحكمة
 المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه
 بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما
 المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في
 الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخاضوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله
 ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم ﴿ ومن فروع علم
 العدد صناعة الحساب ﴿ وهي صناعة عملية في حساب الاعداد بالضم والتفريق
 فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف تصاعف عدداً باحاد
 عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الاعداد اما بالافراد مثل
 ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد باجزاء متساوية
 تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح
 من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسراً
 وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله
 فيكون منه العدد المربع فان تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه
 الصناعة حادثة احتيج اليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيراً

وتداولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها
لأنها معارف منضحة وبراہین منتظمة فينشأ عنها في الغاب عقل مضيء درّب
على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره انه يغاب عليه
الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا وبتعود
الصدق ويلازمه منهدبا ومن أحسن التأليف المبسوطه فيها لهذا العهد بالمغرب
كتاب الحصار الصغير ولا بن البناء المرأ كشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله
مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من
البراہین الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو
كتاب جدير بذلك وانما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم
التعاليم لان مسائلها وأعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فانما هو اعطاء
العمال في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم مالا يوجد في أعمال المسائل
فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوى المتبين * ومن فروع الجبر
والمقابلة * وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض
اذا كان بينهما نسبة تقتضى ذلك فاطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات
مراتب من طريق التضعيف بالضرب أو لها العدد لان به يتعين المطاوب المجهول
باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة
ابهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال
وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل
المفروض في المسئلة فتخرج الى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الاجناس
فيقالون بعضها ببعض ويحبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويحطون
المراتب الى أقل الاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة التي عليها مدار الجبر
عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال
والجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد ويتعين والمال وان عادل الجذور يتعين بعدتها

وان كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسى من طريق تفصيل الضرب فى الاثنين وهى مبهمه فيعينها ذلك الضرب المفصل ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجىء ستة وأول من كتب فى هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمى وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتابه فى مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعه فيه وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشى وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأنعمه ببراہين هندسية والله يزيد فى الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى ﴿ ومن فروعہ أيضا المعاملات ﴾ وهو تصريف الحساب فى معاملات المدن والبياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف فى ذلك صناعاتا الحساب فى المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الماكرة فى صناعة الحساب ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الاندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوى وابن السمح وأبى مسلم بن خلدون من تأليف مسامة المجرىطى وأمثالهم ﴿ ومن فروعہ أيضا الفرائض ﴾ وهى صناعة حسابية فى تصحيح السهام لذوى الفروض فى الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على وراثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله أو كان فى الفريضة اقرار وانكار من بعض الورثة فيحتاج فى ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعاومه

ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الورثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضائها مثل الفرائض ثابث العلم وانها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندى أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لأفرائض الوراثات فانها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم واما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديما وحديثا وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنذر والجمعدي والسردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطبي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب ولامام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم وورسوخ قدمه وكذلك الحنبلية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لأرب سواه

﴿ العلوم الهندسية ﴾ ١٥

هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح والجسم واما المنفصلة كالأعداد وفيها يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقايدس ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول مترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف

الترجمين فمنها لحنين بن اسحق ولثابت بن قررة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة أربعة في السطوح وواحدة في الاقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجدور وحس في المجسمات وقد اختصره الناس اختصارا كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزءا منها اختصره به وكذلك ابن الصات في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون سروحا كثيرة وهو مبدأ العاوم الهندسية باطلاق واعلم أن الهندسة مفيد صاحبها اضاءة في عقابه واستقامة في فكره لان براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهييع وقد زعموا انه كان مكتوبا على باب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للمكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقدار وينقيه من الاوضار والادران وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه * ومن فروع هذا الفن الهندسة اخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات * أما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لناودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ناودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعاليم الاولى وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل

الغريبة والهيأ كل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهيأ كل بالهندام
 والميخان وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل
 العمالية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبه وربما استغلق
 على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبون له الى بني
 شاكر والله تعالى أعلم ﴿ ومن فروع الهندسة المساحة ﴾ وهو فن يحتاج اليه
 في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع
 او غيرها أو نسبة أرض من أرض اذا قويت بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في
 توظيف الخراج على المزارع والقدن وسائين الغراسية وفي قسمة الحوائط
 والاراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة
 وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه ﴿ المناظر من فروع الهندسة ﴾ وهو
 علم يتبين به أسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن
 ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه البصر وقاعدته المرئي ثم يقع
 الغلط كثيرا في رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة
 تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطأ
 مستقيما والساعة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفية
 بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المطر في القمر باختلاف العروض
 الذي ينبغي عليه معرفة رؤية الالهة وحسب الكسوفات وكثير من أمثال هذا
 وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من الاسلاميين
 ابن الهيثم وغيره فيه أيضا تأليف وهو من هذه لرياضة وتفاريحها

﴿ علم الهيئة ﴾

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة ويستدل بكيفيات
 تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة
 بطرق هندسية كما يبرهن على أن مركز الارض مابين لمركز فلك الشمس

بوجود حركة الاقبال والادبار وما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعدد الميول له وأمثال ذلك وأدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد فاننا علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعتمون بالرصد كثيرًا ويتخذون له الآلات التي توضع لرصد بها حركة الكوكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول أيدي الناس وأما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه وصنع الآلة المعروفة لرصد المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه وانقل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور إنما تعطى صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة بل إنما تعطى أن هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات وانت تعلم انه لا يبعد ان يكون الشيء الواحد لازماً لمتخلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطى الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الائمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء وخلصه ابن رشد أيضاً من حكماء الاندلس وابن السمعان وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولا بن الفرغاني هيئة ما خصه

قربها وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا اله الا هو رب العالمين * ومن فروعه علم الازياج * وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطاء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لاي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذا الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول هاتفي معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويما ولناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني (١) وابن السكاد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أن ابن اسحاق عول فيه على الرصد وأن يهوديا كان بصقلية ماهرا في الهيئة والتعالم وكان قد عنى بالرصد وكان يبعث اليه ما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فيكان أهل المغرب ينادون به لوناقة مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماه انتهاج فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بوضعها في عالم الانسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما بينه بعد وتوضح فيه أدانهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

١٧ * علم المنطق *

(١) قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلدون في ترجمته قبيل آخر المحمدين اه

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود والمعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز الإنسان عنها بأدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلي ثم ينظر الدهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهم باعتبار ما اتفق فيه ولا يزال يرتقى في التجريد إلى الكل الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطاً وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالی وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم أما تصورا للماهيات ويعنى به إدراك ساذج من غير حكم معه وأما تصديقا أي حكما بثبوت أمر لا مر فصار سعى الفكر في تحصيل المطلوبات أما بان تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية منبذة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص وأما بان يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور لأن فائدة ذلك إذا حصل إنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من المنكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليشتمز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قاتون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملا جملا ومغترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في بونان أرسطو فهذب

مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجمعه أول العلوم الحكيمية وفتحها ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن وقد ينظر في القياس لاعتبار مطاب مخصص بل من جهة إنتاجه خاصة ويقال للنظر الأول أنه من حيث المادة ومعنى به المادة المنتجة للمطاب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني أنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية الأول في الاحتمال العالية التي ينتهي إليها تحريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكرة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفة والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحسوس لا احتمال غيرها فإذ ذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتب الحد وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإخام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضا من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكرة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به

القياس المغالطي فيحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب
 الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات والثامن
 كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء
 أو البعرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب
 المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم نذكر حكام اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة
 ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا
 فيها مقالة تخص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعا وترجمت كلها في اللغة
 الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي
 وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب
 فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا
 بالنظر في الكليات الخمس ثمرة وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب
 البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا
 في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه
 ثم تكلموا في القياس من حيث نتاجه للمضاب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا
 النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجهد والخطابة والشعر
 والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها إنشاما وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم
 المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما ورد من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من
 حيث أنه فن برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول
 من فعل ذلك الامام نجر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجى
 وعلى كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار
 وهو طويل واختصر فيها مختصر النوجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل
 في قدر أربعة أوراق أخذ بتجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد
 فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة

المطوق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

﴿ ١٨ ﴾ الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يباحثه من الحركة والسكون فينظر في الاجسام السماوية والعمصرية وما يتولد عنها من حيوان واسان ونبات ومعادن وما يتكون في الارض من العيون والزلازل وفي الخسوف من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مسدا الحركة للاجسام وهو النفس على تنوعها في الاسان والحوان والنبات وكتب ارسطو فيه موجوده بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلاسفة أيها المتأمنون وألف الناس على حدودها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب السماء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ثم لخصه في كتاب الجلاء وفي كتاب الاشارات وكأنه يخالف ارسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فانخص كتب ارسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا والامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكننا الآمدي وشرحه أيضا بصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله بهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ ١٩ ﴾ علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة ويره المرض بالادوية والاغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بامزجة الادوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بضعفه وقبوله الدواء أولاً في

السجدة والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالتها
الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعملها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة
المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما أفردوا
بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعللها وأكحالها وكذلك
ألقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التي لاجلها خلق كل عضو من
أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه
من لواحقه وتوابعه وامام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين
جالينوس يقال انه كان معاصر العيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية في
سبيل تغلب ومطووعة اغتراب وتآليفه فيها هي الامهات التي اقتدى بها جميع
الاطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل
الرازي والمجوسي وابن سينا ومن اهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر
وهي لهذا العهد في المدين الاسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي
من الصنائع التي لا تستدعيها الا الحضارة والترقى كما نبينه بعد

(فصل) وللبادية من اهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة
على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحى ونجازه وربما يصح منه البعض
الا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا
الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول
في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وانما هو امر كان عاديا للعرب
وقع في ذكر احوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر احواله التي هي
عادة وجبلة لامن جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله
عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من
العادات وقد وقع له في شأن تاقيح النخل ما وقع فقال أتم أعلم بامور دنياكم
فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة

على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك
 وصدق العقد الايمانى فيكون له أثر عظيم فى النفع وليس ذلك فى الطب المزاجى
 وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع فى مداواة المبطون بالمسك والله
 الهادى الى الصواب لا رب سواه

﴿ الملاححة ﴾ ٢٠

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهى النظر فى النبات من حيث تميته ونشوئه
 بالسقى والعلاج وتعمده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر
 فيها عندهم عاما فى النبات من جهة غرسه وتهيته ومن جهة خواصه وروحانيته
 ومشاكلتها الروحانيات الكواكب والهيئات كل المستعمل ذلك كله فى باب السحر
 فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الملاححة البيطية
 مسوبة لعلماء البيط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل
 عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقصروا منه
 على الكلام فى النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له فى ذلك وحذفوا
 الكلام فى الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الملاححة البيطية
 على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مفقدا نقل منه مساهمة فى كتبه السحرية
 أمهات فى مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب
 المتأخرين فى الملاححة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام فى الغراس والعلاج وحفظ
 النبات من جوائحه وعوائقه وما يعرض فى ذلك كله وهى موجودة

﴿ علم الاهليات ﴾ ٢١

وهو علم ينظر فى الوجود المطلق فأولا فى الامور العامة للجسمانيات والروحانيات
 من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر فى مبادئ
 الموجودات وأنها روحانيات ثم فى كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم
 فى أحوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدأ وهو عندهم علم

شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وأن ذلك عين
 السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تل للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسمونه
 علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الاون فيه موجوده بين أيدي الناس ولخصه ابن
 سينا في كتاب الشفاء والنجاء وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس ولما
 وضع المتأخرون في علوم القوم ودوتوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم
 خاط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في
 مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائلها بمسائلها فصارت
 كلها في واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوها
 فيما واحدا قدموا الكلام في الامور العامة ثم أتبعوه بالجهانيات وتوابعها ثم
 بالرحائيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعده الامام ابن الخطيب في المباحث المشرقية
 وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة
 وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك
 على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقائد متلقاة من
 الشريعة كما تلقاها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تمويل عليه بمعنى أنها
 لا تثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وأبصاره وما تحدث فيه المتكلمون
 من اقامة الحجج فليس نكتا عن الحق فيها فالتماعيل بالدليل بعد أن لم يكن معلوما
 هو شأن الفلاسفة بل انما هو التماس حجة عقاية تعضد عقائد الايمان ومذاهب
 السانف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية
 وذلك بعد أن تفرض صحيجة بالادلة العقلية كما تلقاها السانف واعتقدوها وكثير
 ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك
 الانصار العقلية فهي فوقها ومحيطه بها لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل
 تحت قانون النظر الضعيف والمدارك الخاط بها فاذا همدانا الشارع الى مدرك
 فينبغي أن تقدمه على مداركنا وثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل

ولو عارضه بل يعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعملا وسكت عمالم نفهم من ذلك ونفوضه الى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام أهل الاحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع المضرة فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتمييز به بين الفنين فانهما مختلفان عند المتأخرين في الوجود والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المضاب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه انشاء لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل انما هو رد على الماخذين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأعمدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لاسم يدعون فيها الوجدان ويعبرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه وتبينه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

﴿٢٢﴾ علوم السحر والطاسمات ﴿﴾

هي علوم بكيفية استعداد تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر اما بغير معين أو بمعين من الامور السماوية والاول هو السحر والثاني هو الطاسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والسكندانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا

بالاحكام انما كانت كتبهم مواعظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى فى صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بلشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاز على ربدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفى صناعة السيمياء لانها من توابعها لان احالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره فى موضعه * ثم جاء مساهمة بن أحمد الجربطى امام أهل الاندلس فى التعاليم والسحريات فأنخص جميع تلك الكتب وهدبها وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد فى هذا العلم بعده * ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك ان النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهى مختلفة بالخواص وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد فى الصنف الآخر وصارت تلك الخواطر فطرة وجلة لصنفها فنفس الانبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستمد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع ذلك من التأثير فى الاكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية فاما تأثير الانبياء فمدد الهى وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد فى الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر والثانى بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص

الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى
 التخيلية يعتمد صاحب هذا التأثير الى القوى التخيلية فيتصرف فيها بنوع من
 التصرف ويبقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده من ذلك
 ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في
 الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والانهار
 والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة او
 الشعبذة هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى
 البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه
 الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة
 والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له والوجهة الى غير
 الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت ولهذا
 اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه
 بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان
 الاوليان من السحر لهما حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة لا حقيقة لها
 اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل فالقائلون بأن له
 حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين والقائلون بان لا حقيقة له نظروا الى المرتبة
 الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه
 هذه المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لا مزية فيه بين العقلاء من
 أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين
 كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملائكين ببابل هاروت وماروت
 وما يعلمان من احد حتى يقولوا انما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون
 به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله وسحر رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره

في مشط ومشاقة وجف طاعة ودفن في بئر ذروان فانزل الله عز وجل عليه
 المـوذنين ومن شر الفئات في العقد قالت عائشة رضی الله عنها فكان لا يقرأ على
 عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل
 وهم الكلدانيون من النسط والسرانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الاخبار
 وكان لا سحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا
 كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتباغون فيه وبقي من آثار ذلك في
 البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص
 المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك
 المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها
 مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينث من ريقه مد اجتماعه في فيه بتكرير
 مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعداءه
 لذلك تفاؤلا بالعقد والازام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفسه في
 فعنه ذلك استعمارا للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة خرج
 منه مع المنفع متعاقبة بريقه الخارج من فيه باللفظ فتزل عنها أرواح خبيثة
 ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر
 وعمله من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متحرق
 ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا أمعاؤها ساقطة من بطونها
 الى الارض وسمعنا ان بأرض الهند هذا العهد من يشير الى اسان فيتحت قلبه
 ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد
 من حبوبها شيء وكذلك سمعنا ان بأرض السودان وأرض الترك من يسحر
 السحاب فيمطر الارض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطاسمات عجائب في
 الأعداد المتحابية وهي رك ركد أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان
 واربعة وثمانون ومعنى المتحابية ان أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث

وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه فتسمى
لاجل ذلك المتحابية ونقل اصحاب الطالسمات أن لتلك الاعداد أثرا في الالفة بين
المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزمرة وهي في بيتها أو
شرفها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الاول ويضع
على أحد التمثيلين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد
اكتلافه أعنى المحبوب ما أدى الاكثر كمية أو الاكثر أجزاء فيكون لذلك من
التأليف العظيم بين المتحابين مالا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب
الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى
أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هنداصبع صورة أسد شائلا ذنبه
عاما على حصة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية مناسبة من رجائه
الى قبالة وجهه فافرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه
حول الشمس بالوجه لاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما
من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار انتقال
فادونه من الذهب وشمس بعد في الزعفران محلولا بماء لورد ورفع في خرقة
حرير صفراء فانهم يزعمون أن نمسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم
وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على
من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له
التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكره وانه يوضع عند حاول
الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر طالع ملوكي يعتبر فيه
نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في
مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس
في الطيب فزعموا أن له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير
وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكال

مسائها وذكر لنا أن الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسحر المكتوم
 وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عاينه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن
 فيما اظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب سنف من هؤلاء المنتحايين لهذه
 الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى
 الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون النعم بالبعج فتبعج ويسمى أحدهم
 لهذا العهد باسم البعاج لان أكثر ما ينتحل من السحر بعج الانعام يرهب
 بذلك أهالها ليعطوه من فصاها وهم متسترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم
 من الحكام لقيت منهم جماعة وشاعدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن
 لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كثرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب
 سطر فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأن بهذه الرياضة والوجهة
 يصلون الى حصول هذه الافعال لهم وأن التأثير الذي لهم انما هو فيما سوى
 الانسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما نفعل
 فيما تمشى فيه الدراهم أى ما يملك ويباع ويشترى من سائر الممتلكات هذا ما زعموه
 وسألت بعضهم فأخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقننا على الكثير منها
 وعابنتها من غير رية في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارها في العالم فاما
 الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعا أثر للنفس
 الانسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الانسانية بان لها آثارا في بدنها على
 غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كينات الارواح تارة
 كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة النصورات النفسانية أخرى
 كالذى يقع من قبل التوهم فان الماشى على حرف حائط أو على جبل منتصب
 اذا قوى عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون
 أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط
 والجبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الانسانية

وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك أثرا للنفس في بدنها من غير
الاسباب الجسدية الطبيعية فجاز أن يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها إذ
سببها الى الابدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لانها غير حالة في البدن
ولا منتظمة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الاجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر
والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات
يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الاعداد وخواص الموجودات وأوضاع
الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح
بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية
بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين
صاحبه في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو
مفطور عندهم على تلك الجيلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم
بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو
مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته
النفسانية وبامداد الشياطين في بعض الاحوال فيبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة
والذات في نفس الامر وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي
وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير ولانفوس المتمحضة للخير
والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر إنما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال
الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وحرر الاعداء وأمثال ذلك ولانفوس
التمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض
المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا في أحوال العالم وليس معدوما من جنس
السحر وإنما هو بالامداد الالهي لان طريقهم ونجاتهم من آثار النبوة وتوابعها
ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله وإذا اقتدر
أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتها لانه متقيد فيما يأتيه ويذره للامر الالهي فما

لا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق
وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فذلك
لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا
كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمححل كان لم يكن وكذلك
لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفثات في العقد
قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا
انحات فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش
كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثني العسدي منسوجا بالذهب في
أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادية
واقعة على الارض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم أهل الطلسمات
والاوقاف مخصوص بالغاب في الحروب وان الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم
أصلا الا أن هذه عارضها المدد الالهي من ايمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وتمسكهم بكلمة الله فأنحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا
يعملون وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعته كله بابا واحدا
محظورا لان الافعال انما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح
آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح ديننا ومالا يهمننا في شيء منهما فان كان
فيه ضرر أو نوع ضرر فالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات
لان أثرها واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد الناظر فتفسد العقيدة
الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في
الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه قربة الى الله
فان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه فجعات الشريعة باب السحر والطلسمات
والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر وخسسته بالحظر والتحريم واما الفرق
عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع الى التحدي وهو

دعوى وقوعها على وفق مادعاه قالوا والساحر مصروف عن مثل هذا التحدى فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فاذا لاتقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والسرف في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر وكأتهما على طرفي التقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوى العزيز لا رب سواه

﴿ فصل ﴾ ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عند ما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الاحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سبب ذلك الشيء عن اتصف به فيؤثر فساده وهو جبلة فطرية أعني هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وان كان منها مالا يكتسب أن صدورها راجع الى اختيار فاعلمها والفطري منها قوة صدورها لانفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك الا لانه ليس تم يريده ويقصده أو يتركه وانما هو مجبور في صدره عنه والله تعالى أعلم بما في الغيوب ومطامع على ما في السرائر

﴿ ٢٣ ﴾ علم أسرار الحروف ﴿

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد أن صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن

الكمال الاسمانى مظاهره أدرراح الافلاك والكواكب وان طبائع الحروف وأسرارها سرية فى الاسماء فهى سارية فى الاكوان على هذا المظام والا كوان من لدن الابداع الاول تمتقل فى أطواره وتعرب عن أسرارها فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاربع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحالج بالعدد مسائله تعددت فيه تأليف البونى وابن العربى وغيرهما ممن اتبع آثارهما وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار السارية فى الاكوان ثم اختلفوا فى سر التصرف الذى فى الحروف بما هو ففهم من جعله للمزاج الذى فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كالأعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف فى طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتبوعت الحروف بقانون صناعى يسمونه التسكرير الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والذال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر الى أن تنفذ فتعين لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والصاد والتاء والطاء وتعين لعنصر الماء أيضا سبعة الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والتاء والغين وتعين لعنصر التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين والحروف النارية لدفع الامراض الباردة والمضاعفة قوة الحرارة حيث تطب مضاعفها اما حسنا أو حكما كما فى تضعيف قوى المرنخ فى الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا ترتيب طبائع الحروف عند المنغاربة غير ترتيب المشارقة ومنهم الغزالي كما ان الجمل عندهم مخالف فى ستة أحرف فان الصاد عندهم بستين والصاد بتسعين والسين المهمة بثامائة والطاء بثامائة والغين بتسعمائة والشين بالف اه قاله

اصم الهريزى

لدفع الامراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسا أو حكما كتضعيف قوى التمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف للنسبة العددية فان حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعا وطبعيا فينهما من أجل تناسب الأعداد تناسب فى نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالاتها كلها على الأثنين كل فى مرتبته فالباء على اثنين فى مرتبة الآحاد والكاف على اثنين فى مرتبة العشرات والراء على اثنين فى مرتبة المئين وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالاتها على الأربعة وبين الأربعة والأثنين نسبة الضعف وخرج للاسماء أوافق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوافق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما فامسر التناسب الذى بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والأعداد فأمر عسر على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف قل المونى ولا نظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلى وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهى وأما التصرف فى عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثر الأكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله انه قوى روحانية من جوهر التهر تفعل فيما له رك فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبجورات جليات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة فى جاتها تحيل وتصرف ما حصلت فيه الى ذاتها وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للأجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذى تسرى فيه الى نفسها بالأحالة ولذلك يقولون موضوع

الكيمياء جسد في جسد لان الاكبر اجزاؤه كلها جسديّة ويقولون موضوع
الطلمس روح في جسد لانه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية والطبائع السفلية
جسد والطبائع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات
وأهل الاسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله انما هو للانسانية
والهيم البشرية لان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحاکمة عليها بالذات الا أن
تصرف أهل الطلسمات انما هو في استنزال روحانية الافلاك وربطها بالصور أو
بالنسب العددية حتي يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته
فعل الخميرة فيما حصلت فيه وتصرف اصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة
والكشف من النور الالهي والامداد الرباني فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير
مستعصية ولا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها
ويحتاج أهل الطلسمات الى قائل من الرياضة تفيد النفس قوة علم استنزال
روحانية الافلاك وأهول بها وجهة ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم
هي الرياضة الكبرى وليس لقصد التصرف في الاكوان اذ هو حجاب وانما
التصرف حاصل لهم بالعرض مكرامة من كرامات الله لهم فان خلاصا صاحب الاسماء
عن معرفة أسرار الله وحقائق الملائكة الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف
واقصر على مناسبات الاسماء وصبائح الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه
الحيشة وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان اذا لافرق بينه وبين صاحب
الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية علمية
وقواتين مرتبة وأما صاحب أسرار الاسماء اذا فاته الكشف الذي يطلع به على
حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة وليس له في العلوم
الاصطلاحية قانون برهاني يعون عاينه فيكون حاله أضعف رتبة وقد يمزج
صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء
الحسنى أو ما يرسم من أوقافها بل ولسائر الاسماء أوقاتا تكون من حظوظ

الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم كما فعلاه البونى في كتابه الذي سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية وهي برزخية الكمال الاسمائى وانما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة عندهم انما هو بحكم المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلناه وكذلك قد يمزج أيضا صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمنااسبة بين الكلمات والكواكب الا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الاسماء من الاطلاع في حال المشاهدة وانما يرجع الى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعان والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلذلك واحد من الكواكب قسم منها يخصه وبينون على ذلك مباني غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسالمة العجريطى في الغاية والظاهر من حال البونى في انماطه انه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب أي الدعوة التي يقام له بها شهد له ذلك اما بانه من مادتها أو بان التناسب الذي كان في أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما أوتيتم من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت ان السحر حق مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا * ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من الاسئلة * بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هي شبه المعاينة والمسائل السبالية ولهم في ذلك كلام كثير من ادعية وأعجبه زايرة العالم السبتي وقد تقدم

ذكرها وتبين هنا ما ذكره في كيفية العمل تلك الزايرة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ثم نكشف عن الحق فيها وانها ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الافادة فقط وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه التصديده الا أننا تحريبا أصح النسخ منها في ظاهر الامر والله الموفق بتنه وهي هذه

يقول سبتي ويحمد ربه * يصل على هاد الى الناس أرسلنا
محمد المبعوث خاتم الانبيا * ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الاهذه زايرة العالم الذي * تراه بحيككم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاما تدبرها العـلا
ومن أحكم الرطب فيدرك قوة * ويدرك لاتقوى وللـكل حصلا
ومن أحكم التصريف يحكم سره * ويعقل نفسه وصح الوـلا
وفي عالم الامر تراه محققنا * وهذا مقام من بالأذكار كـلا
فهذي سرائر عليكم بكتـها * أقمها دوائر وللحاء عدلا
فظاء لها عرش وفيه نقوشنا * بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلكها * وارسم كواكبا لادراجها العـلا
وأخرج لاوتار وارسم حروفها * وكور يمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسو بيوتـه * وحقق بهامهم ونورهم جـلا
وحصل علوما للطباع مهندسا * وعلم الموسيقى والارباع مثـلا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم * وعلم بالآلات لـحقق وحصـلا
وسو دوائر ونسب حروفها * وعلمها أطلق والاقام جـدولا
أمير لنا فهو نهاية دولة * زناية آبت وحكم لها خـلا
وقطر لاندلس فابن لهوهم * وجاء بنو نصر وظفرهم تـلا
ملوك وفرسان وأهل لحكمة * فان شئت نصهم وقطرهم جـلا

ومهدى توحيد بتونس حكمهم * ملوك وبالشرق بالاوقاق نزلا
 واقسم على القطر وكن متفقدا * فان شئت للروم فبالحر شكلا
 فغش وبرشمنون الراء حرفهم * وافر سهم دال وبالطاء كمالا
 ملوك ككناوة ودلو لقا فهم * واعراب قومنا بترقيق أعمالا
 فهند حباشى وسند فهرمس * وفرس ططارى وما بعدهم طلا
 فقيصرهم حاء ويزد جردهم * لكاف وقبطهم سلامه طولا
 وعباس كلهم سريف معظم * ولا كن تركى بذال الف عمل عطلا
 فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * نختهم بيوتانم نسب وجدولا
 على حكم قانون الحروف وعامها * وعلم طبائعها وكلامه منلا
 فن علم العاوم يعلم علمنا * ويعلم أسرار الوجود وأكلاما
 فيرسخ علمه ويعرف ربه * وعلم ملاحيم بحاميم فصلا
 وحيث أنى اسم والعروض يشقه * حكم الحكيم فيه قطعا ليقتلا
 وتأنيك أحرف فسو لضرها * وأحرف سيويه تأنيك فيصلا
 فمكن بتنكير وقابل وعوضن * بترنيمك الغالى للاجزاء خانخلا
 وفي العقد والمجزور يعرف غالبا * وزد ملح وصفيه في العقل فعلا
 واختر اطاع وسويه رتبة * واعكس بجنديه وبالذور عدلا
 ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطى حروفها وفي نظمها أنجلا
 اذا كان سعد والكواكب أسعدت * فحسبك في الملك ونيل اسمه الملا
 وايقاع داهم بمرموز ثمة * فنسب دناديننا نجد فيه منها
 وأوتار زيرهم فلكحاء بهم * ومثناهم المثلث بحيمه قد جلا
 وادخل بافلاك وعدل بجدول * وارسم ابا جاد وباقيه جملا
 وجوز شذوذ النحو بجوز ومثله * أنى في عروض الشعر عن جملة ملا
 فاصل لديتنا وأصل لفقها * وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا

قد دخل لفظ طاط على الوقف جندره * وسبح باسمه وكبر وهلا
 فتخرج أبياتا وفي كل مطلب * بنظم طبيعي وسر من الملا
 وتفتي بحصرها كذا حكم عددهم * فعمل الفواتيح ترى فيه منهلا
 فتخرج أبياتا وعشرون ضعفت * من الالف طبيعيا فياصح جدولا
 تربك صنائعا من الضرب أمكات * فصح لك المنى وصح لك الملا
 وسجع بزيرهم وأثنى نقرة * أفها دوائر الزير وحصلا
 أفها بأوافق وأصل لعددها * من أسرار أحر فهم فعندبه سلسلا
 ك ك و ك ح و ا ه عم له ر ل اسع كط ا
 ن م ن ح ع ف و ن منافرة

* الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفياتها ومقادير المقابل
 منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة الى موضع المعاق مر
 امتزاج طبائع وعلم وطب أو صناعة الكيمياء *
 أيا طالبا للطب مع علم جابر * وعالم مقدار المقادير بالولا
 ذاشت علم الطب لا بد نسبة * لاحكام ميزان تصادف منها
 فيشفي عايبا لكم والاكسير محكم * وامتزاج وضعكم بتصحيح انجلا
 * الطب الروحاني *

وشئت ايلوش ٥٦٥ * ودهنه انجلا *
 * لهرام برجيس * وسبعة أكمل
 لتعليل أوجاع البوارد صححوا * كذلك والترائب حيث تنقلا
 كد منع ٣٥٥ ٣٥٥ ٦ صح لهادي وواح اآ و هج وي سكره لال ح ٣٣٥
 ع ع م م ح ح ٢٢٤٢ ل ك عامر

* مطارنج الشعاعات في مواليد الملوك وبنيتهم *
 وعلم مطارنج الشعاعات مشكل * وضاع قسيها بتنطقه جلا

واكن في حج مقام امامنا * ويبدو اذا عرض الكواكب عدلا
 بدال مرا كزبين طول وعرضها * فن أدتك المعنى علا ثم فوضلا
 مواقع تربيع وسه مسقط * لتسديسهم تثليث بيت الذي تلا
 ي زاد لتربيع وهذا قياسه * يفينا وحذره وبالعين أعمالا
 ومن نسبة الربيعين ركب شعاعك * بصاد وصعفه وتربيته انجلا

اختص صح ع ٨ سع وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد
 عمله ولم ير أعجب منه

مقامات الملوك المقام الاول ٥ المقام الثماني ن ٤ مهممه صع عر المقام الثالث
 ع ع والمقام الرابع لاج المقام الخامس لاي المقام السادس ع بير المقام السابع عره
 خط الاتصال والانفصال ع ١ ٥ ح ط ح ل ح

خط الاتصال ١ ٨ ح ل ح

خط الانفصال ل ح ع ا ح ع و

الوتر للجميع وتابع الجزر التام rrrr * * ع ١ ١ ٥ ٥ ص ح ع

الاتصال والانفصال ع ل ح

الواجب التام في الاتصالات ع س ع ح ه

اقامة الانوار م ع ع

الجزر المجيب في العمل صح ا ه ه ع =

اقامة السؤال عن الملوك ع ح ا ٥ لا ح ل ح ا ٤

مقام الاولانور ع ع مقام بها ح ح لا

﴿ الانفعال الروحاني والانقياد الرباني ﴾

أيا طاب السر لتهايـل ربه * لدى أسمائه الحسنى تصادف منها
تطيعك أخيار الانام بقلابهم * كذلك ريسهم وفي الشمس أعمالا
ترى عامة الناس اليك تقيدوا * وما قاته حقا وفي الغير أهمل
طريقك هذا السيل والسبل الذي * أقوله غيركم وانصر كوا اجتلي
إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى * ودينا متينا أو تكن متوصلا
كذي النون والجنيده مع سر صنعة * وفي سر بسطام أراك مسر بلا
وفي العالم العلوى تكون محمدا * كذا قالت الهدى وصوفية الملا
طريق رسول الله بالحق سامع * وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبطشك تهليل وقوسك مطاع * ويوم الخميس البدء والاحداثجلى
وفي جمعة أيضا بالاسماء منه * وفي اثنين لا حسنى تكون مكمل
وفي طائه سر وفي هائه اذا * أراك بها مع نسبة الكس أعطلا
وساعة سعد شرطهم في نقوشها * وعود ومصطبي بخور تحصلا
وتسلو عليها آخر الحشر دعوة * والاخلاص والسبع المثاني مرتلا
(اتصال أنوار الكواكب) بلعاني لاهى لا ظغش لدسع قصح ه ف وى
وفي يدك اليمنى حديد وخاتم * وكل برأسك وفي دعوة فلا
وآية حشر فاجعل القلب وجهها * واتسلو اذا نام الانام ورتلا
هى السر فى الاكوان لاشئ غيرها * هى الآيه العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطبا اذا جدت خدمة * وتذكر أسراراً من العالم الملا
سرى بها ناجى ومعروف قبله * وباح بها الحلاج جهرا فأعقلا
وكان بها الشبلى يدأب دائما * الى أن رقى فوق المرادين واعتلى
فصف من الادناس قلبك جاهدا * ولازم لاذكار وصم وتفلا
فانال سر القوم الا محقق * عايم باسرار العالوم محصلا

ع صح صح وسلم ع ك ك ملح و ا ا ا ملح سحاع

ح ح ا ح س و ك صر ح ا ا ر م

﴿ مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب
وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة ﴾

الانفعال الطبيعي

لبرجيس في المحبة الوفق صرفوا * بقزدير أونحاس الخياط أكلا
وقيل بفضة صحيجا رأيتة * فجعلك طالما خطوطه ماء لا
توخ به زيادة النور للتـمر * وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم * ووقت لساعة ودعوتة ألا
ودعوتة بغاية فهي أعمات * وعن طيمان دعوة ولها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها * بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفا بدال ولامها * وذلك وفق للمربع حصلا
إذا لم يكن يهوى هواك دلالها * فبدال ليبدو واوزينب معطلا
فحسن لبائه وبائهم اذا * هواك وباقيهم قليلة جملا
وتنقش مشاكل بشرط لوضعهم * ومازدت أنسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلها سوا * فنورى وبسطامى بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقدنا * أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس يوتها بالف ونيف * فباطنها سر وفي سرها انجلا

﴿ فصل في المقامات للنهاية ﴾

لك الغيب صورة من العالم العلا * وتوجدتها دارا وملبسها الخلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه * بنثر وترتيل حقيقة انزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق * فيحكى الى عود بجواب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها * وعند تجليها البسطام أخذلا

ومات أجليه وأشرب حبها * جنيد وبصرى وللجسم أهمل
 فنطلب في التهايل غايته ومن * باسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
 ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى * ويسهم بالزلفى لدى جيرة الملا
 وتجر بالغب إذا جدت خدمة * تريك عجائبنا بمن كان مؤملا
 فهذا هو الفوز وحسن تناله * ومنها زيادات لتفسيرها تلا

﴿ الوصية والتختم والايان والاسلام والتحرير والاهلية ﴾
 فهذا قصيدنا وتسعون عده * وما زاد خطبة وختم وجدولا
 عجبت لآيات وتسعون عدها * تولد آياتنا وما حصرها انجها
 فن فهم السر فيفهم نفسه * وبفهم تفسيرها مشابه أشكلا
 حرام وشرعى لاظهار سرنا * لناس وان خصوا وكان التأهلا
 فان شئت أهليه فغاظ عيّنهم * وتفهم برحلة ودين تطولا
 لملك أن تنجو وسامع سرهم * من القطع والافشا فترأس بالملا
 فنجل لعباس لسره كاتم * فنال سعادات وتابمه علا
 وقام رسول الله في الناس خاطبا * فمن يرأسن عرشا فذلك أكلا
 وقد ركب الارواح أجساد مظهر * قالت لقتاهم بم بدق تطولا
 الى العالم العلوى يقنى فناؤنا * ويبس أثواب الوجود على الولا
 فقد تم نظما وصل الهنا * على ختم الرسل صلاة بها الملا
 وصل اله العرش ذا المجد والملا * على سيد ساد الانام وكلا
 محمد الهادى الشفيع امامنا * وأصحابه اهل المكارم والملا

مرتبة ناسه عن الحله سرح أسع صح مع . ٨ ن الله ن و ط ع تصحيح

النيرين وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطاوب ب سر ك ل و و ه ا ه

لو طرح الاوتار الكاية ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ح

الاول ثم ٨ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠
كملت الزايرجة

﴿ كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم ﴾

بحول الله منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها ﴿

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيد ﴿ تنبيه ﴾ تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلاثة اصول حروف عربية تنقل على هياتها وحروف برسم الغبار وهذه تبديل فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الادوار عن اربعة فان زادت عن اربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم فاختصروا من الجدول بيوتاً خالية متى كانت اصول الادوار زائدة على اربعة حسبت في العدد في طول الجدول وان لم تزد على اربعة لم يحسب الا العاصر منها ﴿ والعمل في السؤال يقتصر الى سبعة اصول ﴾ عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثني عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة في الناقص أبداً ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد أبداً وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واطافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضروبة في اربعة تكون اثني عشر دوراً ونسبة هذه الثلاثة الادوار التي هي كل دور من اربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انها تضرب ادواراً رباعية ايضاً ثلاثية ثم انها من ضرب ستة في

اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل ويتبع هذه الادوار الاثني عشر نتائج
وهي في الادوار امان تكون نتيجة او أكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سؤالاً
عن الزايرة هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء
حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره
من رأس الجوزاء وثلاثة وتر رأس الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه حروف
السؤال ونظرنا عدتها واول ما تكون ثمانية وثمانين وأكثر ما تكون ستة وتسعين
وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سؤالها ثلاثة وتسعين ويختصر السؤال ان
زاد عن ستة وتسعين بأن يسقط جميع ادواره الاثني عشرية ويحفظ ماخرج
منها ومابقى فكانت في سؤالها سبعة ادوار الباقى تسعة أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ
الطالع اثني عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم تثبت أعدادها
ايضا ان زاد الطالع عن اربعة وعشرين في اوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو
واحد وساطان الطالع وهو اربعة والدور الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع
والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منهما في ساطان البرج
يباغ ثمانية وأضف الساطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة اصول فماخرج من
ضرب الطالع والدور الاكبر في ساطان القوس مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل
في ضاع ثمانية من اسفل الجدول صاعدا وان زاد على اثني عشر طرح ادوارا
وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من
الساطان والطالع يكون الطالع في ضاع السطح المبسوط الاعلى من الجدول
وتعد متواليات خمس ادوارا ونحفظها الى ان يقف العدد على حرف من اربعة
وهي ألف او باء او جيم او زاي فوق العدد في عمادنا على حرف الالف وخاتم
ثلاثة ادوار فضرينا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الاول فأثبتته
واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة
بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على احدها

فلا يعتبر وتستمر على ادوارك وادخل بعد ما في الدور الاول وذلك تسعة في صدر الجدول ثمانية البيت الذي اجتمعا فيه وهي ثمانية مارا الى جهة اليسار فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها ابدا حرف مركب وانما هو اذن حرف ثاء اربعمائة برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك أن تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولا ثم ضع الدور الثاني وأصف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجه من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف ثاء خمسمائة وانما هو نون لان دورها في مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة بخمسين لان دورها سبعة عشر فلو كانت سبعة عشر لكات مئينا فأثبت نونا ثم ادخل بخمسة أيضا من أوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدا فقهر العدد واحدا يقع على خمسة أصف له واحدا السطح تكن ستة وأثبت واوا وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وأضعفها ثمانية الخارجه من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني عشر أضعفها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو مالا الدور الثاني فمدخنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوقع العدد على واحد أثبت الالف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من

حروف الاوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني وضع الدور الثالث
واضف خمسة الى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحدا نقل الدور في ضلع ثمانية
بواحد وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق
وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الاوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم
عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر
وهو واحد فخذ ما يلي حرف سين من الأوتار فكان ب أثبتها وعلم عليها من
بيت القصيد وهذا يقال له الدور انعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة
عشر بثلاثها وتضيف اليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو
حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول
بثلاثة عشر وانظر ما قاراه من السطح وأضعفه بثلاثة وزد عليه الواحد الباقي
من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت للجماة سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه
وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة بثلاثها وزد عليها الواحد
الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا
آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة الباقي من
الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في الساطان وهذا الدور آخر العمل
في البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة
في ضلع ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخر من بيت القصيد
فلتاسع حرف راء فائته وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر
ما قاربها من السطح يكون ج قهقر العدد واحدا يكون ألف وهو الثاني من
حرف الراء من بيت القصيد فأثبتته وعلم عليه وعد مما يلي الثاني تسعة يكون ألف
أيضا أثبتته وعلم عليه واضرب على حرف من الاوتار وأضعف تسعة بثلاثها تبلغ
ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتها وعلم عليها
من بيت القصيد ثمانية وأربعين وادخل بثمانية عشر في حروف الاوتار تقف

على س اثنتها وعلم عليها اثنين وأضف اثنين الى تسعة تكون أحد عشر ادخل
 في صدر الجدول بأحد عشر تقابها من السطح الف اثنتها وعلم عليها ستة وضع
 الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب
 على حرفين من الاوتار واضعف خمسة بمئاتها واخذها الى سبعة عشر عدد دورها
 الجملة سبعة وعشرون ادخل بها في حروف الاوتار تقع على ب اثنتها وعلم عليها
 اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين
 الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ق اثنتها وعلم عليها
 ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغيار وذلك
 حرف ب اثنتها وعلم عليه اربعة وخمسين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
 السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد فتبين اذ ذاك أن دور النظم من خمسة
 وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد فاضرب
 خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت فانقل الدور في ضلع
 ثمانية بواحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لانه دور ثان
 من شاة تركيبية ثمانية بل أضفنا الاربعة التي من اربعة وخمسين الخارجة على
 حروف ب من بيت القصيد الى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة الى ثلاثة
 عشر التي للدور تباع ثمانية عشر ادخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابها من
 السطح وهو ألف اثنتها وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين
 من الاوتار ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال فما خرج منها زده مع بيت
 القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخل في العدد في
 بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد ذلك مناسبا لحروف السؤال
 فما خرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف الى ثمانية عشر
 ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل
 بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء اثنتها وعلم عليه من بيت القصيد ستة

وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع
للدور السابع وهو ابتداء لمخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد
تسعة تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيده بعد
الى اثني عشر دورا اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة
حسة عشر فضع في ضلع ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف
على خمسمائة وانما هي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتها وعلم عليها
من بيت القصيد اثنين وخمسين واسقط من اثنين وخمسين اثنين واسقط تسعة
التي للدور الباقي واحد وأربعون فادخل بها في حروف الاوتار تقف على واحد
اثبتة وكذلك ادخل بها في بيت القصيد نجد واحدا فهنا ميزان هذه النشأة
الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف الاخير الميزاني
وأخرى على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون ، اضرب على حرفين
من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة ادخل في ضلع
ثمانية وخمسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقف على عين بسبعين اثبتها
وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قباها من السطح وذلك واحد
اثبتة وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحدا من ثمانية وأربعين
للاس الثاني وأضف اليها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون وادخل بها في صدر
الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مثنوية لترايد العدد فتكون
مائتين وهي حرف راء أثبتها وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين فانتقل
الامر من ستة وتسعين الى الابتداء وهو أربعة وعشرون فاضف الى أربعة
وعشرين خمسة لدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين وادخل
بلمص منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت ٢ وعلم عليها وضع الدور
التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة
العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية

ولانه أول الثاثة الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات
فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مناثات البروج السابقة الخجلة
اثان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وانما
هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبة الآحاد والعشرات فأثبتته مائتين راء
وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأصنف الى ثلاثة عشر الدور واحد
الاس وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد تباع ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين
ونطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اصرب على حرفين من الاوتار وادخل
بسبعة تقف على حرف لام أثبتته وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشر وعدده
تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في صانع ثمانية بتسعة تكون خلافاصعد
بتسعة ثمانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعين
وانما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول ستة وثلاثين تقف على أربعة
زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقلة الأدوار فأثبت حرف دال وان أضفت
الى ستة وثلاثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو دخلت
بالتسعة لاغير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية
أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بمائة عشر التي
هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشرة فاطرح منه اثنين تكرر
التسعة الباقي ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين
بضربها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية والعدد واحد ثم ادخل بتسعة في
بيت القصيد وأثبت ماخرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة الى هي مركب
تسعة الماضية وأسقط واحدا وادخل في صدر الجدول ستة وعشرين وأثبت
ماخرج وهو مائتان بحرف را وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب
على حرفين من الاوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة
اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وحسب ما تكرر عليه المنى في الدور الاول وادخل

في صدر الجدول بخمسة تقف على خال نخذ ما قبله من السطح وهو واحد فادخل
 بواحد في بيت القصيد تكن سين أنته وعلم عليه أربعة ولو يكون الوقف في
 الجدول على بيت عامر لا ثبتنا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط
 واحدا وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تباع سبعة وثلاثين ادخل بها في الاوتار
 تقف على ستة أثبتها وعلم عليها وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف
 على لام أثبتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
 الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحدا صعد في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور
 آخر الادوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية
 والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وانما هي آحاد ثمانية وليس
 معنا من الادوار الا واحد فلو زاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة
 من مثلثات اثني عشر لكانت ح وانما هي د فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد
 أربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة أضعفها بمثلها للاس
 تبلغ عشرة أثبت ي وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت وجدناها في الرابعة
 دخلنا بسبعة في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت ف
 أثبتها وأضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في الاوتار تباع س
 أثبتها وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور فاتها آخر
 مربعات الادوار بلثلثات تبلغ أربعة وعشرين ادخل بها في بيت القصيد وعلم
 على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في
 الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها تسعة
 وهذا العدد يناسب أبدا الباقي من حروف الاوتار بعد طرحها ادوارا وذلك
 تسعة فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الاوتار
 وأضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل
 بها في حروف الاوتار تبلغ ألف أنته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت سبعة

التي هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين
والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك وأصعد في ضلع ثمانية بتسعة
وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة فيما نسب من السطح
وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عدد الأوتار الحرفية واطرح واحدا الباقي
من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها في البيت تبلغ خمسة فأثبتها
وأضعف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول ثمانية عشر وخذ ما في السطح
وهو واحد ادخل به في حروف الأوتار تبلغ مائة وعلم عليه واضرب على
حرفين من الأوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد
في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة
عشر أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وادخل بستة
عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية وعلم عليه أربعة وستين وأضف إلى خمسة
الثلاثة الزائدة على تسعين وزد واحدا الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة
ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية واضرب ما في السطح تجد واحدا
أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة في
صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات فانت لام وعلم عليه وضع النتيجة
الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد فانقل في ضلع ثمانية بواحد وأضف إلى
ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ
سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها في حروف الأوتار تكن
لأما أثبتنا فهذا آخر العمل والمثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن
هذه الزايرة علم محدث أو قديم بطالع أول درجة من القوس أثبتنا حروف
الأوتار ثم حروف السؤال ثم الأصول وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون
أدوارها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الأكبر
واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية

اضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدمثلا

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ان ل
م ن ص ع ف ص و ر س ك ل م ن س ع ف ض ق ر س
ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل ص ك
ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي

* حروف السؤال * ال ز ا ي ر ج ت ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م
الدور الاول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١
الدور الرابع ٩ الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١
الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١
الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣
الباقي ١ النتيجة الاولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة
١٣ الباقي ١

و ه ح و ع ع ف ا ي ع

١	س
٢	و
٣	ا
٤	ل
٥	ع
٦	ط
٧	ي
٨	م
٩	ا

۱۰

۱۱

۱۲

۱۳

۱۴

۱۵

۱۶

۱۷

۱۸

۱۹

۲۰

۲۱

۲۲

۲۳

۲۴

۲۵

۲۶

۲۷

۲۸

۲۹

۳۰

۳۱

۳۲

۱۰

۱۱

۱۲

۱۳

۱۴

۱۵

۱۶

۱۷

۱۸

۱۹

۲۰

۲۱

۲۲

۲۳

۲۴

۲۵

۲۶

۲۷

۲۸

۲۹

۳۰

۳۱

۳۲

٣٣	٥
٣٤	١
٣٥	ل
٣٦	ج
٣٧	د
٣٨	م
٣٩	ث
٤٠	ل
٤١	ا

فوزاوس درالاس اب ارقاع ارض ح ر ح ل د ا ر س ال د
ي وس ر ا د م ن ال ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين
مرتين الى أن تنهى الى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعا والله
أعلم ان ف ر و ح ر و ح ال و د س ا د ر ر س ر ه ال د ر ي
س و ان س د ر و اب لا ام رب و ال ع ل ل هذا آخر الكلام
في استخراج الاجوبة من زايرة العالم منظومة وللقوم طرائق اخرى من
غير الزايرة يستخرجون بها اجوبة المسائل غير منظومة وعندهم أن السر في
استخراج الجواب منظوما من الزايرة انما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب
وهو * سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق
الاخرى فيخرج الجواب غير منظوم فن طرائقهم في استخراج الاجوبة ما تنتقله
عن بعض المحققين منهم

* فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية *
اعلم أرشدنا الله واياك ان هذه الحروف أصل الاسئلة في كل قضية وانما تستنتج

الاجوبة على تجزئته بالكلمة وهي ثلاثة وأربعون حرفا كما ترى والله علام الغيوب اول اع ظ س ال م خ ي دل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ك ي ب م ض س ح ط ل ج ه د ن ك ث ا وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال

سؤال عظيم الخالق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدم مثلا
 فاذا أردت استنتاج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها وأثبت ما فضل منه ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفا يعاينه وأثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالاول من فضله والثاني من فضل المسئلة وهكذا الى أن يتم الفضلان أو بعد أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح حينئذ تضيف اليها خمس نونات تعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفا فتعمر بها جدولا مربعا يكون آخر ما في السطر الاول اول ما في السطر الثاني وتنقل البقية على حالها وهكذا الى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الاول بعينه وتوالي الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب المنتصية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينا الرخانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الملك الاربعة واحذر ما يلي
الايوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب
السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس علم
الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد
وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان
من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة
لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى
فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلية
يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدأ في رابع
مرتبة السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل
والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع في الرابع يخرج رابع عالم
التفصيل فيجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على
الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ويقسم المنكسر على الافق الاوسط يخرج الجزء
الثاني وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا في الرباعي وان شئت أكثر
من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الاوقات
بعد الحروف والله يرشدنا واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على أول رتب
السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة
من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين * ومن طريقهم أيضا استخراج
الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم أيدينا الله واياك بروح منه أن علم الحروف
جايل يتوصل العالم به لما لا يتوصل به غيره من العلوم المتداولة بين العالم والعمل
ه شرائط تلزم وقد يستخرج العالم أسرار الخائفة وسرار الطبيعة فيطلع بذلك
على نتيجتي الفاسفة أعي السيمياء وأختها ويرفع له حجاب المجهولات ويطاع
بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بارض المغرب ممن اتصل

بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملائكة مع الصبر مفتاح كل خير كما أن الخرق والعجاة رأس الحرمان فأقول اذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفايطوس أعني أبجد الى آخر العدد وهذا اول مدخل من علم الحروف فانظر مالذالك الحرف من الاعداد فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب نعمان يأتي عليها البيان فيما بعد واعلم ان لكل شكل من اشكال الحروف شكلا في العالم العلوي أعني الكرسي ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرسوم في اما كنه من الجداول الموضوعه في الزيارج واعلم ان قوى الحروف ثلاثة اقسام الاول وهو اقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم فسقى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الاجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكائية في عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة في النفس وبعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة فهذا سر العدد اليماني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س ق ت ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات ناسباب الامهات

الاول أعني الطبائع الاربع المنفردة فتمى أردت استخراج مجهول من مسألة ما
 فحقق طالع السائل او طالع مسأله واستنطق بحروف أوتادها الاربعه الاول
 والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوى والاوناد كما
 سنبين واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح اللفظ أو
 بالمعنى وكذلك في كل مسألة تقع لك بيانه اذا اردت ان تستخرج قوى حروف
 الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع اعدادها بالجمال الكبير فكان الطالع الحمل
 رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدى وهو اقوى هذه الاوتاد فاسقط من
 كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد المنطقه الموضوعه
 في دائرتها واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها واثبت تحت كل
 حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الاربعه وما يخصها كالاول
 وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الاوتاد والقوى والقرائن سطرًا متمزجا واكسر
 واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضهير
 وجوانه مثاله افرض أن الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فلهاء من العدد
 ثمانية لها النصف والرابع والثمن د ب ا الميم لها من العدد أربعون لها النصف
 والرابع والثمن والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ك ي ه د ب
 اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلاثان والثالث والخمس والسادس والعشر
 ك ي و ه ج وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل لفظ
 يقع لك واما استخراج الاوتاد فهو ان تقسم مربع كل حرف على اعظم جزء
 يوجد له مثاله حرف د له من الاعداد اربعة مربعها ستة عشر اقسما على اعظم
 جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع كل وتر مقابلا لحرفه
 ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في
 استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر
 الشيخ لمن عرف الاصطلاح والله أعلم

﴿ فصل في الاستدلال على مافي الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية ﴾
 وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علمته وما الموافق لبرئه منه فمر
 السائل أن يسمى ماشاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة
 لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت
 الدقيق في المسئلة والا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما بين
 فأقول مثلا سمى السائل فرسا فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة بيانه
 أن للفاء من العدد ثمانين ولها م ك ي ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق
 ن ك ي ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك قالوا عدد تام له د ج ب
 والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين متساويين
 فاحكم لاكثرهما حروفا بالغلبة على الآخر ثم احمل عدد حروف عناصر اسم
 المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالع واحكم للاكثر والأقوى
 بالغلبة

وصفة قوى استخراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة واليبوسة طبع السوداء فتحكم على
 المريض بالسوداء فاذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية خرج
 موضع الوجع في الحلق ويوافقه من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون
 هذا ماخرج من قوى اعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر وأما
 استخراج قوى العناصر من الاسماء العلمية فهو أن تسمى مثلا محمدا فترسم
 أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر الاربعة على ترتيب الفلك يخرج لك مافي

كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

نارى	ترابى	هوائى	مائى
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج	د د د
و و و	ز ز ز	ح ح ح	ح ح ح
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك	ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص	ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق	ر ر ر
س س س	ث ث ث	ث ث ث	خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ	ش ش ش

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لان عدد حروفه عشرون حرفا فجعلت له اعابة على بقية عناصر الاسم المذكور . هكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ نضاف انى أوتارها أو للوتر المنسوب للظالع فى الزايرة أو لوتر البيت المنسوب لمالك بن وهيب الذى جعله قاعدة لمزج الاسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخالق حزب فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجهد مثلا وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه فى امثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن رسمه مقطعا متمزجا بالناط السؤال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف هذا الوتر أعنى البيت ثلاثة وأربعون حرفا لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا يماثله وتثبت الفضائين سطرا متمزجا بعصه ببعض الحروف الاول من فضلة القطب والثانى من فضلة السؤال حتى يتم المضمانان جميعا فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية واربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم توضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج

توافق العدد الاصلى قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مزجت جدولا
 مربعات يكون آخر ما فى السطر الاول اول ما فى السطر الثانى وعلى هذا النسق
 حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف فى القطر على نسبة الحركة ثم
 تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية
 للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائرها النفسانية
 وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية
 هو ان تنظر الحرف الاول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذى حل فيه
 فان اتفقت فحسن والا فاستخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون فى جميع
 الحروف الجدولية وتحقق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر فى
 دوائرها الموسيقية ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه فى أسوس أوتاد الفلك
 الاربعة كما تقدم واحذر ما يلى الأوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة
 وهذا الذى يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط
 منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل
 عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط
 وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص
 بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط فى افق النفس الاوسط
 يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع اول
 عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر
 الاربعة أبدا فى رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثانى فى الثانى
 يخرج ثانى عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتحط
 من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول
 ومن هنا يطرد العمل فى التامة وله مقامات فى كتب ابن وحشية والبونى وغيرها
 وهذا التدبير مجرى على القانون الطبيعى الحكيمى فى هذا الفن وغيره من فنون

الحكمة الالهية وعاليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الالهية والنيرجات
الفلسفية والله الملهم وبه المستعان وعاليه التكلان وحسبنا الله وانم الوكيل

٢٤ * علم الكيمياء *

وعو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل
الذي يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها
لماهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام
والريش والبيض والعندرات فضلا عن المادن ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها
تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى اجزائها الطبيعية بالتصعيد
والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهاء الصاب بالفهر والصلاية وأمثال
ذلك وفي زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسدونه الا كسير
وانه يلتقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد
القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والمحاس بعد أن يحمي بالنار فيعود
ذهبا ابريزا ويكنون عن ذلك الا كسير اذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن
الجسم الذي يلتقي عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل
الصناعي الذي يقاب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم
الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا وربما يعزى الكلام فيها الى
من ليس من أهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى انهم يخصصونها به
فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعموا أنه لا يفتح
مقفاها الا من أحاط علما بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين
له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسامة
المجريخي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه
الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين
هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم

والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغاز
يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدوهم
الى هذه الرموز والالغاز ولا بن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على
حروف المعجم من ابداع مايجي في الشعر مانغوزة كلها لغز الاحاجي والمعاني فلا
تتكل تفهم وقد ينسبون للغز الى رحمه الله بعض التأليف فيها وليس بصحيح
لان الرجل لم تكن مدارك العالية لتنف عن خطأ ما يذهبون اليه حتى يتحمله
وربما نسبوا بعض المذاهب والاقول فيها لحالد بن يزيد بن معاوية ريب مروان
ابن الحكم ومن المعلوم البين ان خلد بن خالد من الجيد العربي والبدوود اليه أقرب
فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة فكيف له صناعة غريبة المنجى مبنية على
معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب المناظرير في ذلك من الصيغيات والطب
لم تطهر بعد ولم تترجم انهم الا ان يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك
الصناعية تشبه باسمه ممكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لابي
السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على
مذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من
الرسالة خارج عن الغرض والتقدمت التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها
الاولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخليق الاحجار
والجواهر وطبائع البقاع ولانما كن سمعنا اشتهرها من ذكرها ولكن أين لك
من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فيبد بمعرفة وقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم ان
يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من
أي كيف تكون فدا عرف هذه الثلاثة وأحكامها فقد طفر معلوبه وباع نهايته
من هذا العلم فأما البحث عن وجودها ولاستدلال عن تكونها فقد كفيينا كه
بما بعثنا به اليك من الاكسير وأما من أي شيء تكون فانما يريدون بذلك البحث
عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا من كل شيء بالقوة لانها

من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليها ترجع انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتى يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهى التى تخرج من القوة الى الفعل والتى لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها فى بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغى لك وفقك الله أن تعرف أوفق الاحجار المنفصلة التى لا يمكن فيها العمل وجسده وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التى هى عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدا وينبغى لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وحده وهل هو واحد فى الابتداء أو شاركه غيره فصار فى التدبير واحدا فسمى حجرا وينبغى لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلاى عنة وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فافهم * واعلم أن الذلاسة كلها مدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والعاملة فيه وذلك أن الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتاع من غيره لانه لاهياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذى تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتماه بالنفس الحية النورانية التى بها يفعل العظيم والاشياء المتقابلة التى لا يقدر عنها غيرها بالقوة الحية التى فيها وانما يفعل الانسان لاختلاف تركيب طبيعته ولو انفقت طبيعته لسلمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولما كان حالها باقيا فصبهان مدبر الاشياء تعالى * واعلم ان الطبائع التى يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة فى الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وايس لها اذا صارت فى هذا الحد أن تستحيل الى مامنه تركبت كما قلناه آنفا

في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضا وصارت شيا واحدا شيئا
 بالنفس في قوتها وفعالها وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد أن كانت طبائع مفردة
 باعيانها فياعجبا من أفاعيل الطبائع ان القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل
 الاشياء وتركيبها وتماها فلذلك قات قوى وضعيف وانما وقع التغير والفناء في
 التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني الاتفاق وقد قال بعض الاولين
 التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام
 دقيق المعنى لان الحكيم أراد بقوله حياة وبقاء خروج من العدم الى الوجود
 لانه مادام على تركيبه الاول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء
 والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع في
 هذا العمل خاصة فاذا بقي الجسد مخلول بسبب فيه لعدم الصورة لانه قد صار
 في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها ودمك انه لا وزن له فيه وسترى ذلك ان
 شاء الله تعالى وقد ينبغي لك أن تعلم ان اختلاط اللطيف باللطيف أهون من
 اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التماسك في الارواح والاجساد لان
 الاشياء تتصل باشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم ان العمل أوفق وأيسر من الطبائع
 اللطيفة الروحانية منها من الغايظة الجسمية وقد يتصور في العقل ان الاجساد
 أقوى وأصبر على النار من الارواح كما ترى تذهب والحديد والنحاس أصبر
 على النار من الكبريت والزئبق وغسيرا من الارواح فاقول ان الاجساد قد
 كانت ارواحا في بدنها فلما أصابها حر الكين قامها أجسادا لزجة غليظة فلما تقدر
 النار على أكلها لا فراط غاطها وترجها فاذا أفرخت النار عليها صيرتها أرواحا كما
 كانت أول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة ذات صابتها النار أبت ولم تقدر
 على البقاء عليها فيبعضي لك أن تعلم ماصير الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح
 في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه * اقول انما أبت تلك الارواح لاشتغالها
 ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا أحست بالرطوبة تعلقت

بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتدى بها الى أن تفتنى وكذلك الاجساد
 اذا أحست بوصول النار اليها لقلّة تدرجها وغلظها وانما صارت تلك الاجساد
 لا تشتعل لانها مركبة من أرض وماء صابر على النار فاطبفه متحد بكثيفه لطول
 الطبخ اللين المازج الاشياء وذلك أن كل متلاش انما يتلاشى بالنار لفارقة لطيفه
 من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصار ذلك الاقسام
 والتداخل مجاورة لا مما زجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما
 وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابها فاذا علمت ذلك علما
 شافيا فقد أخذت حظك منها ويبغي لك أن تعلم ان الاخلاط التي هي طبائع
 هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض منفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد
 بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف
 انك اذا أحكمت تدبير الطبائع وتألفتها ولم تدخل عليها غريبا فقد أحكمت
 ما اردت احكامه وقوامه اذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريبا
 فقد زاع عنها ووقع في الخطا * واعلم أن هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من
 قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت
 معه حينما جرى لان الاجساد مادمت غليظة جافية لا تيسط ولا تتزوج وحل
 الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن
 هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض وهو الذي
 يقاب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألوانا وأزهارا عجيبة وايس كل جسد يحل
 خلاف هذا الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق
 النار حتى يزول عن الغاظ وتنقب الطبائع عن حالاتها الى ما لها أن تنقلب من
 اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها
 هنالك قوة تمسك وتغوص وتقب وتشد وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله
 فلا خير فيه واعلم أن البارد من الطبائع ييس الاشياء ويمقد رطوبتها والحرار

منها يظهر رطوبتها ويعقد يابسها وانما أفردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الاجسام وتكون وان كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحريكها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما انه اذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقتة وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج الى البارد في هذه الاعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء الا من الميران المحرقة وأمرت ستطهير الطبائع والانفاس واخراج دسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتديبرهم قننا عمائم انما هو مع النار أولا واليهما يصير آخر فلذلك قالوا اياكم والنيران المحرقت وانما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجتمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء انما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه الا قهرته الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها ذكرت ترداد الارواح على الاجساد مرارا ليكون ألزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند الالمة أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه * واملق الان على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد احتموا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست لنا حاجة الى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لان الكلام يطول جدا وقد قات فيها تقدم ان العمل يكون في كل شيء بالقوة لان الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد أن نعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الخرائي ان الصبغ كله أحد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الابيض حتى يحول فيه وهو مضمحل مستقض التركيب والصبغ الثاني تقايب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه

كتقليب الشجر بل التراب الى نفسه وقلب الحيوان والنبت الى نفسه حتى
 يصير التراب نباتا والنبت حيوانا ولا يكون الا بالروح الحى والكيان الفاعل الذى
 له توليد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا فنقول ان العمل لا بد ان
 يكون اما فى الحيوان واما فى النبت وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء وبه
 قوامهما وتماهما فاما النبت فليس فيه ما فى الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك
 قل خوض الحكماء فيه واما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك
 ان المعدن يستحيل نباتا والنبت يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شئ
 هو الطف منه الا ان ينعكس راجعا الى الغا ' وأنه أيضا لا يوجد فى العالم شئ
 تتعلق به الروح الحية غيره والروح الطف ما فى العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان
 الا بمشاكلته اياها فاما الروح التى فى النبت فانها يسيرة فيها غاظ وكثافة وهى
 مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغاظها وغاظ جسد النبت فلم يدر على الحركة
 لغاظه وغاظ روحه والروح المتحركة الطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك
 ان المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء
 وحده ولا تجرى اذا قيس بالروح الا كالارض عند الماء كذلك النبت عند
 الحيوان فالعمل فى الحيوان اعلى وارفع وأهون وأيسر فينبغى للعاقل اذا
 عرف ذلك ان يجرب ما كان سهلا ويترك ما ينجشى فيه عسرا * واعلم ان الحيوان
 عند الحكماء ينقسم اقساما من الامهات التى هى الطبائع والحديثة التى هى الموالييد
 وهذا معروف متيسر الذمهم فذلك قسمت الحكماء العناصر والموالييد اقساما
 حية واقساما ميتة فعملوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا
 ذلك فى جميع الاشياء وفى الاجساد الذائبة وفى العقاقير المعدنية فسموا كل شئ
 يذوب فى النار ويطير ويشتمل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فاما
 الحيوان والنبت فسموا كل ما انفصل منها طبائع اربعا حيا وما لم ينفصل سموه
 ميتا ثم انهم طابوا جميع الاقسام الحية فلم يجدوا لوفى هذه الصناعة مما ينفصل

فصولاً أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن
جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد
يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد
ذلك فأما النبات فنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الاشنان وأما المعادن
ففيها أجساد وأرواح وأنفاس اذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير وقد دبرنا
كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتديره أسهل وأيسر فينبغي لك
أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده أننا نرى أن الحيوان
ارفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو أظف منه كالنبات من الارض وإنما كان
النبات أظف من الارض لانه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف
فوجب له بذلك اللطافة والرقوة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب
وبالجملة فانه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعة غير فافهم هذا القول فانه
لا يكاد يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا
الحجر واعلمتكم جنسه وأنا أبين لك وجوه تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه
على أنفسنا من الاتصاف ان شاء الله سبحانه وتعالى (التدبير على بركة الله) خذ
الحجر الكريم فاودعه القرعة والانيق وفصل طبائعه الاربع التي هي النار
والهواء والارض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ فاذا عزلت الماء
عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في اناءه على حدة وخذ الهاظ
أسفل الاناء وهو الثمل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول
غايظه وجفأؤه وبيصه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فانه
يصير عند ذلك ماء أبيض لاطمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد الى تلك الطبائع
الاول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكررها الغسل والتصعيد
حتى تاطف وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب
الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون الا بالتزويج والتعفين فأما

التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شياً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امسك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عاينها وتقوى النفس على الغوص في الاجساد والديب فيها وانما وجد ذلك بعد التركيب لان الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع اجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فعصار شياً واحداً ووجب من ذلك ان يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس اذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت اجزأؤهما بجميع اجزاء الآخرين اعنى الروح والجسد وصارت هي وهما شياً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلى الذى سلمت طبائعه واتفقت اجزأؤه فاذا لقي هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأطهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذات في جسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعايق النار بها فاذا أرادت النار التعاقب بها معها من الاتحاد بالنفس مما زجة الماء لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً وكذلك الماء من شأنه النفور من النار فاذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فتعنه من الطيران فكان الجسد علة لامسك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واضهار الدهنية في الاشياء المظلمة التى لانور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التى سألت عنها وهى التى سميتها الحكماء بيضة واياها يعنون لا بيضة الدجاج * واعلم ان الحكماء لم يسموها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسأله عن ذلك يوماً وليس عنده غيرى فقلت له أيها الحكيم الفاضل أخبرنى لاي شئ سميت الحكماء مركب الحيوان بيضة اختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم اليه فقال بل لمعنى غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال

على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتهما من المركب ففكر فيه فانه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مفكرا الا أقدر على الوصول الى معناه فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدى وهزنى هزة خفيفة وقال لى ياأبا بكر ذلك للنسبة التى بينهما فى كمية الالوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال ذلك انجحت عنى الظلمة وأضاء لى نور قابى وقوى عقلى على فهمه فهتت شاكر الله عليه الى منزلى وأفت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة مقاله مساهمة وأنا واضعه لك فى هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب اذا م وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء الى ما فى البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما فى المركب من طبيعة النار الى ما فى البيضة من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الاخرتان الارض والماء فأقول ان كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة مزوح فاذا أردنا ذلك فانا نأخذ أقل طبائع المركب وهى طبيعة اليبوسة ونصيف اليها مثاها من طبيعة الرطوبة ونديرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقل قوتها وكان فى هذا الكلام رمزا ولكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليهما جميعا مثاها من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من طبيعة الهواء اتى هى النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة وتعمل تحت كل ضامين من المركب الذى طبيعته محيطه بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولا الضامين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا ا ح د وسطح أبجد وكذلك الضامان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضامعا مزوح فأقول ان سطح أبجد يشبه سطح مزوح طبيعة الهواء التى تسمى نفسا وكذلك تج من سطح المركب والحكمة لم تسم شيأ باسم شىء الا لشبهه به والكلمات التى سألت عن شرحها الارض المقدسة وهى المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذى أخرج سواده وقطع

حتى صار هباء ثم حمر بالزجاج حتى صار نحاسيا والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الارواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الارواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر قان يحدته الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهى الفاعلة والثانية نفسانية وهى متحركة حساسة غير أنها أعاظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة الى مركز الارض لتقابلها وهى الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيطة بهما وأما سائر الباقيات فبتدعة ومخترة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها فهذا جميع ما سألتنى عنه وقد بعثت به اليك منسرا وترجو بتوفيق الله أن تباع أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجر يطى شيخ الاندلس فى علوم الكيمياء والسيمياء والسحر فى القرن الثالث وما بعده وأنت ترى كيف صرف الناطم كلها فى الصناعة الى الرمز والالغاز التى لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذى يجب أن يعتقد فى أمر الكيمياء وهو الحق الذى يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها فى عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر ان كانت النفوس شريرة فاجرة فاما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلان الساحر كائنا فى مكان تحقيقه يقاب الأعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعلة السحرى فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون فى الجبال والعصى وكما ينتقل عن سحرة السودان والهود فى قاصية الجنوب والترك فى قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للامطار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخالفا للذهب فى غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قباهم من حكماء

الامم انما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه أغازا حذرا عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع الى الضئانة بها كما هو رأى من لم يذهب الى التحقيق فى ذلك وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه فى السحر والطلسمات غاية الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها فى الموضوعات ومن كلامه فى الفئين يتبين ما قناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العالم الخبير

٢٥ * فصل فى ابطال الفلسفة وفساد منتعهاها *

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة فى العمران كثيرة فى المدن وضررها فى الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قوما من عقلاء النوع الانسانى زعموا ان الوجود كله الحسى منه وما وراء الحسى تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لامن جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليونانى مح الحكمة فبحشوا عن ذلك وشروا له وحوتموا على اصابة الغرض منه ووضعوا قانونا بهتدى به العقل فى نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك ان النظر الذى يهيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن فى المعانى المنتزعة من الموحودات الشخصية فيجرد منها أولا صورا منطبعة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التى ترسمها فى طين أو شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل ثم يجرد من تلك المعانى الكلية اذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها فى الذهن فتجرد منها معانى أخرى وهى التى اشتركت بها ثم تجرد ثانيا ان شاركها غيرها

وثالثا الى أن ينتهى التجريد الى المعانى البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعانى
والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعدها وهى الاجناس العالية وهذه المجردات
كلاهما من غير المحسوسات هى من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم
منها تسمى المعقولات الثوابى فاذا نظر الفكر فى هذه المعقولات المجردة وطاب
تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها الى بعض ونفى بعضها عن
بعض بالبرهان العقلى اليقيني ليحصل تصور الوجود تصورا صحيحا مطابقا اذا
كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذى هو تلك الاضافة والحكم
متقدم عندهم على صنف التصور فى النهاية والتصور متقدم عليه فى البداية والتعليم
لان التصور التام عندهم هو غاية لطاب الادراك وانما التصديق وسيلة له وما سمعه
فى كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور
لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون أن السعادة فى
ادراك الموجودات كلها مافى الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين
* وحاصل مداركهم فى الوجود على الجملة وما آلت اليه وهو الذى فرعوا عليه
قضايا انظارهم أنهم عثروا أولا على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ثم ترقى
ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس فى الحيوانات
ثم أحسوا من قوى النفس بساطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم
العالى السماوى نحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون
للفلك نفس وعقل كما للانسان ثم أنهم ذكروا نهاية عدد الآحاد وهى العشر تسع
منصلة ذواتها جل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة فى
ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخليقها بالفضائل
وأن ذلك يمكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال
بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وان ذلك
اذا حصل للنفس حصانتها بالهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى

وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة الى خبط لهم في تفاصيل ذلك
معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذي حصل مسانئها ودون علمها وسطر
حجاجها فيما بلغنا في هذه الاحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من
بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الاول على
الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهتدة وهو أول من رتب
قانونها واستوفى مسانئها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ماشاء
لو تكفل له بقصدهم في الالهيات ثم كان من بعده في الاسلام من أخذ بتلك
المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل وذلك أن كتب أولئك
المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليوناني الى اللسان العربي
تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضاه الله من منتحلي العلوم
وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاربعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي
في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد
نظام الملك من بنى بويه بأصبهان وغيرها * واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا
اليه باطل بجميع وجوهه فاما استدلالهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم
به في الترقى الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خالق الله فالوجود
أوسع نطاقا من ذلك ويحتاج مالا تعلمون وكأنهم في اقتصارهم على اثبات العقل
فقط والغفلة عما وراءه بمنابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة
المرصين عن النقل والعقل المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء
وأما البراهين التي يزعمونها على مدعيانهم في الموجودات ويعرضونها على معيار
المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض أما ما كان منها في الموجودات
جسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية
التي تستخرج بالحدود والاقايسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان
تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل

افي المواد ما يمنع من مطابقة الذهن الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له
 الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يجدونه فيها
 وربما يكون تصرف الذهن أيضا في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور
 الخيالية لافي المعقولات التواني التي تجردها في الرتبة الثانية فكون الحكم حينئذ
 قريبا بمثابة المحسوسات اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال
 لا يطابق فيها فتسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك الا انه ينبغي لنا الاعراض عن
 النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمننا في ديننا
 ولا معاشنا فوجب علينا تركها * وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس
 وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة
 راسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عاينها لان تجريد المعقولات من الموجودات
 الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيها هو مدرك لنا ونحن لا ندركها وات الروحانية
 حتى مجرد منها ماهيات أخرى بحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان
 عاينها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما نجد بين جنيننا من أمر
 النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا التي هي وجدانية لكل
 احد وما وراء ذلك من حقيقتها وصناتها فأمر غامض لا سبيل الى الوقوف عليه
 وقد صرح بذلك محققهم حيث ذهبوا الى ان مالا مادة له لا يمكن البرهان عليه
 لان مقدمات البرهان من شرطها ان تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون ان
 الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالاخلاق والاولى يعني الظن واذا
 كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان
 أولا فأى فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عناينا بتحصيل اليقين فيما وراء
 الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم واما قولهم ان
 السعادة في ادراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود
 وتفسيره ان الانسان مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني متمزج

به ولكل واحد من الجزأين مدارك محتصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء
 الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية الا ان المدارك الروحانية
 يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ
 والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في أول مداركه
 الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتهيج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من
 الاصوات فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون
 أشد وأذ فالنفس الروحانية اذا شعرت تدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة
 حصل لها من الابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم
 وانما يحصل بكشف حجاب الحس وسين المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة
 كثيرا ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس حصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة
 امارة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها
 الذي لها من ذاتها عند زوال الشوائب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة
 ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير
 واف بمقصودهم فأما قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من
 الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيت اذ البراهين والادلة من جهة المدارك
 الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الخيالك والمكر والذكر ونحن أول سئء يعنى
 به في تحصيل هذا الادراك امارة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قاذحة
 فيه وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاء وتلاخيص
 ابن رشد للفص من تأليف ارسطو وغيره يعثر أوراقها ويتوثق من برهينها
 وياتمس هذا القسط من البراهين فيها ولا يميز أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها
 ومستندهم في ذلك ما يذوقونه من ارسطو والقارابي وابن سينا ان من حصل له
 ادراك العقل الفعال وانعزل عن شئ حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة
 والعقل الفعال عندهم تارة من أول رتبة فكشف عنها الحس من رتبة الروحانيات

ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمى وقد رأيت فسادها وانما يعنى
 أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك ادراك النفس الذى لها من ذاتها وبغير
 واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس وأما قولهم ان البهجة الناشئة
 عن هذا الادراك هى عين السعادة الموعود بها فباطل أيضا لاننا انما تبين لنا بما
 قرروه ان وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة وانها تتهيج بادراكها
 ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لما انه عين السعادة الاخرية ولا بد بل هى
 من جملة الملائق التى لتلك السعادة وأما قولهم ان السعادة فى ادراك هذه الموجودات
 على ما هى عليه فتقول باطل مبنى على ما كنا قدمناه فى أصل التوحيد من الاوهام
 والاغلاط فى أن الوجود عند كل مدرك منحصر فى مداركه وبيننا فساد ذلك
 وان الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى ادراكه بجماته روحانيا أو جسمانيا
 والذى يحصل من جميع ما قررناه من مذاهم ان الجزء الروحاني اذا فارق القوى
 الجسمانية أدرك ادراكا ذاتياله مختصا بصف من ادراكه وهى الموجودات التى
 احاط بها علمنا رليس تمام الادراك فى الموجودات كلها اذ لم تحصر وانه يتتهج
 بذلك النحو من الادراك ابتهاجا شديدا كما يتتهج الصبي بمداركه الحسية فى أول
 نشوه ومن لما بعد ذلك بادراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التى وعدنا
 بها الشارع ان لم نعمل لها هيئات لهيات لما توعدون وأما قولهم ان الانسان
 مستقل بتهذيب نفسه واسلاحها بما لبسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فأمر
 مبنى على ان ابتهاج النفس بادراكها الذى لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود
 بها لان الرذائل عاقبة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات
 الجسمانية والوانها وقد بينا ان أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات
 الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذى توصلوا الى معرفته انما نفعه فى البهجة
 الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذى هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء
 ذلك من السعادة التى وعدنا بها الشارع على امثال ما أمر به من الاعمال والاخلاق

فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه ان المعاد الروحاني واحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووثيرة واحدة فلما في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني واحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة الخمدية فاینظر فيها وترجع في احواله اليها فهذا العلم كما رأيت غير واف بمقاصدهم التي حووموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا الاثمة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل ما كمة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكومية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ما كمة الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لانها وان كانت غير واقية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوايين الانظار هذه هي ثرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحجرا جريده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم انية فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي اليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٢٦ * فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركهم وفساد ما فيها *

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مبردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع نوع

من أنواع الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذ التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آمام وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم الى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحى وهو رأى قائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل النيرين وأثرهما في العنصریات ظاهر لا يسع أحدا حججه مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ووضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات وانماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القناء وسائر أفعاله ثم قال ولما فيما بعدهما من الكواكب طريقان الاولى التقايد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة الا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحس والتجربة بقياس كل واحد منهما الى النير الاعظم الذى عرفنا طبيعته وأثره . معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران فى قوته ومزاجه فتعرف موافقته له فى الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال الثبايث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا الى النير الاعظم واذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهى مؤثرة فى اهواء وذلك ظاهر وبنزاج الذى يحصل منها للهواء يحصل ما تحتته من المولدات وتتخاق به النطف والبزرقصير حلا للبدن المتكون عنها ونافس

المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لان كفيات البزرة والنطفة كفيات ما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شئ وليس هو أيضا من القضاء الالهي يعني القدر انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكان والقضاء الالهي سابق على كل شئ هذا محصل كلام بطليموس واصحابه وهو مخصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك ان العلم الكائن او الظن به انما يحصل عن العلم بجملة اسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرره انما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بحملتها بل هناك قوى اخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للاب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميزها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصل كالماء وحصل العلم فيها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكان ثم انه يشترط مع العلم بقوى المجوم وتأثيراتها مزيد حـدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحـدس والتخمين قوة لناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من اصول الصناعة فاذا فقد هذا الحـدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن الى الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها ولما ان اختصاص كل كوكب بقوة لادليل عليه ومدرك بطليموس في اثبات القوى للكواكب الخمسة بقاسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبية لجميع القرى من الكواكب ومستولية عايتها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قاذحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير الكواكب فيها تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد أن لفاعل الا الله بطريق استدلال كما رايت

واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الاسباب الى
 المسببات مجهول الكيفية والعقل منهم على ما يقضى به فيما يظهر بادىء الرأى من
 التأثير فاعمل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الالهية رابطة
 بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها
 الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكورة لشأن النجوم
 وتأثيراتها واستقرت الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ان الشمس والقمر
 لا يخسفان لموت أحد ولا حياته وفي قوله أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى
 فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما
 من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح
 فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك
 من طريق العقل مع ما لها من المنابر في العمران الاسانى مما تبعت في عقائد
 العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع
 الى تعاميل ولا تحقيق فيأصح بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في
 سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها
 كثيرا في الدول من توقع القواضع ومبيعت عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء
 والمتربصين بالدولة الى الفتنة والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغى أن
 تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين
 والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها ضييعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم
 فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف
 باسباب حصولها فيتمين السعى في اكتساب الخير باسبابه ودفع أسباب الشر
 والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك
 أنها وان كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا
 ملكتها بل ان نظر فيها ناظر وضمن الاحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الامر

فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها
والتحقيق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الاقل وأقل من الاقل انما
يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته مستترا عن الناس وتحت ربة الجمهور مع
تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل
ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهات ماخذه من الكتاب والسنة
وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المداينة
وكثرة المجالس وتعددتها انما يحدق فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والاجيال
فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الخطر والتحرير مكتوم عن
الجمهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لاصوله وفروعه الى مزيد
حدس وتخمين يكتفان به من الناظر فأين التحصيل والحدق فيه مع هذه كلها
ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة
الفن بين أهل الملة وقلة حماته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم
بالغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من
أهل العصر عند ما غلب العرب عساكر الساطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان
وكثر ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء وقال في ذلك أبو القاسم الرحوى من
شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين * قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسى * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا * يحدتها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب * وما عسى ينفع المرء
فاحمدى يرى عليا * حدى به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتى * به اليكم صبار خاء
والله من فوق ذا وهذا * يقضى لعبديه ما يشاء

يراصد الخنس الجوارى * ما فعلت هذه السماء
 مظلتمونا وقد زعمتم * أنكم اليوم أملياء
 مرة خميس على خميس * وجاء سبت وأربعاء
 ونصف شهر وعشر نان * وثالث ضمه القضاء
 ولا ترى غير زور قول * اذاك جهل ام ازدراء
 انا الى الله قد اعاننا * ان ليس يستدفع القضاء
 رضيت بالله لى الها * حسبكم البدر أو ذكاه
 ماهذه الأنجم السوارى * الا عباد يد أو اماء
 يقضى عايبها وليس تقضى * وما لها فى الورى اقتضاء
 ذات عقول ترى قديما * ماشأته الجرم والفتاء
 وحكمت فى الوجود طبعها * يحده الماء والهواء
 لم ترحلوا ازاء مر * تغدوهما تربة وماء
 الله ربى ولسـت أدرى * ما الجوهر الفرد والخلاء
 ولا الهىـولى التى نادى * مالى عن صورة عراء
 ولا وجود ولا انعدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
 لسـت أدرى ما الكسب الا * ما جلب البيع والشراء
 وانما مذهبي ودبىنى * ما كان والناس أولياء
 اذ لا فصول ولا أصول * ولا جـدان ولا ارتياء
 ماتبع الصدر واقفينا * يا حبيـدا كان الاقتفاء
 كانوا كما يعامون منهم * ولم يكن ذلك الهـنداء
 يا شعـرى الزمان انى * أشعـرنى الصيف والشتاء
 أنا اجـزى النـر شـرا * والخير عن مثله جزاء
 وانسى ان اكن مطيعا * قرب اعصى ولى رجاء

وانسى تحت حكم بار * أطاعه العرش والعرش
 ليس باسطاركم ولكن * أتاحه الحكم والقضاء
 لو حدث الاشعري عن * له الى رأيه انتماء
 لقال اخبرهم بانى * مما يقولونه براه
 ٢٧ فصل في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها
 وما ينشأ من المفاسد عن استحالتها

اعلم ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على استحالة هذه الصنائع
 ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها ايسر واسهل
 على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام
 وخسارة الاموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخرا اذا
 طهر على خيبة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وانما اطعمهم في ذلك رؤية
 ان المعادن تستحيل وينقاب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج
 صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون انها من إمكانات عالم
 الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته
 وفي المادة الموضوعه عندهم للعلاج انسماء عندهم بالحجر المكرم هل هي العندرة
 او الدم او الشعر او البيض او كذا او كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم
 بعد تعيين المادة ان تمهي بالقهر على حجر صلب املس وتسقى اثناء امهائها بالماء
 بعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها
 الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقى او تطبخ بالنار او تصعد
 او تنكس لاستخراج ماؤها او ترابها فاذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره
 على ما اقتضته اصول صنعة حصل من ذلك كله تراب او مائع يسمى الاكسير
 ويزعمون انه اذا التي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً او النحاس المحمي
 بالنار عاد فضة على حسب ما قصده في عمله ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير

مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج
ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتثبت
فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالحميرة للخبز تقاب العجين الى ذاتها
وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل
سريعا الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فما يحصل فيه من المعادن يصرفه
اليها ويقببه الى صورتها هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على
هذا العلاج يتغنون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب
لائمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف
اسرارها اذ هي في الاكثر تشبه المعنى كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين
ومسألة الجريضي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغربي في قصائده العريفة
في اجادة الظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها * فاوضت يوما
شيخنا أبو البركات التميمي كبير مشيخة الدلس في مثل ذلك ووقفته على بعض
التأليف فيها فتصفحها ضويلا ثم رده الى وقان لي وأنا الضامن له ان لا يعود الى
بيته الا بالخفية ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة كتمويه
الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة
أو الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه (١) نالزوق
المصعد فيحيى جسا معنيا شبيها بالفضة ويخفي الا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب
هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان
تمويهها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة
لتابسهم بسرقة أموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في
الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشرم من السارق ومعظم

هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتبذرين بأطراف البقاع ومساكن
 الاغمار ياوون الى مساجد البادية ويموهون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة
 الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك
 على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقعة الى أن يظهر العجز وتقع
 الفضيحة فيفرون الى موضع آخر ويستجدون حالا أخرى في استهواء بعض أهل
 الدنيا بأطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف
 لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم
 لعائتهم الا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا
 على شأنهم لان فيه افسادا للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة
 والساطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من
 انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن
 افساد سكة المسامين وتقودهم وانما يطاب حالة الفضة للذهب والرصاص
 والنحاس والقزدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبلا كبير الحاصل
 عنده فانا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع أنا لانعلم أن أحدا من
 أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على نغية انما تذهب أعمارهم في
 التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار بجمع العقاقير
 والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها
 أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها
 شأن المكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق
 ذلك بالمعينة انكروه وقالوا انما سمعنا ولم نر هكذا شأنهم في كل عصر وجيل
 * واعلم ان انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين
 والمتأخرين فانقل مذاهبهم في ذلك ثم نتاوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي
 عليه الامر في نفسه فنقول ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال

المعادن السبعة المنطوقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول وكلها انواع قائمة بأنفسها او انها مختلفة بنحواص من الكيفيات وهي كلها اصناف لنوع واحد فالذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي وتابعه عليه حكما الاندلس انها نوع واحد وان اختلافها انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها اصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكما المشرق انها مختلفة بالفصول وانها انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الانواع وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في تفاقها بالنوع امكان انقلاب بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبني أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرأئي من أكبر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عاياه بان التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه وانما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وارحمه كما يفيض النور على الاجسام بالصلقل والامهات ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفة قال واذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب النزاحمة من تكوين النحل اذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظائف وتصويره سكرًا بمحشو القرون بالسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول

لقبول صورة الذهب والفضة ثم محاولتها بالعلاج الى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزاعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى أحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفصلة لئتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخمية فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في حالته وذلك هو الأكسير على ما تقدم واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لمات امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل تمتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحامضة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العاقد ثم المضغ ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم الى نهايته ونسب الاجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيمياء الى ان يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى أن يتم ومن

شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة للحكماء أول
 العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات
 للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي
 عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى
 المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعدد
 لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الحميرة للخبز وتفعل في هذه المادة
 بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية
 قاصرة عن ذلك وإنما حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة
 من يدعى بالصنعة تخليق انسان من المني ونحن اذا سامعنا له الاحاطة بأجزائه
 ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحه وعلم ذلك علما محصلا لا بتفاصيله حتى
 لا يشذ منه شيء عن علمه سامعنا له تخليق هذا الانسان وأنى له ذلك * ولتقرب
 هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه
 بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى أن
 يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في
 الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات
 أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى
 فيها تصورامفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لانهاية لها والعلم البشري
 عاجز عن الاحاطة بمادونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان أو حيوان أو نبات
 هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ماعلمته وليست الاستحالة فيه من جهة
 الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها
 وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته
 وذلك أن حكمة الله في الحجرين وتدورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم
 فلو حصل عاينهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثير وجودهما حتى لا يحصل

أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زمانا لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل به إلى أن ينتشر ويباغ اليأس أو إلى غيرنا وأما قولهم إن الأكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب بحيل ما يحصل فيه ويقابله إلى ذلك فأعلم أن الخميرة إنما تقاب المعجين وتعدده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بإيسر شيء من الأفعال والطبائع والمطالب بالأكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصالح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الأكسير بالخميرة وتحقيق الأمر في ذلك إن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة ابن أحمد الجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وإيس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للعلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر مأمته الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشبا أو حيوانا فيما عدا مجرى تخليقه

كذلك لا يتبدر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عاداته الا بآرافاد
 مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طب الكيمياء طب اصناعيا ضيع
 ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نياها ان كان صحيحا
 فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالشي على الماء وامتنطاء الهواء والنفوذ
 في كائنات الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء الخارقة للعادة او مثل تخليق
 الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير
 باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وعلى ذلك فسيل تيسيرها مختلف بحسب
 حال من يؤتاها فربما وتبها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما
 اوتيتها الصالح ولا يملك ايتاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها
 سحريا فقد تبين انها تتحقق بتأثيرات النفوس وخوارق العادة اما معجزة او
 كرامة وسحرا ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغازا لا يظفر بحقيقته الا من
 خاض لجة من علم سحر واطاع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وامور
 خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد احد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط
 واكثر ما يحمل على اليأس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه المعجز عن الطرق
 الطبيعية للمعاش ونحوه من غير وجوه الطبيعية كالزراعة والتجارة والصناعة
 فيستصعب العاجز بغناه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة
 بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها واكثر من يعني بذلك الفقراء من
 اهل العمران حيا في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا
 القائل باستحالتها كان غاية الزناء فكان من اهل الغنى والثروة والفارابي القائل
 بإمكانها كان من اهل الفقر الذين يعوزهم ادنى باغة من المعاش واسبابه وهذه
 تهمه ظاهرة في انظار النفوس انواعا بطرقها وانتحالها والله الرزاق ذو القوة
 المتين لا رب سواه

(اعلم) أنه مما اضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والناמיד باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والاشمعي وابن بشر والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقض في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر بدون ذلك بكثير كان التعليم سهلا وما أخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويرها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحلجج وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقض عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل ما وصل اليها بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهم لعظم ملكته وما أحاط به من اصول ذلك الفن وتفاريحه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصر في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتية من يشاء وهذا نادر من

نوادير الوجود والا فالظاهر أن المتعم ولو قطع عمره في هذا كله فلا ينفي له
بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في
المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

٢٩ ﴿ فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم ﴾

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها
ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار
في الالفاظ وحشو القليل منها بانعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً
بالبلاغة وعسراً على النهم وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة في الفنون
للتيسير والبيان فاختصروها تقريباً بالحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول
الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم
وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطاً على المبتدي بإزاء الغايات من العلم
عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعنيم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك
شغل كبير على المتعلم يتتبع الفاظ الاختصار العويصة لفهم بتزاحم المعاني عليها
وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان الفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك
صعبة عويصة فينتفع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة
من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة
عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من
التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت
الملكة لقائه كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على
المتعلمين فاركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي
الله فلا مضل له ومن يضال فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ ﴿ فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته ﴾

(أعلم) ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً اذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً

وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب
ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده
لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك
العلم الا انها جزئية وضعيفة وغايتها انها هباته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع
به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفى الشرح
والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى ان
ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شذا فلا يترك عويضا ولا
مهما ولا مغلقا الا وضحه وفتح له مقفه فيخلص من الفن وقد استولى على
ملكته هذا وجه التعاليم المفيد وهو ككرايت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد
يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخاق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا
من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعاليم وافادته ويحضرون
المتعلم في أول تعليمه المسائل المقلبة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها
ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعى ذلك وتحصيله ويخاطبون
عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل ان يستعد لفهمها فان قبول
العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم
بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال
الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالدة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه
والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد
ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا القيت عليه الغايات في البدايات
وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى ويعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها
وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى
في هجرانه وانما آتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على
فهم كتابه الذي أكتب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا

كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره
 ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل
 ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط في طلب المزيد
 والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عاينه الامر عجز
 عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويأس من التحصيل وهجر العلم والتعالم
 والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد
 بتمريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن
 بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتمريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره
 حاضرة عند الفكرة مجانبية للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا
 وأقرب صبغة لان الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسى الفعل
 تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون * ومن المداهب الخبيثة
 والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن
 يظن بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى
 فهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخبيثة واذا تفرغ الفكر
 لتعلم ما هو بسبيله مقتصر عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه
 وتعالى الموفق للسواب

(فصل) واعلم ايها المتعلم اني اتخفك بفائدة في تعلمك فان تاقيتها بالتبول وامسكتها
 بيد الصناعة ظمرت كنز عظيم وذخيرة شريفة وأقسم لك مقدمة تعينك في
 فهمها وذلك أن الفكر الاساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر ممتثلاته
 وهو وحدان حركة للنفس في البيض الاوسط من الدماغ تارة يكون مبدءا للافعال
 الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدءا لعلم ما لم يكن حاصلان يتوجه
 الى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفيه أو اثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع
 بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحدا وينتقل الى تحصيل آخر ان كان متعددا

ويصير الى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداه من خطئه لانها وان كان الصواب لها ذاتيا الا انه قد يعرض لها الخطأ في الاقل من تصور الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا وترتيبها للنساج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد اذا عرض فلتنطق اذا امر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها وليكونه أمرا صناعيا استعنى عنه في الاكثر ولذلك تجد كثيرا من فحول النظر في الخليقة يحصلون على المطالب في العنوم دون صناعة المنطق ولا يبا مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فان ذلك اعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سداها فيفضى بالضع الى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه * ثم من دون هذا الامر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة اخرى من التعم وهي معرفة الالفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان باخطاب فلا يد ايتها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها الى الفكر في مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المتقولة وهي أخفها ثم دلالة الالفاظ المتقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين و ترتيب المعاني للاستدلال في قوالها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشراك يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعاميم بسهولة بل ربما وقف الدهن في حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر في اسرار الادلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكدي يتخلص من تلك الغمرة الا قليل ممن هداه الله فاذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك فاضرح ذلك وانسذ حجب الالفاظ

وعوائق الشبهات واترك الامر الصناعي جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعالمها حيث وضعها أكبر النظار قبلك مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنيهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فاذا فعلت ذلك أشرفت عليك انوار الفتح من الله بالظفر بمطاوئذ وحصل الامام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به الى قوالب الادلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من الذانون الصناعي ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه الى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان * واما ان وقفت عند المناقشة والشبهة في الادلة الصناعية وتمحيض صوابها من خطئها وهذه امور صناعية وضعيه تستوى جهاتها المتعددة وتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها اذ جهة الحق انما تستبين اذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتسدل الحجب على المطلوب وتقدم بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الاكثرين من النظائر والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد انه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الادلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى درك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعي كما قلناه اذا جرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى وأما المنطق فانما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الاكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادي الى رحمته وماالعلم الا من عند الله

﴿ ٣١ ﴾ فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الا نظار ولا تفرع المسائل ﴿

(اعلم) ان العلوم المتعارفة بين اهل المعمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهييات

من الفلسفة وعلوم هي آية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات وكلنطق للفلسفة وربما كان العلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلاخرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والانتظار فان ذلك يزيد طالبها تمكنا في ماكنته وايضاها لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلاينبغي أن ينظر فيها الامن حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولايوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آلة له لاغير فكما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على مذكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع ان شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضررة بالمتعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد فليندا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعته به همته بمد ذلك الى شئ من التوغل فليرق له ماشاء من المراقى صعب أو سهلا وكل ميسر لما خلق له

﴿ ٣٢ ﴾ فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار

الاسلامية في طريقه ﴿

(اعلم) أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا

عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلف حجة القرآن فيه لا يخاطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحدق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أتم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا حد البلوغ الى الشبية وكذا في الكبير اذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم واما أهل الاندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا انه لما كان أصل القرآن واسه ومنبع الدين والعلوم جمعاه اصل في التعليم فلا يقتصره ن لذلك عاينه فقط بل يخاطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبية وقد شذبا بعض الشيء في العربية والشعر والنصرهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم واما أهل

افريقية فيخاطون في تعاليمهم لاولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين
 العلوم وتلقين بعض مسائلها الا ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه
 ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته اكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع
 لذلك وبالجملة فطريقتهم في تعاليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس لان سند
 طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجاروا عند تغاب المصارى
 على سرق الاندلس واستقروا بتونس وعندهم اخذ ولدانهم بعد ذلك واما اهل
 المشرق فيحاطون في التعاليم كذلك على ما يباغنا ولا ادرى بمعنايتهم منها والذي
 ينقل لنا ان عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيبية ولا
 يخاطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما
 تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الا الواح
 فيخط قاصر عن الاجادة ومن اراد تعلم الخط فعلى قدر مايسمح له بعد ذلك
 من الهمة في طلبه ويبتغيه من اهل صنعته فاما اهل افريقية والمغرب فاقادهم
 الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان جملة وذلك ان القرآن لا ينشأ
 عنه في الغالب ملكة لما ان البسر مصروفون عن الايمان بمثله فهم مصروفون
 لذلك عن الاستعمال على اساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير اساليبه
 فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقت التصرف
 في الكلام وربما كان اهل افريقية في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخاطون
 في تعاليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شئ من
 التصرف ومحاذاة امثل بالمثل الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان
 اكثر محفوظهم عبارات العلوم البازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله واما اهل
 الاندلس فاقادهم التفتن في التعاليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة
 العربية من اول العمر حصول ملكة صاروا بها اعرف في اللسان العربي وقصروا
 في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو اصل العلوم

واساسها فكانوا لذلك اهل خط وأدب بارع او مقصر على -سب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا* ولقد ذهب القاضي ابو بكر بن العربي في كتاب رحاته الى طريقة غريبة في وجه التعليم واعاد في ذلك وايدى ووقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب اهل الأندلس قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عايه بهذه المقدمة ثم قال ويغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في اول امره يقرأ ما لا يفهم وينصب في امر غيره اهم عايه ثم قال ينظر في اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك ان يخلط في التعليم عالمان الا ان يكون المتعلم قاعلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما اشار اليه القاضي ابو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعد عايه وهي املك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ابشرا لتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيغوته القرآن لانه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوزو البسوغ وانحل من ربة القهر فربما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطله فيفتنمون في زمان الحجر وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خاوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طاب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي اولي ما اخذ به أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لامعقب الحكمة سبحانه

٣٣ ﴿ فصل في أن الشدة على المتعلمين مضره بهم ﴾

وذلك أن ارهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصغر الولد لانه من سوء الملائكة رمن كان مرباه بالعنف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انساها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل

على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي
 بالقهر عاياه وعمله المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت
 معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتآمر وهي الحمية والمدافعة عن
 نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسات النفس عن اكتساب
 الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانياتها فارتكس وعاد في
 أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونك منها العسف
 واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملائكة الكافلة له رفيقة به تجرد
 ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى
 انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث
 والكيد وسببه ما قاتناه فينبغي للمعلم في متعامه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم
 في التأديب وقد قال أبو محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين
 والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصيدين أن يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلاثة
 أسواط شيئا ومن كلام عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرصا
 على صون النفوس عن مذلة التأديب وعالما بان المقدار الذي عينه الشرع لذلك
 أملك له فانه أعلم بمصالحته ومن أحسن مذاهب التعاليم ما تقدم به الرشيد لمعلم
 ولده محمد الامين فقال يا أحرر ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره
 قابه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فككن له بحيث وضعك أمير
 المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروء الاشعار وعلمه السنن وبصره
 بمواقع الكلام وبدئه وأمنعه من الضحك الا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني
 هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك
 ساعة الا وانت مغتم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمن
 في مسامحته فيستحلي الفراغ وبالفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان
 اباهما فمليك بالشدة والفاظة اه

﴿ ٣٤ ﴾ فصل في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة

مزيد كمال في التعلم ﴿

والسبب في ذلك ان البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما يتعلمون به من المذاهب والمضائل تارة علما وتعالما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا ان حصول المالكات عن المباشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول المالكات ورسوخها والاصطلاحات ايضا في تعاليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم انها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرة لاختلف الطرق فيها من المعاملين فلقاء اهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم انها انحاء تعاليم وطرق توصيل وتنهض قواد الى الرسوخ والاستحكام في المالكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته المباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا من يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طاب العلم لاكتساب النوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ ٣٥ ﴾ فصل في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها ﴿

والسبب في ذلك انهم معتادون النظر العكري والغوس على المعاني وانزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن امورا كلية عامة ليحكم عاينها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا امة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكنى على الخارجيات وايضا يقيسون الامور على اشباهها وامثالها بما اعتاده من القياس التقهني فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة واعا يتفرع مافي الخارج عما في الذهن من ذلك كلاحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة مافي الخارج لها عكس

الانظار في العاوم العقلية التي تطاب في صحتها مطابقتها لما في الخارج فهم متعودون في سائر انظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما ياحقها من الاحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يبع من الحاقها بشبه أو مثال وينال في الكلى الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس سىء من أحوال العمران على الآخر اذا كما اشتبهها في امر واحد فلعلمها اختلفا في أمور فتكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عايمهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لانهم ينزعون بثقوب أذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعامى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الاحوال والاشخاص على ما يختص به ولا يتعدى الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالساح لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر
فلا توغلن اذا ما سبحت * فان السلامة في الساحل

فيكون مأمونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وشدفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس فانها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافيهما عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الاول وهى التي تجريدها قريب فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظنة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الأمة الإسلامية أكثرهم المعجم لامن العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبه فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الأمة عربية وصاحب شريعته عربي والسبب في ذلك أن الأمة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبداءة وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال يتقانونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعوتهم اليه حاجة وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أي الذين يقرؤن الكتاب وليسوا أميين لان الامية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقبل لحملة القرآن يومئذ قراء اشارة الى هدافهم قراء لكتاب الله والسنة الماثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد المقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتياج الى وضع التفسير القرآني وتقييد الحديث بحافة ضياعه ثم احتياج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقين للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم كثرة استخراج أحكام الوقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتياج الى وضع القوانين المحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والاحاد فصارت هذه العلوم كلها علوم ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من متحل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية

وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النجوشية والفارسية من بعده والزجاج من بعدها وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوا به بلربي ومخالطة العرب وصيروهم قواني وفتا من بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون بال لغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بكفاف السماء لما له قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والظفر فيه فانهم كانوا أهل الدواة وحاميتها وأولى سياستها مع ماباحقهم من الأئمة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبدا يستكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يعني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقائدية أيضا فلم تظهر في الأمة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن اتحائها فلم يحملها إلا العربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في

الامصار مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالامصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فاهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تأليف وصلت الينا الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني واما غيره من العجم فلم تر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر ذلك وتأمله ترعجبا في أحوال الخليفة والله بخاق ما يشاء لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

﴿ فصل في علوم اللسان العربي ﴾ ٣٧

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفة ضرورية على أهل الشريعة اذا ما أخذ لاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي باغة العرب ونقاتها من الصحابة والتابعين عرب ونسرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم السريعة وتفاوت في التأكيذ بتفاوت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عاينها فنا فنا والذي تحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الماعل من المفعول والمبتدا من الخبر ونولاد لجهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فبذلك كان علم النحو أهم من اللغة اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

﴿ علم النحو ﴾

العلم ان اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل
سأني فلا بد ان تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في
اكل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك احسن
لملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني
مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والمجرور أعني المضاف ومثل الحروف
التي تفضى بالافعال الى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك
الا في لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ
تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما يقدره بكلام العرب
وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام
اختصارا فصار للحروف في لغاتهم والحركات والهيئات أي الاوضاع اعتبار في
الدلالة على المقصود غير متكفين فيه اصناعة يستفيدون ذلك منها اما هي ملكة
في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الاول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا فلما
جاء الاسلام وفاقوا الحجاز اطاب الملك الذي كان في أيدي الامم والدول وخاطوا
العجم تغيرت تلك الملكة بما أتى اليها السمع من المخالفات التي للمتعربين والسمع
أبو الملكات اللسانية فنسبت بما أتى اليها مما يغيرها جنوحها اليه باعتياد السمع
وخشى أهل العاوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغاق
القرآن والحديث على العموم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة
مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويأخذون الاشياء
بالاشباه مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدا مرفوع ثم راوا تغير
الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطاحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب
لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها
بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطاحوا على تسميتها بعلم النحو وأول

من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بنى كنانة ويقال بإشارة على رضى الله عنه
 لانه رأى تغير الملكة فأشار عابه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحضرة
 المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن اتت الى الخليل بن أحمد الفراهيدى
 أيام الرشيد أخرج ما كان الناس اليها لذهب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة
 وكل أبوابها وأخذها عنه سيوييه فأكمل تفاريحها واستكثر من أدلتها وشواهدها
 ووضع فيها كتابه المشهور الذى صار اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع
 ابو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج كتب مختصرة للمتعلمين يحدون فيها حدو
 الامام فى كتابه ثم طال الكلام فى هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها فى
 الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت
 الطرق فى التعليم وكثر الاختلاف فى اعراب كثير من آى القرآن باختلافهم
 فى تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار
 فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك
 فى كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري
 فى المنصل وابن الحاجب فى المقدمة له وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك فى
 الارجوزتين الكبرى والصغرى وان معطى فى الارجوزة الالفية وبالجملة فالتأليف
 فى هذا الفن أكثر من ان تحصى او يحاط بها وطرق التعاميم فيها مختلفة فطريقة
 المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون
 والانديسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة ان تؤذن بالذهاب
 لما رأينا من القصد فى سائر العلوم والصنائع يتناقص العمران ووصل اليها بالمغرب
 لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين ابن هشام من علماءها
 استوفى فيها احكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجل
 وحذف ما فى الصناعة من المكرر فى أكثر أبوابها وسماه بالمغنى فى الاعراب
 وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت

سائرها فوقتنا منه على علم جم يشهد بملو قدره في هذه الصاعقة ووقور بضاعته
منها وكأنه يخو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا
مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشئ عجيب دال على قوة ما كتبه واطلاعه والله
يزيد في الخلق ما يشاء

﴿ علم الائمة ﴾

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك انه لما فسدت منكة اللسان العربي
في الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما
قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملايسة المعجم ومخالطهم حتى تأدى الفساد الى
موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلا
مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المتخالفة لصريح العربية فأحتيج الى حفظ
الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل
بالقرآن والحديث فشمع كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان
سابق الحلبة في ذلك الخليل بن احمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر
فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو
غاية ما انتهى اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوده عددية
حاصرة وذلك ان جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الاعداد على التوالي
من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف
الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين
كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم
يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها أعدادا
على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف
عند أهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم والتأخير بين الحروف
معتبر في التركيب فيكون الخراج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب

عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم يضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى منها فذلك سمي كتابه بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته باول ما يقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلّة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لثقله دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وصمّن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب واوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل وخصه بالحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهرى من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر الى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من احسن الدواوين وخصه محمد بن أبي الحسين صاحب

المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح
في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانت توأمي رحم وسابلي أبوة هذه
اصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك مختصرات أخرى مخصصة بصنف من الكلم
ومستوعبة لبعض الابواب اولكها الا ان وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في
الملك جلي من قبل التراكيب كما رأيت ومن الكتب الموضوعه أيضا في اللغة كتاب
لزمخشري في المجاز بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وما تجوزت به
من المدلولات وهو كتاب شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء على
العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة ألقاض أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا
بين الوضع والاستعمال واحتاج الى فقه في اللغة عزيز المأخذ كما وضع الابيض
بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن
الانسان بالازهر ومن الغنم بالاماح حتى صار استعمال الابيض في هذه كلها لحنا
وخرجا عن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده
في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف
استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف في التركيب حتى
يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الأديب في فني نظمه
ونثره حذرا من ان يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها
وهو أشد من اللحن في الاعراب وأخشى وكذلك ألف بعض المتأخرين في
الالفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وان لم تنبع الى النهاية في ذلك فهو مستوعب
للاكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالتداول من اللغة
الكثير الاستعمال تسهلا لحفظها على الطلاب فكثيرة مثل الالة لابن السكيت
والفصيح لتعلب وغيرها وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم
عنى الطالب للحفظ والله الخلاق العلم لارب سواه

﴿ علم البيان ﴾

هذا العلم حادث في اللغة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق
باللفاظ وما تفيد ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك ان الأمور التي
يقصد المتكلم بها افادة السامع من كلامه هي اما تصور مفردات تسند ويستند
اليها ويقضى بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال
والحروف واما تمييز المسندات من المسند اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات
وهو الاعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الأمور
المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه
حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت
للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه واذا لم يشتمل على شيء منها فليس من
جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد
كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد
من قبل ان المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن
اهتمامه بالجيء قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه
بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من
موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيده الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم
وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها في الدلالة وان استوت من طريق
الاعراب فان الاول العارى عن التأكيده انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد
بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل
ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل ذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل
لا يعادله أحد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج
تطابقه أولا وانشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك
العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فينزل بذلك منزلة التابع

المفرد نعنا وتوكيدا وبديلا بلا عطف أو يتعين العطف اذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضى المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد منطوقه ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد أسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعته اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى هذه الاستعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الخود وقرى الضيف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيات وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيات في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيات والاحوال والمقامات وجعل على ثلاثة اصناف الاول يبحث فيه عن هذه الهيات والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة والصف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان والحفوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التسميق اما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين الفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بايهام معنى اخى منه لاشتراك اللفظ بهما وأمثال ذلك يسمى عندهم علم البديع وأطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاهت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب ابوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب وألف كتابه المسمى بالفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذ المتأخرون من كتابه وخلصوا منه أمهات هي

المتناولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح
 وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو اصغر حجما من
 الايضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر
 من غيره وبالجملة فللمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه
 كمالى في العلوم اللسانية والصنائع الكالية توجد في العمران والمشرق أوفر
 عمراناً من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية المعجم وهو معظم أهل المشرق
 كتفسير الزمخشري وهو كالمبنى على هذا الفن وهو أصله وإنما اختص
 أهل المغرب من اصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية
 وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً وزعموا أنهم أحصوها من لسان
 العرب وإنما حملهم على ذلك النوع بتزيين الالفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ
 وصعبت عليهم ما خذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا
 عنها ومن الف في البديع من أهل أفريقية والاندلس على منحاء واعلم أن ثمرة هذا الفن
 إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن لان اعجازه في وقاء الدلالة منه بجميع
 مقتضيات الاحوال منطوقة ومنهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال
 فيما يختص بالالفاظ في اتقانها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاب الذي
 تقصر الافهام عن دركه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة
 اللسان العربى وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فاهذا
 كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبالغه أعلى مقاما في ذلك لانهم فرسان
 الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود باوفر ما يكون وأصح واحوج ما يكون
 الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار
 الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتبع آى القرآن باحكام هذا الفن
 بما يبدي البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا

أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجود البلاغة ولاجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشئ من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

علم الادب

هذا العلم لاموضوع له ينظر في انبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحر مثبتة اثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوائين العربية مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاختبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شئ من كلام العرب واساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا يحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد

وكتاب البيان والتبيين للاجاحظ وكتاب النوادر لابن علي القالي البغدادي وما
سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدين في ذلك كثيرة وكان
الغناء في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن لما هو تاج الشعر اذ الغناء انما هو
تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم
به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة
والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني جمع
فيه أخبار العرب واشعارهم وانسابهم وایامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء
في المائة صوت التي اختارها المغنون لارشيد فاستوعب فيه ذلك ثم استيعاب
وأوفاه وامرئى انه ديوان العرب وجامع أشقات المحاسن التي سلفت لهم في كل
فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في
ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وأنى له بها ونحن
الآن نرجع بالتحقق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله
المهادي للصواب

﴿ ٣٨ ﴾ فصل في أن اللغة ملكة صناعية ﴿

(اعلم) ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة
عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر
الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب
الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق
الكلام على مقتضى الحال بانع المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع
وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع
أولا ويعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير
راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين
كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في

مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كاحدهم هكذا تصيرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها الاجم والاطفال وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الاولى التي اخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدثت ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى اسد وبنى تميم واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجدام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبيشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند اهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

٣٩ فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة

مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك أنا نجدتها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لان الالفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى

ما تقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لا بد
 وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال في تأدية المقصود
 لانها صفاته وتلك الاحوال في جميع الالسن أكثر ما يدل عليها بالفاظ تخصها
 بالوضع وأما في اللسان العربي فانما يدل عليها بأحوال وكيفيات في ترا كيب الالفاظ
 وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة اعراب وقد يدل عليها بالحروف
 غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة
 على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل الفاظا
 وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع
 الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر
 وقد قال له بعض النحاة انى أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وان
 زيدا قائم وان زيدا لقائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول لافادة
 الخالى الذهن من قيام زيد والثانى لمن سمعه فانكره والثالث لمن عرف بالاصرار
 على ابتكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان
 ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تاتفتن في ذلك الى خرفشة النحاة أهل
 صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا
 العهد ذهبت وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع او اخر الكلم من فساد
 الاعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاهها
 القصور فى افئدتهم والافئتن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل فى
 موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود فى
 كلامهم لهذا العهد واساليب اللسان وقنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم
 وفهم الخطيب المصقع فى محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم
 والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان
 المدون الا حركات الاعراب فى أواخر الكلم فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة

وإحدة ومهيما معروفا وهو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت
 العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على مملك العراق
 والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلب
 لغة أخرى وكان القرآن منزلا به والحديث النبوي منقولا بلغته وهما أصلا الدين
 والملة فحشى تاسيهما وانفلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به فاحتيج الى
 تدوين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذافصول وابواب
 ومقدمات ومسائل سماه اهل العلم النحو وصناعة العربية فاصبح فنا محفوظا وعلما
 مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا واعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان
 العربي لهذا العهد واستقرنا احكامه نعمناض عن الحركات الاعرابية في دلالاتها
 بامور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره
 على غير المنهاج الاول في لغة مضر فليست اللغات وملكتها عجانا ولقد كان اللسان
 المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات
 اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافا لمن
 يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس
 اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه
 من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى
 مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة
 العرب لعهدنا مع لغة مضر الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة كما قلناه
 حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل
 ذلك ويدعوننا اليه وما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من
 الاقطار شأنهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند اهل
 الامصار كما هو مذكور في كتب العربية انه من اقصى اللسان وما فوقه من
 الحنك الاعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع

القاف وما يليه من الحنك الاعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجبل اجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركون فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجبل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنه انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فان هذا الجبل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور وهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم وهم من اعقاب مضر وسائر الجبل منهم في النطق بهذه القاف اسوة وهذه اللغة لم يتدعها هذا الجبل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة ضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في ام القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجبل فقد لحن وافسد صلاته ولم ادر من أين جاء هذا فان لغة اهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح وأهل الجبل أيضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار فهذا يرجع فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجبل كلم شرقا وغربا في النطق بها وانها الخاصة التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري فتهنم ذلك والله الهادي المبين

٤٠ ﴿ فصل ان لغة اهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة لغة مضر ﴾
اعلم ان عرف التخاطب في الامصار وبين الحضرة ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة اهل الجبل بل هي لغة اخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجبل العربي الذي لهدنا وهي عن لغة مضر ابعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو

ظاهر يشهد له ما فيها من التغيرات الذي يعد عند صناعة اهل النحو لحننا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فافه اهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس متهما وكل منهم متوصل بلفته الى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد وأما انها أبعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلان البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لفته عن ذلك اللسان الاصلى أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق اما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمراتها بهم ولم يكذب يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الاول أبعد وكذا المشرق لما غلب العرب على ارضه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكورة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خوفا ودابات واظارا ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة اخرى وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار اهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة اخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضا بعضها بعضا كما نذكره وكانها لغة اخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما يشاء ويقدر

﴿ فصل في تعليم اللسان المضرى ﴾ ٤١

اعلم ان ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة اهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وانما هي لغة اخرى من امتزاج

العجمة بها كما قدمناه الا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنا شأن
بإثر الملكات ووجه التعليم لمن ينبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه
بمحافظة كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف
ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر
قنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ
بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره
على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب
ألفاظهم فتعدل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخا
وقوة ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والنظم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم
في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد بذلك
وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما نذكر وعلى قدر المحفوظ
وكنز الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا ومن حصل على هذه
الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي
أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

٤٢ ﴿فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية﴾

﴿ومستغنية عنها في التعليم﴾

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها
خاصة فهو علم بكيفية لانفس كيفية فليست نفس الملكة وإنما هي بمثابة من يعرف
صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل أن يقول يصير بالخياطة غير محكم لملكتهما
في التعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرة ثم
يفرزها في لفقي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم
يردها الى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين
الأولين ثم يتسدى على ذلك الى آخر العمل ويعطى صورة الحيك والتنبيت

والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو اذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شياً وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو ان تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك تمسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه للضرس المجددة تقطع مامرت عليه ذاهبة وجائبة الى ان ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شئ منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويحيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شياً من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر مايقع للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعاليم هذه الملكة فنجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في مخطوطه في أماكنه ومفاصل حاجته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعاليمها فكان أبلغ في الافادة ومن هؤلاء المخالضين لكتاب سيبويه من يغفل عن النقطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه مناعة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العاربية عن ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لأشأنها فتجدهم

يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملائكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملائكة أثناء التعليم فتقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فاجروا صناعة العربية مجرى العلوم بخنا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامد اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدول وبعدت عن مناحي اللسان وملاكمته وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفاتهم عن المران في ذلك للمتعمق فهو أحسن ما تفيد الملائكة في اللسان وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماء بخنا وبعدوا عن نمرتها وتعلم بما قررتاه في هذا الباب أن حصول ملائكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملائكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الأمور كلها والله أعلم بالغيب

٤٣ ﴿ فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه

وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعمر بين من المعجم ﴿

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفضون البيان ومعناها حصول ملائكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في أفادة ذلك فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يخري الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأصحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك

الوجه جهده فاذا انصت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يخو فيه غير منجى البلاغة التي للعرب وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنجى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغنمين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لساية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في نأى الرأي أنها جبة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العامة في ذلك التي استبسطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محالها وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البايغ الى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتركيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولورام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتركيب المخصوصة لما قدر عايه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده واذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه وطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن

بعد ذلك الجليل محفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل
 الملائكة وبصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمزج
 عن هذا واستعير لهذه الملائكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح
 عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه
 الملائكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير
 لها اسمه وأيضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فتقبل له ذوق
 وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين
 عليه المضطرين إلى النطق به بخالطة أهلهم كالبرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر
 بالمغرب فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لتصور حظهم في هذه الملائكة التي قررنا
 أمرها لأن قصارهم بعد طائفة من العمر وسبق مائة أخرى إلى اللسان وهي
 لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومرك لما
 يضطرون إليه من ذلك وهذه الملائكة قد ذهبت لأهل الأمصار بعدوا عنها كما
 تقدم وإنما لهم في ذلك مائة أخرى وليست هي مائة اللسان المطلوبة ومن عرف
 تلك الملائكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملائكة في شيء
 إنما حصل أحكامها كما عرفت وإنما تحصل هذه الملائكة بالممارسة والاعتقاد والتكرار
 لكلام العرب فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيديويه والفارسي والزمخشري
 وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجبا ما مع حصول هذه الملائكة لهم فاعلم
 أن أولئك القوم الذين سمع عنهم إنما كانوا حجا في نسهم فقط وأما المرابي
 والذئبة فكاتب بين أهل هذه الملائكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا
 بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكانهم في أول نشأتهم من العرب الذين
 نشؤوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وإن كانوا عجا
 في النسب فإيدوا بأعجام في اللغة والكلام لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها
 واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملائكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على

الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من
العجم اذا خالط أهل اللسان العربي بالامصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة
من اللسان العربي ممتحية الآثار ويجد ما كتبهم الخاصة بهم ملكة أخرى مغلفة
ملكه اللسان العربي ثم اذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب
وأشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من
أن الملكة اذا سبقها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة
وان فرضنا عجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب
الى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من التدور بحيث
لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعى كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية
حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة وانما حصلت له الملكة
ان حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي
من يشاء الى صراط مستقيم

٤٤ * (فصل في أن أهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة

الاسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان

العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما سبق الى المتعلم من ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق
اليه من اللسان الحضري الذي أفاده العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته
الأولى الى ملكة أخرى هي لغة الحصر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون
الى المسابقة بتعليم اللسان الموطن وتمتقد النحاة ان هذه المسابقة بصناعتهم وليس
كذلك وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة
النحو أقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الامصار أعرق في العجمة
وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها
لتمكن المناقاة حينئذ واعتبر ذلك في أهل الامصار فأهل أفريقية والمغرب لما

كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ما كتبه بالتعليم واقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا أخى ومن لاعدمت فقدته أعلمنى أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقبا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابى اليك وأنا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم فى اللسان المضرى شبيه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن المائكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشبِق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئین عليها ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن مثالة الى التصور وأهل الاندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه المائكة بكثرة معانيهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً وكان فيهم ابن حبان المؤرخ امام أهل الصناعة فى هذه المائكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلى وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانقراض والجللاء أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتساقص العمران فناقص ذلك شأن للصنائع كلها فقصرت المائكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلميذ الطبقة الاشيبايين بسبته وكتاب دولة ابن الاحمر فى أولها والقت الاندلس أفلا ذكبتا من أهل تلك المائكة بالجللاء الى المدوة لعدوة لاشيبايه الى سبته ومن شرق الاندلس الى افريقية ولم يمشوا الى ان انقرضوا وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة لعسر قول المدوة لها وصعوتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم فى العجمة البربرية وهى منافية لما قلناه ثم عادت المائكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن يشرين وابن جابر وابن الجيات وطبقتهم ثم ابراهيم

الساحلي الطريحي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية اعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه بعده وبالجملة فشان هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولان أهل اللسان العجمي الذين تقصد ممالكهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الاندلس والبربر في هذه العدوة هم أهلها ولسانهم لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ووطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعام بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الاموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس في تمام هذه الملكة واجادتها لعددهم لذلك العهد عن الاعجام ومخالطتهم الا في القليل فكان امر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان حول الشعراء والكتبات أوفر لتوفر العرب وابنائهم بالمشرق وانظر ما شتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خافائهم وملوكهم وأشعارهم وغنائهم وسائر مغايبهم فلا كتاب أوعب منه لاحوال العرب وتقى أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين ورعا كانت فيهم أباح ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشى امر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى امرهم ودولتهم وصار الامر للاعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلاجوقية وخالطوا أهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المظوم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لارب سواه

٤٥ * فصل في انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر *

اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فئتين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذى تكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفئتين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فنه السجع الذى يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذى يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاءً بن يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وان كان من المنشور الا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينهى الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصانا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطاق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأمر القرآن للغاية فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع مقاله المفسرون في تعابيل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه واعلم أن لكل واحد من هذه الننون أساليب تختص به عند أهله ولا تصاح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وامثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسب بين يدي الاغراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفرقاً الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في

المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه
وخلصوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وناسوه وخصوصا أهل المشرق وصات
المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغنل حارية على هذا الاسلوب
الذي أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام
على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنشور المقفى
أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه
اذ أساليب الشعر تنافيا للوذية وخط الجسد بالهزل والاضناك في الاوصاف
وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك
في الخطاب والتزام التقفية أيضا من اللوذية والتزيين وجلال الملك والسلطان
وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبما ينهه والمحمود في
المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في
الاقبل النادر وحيث ترسبه الماكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام
حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من
اظناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح أو اشارة وكناية واستعارة وأما
اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمدموم
وما حمل عليه أهل العصر الاستيلاء العجمة على أساليبهم وقصورهم لذلك عن
اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فمجزوا عن الكلام المرسل لبعده
أمدته في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يفتقون به ما نقصهم من
تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين
بالاسجاع والالفاظ الديدعية ويففلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا
الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى
انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والنصريف اذا دخات لهم في تجنيس أو مطابقة
لا يجتمعان معا فير جمعون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون

بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمنا ذلك نقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بسمه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ ﴿ فصل في أنه لا يتفق الاجادة في فني المنظوم والمشور معا الا للاقل ﴾ والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فاذا تسبقت الى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لان تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الاولى أسهل وأيسر واذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائفة عن سرعة القبول فوَقعت المناقاة وتعدر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عاينه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له سئ من العجمة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فالعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل أن تجد أحدا منهم محكما لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر حتي ان طالب العلم من أهل هذه الالسن اذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى الامن قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن الالسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكانها لا تزدهم وان من سبقت له اجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خالقكم وما تعملون

٤٧ ﴿ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه ﴾

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات الا انا الآن انما نتكلم في الشعر الذي للعرب فان أمكن أن نجد في أهل الابدلس الاخرى مقصودهم من كلامهم والافلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل قطعا قطعا

متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة
من هذه القطعات عنده. يتاوي يسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روي او قافية ويسمى
جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة وينمرد كل بيت منه بافادته في ترا كيه حتى
كانه كلام وحده مستقل سما قبله وما بعده واذا اُفرد كان تاما في بابه في مدح
او تشبيب أو رثاء فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته
ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى
فن ومن مقصود الى مقصود بان يوطى المقصود الاول ومعانيه الى ان يناسب
المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب الى المدح ومن
وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل أو الطيف ومن وصف
المدح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء الى التأثر
وامثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرا من أن
يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل
المقاربة على كثير من الناس وهذه الموازين شروط واحكام تضمنها علم العروض
وليس كل وزن يتفق في الطبع استعماته العرب في هذا الفن وانما هي اوزان
مخصوصة تسميها اهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر بحرا
بمعنى انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظما واعلم ان فن الشعر
من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم
وشاهد صوابهم وخطئهم واصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم
وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانيات كلها انما
تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر
من بين فنون الكلام سعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من
التأخرين لاستقلال كل بيت منه بانه كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون
ماسواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام

الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم بيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاتها بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكما للقرايح في استجادة أساليبه وشعده الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكفى فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاوله في رعاية الاساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها ولندكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في اطلاقهم فاعلم انها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطاقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فـسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله * يادار مية بالعلياء فالسند * ويكون باستدعاء الصاحب للوقوف والسؤال كقوله * قنا نسأل الدار التي خف اهلها * او باستبكاء الصاحب على الطلال كقوله * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله * الم تسأل فتخبرك الرسوم * ومثل تحية الطلول

بالامر لمخاطب غير معين بختيارها كقوله * حتى الديار بجانب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

استقى طاوولهم اجش هذيم * وغدت عليهم بضرة ونعيم
أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يأبرق طالع منزلا بالابرق * واحد السحاب لها حذاء الابنق
أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليقذع الامر * وليس لعين لم يفض ماؤها عندر
أو باستعظام الحادث كقوله * أرأيت من حملوا على الاعواد * أو بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لاحام ولا راعي * مضى الردى بطويل الرمح والباع
أو بالانكار على من لم يتفجع له من الحوادث كقول الخارجية
أيا شجر الجابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من نقل وطائه كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن نزار * أودى الردى بفريقة المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنظم التراكيب فيه بالجميل وغير الجمل انشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفك فيه ما تستمعيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلى المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في سناءه أو عن المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقوال ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة

بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء انما هي هيئة ترسخ في النفس من تدفع التراكيب في شعر العرب لجرانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على ماثها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعاميه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه وانما استعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطاع عاينها الحافظون لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التي تصير كالتقالب كان نظرا في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما هو حفظ اشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكوز في المنظوم تكون في المنشور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاؤا به مفصلا في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنشور يعتبرون الموارنة والتشابه بين القطع غالبا وقد يقيدهونه بالاسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليته ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قال كلي مطلق يحدو حدوه في التأليف كما يحدوا البناء على القالب والنساج على المنوال فانهذا كان من تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي والبياني والعروضي نعم ان مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها اساليب ولا يفيد الا حفظ كلام العرب نظما ونثرا واذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حدا أو رسما للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فان لم نقف عليه لاحد

من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حده انه الكلام الموزون المقفى ليس
 بحد لهذا الشعر اذى نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر باعتبار
 ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم أن حدهم
 ذلك لا يصح له عندما فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيشية فقول
 الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والوصاف المفصل باجزاء متفقة
 في الوزن والروى مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري
 على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على
 الاستعارة والوصاف فصل عما يخلو من هذه فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا
 المفصل باجزاء متفقة الوزن والروى فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس
 بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده
 بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أبياته الا كذلك ولم يفصل به سئء وقولنا
 الجاري على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجز منه على أساليب العرب
 المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لان الشعر له أساليب
 تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام
 منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير
 ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري
 ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب عند من يرى أن
 الشعر لا يوجد لغيرهم وأما من يرى انه يوجد للعرب وغيرهم من الامم فلا
 يحتاج الى ذلك ويقول مكانه الجاري على الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من
 الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فقول * اعلم أن
 لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أى من جنس شعر
 العرب حتى تنشأ في النفس مائة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر
 النقي الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شاعر من

الفحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذى الرمة وجريز وأبي نواس
وحبيب والبحترى والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الاغاني لانه جمع
شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من
المحفوظ فنظمه قاصر ردىء ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن
قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتساب الشعر أولى بمن
لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة للنسج على المنوال
يقبل على النظم وبلا كثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال ان من شرطه
نسيان ذلك المحفوظ لتحجى رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادرة عن استعمالها
بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كانه منوال يأخذ
بالنسج عليه بامثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستحادة
المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها
وتنشيطها بما لاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جسام ونشاط
فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمن ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا
وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من الوم وفراغ المعدة ونشاط
الفكر وفي هؤلاء الجسام وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن
رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد به هذه الصناعة واعطاء حقها
ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله
فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من
أول صوغه ونسجه ويبني الكلام عليها الى آخره لانه ان غفل عن بناء البيت
على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تحجى نافرة قلقة واذا سمع الخاطر
بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه الى موضعه الا ليق به فان كل بيت مستقل
بنفسه ولم تبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص
منه بالتنقيح والقدر ولا يرضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون

بشعره اذ هو بنات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليجرحها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضا المعقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق أفاضه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت أفاضه طبقا على معانيه او أوفى فان كانت المعاني كثيرة كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عاينها منع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق أفاضه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر أبي بكر بن خناجة شاعر شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيرون شعر المتنبي والمعري بعدم النسيج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضا الحوشى من الالفاظ والمقصر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبعقدا ما يقرب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربايات والنبويات قابل الاجادة في الغالب ولا يحدق فيه الا الفحول وفي القليل على العشر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده في القريحة فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويحذف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لان رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يحجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك

وأظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لقينا
 يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلا للسامعين مينا
 ويرون المحال معنى صحيحا * وخسيس الكلام شيئا نمينا
 يجهلون الصواب منه ولا يد * رون لاجهال أنهم يجهلون
 فهم عند من سوانا يلامو * ن وفي الحق عندنا يعذرونا
 انما الشعر مايناسب في النظ * م وان كان في الصفات فنونا
 فاتي بعضه يشا كل بعضا * وأقامت له الصدور المتونا
 كل معنى أتاك منه على ما * تمنى ولم يكن أو يكونا
 فتساهى من البيان الى أن * كاد حسنا يبين لناظرينا
 فكانت الألفاظ منه وجوه * والمعاني ركبنا فيها عيوننا
 ان مافي المرام حسب الاماني * يتحلى بحسنه المنشدونا
 فاذا مامدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتهينا
 فجعلت النسيب سهلا قريبا * وجعلت المديح صدقا مينا
 وتمايت مايهجن في السه * ع وان كان لفظه موزونا
 واذا ماعرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب المرقبينا
 فجعلت التصريح منه دواء * وجعلت التعريض داء دفيننا
 واذا ما تكيت فيه على العا * دين يوما للسين والظاعينا
 حات دون الاسى وذلت ماكا * ن من الدمع في العيون مصونا
 ثم ان كنت عاتبا جئت بالوء * د وعيدا وبالصعوبة لينا
 فتركت الذي عتبت عليه * حذرا آمنا عزيزا مهينا
 وأصح القريض ما قارب النظ * م وان كان واضحا مستينا
 فاذا قيل أطمع الناس طرا * واذا ريم أعجز المعجزينا

﴿ ومن ذلك أيضا قول بعضهم ﴾

الشعر ما قومت ربيع صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأيت بالاطناب شعب صدوعه * وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده * وجمعت بين حجه ومعينه
وإذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيت بالشكر حق ديونه
أصـفـيته بتفـاش ورضـيته * وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلا في مساق صنوفه * ويكون سهلا في اتفاق فنونه
وإذا نكيت به الديار واهابها * أجريت للمحزون ماء شؤونه
وإذا أردت كناية عن ريبة * باينت بين ظهوره وبطونه
شعاع سامعه يشوب شكوكه * شبوته ووطنونه بيقينه

٤٨ ﴿ فصل في أن صناعة المظم والنثر انما هي في الالفاظ لافي المعاني ﴾

(اعلم) ان صناعة الكلام انما وثرا انما هي في الالفاظ لافي المعاني وانما المعاني
تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول مائة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها
في الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى
تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخاص من العجمة التي ربي عليها في جيبه
ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب وبلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى
يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك اننا قدمنا أن لسان ملكة من الملكات في
النطق يحاول تحصيلها تكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق انما
هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد
وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة وتأليف الكلام
للعبرة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما أن
الوانى التي يغترف بها الماء من البحر منها آية الذهب والفضة والصدف والزجاج
والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الوانى المملوءة بالماء باختلاف

جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ ﴿ فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ

وجودتها بجودة المحفوظ ﴾

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ من يروم تعلم اللسان الربوي وعلى قدر جودة المحفوظ وطيبته في جسمه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للمحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته اجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن الديبة أو ترسل اليبساني أو العماد الاصبهاني لزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدها فبارتقاء المحفوظ في طبقاته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتتم أقوى الملكة بتغذيتها وذلك ان النفس وان كانت في جسامها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج فهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمنا فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعامية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث والانظار والفقهية بمخالطة الفقه ونظير المسائل وتفرعها وتخرج

الفروع على الاصول والتصوفية الربانية بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس
الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع
الى حسه الباطن وروحه وينقاب ربانيا وكذا ساثرها وللنفس في كل واحد
منها لون تتكيف به وعلى حسب منشآت الملكة عاينه من جودة أو رداءة
تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل
بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء واهل العلوم كلهم قاصرين
في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محموظهم ويمتلى به من القوانين العلمية
والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات
عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر
وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية التصور وانحرفت عباراته
عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار
وغيرهم ممن لم يمتلى من حفظ النقي احر من كلام العرب * أخبرني صاحبنا
الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المريمية قال ذاكرت يوما
صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر
باللسان لعهدده فاشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ويوم أسبها له وهو هذا
لم أدر حين وقعت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالى
فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقات له ومن أين لك ذلك قال من قوله
ما الفرق اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقات له
لله أبوك انه ابن النحوي وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في
محفوظهم ومخاطبتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسيد وانتقائهم له الجيد من
الكلام * ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس
من بني الاحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقات له أجد استصعابا
على في نظم الشعر متبرمته مع بصري به وحفظي للعجيد من الكلام من القرآن

والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما اوتيت والله اعلم
من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت
قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب
في الفقه والاصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثير
من قوانين التعليم في المجالس فامتلا محفوظي من ذلك وخدش وجه الملائكة
التي استعدت لها بالمحفوظ الجيد من القراءات والحديث وكلام العرب فعاق
القريحة عن بلوغها فنظر الى ساعة معجبا ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الا
مثلك ويظهر لك من هذا النصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في
ان كلام الاسلاميين من العرب اعلی طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية
في منشورهم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة
وجرير والفرزدق ونصب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبشار ثم كلام الساف
من العرب في الدولة الاموية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسيامهم
ومحاوراتهم للملوك ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم
وزهير وعاقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم
ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة
والسبب في ذلك ان هؤلاء الدين ادركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من
الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلها لكونها ولجت
في قلوبهم ونشأت علي أساليبها نفوسهم فهضت ذبايعهم وارتقت ملكاتهم في
البلاغة على ما كانت من قبلهم من اهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا
نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم وثرهم أحسن ديباجة واصنى رونقا من
اولئك وارصف مبنى واعدل تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأمل
ذلك يشهد لك بهذوقك ان كنت من اهل الذوق والتبصر بالبلاغة ولقد سألت
يوما شيخنا الشريف ابا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة

أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ السابيين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسأته يوماً ما بن العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن يستنكر ذلك ندوة فسكت طويلاً ثم قال لي والله ما أدري فقلت أعرض عليك شيئاً طهرت في ذلك وامله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجباً ثم قال لي يافقيه هذا كلام من حقه ان يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر محلي وبصبح في مجالس التعاليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعنه البيان

٥٠ ﴿ فصل في ترفع أهل التراث عن اتحال الشعر ﴾

(اعلم) ان الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لا يشاهد وعرض كل واحد منهم ديباجته على شول الشأن وأهل مصر لتغيير حوله حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الديباني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطفرة ابن العبد وعاقمة بن عبدة والاعشى من اصحاب المعلقات السبع وغيرهم فانه لما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بمعاقت ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأتاب عليه فرجعوا حينئذ الى دينهم منه وكان لعمر بن ابي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويحيزهم

الخلفاء باعظم الجوائز على نسبة الحودة في اشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء اشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن ايام بني امية وصدرا من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد الاصحى في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية باتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محفوظه منه ثم جاء خاق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من اجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا باشعارهم امراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم الى هلم جرا فصار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين كما ذكرناه آنفاً وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة لأهل المناصب الكيرة والله مقاب الليل والنهار

٥١ ﴿ فصل في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد ﴾

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون ولما فسد لسان مصر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ماخالطها ومازجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضرة اهل الامصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب واكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجليل من العرب لهذا العهد واختلقت هي في نفسها بحسب اصطلاحات اهل

الآفاق فلاهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفا
 أيضا لغة أهل الأندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان
 لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة
 في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا
 حوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جيل وأهل كل
 لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في
 انتحاله ورفض بناءه على مهيب كلامهم فاما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون
 عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعراض على
 ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بلنطولات مشتمة على مذاهب الشعر
 واغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن
 الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم واكثر ابتدائهم في
 قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون قائل امصار المغرب من العرب يسمون
 هذه القصائد بالأصعيات نسبة الى الأصمى راوية العرب في اشعارهم وأهل
 المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما ياحنون فيه
 ألحانا بسيطة لاعلى طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم
 الحوراني نسبة الى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب
 البادية ومساكنهم الى هذا العهد ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون
 به معصبا على اربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويتزومت القافية
 الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شبيها بالربيع والخمس الذي أحده المتأخرون
 من المولدين وهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون
 والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون
 التي لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما نيا عنها لاستهجانها
 وفقدان الاعراب منها وهذا انما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له

ملكة من ماكتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سايما من الآفات في
فطرته ويظره والا فلاعراب لامدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام
لامقصود وللمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب
دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه
فالدلالة بحسب ما يصطاح عليه أهل الماكة فاذا عرف اصطلاح في مائة واشتهر
صحت الدلالة واذا طبقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا
عبارة بقوانين السجدة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه
معدا حركات الاعراب في أواخر الكلام فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز
عندهم الفاعل من المفعول والمنتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب
من أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان ويذكر
ضعفها مع قومها الى العرب

قل الشريف بن هاشم على * ترى كبدى حراشكت من زفيرها
يعز الاعلام اين مارأيت خاطرى * يرد اعلام البدوي باقى عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طراها * عذاب ودائع تائف الله خبيرها
بحسن قطاع عامر ضميرها * طوى وهند حافى ذكيرها
وعدت كما خواراة في يد غاسل * على مثل شوك الملح عقدوا سيرها
تجاندوها اثنين والترزع بينهم * على شول لعه والمعافى جريرها
وبنت دموع العين ذارقات لسانها * شبيه زوار السوانى يديرها
تدارت منها الجمل حذرا ورادها * مروان يحيى متراكبا من صبيرها
لصب من القيعان من جانب الصفا * عيون ولحان البرق فى غديرها
ها بقنى منى سنابات غدوة * بغداد ناحت منى حتى فقيرها
وندى المادى بالرحيل وشددوا * وعرج غارها على مستعيرها
وشد لها الادهم دياب بن غانم * على يد ماضى وليد مقرب ميرها

وقال لهم حسن بن سرحان غريبوا * وسوقوا النجوع ان كان تاهوا أميرها
 ويدلص وسده سها بالتسامح * وباليمين لا يجحدوا في صغيرها
 غدرتي زمان السفح من عابس الوغى * وما كان يرمى من حمير وميرها
 غدرتي وهو زعما صديقي وصاحي * وناليه مامن درمي ما يدبرها
 ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * لخير البلاد المعطشه ما يخبرها
 حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائد له من بعيرها
 فصدق درمي من بلاد ابن هاشم * على الشمس او حول الغطام من خيرها
 وباتت نيران العنذاري قوادح * شروا بجرحان فيبروا أسيرها
 (ومن قولهم في رثاء أمير زنادة أبي سعدى القبرى مقارعهم بافر يقية وأرض الزاب
 ورثاؤهم له على جهة التهكم)

تقول فتاة الحلى سعدى وهاضها * لها في ضعون الباكين عويل
 أباسائي عن قبر الزناتي خائفه * خذ العت منى لا تكون هبيل
 تراء العالى الواردات وفوقه * من الربط عيساوى بناء طويل
 وله يميل الغور من سائر النقا * به الواد شرقا والبراع دليل
 أيالهف كبدى على الزناتي خيمه * قد كان لاعتقاب الجياد سابل
 قتيل فتى الهيجا دياب بن عثم * حراجه ككأفواه المزاد تسيل
 يا جارنا مات الزناتي خيمه * لا ترحل الا أن يريد رحيل
 وبالامس رحلتك ثلاثين مرة * وعسر او ستافى النهار قليل
 (ومن قولهم على لسان السرف بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضى
 ابن مقرب)

تبدى لى ماضى الجياد وقال لى * أيا شكر ما احناشى عايك رضاش
 أيا شكر عدى مابق ود بيتنا * ورانا عريب عربا لابسين نماش
 نحن عدينا فصادفوا ما قضى لنا * كما صادفت طعم الزناد طشاش

باعدنا يا شكر عدى لبر سلامه * لتجد ومن عمر بلاد عاشر
ان كانت بنت سيدهم بأرضهم * هي العرب ماردنا لمن طياش
(ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب وغلبهم زناة عليه)

واي جميل ضاع لي في ابن هاشم * واي جميل ضاع قبلي جميلها
انا كنت انا وياه في زهو بيتنا * عناني لحجه ما عناني دليلها
وعدت كاني شارب من مدامة * من الخمر قهوة ما قدر من جميلها
او مثل شمطامات مضيون كبدها * غربيا وهي مدوخة عن قبيها
انا هازمان السوء حتى ادوخت * وهي بين عرب غافلا عن نزيها
وكذلك انا مما لحاني من الوحي * شاكي بكبد باديا من عليها
أمرت قومي بالرحيل ونكروا * وقووا وشداد الحوايا جميلها
قعدنا سبعة ايام محبوس نجمننا * والبدو ما ترفع عم ود يقيها
تظل على احداث الثنا يا سوارى * يضل الحرف فوق التصاوى نصيها
(ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رباح وأهل
الرياسة فيهم يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الامير أبي زكريا بن حفص أول
ملوك افريقية من الموحدين)

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على اجفان عيني منامها
أيا من لقي حالف الوجد والاسى * وروحا هيامي طال ما في سقامها
حجازية بدوية عربية * عداوية ولها بعيدا حرامها
مولعة بالبدو لا تألف القرى * سواها بل الوعا بوالي خيامها
عمان ومشتهيا بها كل سرية * ممحونة بها وهي صحبح غرامها
ومرباعها عشب الاراضي من الحيا * لواني من الحور الحلايا حسامها
تسوق بسوق العين مما تدارك * عليها من السحب السوارى غمامها
وماذا بكت بلما وما ذا تباحت * عيون عذارى المزن عذابا جامها

كان عروس البكر لاحت نياها * عليها ومن نور الاقاحى حزامها
 فلاة ودهنا واتساع ومنة * ومرعى سوى ما فى مراعى نعامها
 ومشروبها من مخض ألبان شواها * عليهم ومن لحم الحواري طعامها
 تعاتب على الابواب والموقف الذى * يشيب الفتي مما يقامى زحامها
 سقى الله ذا الوادى المشجر بالحيا * وبلا ويحيى ما لى من زمامها
 فكافأتها بالود منى وليتى * ظفرت بأيام مضت فى ركامها
 لىالى أقواس الصبا فى سواعدى * اذاقت لأتخطى من ايدى سهامها
 وفرسى عديدا تحت سرجى مسافة * زمان الصبا سرجا ويدي لجامها
 وكم من رداح أسهرتني ولم أرى * من الخلق أسهى من نظام ابتسامها
 وكم غيرها من كعب مرجحة * مطرزة الاجفان بأهى وشامها
 وصفقت من وجدى عليها طريجة * تكفى ولم ينسى جدها ذمامها
 ونار بخطب الوجد توهج فى الحشا * وتوجج لا يطفأ من الما ضرامها
 أيا من وعدتى الوعد هذا الى متى * فنى العمر فى دار عماني ظلامها
 ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * ويقمى عليها ثم يبرى غمامها
 بنود ورايات من السعد اقبلت * البنا بعون الله يهفو علامها
 أرى فى الفلابعين اطمان عزوتي * ورحى على كتفى وسيرى امامها
 بجرعا عتاق النوق من عود شامس * أحب بلاد الله عندى حشامها
 الى منزل بالجمفرية للىدى * مقيم بها مالد عندى مقامها
 وتلقى سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والفعل عنى سلامها
 بهم تضرب الامثال شرقا ومغربا * اذا قاتلوا قوما سريع انهمزامها
 عليهم ومن هو فى حاهم تحية * من الدهر مانغى بقبة حمامها
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى * ترى الدنيا مادامت لاحد دوامها

(ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبى

الليل يعاتب أقتلهم أولاد مهلهل ويحيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل
عن أبيات نخر عليهم فيها بقومه)

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ * قوارع قيعان يعانى صعاها
يربح بها حادى المصاب اذا انتقى * فنونا من اشام القوافى عرابها
مخبرة مختارة من شادنا * تحدى بها تام الوشا ملتها بها
مغرلة عن ناقد فى غضونهما * محكمة القيعان دابى ودابها
وهيض تذكارى لها ياذوى الذى * قوارع من شبل وهذى جوابها
أشبل جنينا من حباك طرائفا * فراح يربح الموجهين الغناها
خبرت ولم تقصر ولا أمت عام * سوى قلت فى جمهورها ما أعابها
لقولك فى أم المتين بن حمزة * وحامى حماها عديا فى حرابها
أما تعلم انه قامها بعد مالى * رصاص بنى يحيى وعلاق دابها
شهابا من اهل الامرياشبل خارق * وهل ريت من جالوغى واصطلى بها
شواهد طفاها أضرمت بعد طفية * وأنا طفاها حاسر الا اهابها
واصرم بعد الظفيتين التى نحت * نعلما الى بيت الماء يفتدى بها
كما كان هو يطاب على ذا نجبت * رجل بنى كعب الذى يتقى بها
﴿ ومنها فى العتاب ﴾

وليدنا تعاتبتموا أنا أغنى لاني * غنيت بعلاق الثما واغتصابها
على وانا ندفع بها كل مبضع * بالاسياف نتاش العدا من رقابها
فان كانت الاملاك بغت عرايس * عاينا باطراف القنا اختصابها
ولا نقرها الارهاف وذبل * ورزق السبايا والمطايا ركابها
بنى عمنا ماتر تضى الذل علة * تسير كألسنة الحناش انسابها
وهى علما بان المنايا تقيها * بلا شك والدينا سريع انقلابها
﴿ ومنها فى وصف الظمان ﴾

بظمن قطوع اليد لأختشى العدا * فتوق بحربات مخوف جنابها
 ترى العين فيها قل لشبل عرائف * وكل مهاة محتظيها ربابها
 ترى أهلها غب الصباح يفاها * بكل حلوب الجوف ماسد بابها
 لها كل يوم في الارامي قتائل * ورا الفاجر الممزوج غنوا صبابها
 ومن قولهم في الامثال الحكيمية

وطلبك في الممنوع منك سفاهة * وصدك عن صدعك صواب
 اذا ريت ناسا يغلقوا عنك باهم * ظهور المطايا يفتح الله باب
 ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم

فشايب وشباب من اولاد برجم * جميع البرايا تشتكى من ضهادها
 ومن قوله بعاتب اخوانه في موالاته شيخ الموحدين ابي محمد بن تافرا كين المستبد
 بحجابه السلطان بتونس على ساطانها مكفولة ابي اسحق ابن السلطان ابي يحيى
 وذلك فيما قرب من عصرنا

يقول لا جهل فتى الجود خالد * مقالة قوال وقال صواب
 مقالة حيران ندهن ولم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهاب
 تهجست معناها بها لالحاجة * ولا هرج ينقاد منه معاب
 وليت بها كبدي وهي نعم صاحبه * حزينه فكر والحزين يصاب
 تفوهت بادى شرحها عن ما رب * جرت من رجال فى القبيل قراب
 نبي كعب أدنى الاقربين لدننا * نبي عم منهم شايب وشباب
 جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم * مصافاة ود واتساع جناب
 وبعضهم مانا له عن خصيمه * كما يعلموا قولى يقينه صواب
 وبعضهم مرهوب من بعض ملكنا * جزاعا وفي جو الضمير كتاب
 وبعضهم جانا جريحا تسمحت * خواطر منا للتزيل وهاب
 وبعضهموا نظار فينا بسوة * نقهناه حتى مانا به ساب

رجع ينهى مما سفهنا قبيحه * مرارا وفي بعض المراتر يهاب
 وبعضهم شاكي من أوغاد قادر * غلق عنه في أحكام السقائف بان
 فصمناه عنه واقتضى منه مورد * على كره مولى الباتق ودياب
 ونحن على دا في المدا نطلب العلا * لهم ما حططنا للفقور نقاب
 وحزننا حتى وطن بتريس بعدما * نفقنا عليها سبقا ورقاب
 ومهد من الاملاك ما كان خارجا * على احكام والى امر هاله ناب
 بردع قروم من قروم قبيانا * بنى كعب لاواها الغريم وطان
 جرينا بهم عن كل تأليف في العدا * وقتنا لهم عن كل قيد مناب
 الى أن عاد من لا كان فيهم بهمة * ربيها وخيراتاه عايه نصاب
 وركبوا السبايا شمنات من اهاها * ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
 وساقوا المطايا بالثرا لانسواله * جماهير ما يغلو بها بجلال
 وكسبوا من اصناف السعايا ذخائر * ضخمات لحزات الزمان تصار
 وعادوا نظير البرمكين قبل ذا * والا هـ سلالا في زمان دياب
 وكانوا لنا درع الكى مهمة * الى أن بان من نار العدو شهاب
 وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا * ملامه ولا دارى الكرام عتاب
 كسوا الحى جلاباب البهيم لستره * وهم لودر واللبسوا قبيح جباب
 كذلك منهم حابس مادرى النبا * ذهل حامي له ان كان عقله غاب
 يظن ظنونا لبس نحن بأهاها * تمنى يكن له في السماح شعاب
 خطاهو ومن وانه في و ظنه * بلائيات من ظن القبايح عاب
 فواعزوني ان النبي بو محمد * وهوب لا آف بغير حساب
 ويرحت الاوغاد منه ويحسبوا * بروحه ما يحيا بروح سحاب
 جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع * لتسوا كل ما يستأملوه سراب
 وهو لو عطى ما كان لارأى عارف * ولكن في قلة عطاء صواب

وان نحن ما نستأملوا عنه راحة * وانه باسهام التللاف مصاب
وان ما وطارسيس يضياق وسعها * عليه ويمشى بالفزوع كراب
وانه منها عن قريب مفاصل * خنوج عنا زهوا لها وقباب
وعن فائتات الطزف بيض غوانح * ربوا خلف أستار وخلف حجاب
يتبه اذا تاهوا ويصبوا اذا صبوا * بحسن قواسين وصوت رباب
يضاهوه من عدم اليقين وربما * يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حاز له ذمة وطوع أوامر * ولذة ما كول وطيب شراب
حرام على ابن تافرا كين مامضى * من الود الا ما بدل بحراب
وان كان له عقل رجيج وفطنة * يذجج في اليم الغريق غراب
وأما البدا لا بدها من فياعل * كبار الى ان تبقى الرجال كباب
وبحى بها سوق علينا سلاعه * ويحمار موصوف القنا وجماب
ويحى غلام طالب ربح ملكنا * ندوما ولا يمى صحیح بناب
أيا واكلين الخبز تبهوا ادامسه * عاظتوا أدمتوا في السعوم لباب
ومن شعر على بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون
زغبة يما تبني عمه المتطاولين الى رياسته
مخبرة كالدري يد صانع * اذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب مامضى * وشاء تبارك والضعون تسام
غدامنه لام الحى حيين وانشطت * عصاها ولا صبنا عليه حكام
ولكن ضميرى يوم بان به النيا * ترم على شوك القناد برام
والا كأبراص النهامى قوادح * وبين عواج الكانقات ضرام
والا لكان القلب في يد قابض * أتا هم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سما من شقا البين زارنى * اذا كان ينادى بالفراق وخام
ألا ياربوع كان بالامس عامر * بحى وحله والقطين لمام

وغيد تداني للخطافي مـالعب * دجى الليل فيهم ساهم ونيام
 ونعم يشوق الناظرين التحامها * لئلا مابدا من مهرق وكظام
 وعرود باسمها ليدعو لسربها * واظـلاق من سرب المها وانعام
 واليوم ما فيها سوى اليوم حولها * يسوح على اطلال لها وخيام
 وقفنا بها طورا طويلا نسالها * بعين سخيها والدموع سجام
 ولاصح لي منها سوى وحش خاضري * وسقى من أسباب عرت أوهام
 ومن بعد ذا تدي لمنصور بو على * سلام ومن بعد السلام سلام
 وقولوا له يا بوالوقلح را يكم * دخاتم بحورا غامقات دهام
 زواخر ماتنقاس بالعود انما * لها سيلان على الفضا وإكام
 ولا قستموا فيها قياسا بديكم * وليس البحور الطاميات تعام
 وعانوا على هاكاتكم في ورودها * من الناس عدمان العقول لثام
 أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم * قرار ولا دنيا لهم دوام
 الا عناهم لو ترى كيف رأيتهم * مثيل سراب ما هن تمام
 خاوا القنا يبنغون في مرقب العلا * مواضع ما هيأ لهم بمقام
 وحق النبي والبيت وأركانه العبي * ومن زارها في كل دهر وعام
 لبر الليالي فيه ان طالت الحيا * يذوقون من خمخ الكساع مدام
 ولا يرها تبقى البوادي عوا كف * بكل رديني مطرب وحسام
 وكل مسافه كالسداياه عابر * عنهم من أولاد الكرام غلام
 وكل كميث يكتعص عض نابه * يظل يعارع في العنان لجام
 وتحمل بنا الارض العقيمة مدة * وتولدنا من كل ضيق كظام
 بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لها وقت وجنات البدور زحام
 تجحدني وانا عقيده نقودها * وفي سن رحى للحروب علام
 ونحن كاضر اس الموائى بنجمكم * حتى يقاضوا من ديون غرام

مقي كان يوم القحط يامير أبو علي * ياتي سعايا صايرين قدام
 كذلك بوحو الى اليسرا بعته * واخل الجهاد العاليات تسم
 واخل رجالا لايرى "ضم جارهم * ولا يجمعوا بدهي العدو زمام
 الا يقيموها وعقد تؤسهم * وهم عذر عنه دائما ودوام
 وكم نار طعننها على البدو سابق * ما بين صحاصيح وبين حمام
 فتي نار قطار الصوى يومنا على * لنا أرض ترك الظاعنين زمام
 وكم ذا يجيبوا اثرها من غنيمة * حايف الثنا قشاع كل غيام
 وان جاء حافوه الملوك ووسعوا * عدا طبعه يجدي عليه قيام
 عليكم سلام الله من لسن فاهم * ما عنت الورقا وناح حمام
 ومن تشعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت الى أحلافه
 من قيس تغربهم بطلب ناره تقول

تقول فتاة الحى أم — لامة * بعين أراع الله من لارثي لها
 نبيت بطول الليل ما تألف الكرى * موحمة كان الشقا في عجالها
 على ماجرى في دارها وبوعبالها * بلحظة عين البين عبر حالها
 ففدنا شهاب الدين يا قيس كلكم * ونمتو عن أخذ النار ماذا مقالها
 أنا قلت اذا ورد الكتاب يسرى * ويرد من نيران قاني ذبالها
 أنا حين تسرح الذوائب والاحى * ويبض العذارى ما حيتوا جمالها

* الموشحات والازجال الاندلس *

وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت منحاه ووقوته وبلغ
 التمييق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فإمنه سموه بالموشح بنظمونه
 أسباطا أسباطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاربها المختلفة ويسمون المتعدد
 منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافي تلك الاعصان وأوزانها متتاليا فيما بعد
 الى آخر القطعة وأكثر ماتتهى عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على

أغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرئ طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر القريري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المربة وقد ذكر الاعلم البظايوسي انه سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدر تم * شمس ضحا * غصن نقا * مسك شم
ما أتم * ما أوضحا * ما أورقا * ما أنم
لاجرم * من لحا * قد عشقا * قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف * وجاء مصابيا خاتمه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول العود قد ترنم به ببدء تاحين * وسقت المذائب * رياض الساتين وفي انتهائه حيث يقول

نخطر ولا تسلم * عساك المأمون * مروء الكائنات * يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة المثلثين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حابيتهم لاعى الطايطلى ثم يحيى بن تقي وللطايطلى من الموشحات نهضة قوله
ككيف السبيل الى * صبرى وفي انعام أشجان

والركب في وسط الفلا * بالخرد النواعم قد بان
وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من الوحاشين اجتمعوا في مجلس باشيلية وكان كل واحد منهم اصنع موشحة

وتأنيق فيها فتقدم الاعشى الطليطلى للاشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله
 ضاحك عن جان * سافر عن در صاق عنه الزمان * وحواه صدرى
 صرف ابن بقی موشحته وتبعه الباكون وذكر الاعلى البطايوسى أنه سمع ابن زهير
 يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقی حين وقع له
 أماترى أحمد * فى مجده العالى لا يباحق * أظلمه الغرب * فأرنا مثله يامشرق
 وكان فى عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الايض وكان فى عصرهما
 أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة
 أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض
 قيناته موشحته

جرر الذيل أجمأ جر * وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر * لامير العلاء أبى بكر

فلما طرق ذلك التلاحين سمع ابن تيفويت صاح واضرباه وشق نيابه وقال
 ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالأيمان المغاظة لا يمشى ابن باجة الى داره
 الا على الذهب نخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهباً فى نعله ومشى
 عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى فى مجلس أبى بكر بن زهير
 ذكر أبى بكر الايض الوشاح المتقدم الذكر فعرض منه بعض الحاضرين فقال
 كيف تغض من يقول

مالذلى شرب راح * على ريص الاقاج * وولاه ضمير الوشاح

إذا أتى فى الصباح * أوفى الاصيل * أضجى يقول

* مالاشمول * اطمت خدى * والشمال

* هبت فمالى * غصن اعتدال * ضمه بردى

ما اباد القلوبا * يمشى المـتـربـب * بالحظه ردنوبا

وبالماء الشنبيا * برد عليل * صب عليل
 * لا يستحيل * فيه عن عهدى * ولا يزال
 في كل حال * يرجو الوصال * وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة انوحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال
 الحسن بن دويبة رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح

شمس قارت بدرا * راح ونديم

وابن بهرودس الذي له بالية اوصى والسعود * بالله عودي

وابن موهل الذي له ما العيد في حبة وطاق * وشم طيب

وانما العيد في التلاقي * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول
 انه دخل على ابن زهير وقد أسرع وعليه زي البادية اذ كان يسكن بمحصن
 استيه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به الخاس وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه
 موشحة وقع فيها

كل الدجى يجرى * من مفاة الفجر * على الصباح

ومعصم النهر * في حبل خضر * من البطاح

فتمحرك ابن زهير وقال انت تقون هذا قال اخترت قال ومن تكون فعرفه فقال
 ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحياه التي ادركت هؤلاء أبو
 بكر بن زهير وقد شرقت موشحاته وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل
 ابن مالك يقول قيل لابن زهير ثوبيل لك ما أبدع وارفع ما وقع لك في التوشيح
 قال كنت أقول

إمالة موله * من سكره لا يفيق * بالله سكران

من غير خمر * مال الكئيب انشوق * يندب الاوطان

هل تستعاد * أبا مساه الحايج * وليا لينا

أو نستفاد * من النسيم الأريج * مسك دارينا
 وادبيكاد * حسن المكان البهيج * أن يجيئنا
 ونهر ظله * دوح عليه أنيق * مورق فينان
 والماء يجري * وعالم وغريبي * من جنى الريحان

وأشهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله

تفوق بينهم كل حين * بما سبب من يدوعين
 وينشد في التصيد علق ما يبيح علمت رامى * فليس يخل ساع من قتال
 ويعمل بذى العينين منامى * ويعمل فينا بذى النبال

وأشهر معهما يومئذ يفر ناطة المهر بن الفرس قال ابن سعيد وناسم ابن زهير قوله

لله ما كان من يوم بهيج * نهر حص على تلك المروج

ثم انعطفتنا على ثم الخابج * نقص مسك الختام

عن عسجد والمسدام * ورد الأصيل يظويه كف الظلام

قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرداء وكان معه في يده مطرف * أخير ابن سعيد

عن والده أن مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال

ابن الفرس كيف لأقوم لمن يقول

قلوب مصائب * بالحاط تصيب * فقل كيف يبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن جرمون بترسية * ذكر ابن الأرسين أن يحيى الخزر جي دخل عليه

في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشح بموشح حتى

يكون عاريا عن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولى

يا هاجرى هل الى الوصال * مسك سبيل

أو هل ترى عن هواك سالى * قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بفرناطة قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله

ان سبيل الصباح في الشرق * عاد بحرا في اجمع الأفق * فتداعت نوادب الورق

أراها خافت من الفرق * فبكت سحرة على الورق
 واشتهر ناشيابة لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت
 سهل بن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك
 واحسرتا لزمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى * وأفردت بالرغم لا بالرضا
 وبت على جرات الغضى * أعانق بالمكر تلك الطلول * وألثم بالوهم تلك الرسوم
 قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني يشهد الاستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير مامرة
 فما سمعته يقول له لله درك الافي قوله

قسما بالهوى لدى حجر * ملليل المشوق من فجر
 خمد الصبح ليس يطرد * ماليلي فيما أظن غمد * صح ياليل انك الابد
 أو قطعت قوادم النسر * فنجوم السماء لا تسرى
 ومن موشحات ابن صابوني قوله

ما حل صب ذي ضناوا ككتاب * أمرضه يا ويلتاه الطيب
 عامه محبوه ماجتتاب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
 جفا جفوني النوم لكنتي * لم أبكك الا لفقد الخيال
 وذا الوصال اليوم قد غرني * منه كاشا وساء الوصال
 فاست باللائم من صدني * بصورة الحق أو بالمثال
 واشتهر بين أهل المدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة
 يد الصباح قد قدحت * زناد الابوار * في مجامر الزهر

وابن زهر البجائي وله من موشحة نثر الزمان موافق * حياك منه بابتسام
 ومن محاسن الموشحات للمؤخرين موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسيتة
 من بعدها

فمنها قوله هل دري طبي الحمى أن قد حمى * قلب صب حله عن مكس
 فهو في نار وضيق مثل ما * لعبت ربح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس
والمغرب لعصره وقدم ذكره فقال

جادك الغيث اذا الغيث هما * يازمان اوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الاحلاما * في الكرى أو خالسة المختاس
اذ يقول الدهر أسباب المنى * تنقل الخطو على مآرسم
زمرنا بين فرادى وثنى * مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا * فنا الازهار فيه تبسم
رروي النعمان عن ماء السما * كيف يروي مالك عن أس
فكساه الحسن ثوبا معلما * يزدهى منه بأبهى ملابس
في ليالى كتمت سر الهوى * بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى * مستقيم السير سعد الاثر
وطرما فيه من عيب سوى * أنه مر ككلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كا * هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما * أتت فينا عيون الرجس
أى شئ لا مرى قد خلصنا * فيكون الروض قد كمن فيه
تمه الازهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تنقيه
فاذا الماء تناجى والحصا * وخلا كل خايل بأخيه
تبصر السورد غيور ابدا * يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لييا فهما * يسرق الدمع بادنى فرس
بأهيل الحى من وادى الغضى * وبقاى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رجب الفضا * لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قدمضى * تنقذوا عائدكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مفرما * يتلاشى نفسا فى نفس

حبس القاب عليكم كرما * أفترضون خراب الحبس
 وبقاي فيكمو مقترت * باحاديث المني وهو بعيد
 قمر أطلع منه المغرب * شقوة المغري به وهو سعيد
 قد تساوى محسن ومدب * في هواه بين وعد ووعد
 ساحر المقلة معسول الاعمى * جال في النفس مجال النفس
 سدد السهم وسمى ورمى * بهؤادى نهبة المفترس
 ان يكن جار وحاب الامل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
 فهو للنفس حبيب أول * ليس في الحب لمحبوب ذنوب
 أمره معتمدا على مثل * في ضلوع فديراها وقلوب
 حكم الناظر بها فاحتكما * لم يراقب في ضعاف الانفس
 ينصف المظلوم من ظلم * ويجازي البر منها المسمى
 ما اقلبي كما هبت صبا * عاده عيد من الشوق جديد
 كان في اللوح له مكتبا * قوله ان عنداني لشديد
 حب الهم له والوصيا * فهو الاشجان في جهد جهيد
 ذاعج في اضامي قد اصرما * فهي نار في هشيم اليبس
 ذادع من مهجتي الا الذما * كبقاء الصبح بعد الغلس
 سمي بانفس في حكم القضا * واعمرى الوقت برجمي ومتاب
 واتركى ذكرى زمان قدمسى * بين عتي قد تقضت وعتاب
 واصرف في القول الى اولى الرصى * ماهم التوفيق في أم الكتاب
 الكريم المنتهى والمنتى * أسد السرح وبدر المجلس
 ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحي بروح القدس
 وأما مشاركة فالتكلف ظاهر على ما غانوه من الموشحات ومن أحسن موقوف لهم
 في ذلك موشحة ابن سنا الملك المصرى اشهرت شرقا وغربا وأولها

يا حبيبي ارفع حجاب المور * عن العذار

تنظر المسك على الكافور * في جلتار

كللى ياسحب تيجان الربى * بالحلى * واجعلى - وارها من عطف الجدول
ولما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنبق كلامه
وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته
بلغتهم الحضرية من غير ان ياتزموا فيها اعرابا واستحدثوه فناسموه بالزجل
والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد فجاؤا فيه بالغرائب واتسع فيه
للبلابة مجال بحسب لغتهم المستعجمة * وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية
ابوبكر بن قرمان وان كانت قيلت قبله بالاندلس لكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت
معانيها واشهرت رشاقتها الا في زمانه وكان لعهد النائمين وهو امام الزجالين على
الاطلاق قال ابن سعيد ورأيت أزجاله مروية ببغداد اكثر مما رأيتها بحواضر
المغرب قال وسمعت ابا الحسن بن جعفر الاشبيلي امام الزجالين في عصرنا يقول
ما وقع لاحد من أئمة هذا الشأن مثل موقع لابن قرمان شيخ الصناعة وقد خرج
الى منزله مع بعض اصحابه فجاؤا تحت عريش وامامهم تمثال اسد من رخام يصب
الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال

وعريش قد قام على دكان * بحال رواق

وأسد قد ابتلع ثعبان * في غاظ ساق

وفتح فمه بحال انسان * فيه الفواق

وانطلق يجري على الصفاح * ولقى الصباح

وكان ابن قرمان مع انه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد الى اشبيلية ويبيت بنهرها
فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقد ركبوا في النهر للنزهة
ومعهم غلام جميل الصورة من سروات اهل البلد وبيوتهم وكانوا مجتمعين في
زورق للصيد فنظموا في وصف الحبل وبدأ منهم عيسى البايدي فقال

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو * وقد ضمو عشقو بسهما تو

تراه قد حصل مسكين حملاتو * ففلق ولذلك أمر عظيم صاباتو

توحش الجفون الكحل اذا عاتو * وذيك الجفون الكحل ابلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الاشيلي

نشب والهوى من لـج فيه ينشب * ترى اش كان دعاه يشقى ويتعذب

مع العشق قام في ما لو يلعب * وخلق كثير من ذا اللعب ماتو

ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني

نهار مليح تعجبني أوصافو * شراب وملاح من حولي طافو

والمعلمين يقولوا بصفاؤو * والمورى أحرى بمقالاتو

ثم قال أبو بكر بن مرتين

الحق يريد حديث تعالى عاد * فى الواد الحمير والمنزه والصاد

تنبه حيتان ذلك الذى يصطاد * قلوب الورى هى فى شبيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قرمان

اذا شمرا كامو يرمبها * ترى النور يرشق لذيك الجبها

وليس مراد وان يقع فيها * الا ان يقبل بديداتو

وكان فى عصرهم بشرق الاندلس محلف الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله

قد كنت مشبوب واختشيت الشيب * وردتني ذا العشق لامر صعب

يقول فيه

حين تنظر الخلد الشريف البهى * تنتهى فى الحمره الى ما تنتهى

يا طالب الكيمياء فى عينى هى * تنظر بها الفضة ترجع ذهب

وجاءت بعدهم حابة كان ساقها مدغيس وقمت له العجائب فى هذه الطريقة فمن

قوله فى زجله المشهور

ورذاذ دق ينزل * وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض * وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر * والفصون ترقص وتطرب
وتريد تجسى اليـنا * ثم تستحى وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله

لاح الضيا والنجوم حيارى * فقم بنا نزع الكسل * شربت ممزوجا من قراعا
احلى هي عندي من العسل * يامن يلمنى كما تقلد * قللك الله بما تقول
يقول بان الذنوب مولد * وانه يفسد العقول * لارض الحجاز يكون لك ارشد
اش ماساقك لذى الفضول * مرانت للحج والزيارا * ودعنى فى الشرب منهمل
من ليس لوقدره ولا استطاعا * النية ابلغ من العمل
وظهر بعد هؤلاء باشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجالين فى فتح منورقة
بالزجل الذى اوله هذا

من عاند التوحيد بالسيف يحق * أنا برى ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه الممعع صاحب الزجل المشهور الذى اوله

يا ليتنى ان رأيت حبيبي * أقبل اذنو بالرسـيلا

ليش آخذ عنق الغزيرى * وأسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الادب ثم من بعدهم لهذه العصور
صاحبنا الوزير ابو عبد الله بن الخطيب امام النظم والتر فى الملة الاسلامية من
غير مدافع فمن محاسنه فى هذه الطريقة

امزج الاكواس واملا لى تجدد * ما خلق المال الا ان ييسد

ومن قوله على طريقة الصوفية ويخو منحى الشترى منهم

بين طلوع ونزول * اختلطت العزول * ومضى من لم يكن * وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضا قوله فى ذلك المعنى

انبعد عنك يابنى * أعظم مصابى * وحين حصل لى قربك * نسيت قرابى

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظم من اهل وادى
آش وكان اماما في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله
* لاح الضيا والنجوم حيارى * بقوله

حل المجون يا اهل الشطارا * مذحات الشمس بالحمل
جددوا كل يوم خلاعا * لا تجعلوا اسمها يمس
اليها يتخلعوا في سبيل * على خضورة ذلك النبات
وصل بغداد واجتياز النيل * أحسن عندي من ذيك الجهات
وطاقتها اصاح من اربعين ميل * ان مرت الريح عليه وجات
لم يلتق الغبار امارا * ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولا فيه موضع رقعا * الا ويسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجاجية لهذا المهدى فن العامة بالاندلس مر الشعر وفيها
نظمهم حتى انهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بانظمهم العامة
ويسمونه الشعر الزجاجي مثل قول شاعرهم

لى دهر بعشق جفونك وسنين * وانت لاشفقه ولا قلب باين
حتى ترى قلبي من اجلك كيف رجوع * صنعة السكك ما بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تتهب * والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو * وانت تغزو في قلوب العاشقين

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لاول هذه المائة الاديب أبو عبد الله الألوسى
وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الاحمر

ظل الصباح قم يانديمي نشربو * ونضحكو من بعد ما نظربو
سبيكة النجر أحات شفقنا * فى ميلق الليل قوم قابو
ترى غبار خالص ابيض نقى * فضه هو لكن الشفق ذهبو
وسقو سكتو عند البشر * نور الحفون من نورها تكسبو

فهو النهار يا صاحبي للمعاش * عيش الفتي فيه بالله ما أطيبو
 والليل نصا للقبل والعناق * على سرير الوصل يتقابو
 جاد الزمان من بعد ما كان بخيل * واش كفايته من يريه عقربو
 كما جرع مر وفيما قد مضى * يشرب سواه ويأكل طيبو
 قال الرقيب يا أدبا لاش ذ * في الشرب والعشق ترى تمنجبو
 وتعجبو عدالي من ذا الخبر * قلت يا قوم مما تتعجبوا
 يعشق ملبح الارقيق الطباع * علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
 ليس يربح الحس الا شاعر أديب * يفض بكرو ويدع ثيبو
 اما الكاس حرام نعم هو حرام * على الذي ما يدري كيف يشربو
 ويد الذي بحسب حسابه ولم * يقدر يحسن الفاظ ان يجلبو
 واهل العقل والسكر والمجون * يغفر ذنوبهم لهذا ان اذنبوا
 طي بهي فيها يطفي الجمر * وقلبي في جمر الغضى يلهبو
 عزال بهي ينظر قاوب الاسود * وما لهم قبل المظر يذهبو
 ثم يحبيهم اذا ابتسم يضحكوا * ويفرحوا من بعد ما يندبوا
 فويم كالخاتم وتغمر اقي * خطيب الامه للقبل يخطبو
 جوهر ومرجان أي عقديا فلان * قد صففه الناظم ولم يشقبو
 وشارب أخضر يريد لاش يريد * من شبهه بالمسك قد عيبو
 يسبل دلال مثل جناح الغراب * لبالي هجري منه يستغربو
 على بدن أبيض بلون الحليب * ما قط راعي للغمم يجلبو
 وزوج هندات ما علمت قبلها * ديك الصلاياريت ما أصلبو
 تحت العكاكن منها خصر رقيق * من رقتو يخفي اذا تطلبو
 أرق هو من ديني فما تقول * جديد عتيك حق ما أكذبو
 أي دين بقالي معاك وأي عقل * من يتبعك من ذا وذا تسلبو

تحمل أرداف ثقال كالرقيب * حين ينظر العاشق وحين يرقبو
 ان لم يتفس غدر أو ينقشع * في طرف دبسا والبشر تطلبو
 يصير اليك المكان حين تحبى * وحين تغيب ترجع في عيني تبو
 محاسنك مثل خصال الامير * أو الزمل من هو الذي يحسبو
 عماد الامصار وفصبح العرب * من فصاحة لفظه يتقربوا
 بحمل العلم انفراد والعمل * ومع بديع الشعر ما أكتبو
 ففي الصدور بالريح ما أطمئه * وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
 من السماء يحسد في اربع صفات * فمن يعد قاسي أو يحسبو
 الشمس نور والقمر همتو * والنبيث جود والنجوم منصبو
 يركب جوادا لجود ويطلق عنان * الاغنيا والجند حين يركبو
 من خلعتو يلبس كل يوم بطيب * منه نبات المعالي تطيبو
 نعمتو تظهر على كل من يحبه * قاصد ووارد قط ما خيبو
 فدأظهر الحق وكان في حجاب * لاش يقدر الباطل بعد ما يحجبو
 وقد بنى بالسر ركن التقى * من بعد ما كان الزمان خربو
 تخاف حين تاقاه كاتر نجيه * مع سباحة وجهو ما أسيدو
 يلتقي الحروب ضاحك وهي عابسه * غلاب هو لاشي في الدنيا يغابو
 اذا جبد سيفه ما بين الردود * فليس شئ يغنى من يضربو
 وهو سمي المصطفى والاله * لاسلطنه اختار واستنخبو
 تراء خاينة امير المؤمنين * يقود جيوشو ويزين موكبو
 لذي الامارة تخضع الرؤس * نعم وفي تقبيل يديه برغبو
 بيته يتقى بدور الزمان * يطلعوا في المجد لا يفربوا
 وفي المعالي والشرف يبعدوا * وفي التواضع والحيا يقربوا
 والله يبتقيهم ما دار الفلك * وأشرقت شمسه ولاح كوكبو

وما تغني ذا القصيد في عروض * يا شمس خدر ما لها مغربو
ثم استحدثت أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة
كل موشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد وكان أول من
استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ف نظم قطعة
على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب مطلعها

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام * على الغصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر بمحو مداد الظلام * وماء الندى يجري بشفر الأقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتراق * سر الجواهر في محور الجوار
ودمع النواعر ينهرق انهرق * يحاكي ثعابين حلقمت بالثمار
ليوا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدى الندى تحرق جيوب الكمال * ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلبي بمسك الغمام * وجر النسيم ذيلو عليها وقاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيبي * قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذلك المستهام الغريب * فدالتف من توبو الجديد في ردا
ولكن بما أحرر وساقو خضيب * ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الانصان جاسة المستهام * جناحا توسد والتوى في جناح
وصار بشتكي ما في القواد من غرام * منها ضم منقاره لصدرة وصاح
فقلت يا حمام أحرر عيني الهجوع * أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع * بلا دمع تبقى طول حياتي سوح
على فرخ طار لي لم يكن لورجوع * ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كنا هو الوفاء كنا هو الرمان * انظر جنفون صارت بحال الجراح
وأنتم من بكي منكم اذا تم عام * يقول عناني ذا البكا والنسواح
قات يا حمام لو خضت بحر الضني * كبت تبكي وترني لي بدمع هتون

ولو كان بقايتك مابقي أنا * ما كان يصير تحتك فروع الغصون
 اليوم أقاسى الهجر لكم من سا * حتى لا يبيل جملة ترانى العيون
 ومما كسا جسمى النحول والسقام * جفانى نحولى عن عيون اللواح
 لو جتنى المنايا كان يموت فى المقام * ومن مات بعد ياقوم لقد استراح
 قال لى لورقدت لاوراق الرياض * من خوفى عليه ود النفوس للفؤاد
 ونخضبت من دمعى وذاك البياض * طوق العهد فى عنقى ليوم التناد
 أما طرف منقارى حديثوا استفاض * باطراف البلد والجسم صار فى الرماد
 فاستحسنه أهل قاس وولعوا به وظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس
 من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا الى المزدوج
 والكارى والملمبة والغزل واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم
 فيها فن المزدوج ماقاله ان شجاع من خولهم وهو من أهل تازا
 المال زينة الدنيا وعز النفوس * يبهى وجوها ليس هى باهيا
 فها كل من هو كثير الفاوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
 يكبر من كثر ملو ولو كان صغير * ويصغر عزيز القوم اذا يفتقر
 من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير * يكاد ينقع لولا الرجوع للقدر
 حتى يلتجى من هوى قومو كبير * لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
 لذا ينبغى يحزن على ذى العكوس * ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا
 اللى صارت الاذنان أمام الرؤس * وصار يستفيد الواد من الساقيا
 ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان * ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
 اللى صار فلان يصبح بو فلان * ولو ريت كيف يرد الجواب
 عشنا والسلام حتى راينا عيان * انفاش السلاطين فى جلود الكلاب
 كبار النفوس جدا ضعف الاسوس * هم ناحيا والمجد فى ناحيا
 يروا أنهم والناس يروهم نيوس * وجوه البلد والعمدة الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته
 تعب من تعب قلبو ملاح ذا الزمان * اهل يافلان لا يابح الحسن فيك
 مامنهم مليح عاهد الاوخان * قابل من عايه تحبس ويحبس عليك
 يهبوا على العشاق ويتمنعوا * ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
 وان واصلوا من حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خنوا على كل حال
 مليح كان هو يتو وشت قلبي معو * وصيرت من خدى لقدمو نعال
 ومهدت لو من وسط قلبي مكان * وقات لقاى اكرم لمن حل فيك
 وهون عليك ما بعتريك من هوان * فلا بد من هول الهوى بعتريك
 حكمتو على وارتضيت بو امير * فلو كان برى حالى اذا يبصرو
 يرجع مثل در حولى بوجه الغدير * مرديه ويتعطس بحال انحروا
 وتعلمت من ساعا بسبق الضمير * ويفهم مراد وقبل ان يذكرو
 ويحتل في مطلوبو ولو ان كان * عصر فى الربيع اوفى الليالى يريك
 ويمشى سوقو ولو كان بأصبهان * وايش ما يقل يحتاج يقل لو يحيك
 حتى أتى على آخرها وكان منهم على بن المؤذن سامان وكان لهذه العصور القربية
 من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف ابداع في مذاهب
 هذا الفن ومن احسن ما علق له بمحفوظى قوله فى رحلة السلطان ابى الحسن
 وبنى مرين الى افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان ويعزبهم عنها ويؤنسهم بما وقع
 لغيرهم بعد ان عيهم على غزاتهم الى افريقية فى ملعبة من قون هذه الطريقة
 يقول فى مفتتحها وهو من ابداع مذاهب البلاغة فى الاشعار بالمقصد فى مطلع
 الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستملال

سبحان مالك خواطر الامرا * ونواصيها فى كل حين وزمان

ان طعناه عطفهم لنا قسرا * وان عصينا عاقب نكل هوان

الى ان يقول فى السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص

كن مرعى قل ولا تكن داعى * فالراعى عن رعيته مسؤول
 واستفتح بالصلاة على الداعى * للاسلام والرضا السنى الكمول
 على الخلفاء الراشدين والاتباع * واذكر بعمدهم اذا تحب وقول
 أحجاجا تحملاوا الصحرا * ودوا سرح البلاد مع سكان
 عسكر فاس الميره الغبرا * وين سارت بو عزائم السلطان
 احجاج بالنبي الذى زرتهم * وقطعتم لو كلاك اليبدا
 عن جيش الغرب حين يسألکم * المنلوف فى فريقيا السودا
 ومن كان بالعطايا يزودکم * ويدع بربة الحجاز رغدا
 قام قل لاسد صادف الجزرا * ويمجز شوط بعد ما يخفان
 ويزف كردوم وذهب فى الغبرا * أى ما زاد غزالهم سمحان
 لو كانت ماين تونس الغبرا * وبلاد الغرب سد السكندر
 مبنى من شرقها الى غربا * طبقا بحديدا وثانيا بصفر
 لا بد للطير أن تجيب نبا * أو يأتى الريح عنهم بفرد خبر
 ما أعوصها من أمور وما ترى * لو تقرا كل يوم على الديوان
 لجرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت العزلان
 أدلى بمقلك الفحاص * وتفبكرلى بخاطرک جمعا
 ان كان تعلم حمام ولا رقص * عن السلطان شهر وقبله سبعا
 تظهر عند المهيمن القصاص * وعلامات تنشر على الصمعا
 ألا قوم عارين فلا سترًا * مجهولين لامكان ولا امكان
 ما يدريوا كيف يصوروا كسرى * وكيف دخلوا مدينة القيروان
 أمولای أبو الحسن خطينا الباب * قضية سيرنا الى تونس
 فقنا كنا على الجريد والزاب * واشلك فى اعراب افريقا القويس
 ما بانك من عمر فتى الخطاب * الفاروق فاتح القرى المولس

ملك الشام والحجاز وتاج كسرى * وفتح من أفريقيا و= ان
 رد ولدت لو ككرة ذكري * ونقل فيها تفرق الاخوان
 هذا الفاروق مردى الاعوان * صرح في أفريقيا بذا التصريح
 وبقت حسي الى زمن عمان * وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
 لمن دخات غنائمها الديوان * مات عمان وانقاب علينا الريح
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا * وبقي ماهو للسكوت عنوان
 اذا كان ذا في مدة البرا * اش نعمل في أواخر الازمان
 وأصحاب الحضرة في مكاساتا * وفي تاريخ كائنا وكبوانا
 نذكر في صحتها أبياتا * شق وسطيح وابن مرانا
 ان مرين اذا انكف برائنا * لجدا وتونس قد سقط بنيانا
 قد ذكرنا مقال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
 قال لي رأيت وأنا بدا أدري * لكن اذا جاء القدر عميت الاعيان
 وبقول لك ماد هي المرييا * من حضرة فاس الى عرب دياب
 أراد المولى بموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب
 ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه الى آخر رحلته ومنتهى أمره مع أعراب
 افريقية وأتى فيها بكل غريبة من الابداع واما اهل تونس فاستحدثوا في الملاعبة
 أيضا على لغتهم الحضرية الا ان أكثره ردىء ولم يعاق بمحفوظي منه شيء لرداءته
 وكان لعامة بغداد أيضا فن من الشعر يسمونه المواليات وتحتته فنون كثيرة
 يسمون منها القوما وكان وكان ومنه مفرد ومنه في ياتين ويسمونه دويت على
 الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها وغالبها مزدوجة من أربعة اغصان
 وتبعهم في ذلك اهل مصر القاهرة واتوا فيها بالغرائب وتبحروا في اساليب
 البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالمعجائب ومن اعجب ما علق بمحفظي منه
 قول شاعرهم

هذا جرى حتى طريا * والدماء تنضح وقائل يا أخيا * في الفلا يرح
قالوا وناخذ ببارك * قلت ذا أقبسح

﴿ وغيرة ﴾

طرقت باب الخبا قالت من الطارق * فقلت مفتون لاناهب ولا سارق
تسمت لاح لي من نغرها بارق * رجعت حيران في بحر آدمي غارق

﴿ وغيرة ﴾

عهدي بها وهي لا تأمن على البين * وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعنى لها غيري غايم زين * ذكرتها المهد قالت لك على دين
﴿ وغيرة في وصف الحشيش ﴾

دي حمر صرف التي عهدي بها باقى * تغنى عن الحمر والخمر والساقى
حبا ومن حباها تعمل على احراقى * خبيتها في الحشى طلت من احداق

﴿ وغيرة ﴾

يامن وصالو لاطفال الحبه بح * كم توجع القاب بالهجران اواه
اودعت قلمي حوحو والتصبر بح * كل الورى كتح في عيني وشخصك دح

﴿ وغيرة ﴾

باديتها ومشيبي قد طواني طى * جودى على بقبلة في الهوى يامى
قالت وقد لى كوت داخل فؤادى كى * ما هكذا القطن يحشى فم من هوى

﴿ وغيرة ﴾

رأنى اباسم سبقت سحب ادمى برقه * ما ط اللثام تبسدى بدر فى شرقه
أسبل دجى الشعر تاه القاب فى طرفه * رجع هدانا بنحيط الصبح من فرقه

﴿ وغيرة ﴾

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر * وقف على منزل احبابى قبيل الفجر
وصبح فى حبهم يامن يريد الاجر * ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

﴿ ولغيره ﴾

عيني التي كنت أراكم بها بانت * ترعى النجوم وبالتسبيد اقتانت
واسم البين صابتي ولا فانت * وسلوتي عظم الله اجركم مانت

﴿ ولغيره ﴾

هويت في قنطرة تكم ياملاح الحكر * غزال يبلى الاشود الضار يانالبكر
غصن اذا ما شئني سبي البنات البكر * وان تهلل فما للبدر عندو ذكر

﴿ ومن الذي يسمونه دويت ﴾

قد اقسم من احبه بالباري * ان يبعث طيفه مع الاسحار
يانار اشواقى به فاتقدى * ليلا عساه يهتدى بالنار

واعلم أن الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر
استعماله لها ومخاطبته بين اجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية
فلا الاندلسي بالبلاغة التي في شعر اهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر
اهل الاندلس والمشرق ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر اهل الاندلس والمغرب
لان اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته
وذائق محاسن الشعر من اهل جلدته وفي خاق السموات والارض واختلاف
السننكم والوانكم آيات وقد كدنا ان نخرج عن الغرض وعزمنا ان نقبض العنان
عن القول في هذا الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه وقد
استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيد الله ففكر
صحيح وعلم مبين يفوس من مسائله على اكثر مما كتبنا فليس على مستنبط
الفن احصاء مسائله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه
والتأخرون يلحقون المسائل من بعده شياً فشيأ الى أن يكمل والله يعلم وانتم
لانعلمون

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهديب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

﴿ يقول مصححه الراجي عفو ربه الكريم ابن الشيخ حسن الفيومي ابراهيم ﴾

نحمدك اللهم أن جنست بتجنيس بديع حكمتك أصناف المخلوقات * وذلت الارض وجعلت السموات واختلاف الليل والنهار والالسن والالوان للعالمين آيات * ونصلي ونسلم على قطب فلك الموجودات * سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين نالوا بمعيتة أنحر الهبات * آمين * وبعد * فقد تم طبع مقدمة العلامة ابن خلدون * ولعمري انها معتمد الملوك والامراء وأرباب السياسات والاخلاق والاعادات بل وجميع الفنون * فهي جديرة أن يتسابق في طبعها ونشرها بين طلابها أولو الهمم العوال * وقد انتدب لذلك (حضرة حسين افندي شرف الشهر) وانفق من ماله النفيس الغال * لينال الاجر الجزيل * من الله الكريم الجليل * وذلك بمطبعته العامرة * الزاهية الزاهرة * الثابت محل ادارتها

شارع خرنفش مصر المحمية * وقد وافق انتهاء الطبع او اخر

رجب الفرد عام ١٣٢٧ من هجرة خير البرية

عليه الصلاة والسلام وآله الفر

الكرام وصحابة الاعلاء

مادامت الدهور

والاعوام

آمين